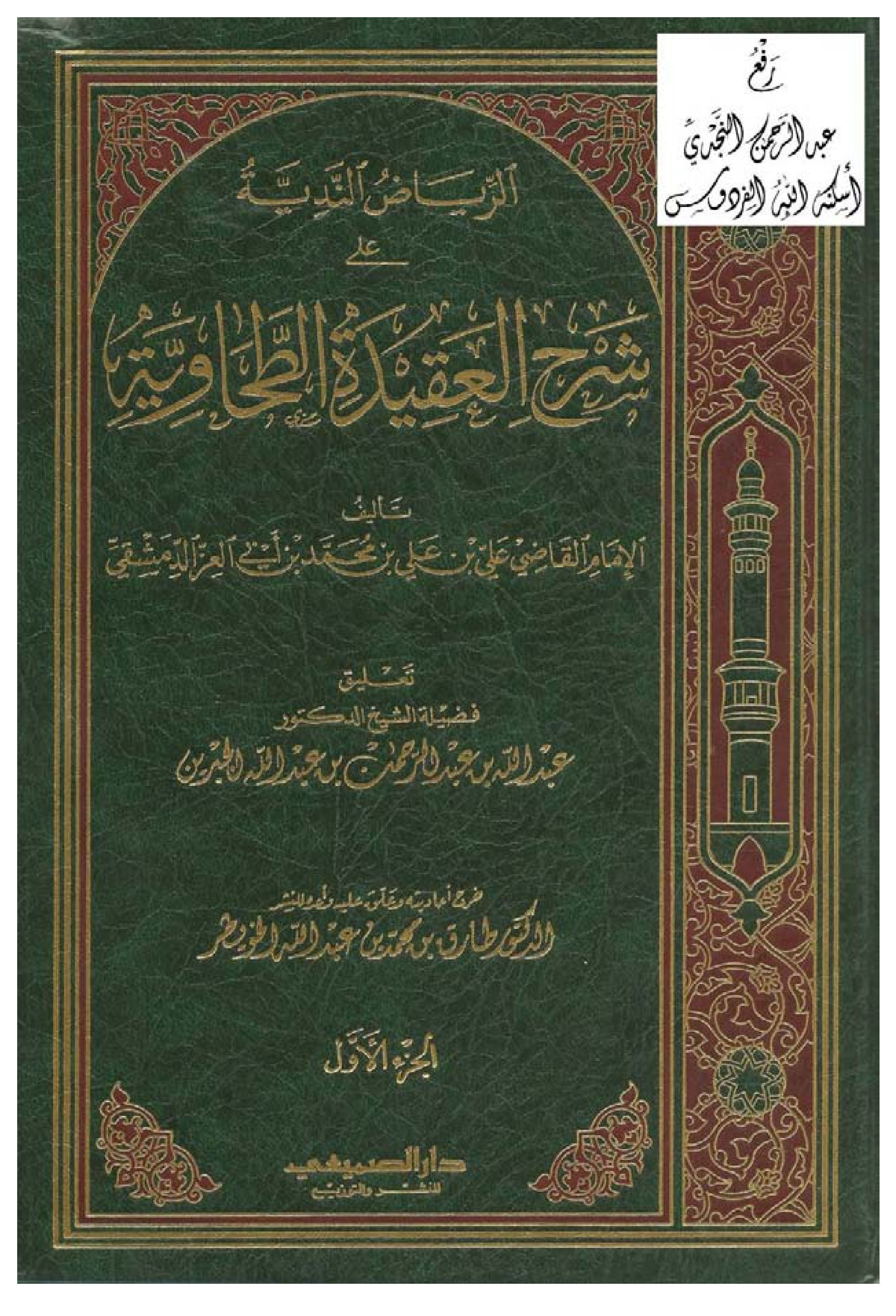

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
الرياض الندية
على
شرح العقيدة الطحاوية
تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي
تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين
خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر
الجزء الأول
دار الصميعي
للنشر والتوزيع

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الرياض الندية على شرح العقيدة الطحاوية

تأليف
الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر
الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

الجزء الأول

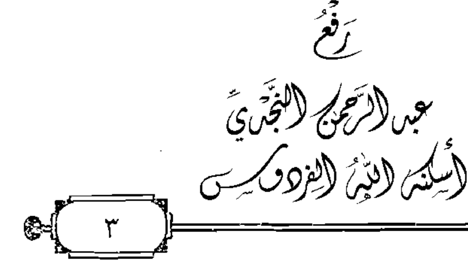
دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨



مقدمة الدكتور
طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلا يخفى على المسلم ما للعلم من فضل، وما للعلماء من مكانة، فهم خلفاء الله في عباده بعد الرسل، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة يُعرف بها فضلُ العلم وأجره، وشموخ أهله، ورفعة طلابه، من ذلك: قول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، قال ابن كثير: «أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم، المتضلعون فيه»(١). وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة:١١]، وقوله ـ جل شأنه ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر:٢٨].

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٤).

قال ابن كثير: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[١].

وأما من السنة فأحاديث كثيرة، منها حديث معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[٢].

وحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ»[٣].

وحديث أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فَضْلُ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِي على أَدْنَاكُمْ»، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السمٰوات وَالْأَرَضِينَ، حتى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ الناس الخَيْرَ»[٤].

وما رواه أبو الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فيه عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا من طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ له من في السمٰوات وَمَنْ في الأرض وَالْحِيتَانُ في جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ على سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، وإذا عرف المسلم فضل العلم والعلماء، وعظم منزلتهم، وسمو مكانتهم، أدرك خطورة فقدهم، وخلو المجتمع منهم، فإن العلم يُنْتَقص بموت العلماء، وبذلك جاء الحديث الصحيح، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ من الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حتى إذا لم يبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[2].

قال النووي: «هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلماء في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه، ولكن معناه أن يموت حملته، ويتخذ الناس جهالًا يحكمون بجهالاتهم، فيضلون ويضلون»[3].

وقد أوصى النبي ﷺ بالأخذ من العلم قبل أن يُرفع، وذلك فيما رواه

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٢٣).

أبو الدرداء ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إلى السَّماءِ، ثُمَّ قال: «هذا أوانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ من الناس حَتَّى لَا يَقْدِرُوا منه على شَيْءٍ»، فقال زِيَادُ ابن لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وقد قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زِيَادُ، إن كنت لَأَعُدُّكَ من فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هذه التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟»[1].

وفيما رواه أبو أمامة ﷺ قال: لَمَّا كان في حَجَّةِ الْوَدَاعِ قام رسول اللَّهِ ﷺ وهو يَوْمَئِذٍ مُرْدِفٌ الْفَضْلَ بن عَبَّاسٍ على جَمَلٍ آدَمَ، فقال: «يا أَيُّهَا الناس خُذُوا مِنَ الْعِلْمِ قبل أن يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَقَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ»، وقد كان أَنْزَلَ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]، قال: فَكُنَّا نَذْكرها كَثِيرًا فَتَمْنَعُنَا مِنْ مَسْأَلَتِهِ، وَاتَّقَيْنَا ذَاكَ حين أَنْزَلَ الله على نَبِيِّهِ ﷺ، قال: فَأَتَيْنَا أَعْرَابِيًّا فَرَشَوْنَاهُ بِرِدَاءٍ، قال: فَاعْتَمَّ بِهِ حتى رأيت حَاشِيَةَ الْبُرْدِ خَارِجَةً من حَاجِبِهِ الأَيْمَنِ، قال: ثُمَّ قُلْنَا له سَلِ النبي ﷺ، قال: فقال له: يا نبي اللَّهِ كَيْفَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ مِنَّا وَبَيْنَ أَظْهُرِنَا الْمَصَاحِفُ، وقد تَعَلَّمْنَا ما فيها وَعَلَّمْنَاهَا نِسَاءَنَا وَذَرَارِيَّنَا وَخَدَمَنَا؟ قال: فَرَفَعَ النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وأحمد (٤/ ١٦٠)، (٦/ ٢٦).

رَأْسَهُ وقد عَلَتْ وَجْهَهُ حُمْرَةٌ مِنَ الْغَضَبِ، قال: فقال: «أي ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بين أَظْهُرِهِمُ الْمَصَاحِفُ لم يُصْبِحُوا يَتَعَلَّقُوا بِحَرْفٍ مِمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ، ألا وإِنَّ من ذَهَابِ الْعِلْمِ أن يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ»، ثَلَاثَ مِرَارٍ[1].

وفي هذا رد على من زعم أن وجود الكتب يغني عن العلماء، وأن موت العلماء ليس بتلك المصيبة؛ لأنه -كما يتوهم- يستطيع أن يبين الحكم، ويستنبط المسائل، ويرجع عن طريق الكتب.

قال ابن حجر: «وفي حديث أبي أمامة من الفائدة الزائدة أن بقاء الكتب بعد رفع العلم بموت العلماء لا يغني من ليس بعالم شيئًا»[2].

إن أمة بلا علماء هي أمة حائرة، يُخَافُ عليها الضلالُ، ويُنْتَظرُ فيها الشقاءُ والفناءُ.

وأدم البكاء على أناس لا يرون للعلماء حقًا، ولا يقيمون لأقوالهم وزنًا، فكيف يطلبون السعادة والهناء، فالهم لا يزال ضجيعهم، والأسف أليفهم.

إن فقد العلماء مصيبة عظيمة، تكوي القلوب، وتضرم الجوانح، وتسعّر الأجساد، وتقطع الأجلاد، وتفتّت الأكباد، وإذا ما خلت بلادٌ منهم،

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٧٨٦٧).

(٢) فتح الباري (١٤/ ٢٨٦).

حسبتها خاوية من كل شيء، ما بها صافر ولا زافر ولا أنيس، ولا عين تطرف، ولا جفن يذرف.

والأمة بأكملها حمّلت العلماء ثقلًا يؤودهم، وجسمتهم أمرًا يكدهم، وكلفتهم شيئًا ينوء بهم، فإذا ذهبوا فمن يحمل هذا العبء؟ ومن يطيق هذا الثقل؟

وإذا أصاب الأمة أزمة طامّة، وملمّة صاخّة، أو أثَارَ حاقدٌ نقع الفتنة، واقتدح نارها، واستفتح بابها، وثور رهجها، اشرأبت أعناق الناس نحو العلماء، ترقب مواقفهم، فلهم القدح المعلىٰ في هذا السبيل، تأمل منهم موقف القوة والعز والصدق، وحق لهم ذلك، فللعلماء الصادقين مواقف مشرّفة، وبطولات عظيمة على مدى التاريخ، سطّرتها كتب السير والمفاخر، وحفظها كل مسلم يعتز بدينه وعلمائه، ومع أمل الأمة ويقينها، تأتي أنفس العلماء الصادقة المشمخرة، سلاحها الإيمان بالله، وعتادها الإخلاص والصدق والعلم، وغايتها العزة في الدارين، وكلمة جهرها لا سرها: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، لا تريد مالًا ولا جاهًا، ولا تلقي لأوساخ الدنيا بالًا، همّها عزّ الأمة ونجاتها، فيكشف الله بهم هبوات المحن، ومائرات الفتن، وأزمات الزمن، فيزول الخوف والوجل، ويتصل الأمن والدعة، ويعود البال في رخاء، والأمر في غاية الاستواء.

إن طريق العلم طويل وشاق، قل من سلكه وتحمل أعباءه، ولذا فمن

كانت نيته صالحة، ونفسه كبيرة، قدر على الاستمرار فيه، متعبًا بذلك جسمه ونفسه، مواصلًا ليله بنهاره.

وإذا كانَـتَ النُّفُـوسُ كِبـارًا تَعِبَـتْ في مُرادِهـا الأجْسـامُ

ومن أعطى العلم كله أعطاه العلم بعضه، ومما يحزن النفس، ويدمي الفؤاد، أن يفوت هذا الفهم على العاقل، فيعتقد أن العلم يُنال في وقت قصير، وهمة متواضعة، وقراءة قليلة، في أوقات الفراغ القصيرة المتناثرة، وهو مع هذا غير مقتنع بمطالعة أمّات الكتب، زاهدًا في حضور مجالس العلماء، فهذا وأمثاله قصدهم الشاعر بقوله:

تَمَنَّيْتَ أَنْ تُمْسِي فَقِيهًا مُنَاظِرًا بِغَيْرِ عَنَاءٍ وَالْجُنُونُ فُنُونُ
وَلَيْسَ اكْتِسَابُ المَالِ دُونَ مَشَقَّةٍ تَلَقَّيْتَهَا فَالْعِلْمُ كَيْفَ يَكُونُ

إن المستمع للعلماء لا يمل حديثهم، ولا يسأم مجالسهم، فكلامهم أريٌ مشفى، وعسل مصفّى، أنيق النواحي، رقيق الحواشي، عذب المذاق، سلس على التراق، يتحدر على الأفهام تحدر الزلال على حر الأوام، يدب في الأفهام دبيب الصحة في دنف الأسقام.

وهذه البلاد - بحمد الله - منذ ظهور دعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ومناصرة الإمام محمد بن سعود له، حفلت بالعلماء الربانيين؛ إذ كانت دعوة مباركة، تميزت عن غيرها بدعم ولاة الأمر لها، فاجتمع على نصرتها العلماء والأمراء، فكتب الله لها بفضله القبول والانتشار

والاستمرار، وها هي ذي دعوتهم الصافية، ترفرف في بلاد كثيرة، نورها ساطع يتشعشع، وطيبها عاطر يتضوع.

ومنذ ذلك الوقت والعلماء فيها يبذلون أوقاتهم وأنفسهم، نصرة للعقيدة السلفية الصحيحة، فأرسلوا الدعاة إلى بلادٍ كثيرة، حتى تبددت سحب البدع والخرافات، واستقبلوا الدارسين من أنحاء المعمورة، ووفروا لهم كل أسباب الراحة، كل ذلك رغبة منهم في نشر العلم النافع، والعقيدة الصحيحة، فكانوا في عملٍ دؤوبٍ، وإيثارٍ ظاهرٍ، وتفانٍ متواصلٍ، في كل زمانٍ ومكانٍ، دون أي مطمعٍ دنيوي، ودون أن يتقاضوا على عملهم هذا شيئًا من حطام الدنيا، فحصل بذلك - ولله الحمد والمنة - الخير العميم.

ورغم أن الدنيا أقبلت إليهم بزينتها، إلا أنهم ركلوها بأقدامهم، زاهدين بها، معرضين عن زينتها، وما ذاك إلا لأنهم أخلصوا النيات، وطلبوا ما عند الله من الأجر والثواب، فلله درّهم، اتصلت محامدهم، وعلت مبانيهم، وجمت مكارمهم.

رأيناهم كيف بذلوا أوقاتهم للعلم والتعليم، واستقبال الناس للسؤال والاستفسار في كل الأوقات، دون مللٍ أو كللٍ، حتى في أيام مرضهم وتعبهم، عطاؤهم لا ينقطع، وبذلهم لا يتوقف، حتى ملؤوا الدنيا علمًا وهدى، ونورًا وتقى، فكتب الله لهم علو الكعب، وذيوع الصيت، فبقيت مآثرهم، وجميل صفاتهم في كل جنان، وعلى كل لسان، ما كرَّ الجديدان.

وما نتذكر بذلهم وعطاءهم - في زمن قل فيه عطاء غيرهم - إلا تستبق عبراتنا، وتفيض دموعنا، فلهم في كل قلب مأثرة، وبكل جيد مكرمة.

ولذا ما إن تفقد الأمة أحد هؤلاء الأفذاذ إلا ترى عيونًا عبرى، وأكبادًا حرى، وألسنًا تلهج بالثناء والدعاء، فهم نجوم في السماء مضيئة، متى أفلت ضل السائرون، ونور في الطرقات المظلمة، متى انطفأ تعثر المارون.

وكيف لا يُفقد هؤلاء العلماء، وهم في حياتهم يحملون من العبء أثقله، ومن الهم أجله، يسهرون الليالي الطوال، ويَصِلون الليل بالنهار؛ طلبًا لعز الأمة، وحرصًا على نجاتها، ولذا بَكَيْنَاهُم يوم ماتوا بصوب قلوبنا، لا بماء أعيننا، فيا رب ارحمهم، وأسكنهم الفردوس الأعلى من الجنة، وما لنا بعد وفاتهم إلا الصبر والدعاء، وفي الصبر مسلاة الهموم النوازل، وكلٌّ على حوض المنية وارد، وداء الموت ليس له دواء، وعزاء بعضنا لبعض، أن هذا طريق الرسل والأنبياء والصالحين، ولابد من سلوكه، وهذا قضاء الله وقدره.

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ ... وَمَا لِامْرِئٍ عَمَّا قَضَىٰ اللَّهُ مَزْحَلُ

وعلماؤنا الأبرار تمسكوا بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح، فكانت فتاواهم تنبع من هذا الأساس، وتنبني عليه، وما كان لحظوظ النفوس، وأهواء القلوب، مكان في فتاواهم واختياراتهم، لا في أول طلبهم للعلم، ولا حين تصدروا للناس، وصاروا صروحًا للعلم، يُشارُ

إليهم، ويتقرب منهم، بل درَّسوا عقودًا من الزمن، لا يلحظ الطالب عندهم، والملازم لهم، أي تغير في المبدأ، أو انتكاس في الرأي، أو تحريف للفتوى، أو حب لحطام هذه الدنيا الفانية، أو سعي للظهور، مع أنهم جمعوا علمًا غزيرًا في الفنون كلها، يعزُّ على من انتقصهم من دعاة السوء معشار ما حووا[1].

بل من عُمِّرَ منهم رآه الناس في حال كبره، فرأوا العجب منه في التقوى، والزهد، والورع، والدين، والبذل، والعطاء، والمروءة، وسألوا من أدركوه شابًا، فأخبروهم أن من رآه في حال كبره فكأنما رآه في حال شبابه، لم تتغير خطاه، ولم يتبدل طريقه.

وبهذه الأخلاق والإخلاص، أودع علماؤنا بطون التاريخ صحائف مجد خالدة، على مرور الأزمان.

قلبنا صحائف حياة هؤلاء العلماء الأبرار، فلم نعثر فيها على سقطة، أو زلة، أو هفوة، ما وجدنا فيها إلا سطورًا تنم عن تقوى ودين، وإخلاص مكين، وكفى فخرًا بهذا الثبات على الطريق الصحيح، طيلة حياة الإنسان،

(١) ذكر لي سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ـ حفظه الله ـ شيئًا من قصص هؤلاء العلماء، ومنهم الشيخ صالح بن مطلق، فقد ذكر لي بعض قصصه التي تدل على قوة حفظه وسعة اطلاعه، وكان مما ذكر لي ـ حفظه الله ـ أن الشيخ صالحًا كان يحفظ أكثر من خمسين ألفًا من الأبيات الشعرية.

رغم تغير الظروف، وكثرة الصوارف والعوائق، وتقلب الأحوال والقلوب، وتتابع الخطوب.

عاش هؤلاء العلماء الربانيون أشياعًا للحق، وأنصارًا لدين الله، منذ ظهور الدعوة المباركة إلى يومنا الحاضر، مخلصين في خدمة العلم الشرعي تعليمًا ونشرًا، يستمرئون التعب في سبيله ويستطيبونه، محتسبين الأجر والثواب في تدريسهم، وتأليفهم، ودعوتهم، كانوا صادقين، لم يبتغوا بهذا العطاء والتدريس شهرةً ولا رياءً، ولم يجر عليهم ذلك غنمًا ولا ثناءً، بل لم يخطر في بال أحدهم أن يقوده هذا الطريق إلى منصب رفيع من مناصب الدنيا، طالما سعى إليه غيرهم، ممن نال من أعراضهم، وحذَّر من كتبهم ومؤلفاتهم.

وبأمثال هؤلاء العلماء أخمد الله شهاب الباطل، وأنار بهم سبيل الحق، فهم أكثر الناس أفضالًا، وأجملهم فعالًا، وأرجحهم عقلًا، وأثقبهم فهمًا.

وهم الذين ـ بفضل الله وتوفيقه ـ يأخذون بأيدي الناس عند الحوادث والملمات، ويكونون نبراسًا لهم في ظلم المشكلات.

وهذا العطاء من غير طلب لأجر الدنيا عسير على كثير من النفوس، إلا على أناس أتقياء أنقياء، سكن الورع في قلوبهم، وألفت القناعة صدورهم؛ ذلك لأنهم نظروا إلى هذه الدنيا نظرة صدق وقناعة، أنها فانية، واستعدوا للآخرة بأعمالهم الحسنة، وإنفاقهم المستمر للوقت والمال في سبيل

الله، ورأوا أن لهم أجرًا في الدار الآخرة، لا يفوتهم بإذن الله.

ورغم أن بعضهم عاش حياة فقر وعوز، إلا أن ذلك لم يكن مسوغًا لأخذ أجرة على تعليمه، وجلوسه للناس، بل كان الواحد منهم رغم قلة ذات اليد، جوادًا معطاءً، يجود لغيره، ويبيت جائعًا طوال يومه وليلته.

ورغم ما لاقوه من مصاعب وأزمات، فلم يزدهم تمسكهم بمذهب أهل السنة والجماعة إلا قوة في العلم، وصلابة في قول الحق، استقرت في قلوبهم، وكرامة عن المساومة على علمهم وعملهم بحطام هذه الدنيا الفانية، ملأت عليهم أنفسهم، فلهم أنفس أبية، وهمم علية، فصاروا ـ بحمد الله ـ أئمة ومنارًا للعلم، وعلمًا للحق، ونورًا يُستَضَاءُ بهم، فهم نبراس الأمة إذا عرتها دواجي المشكلات، والتبست عليهم عقد المسائل، فسلامٌ على تلك الأرواح، ورحمةُ الله على تلك الأشباح، ما مثلهم ومثل غيرهم إلا كما قيل:

نَزَلُوا بِمَكَّةَ فِي قَبَائِلِ هَاشِمٍ وَنَزَلْتُ بِالْبَيْدَاءِ أَبْعَدَ مَنْزِلِ

وقول الآخر:

لا تُعرضَنَّ بِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِهِم لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَىٰ كَالْمُقْعَدِ

لقد عاش علماؤنا شعارهم الزهد، ودثارهم التواضع واللين، بذلوا كل ما في وسعهم لبيان الحق، ونصبوا له أعلامًا لا تُشتبه، وبنوا له منارًا لا يُهدم، ورفعوا له راية لا تنتكس، وجعلوا له آية لا تنطمس، ونهجوا له طريقًا لا يُلتبس، وهم مع تواضعهم لا يخافون في الله لومة لائم، فإن أقبلت إليهم

سحائب البدع، ورياح الخرافات، أو ازْوَرَّ شخص عن الطريق الصحيح، واستنكف عن الحق الواضح الصريح، وتبرقع بالشنار، وتلفع بالمعرة، وتنطق بالخزي، فزعوا وهم حماة الأمة بعد الله، وقاموا عليه بالصمصام البتار، وما أدراك ما هو، لا تنبو مضاربه، ولا تكل غواربه، إن اعتلىٰ قدّ، وإن اعترض قطّ، فانقلب ذلك المبتدع خاسئًا حسيرًا، ونكص على عقبيه ذليلًا مقهورًا، وولىٰ دبره ملومًا مدحورًا.

وأنىٰ للمبتدعة وأشياعهم أن يقفوا أمام العلماء الأوابين، والأزكياء المنيبين، فعدوهم مقهور، ومغالبهم محذور، لا يجادلهم إلا محجوج، ولا يباريهم إلا مفلوج، ولا ينازلهم إلا مفلول.

وكان من ثمار جهود هؤلاء العلماء الأوّابين الصادقين، وعطائهم المستمر تأليف الكتب، وطباعتها، وتوزيعها على طلبة العلم دون مقابل، فاستفاد منها ـ بحمد الله وفضله ـ ما لا يُحصى من الناس، حتى ظهر ـ بحمد الله ـ مذهب أهل السنة والجماعة بالحجج النيرة، والبراهين الساطعة.

ومن كان هذا عمله وعطاؤه، وهذه نيته وطريقته، استحق التبجيل والاحترام والتقدير، لكن أبت نفوس المبتدعة المريضة هذا المبدأ، وقابلت الإحسان بالإساءة، وبدل أن يشكروا هؤلاء العلماء، قابلوهم بالسبّ والشتم والإساءة، والقذف بأشنع الألفاظ، وتعلقوا بأهداب الكذب، وما من ذم وعيب إلا ألصقوه بعلمائنا زورًا وبهتانًا.

ومع بذل علمائنا الصادقين، وعطائهم الذي شهد له القريب والبعيد، والعدو والصديق، إلا أنهم يتهمونهم بالتقصير في العطاء، والتعلق بالمصالح، مع أن هؤلاء المبتدعة هم الذين تشبثوا بأذيال الدنيا، وأهانوا أنفسهم لأجلها، وصدق عليهم المثل «رمتني بدائها وانسلت» فقد تقفعت أيديهم، فلا ترشح باليسير، ولا تجود بفتيل ولا قطمير.

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللَّوْمِ لَائِمٌ   يَلُومُ عَلَى الْبُخْلِ الرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وصفوهم تارة بالمشبهة، وتارة بالمجسمة والحشوية وغير ذلك، وسموهم أيضًا الوهابية، قاصدين بذلك تنفير الناس عنهم، معتقدين - هؤلاء الحمقى - أنه لقب سوء، وما علموا أننا نفخر به، ونرجو الله أن نلقاه على مذهب أهل السنة والجماعة.

لقد سطر هؤلاء المبتدعة في كتبهم مخازي وسبًّا لعلماء هذه البلاد المباركة، يستحي الفاسق من اعتقادها، ويأبى المجنون أن يتحدث بها، ولا عجب من ذلك، فكل إناء بما فيه ينضح، ولا يضر السحاب نبح الكلاب، وتفوهوا في دروسهم واجتماعاتهم ومحاضراتهم بأشنع مما كتبوا ولكن:

إِذَا الْكَلْبُ لَا يُؤْذِيكَ إِلَّا بِنَبْحِهِ   فَدَعْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَنْبَحُ

وما ضر علماؤنا هذا النباح والضجيج، فهم على يقين تام، بأن الحق باق حتى وإن علاه الغبار وقتًا ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ

فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

والله ناصر دينه، ومعلٍ كلمته، ولذا كانت كلماتهم، ونصائحهم نابعة من قلوب صادقة، فعاش الواحد منهم قرير العين، هادي البال، ممدوحًا -بفضل الله ومنته- بكل لسان، وبقي ذكرهم وإخلاصهم على مرور الأزمان، ذكرًا مقرونًا بالشكر والدعاء والثناء، تفتخر به الأجيال.

ولا يثنى على علماء السنة في هذه البلاد، إلا تأخذ أفئدة هؤلاء المبتدعة حسرة، ويلازمهم غم وكمد، لا هم لهم إلا البحث عما أوتيه علماؤنا من القبول والعطاء، وما أصابهم من الملمات، فيغتمون بالأولى، ويفرحون بالثانية ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، حتى غدوا مضرب المثل لحثالة الحاسدين.

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

ويا ليتهم علموا أن الحسد كبيرة من كبائر الذنوب، يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ويكفي في ذمه ومقته أنه اعتراض على قدر الله.

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْأَدَبْ

أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ ... إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

وبمجالسهم الخاصة تراق الفضائل، ويقتل الصدق، ويطرد العدل في القول، ويلصق بعلمائنا الأتقياء كل زورٍ وبهتان، ذلك أن الحسد يملأ نفوس هؤلاء المبتدعة، فعليهم من الله ما يستحقون، تركوا الأعداء آمنين،

وما صوبوا سهامهم إلا إلى نحور علمائنا الأبرار الأطهار.

لقد أمضى هؤلاء أوقاتهم انتقاصًا لعلماء السنة والجماعة، راجين أن يكون لهذا الانتقاص أثر في تشويه سمعة العلماء الربانيين، وفاتهم أن أهل الحق قد احتلوا منزلة عالية ـ بفضل الله ـ لا تتأثر بشنيع أقوالهم:

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعَهُ   فَلَيْسَ يَرْفَعَهُ شَيْءٌ وَلا يَضَعُ

وأنفقوا أموالهم وأوقاتهم في التحذير من كتبهم وعلمهم، فكان رد علمائنا:

إِذَا مَا هَجَانِي نَاقِصٌ لَا أُجِيبُهُ   فَإِنِّي إِنْ جَاوَبْتَهُ لِيَ الذَّنْبُ

أُنَزِّهُ نَفْسِي عَنْ مُسَاوَاةِ سُفْلِهِ   وَمَنْ ذَا يَعُضُّ الْكَلْبَ إِنْ عَضَّهُ

وما أجابوهم إذ في إجابتهم تنفيس لكربهم:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ   فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ   وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَدًا يَمُوتُ

فيا ويلهم إذا طويت صحائف أعمالهم، وقد سودوها بهذا المين العظيم، والبهت المبين، وهناك التلاقي عند حكم عدل ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي   وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

إنك لتعجب من هؤلاء الذين أترعت قلوبهم بالغضب، وأفعمت صدورهم بالغيظ، وشحنت أجوافهم بالحنق، وطبعت أحشاؤهم بالإحن،

سلم منهم أعداء الله ورسوله، ولم يسلم منهم إخوانهم المؤمنون، فصوّبوا سهامهم نحو العلماء العاملين العابدين المخصلين. خلت مجالس هؤلاء المساكين من كل خير، وملئت بالانتقاص لأهل العلم والدين، غير سائلين ولا مستوحشين أن يجتمع في مجالسهم الموبوءة كبائر الذنوب، من الكذب والغيبة والنميمة وغيرها. فبارك صنيعهم العدو الأثيم، يسبقه الشيطان الرجيم، فأنى لمثل هؤلاء الفلاح والنجاح؟!

وبدل أن يبدؤوا علماءنا بالرُّحب والتحية والتكرمة، تلقوهم بقطوب وعبوس، وبسور وكسوف.

وما علم الواحد من هؤلاء المساكين أن للعلماء منزلة عظيمة، من رام ظلمهم ظلم نفسه وغرّها، ومن حاول ضيمهم ضام نفسه وضرها، لا تمتد إليهم يد ضائم إلا عادت إليه مبتورة البراجم، ولا هوت إليهم كف ظالم إلا انقلبت بائنة المعاصم، ومهما عابهم قليل دين وعقل، فعيبه به لاحق، وبعرضه لاصق، وإليه عائد، وعليه وارد، وسيكون عاره عليهم سمة في جبينه، وشامة في عرينه.

ولو قدر لك أن تقف على دخائل هؤلاء ودفائنهم، وغيابات قلوبهم، ومخبآت صدورهم، ومضمرات نفوسهم، لرأيت إثمًا كبيرًا، وشرًا مستطيرًا، والله غالب على أمره، ولن ينفع هؤلاء مكرهم وكيدهم، فقد حكم الله لأهل العلم والدين بالنصر العزيز، والأيد الشديد، والعز الوطيد، والظفر

القاهر، والغلب الظاهر.

وليت هؤلاء الذين سوّلت لهم أنفسهم انتقاص علمائنا، ليتهم حفظوا كلمة الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ﷺ حين قال: «إن استطعت فكن عالمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم»[1].

ورغم أنهم يرون مذهب أهل السنة والجماعة دلائل النصر له ناطقة، وشواهده صادقة، إلا أنهم تبعٌ لكل ناعق وناعر، وهم سراعٌ إلى من نصب للباطل راية، ورفع للشر علمًا.

وما الذي أثار نفوسهم إلا قول الحق، واتباع الدليل من الكتاب والسنة، فإذا ما تكلم العالم بالعقيدة الصحيحة، استثار هذا الأمر دفين حقدهم، وكمين ضغنهم، فخالفوا بأهوائهم الكتاب والسنة، وأحدثوا من البدع ما لا يُلأم صَدعُه، ولا تُسدّ ثُلمته. ولطالما ادعوا علمًا وهو بريء منهم:

إِذَا زَادَ عِلْـمُ الْمَـرْءِ قَـلَّ ادِّعَـاؤُهُ ... وَإِنْ قَلَّ يَوْمًا عِلْمُهُ ضَلَّ وَادَّعَى

كَـذَا الْغُـصْنُ أَيَّـامَ الـثِّمَارِ تَنَالُـهُ ... فَـإِنْ صَـارَ مَعْـدُومَ الـثِّمَارِ تَرَفَّعَـا

وإذا طمس العالم الصادق شيئًا من بدعهم، أقاموا عليها مأتمًا، يحسبون أنها

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه (ص١٣٧).

قربة إلى الله، وتجاهلوا وجهلوا أنها لا تزيدهم من الله إلا بعدًا، وتناسوا أثر هذه البدع، وعواقبها الوخيمة، فما هامت بها أمة من الأمم، إلا خفقت على ربوعها رايات الفساد والدمار، ولا نزلت بدار قوم، إلا كان حليفهم الذل والعار.

وما في صدور هؤلاء علم ولا هدى، ولا ورع ولا تقى، ما فيها إلا سخائم مدفونة، توشك أن تخرج، ترى أثر عداوتهم أثناء كلامهم تعريضًا، وكثيرًا ما نسمعها منهم تصريحًا، ولذا سئم طلعتهم كل صاحب عقل ودين.

في قلوبهم تغلي مراجل العداوة، وتلتهب نار البغضاء، فكان خير علاج لدائهم هذا تركهم يتعذبهم في نيران حسدهم:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وما إن يسمع هؤلاء أدلة وصف الله بصفات الكمال، إلا ترتعد فرائصهم فرقًا، وتستطير عقولهم روعًا، وتشرق نفوسهم بالأدلة الصحيحة الصريحة، فتبًا لهم كيف فقدوا بجهلهم حلاوة العلم!

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلالا

أولعت قلوبهم بالتأويل، وأغريت نفوسهم بالتشبيه والتحريف، فتخبطوا في ظلمات الهوى دهورًا، إذ مرض العقول عسير علاجه:

وَعِلَاجُ الأَبْدَانِ أَيْسَرُ خَطْبًا حِينَ تَعْتَلُّ مِنْ عِلَاجِ الْعُقُولِ

وإذا ذُكِرَ علماءُ أهل السنة، وأُثْنِيَ عليهم خيرًا، أقبل المبتدعة بقضهم

وقضيضهم، يثيرون الرَّهج في طريق الحق، رافعين لواء الحسد والبغضاء، يحسبون كثرتهم دليل قوة على مذهبهم، وما علموا أن العالم الرباني الواحد، تهابه الأفئدة في ثنايا الأحشاء، ويقف بعون الله في وجه فئام من أهل الباطل، لا يأبه بكثرتهم، ولا يحفل بجدالهم، وإن رفعوا رايات الشبه، أو زينوا الباطل، قتلهم بحجته، ووهصهم بقدمه، وهو يردد:

لَا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ فَهُمْ هَمَجُ الـ ... ـوَرَى وَذُبَابُهُ أَتَخَافُ مِنْ ذُبَّان

ترى الواحد منهم وقد نهكته العلل الناهكة، والأمراض المدنفة، لكن في غيّه وعداوته لمذهب أهل السنة يستعيد قواه، وينسى مرضه وضعفه، ولا عجب! فقد استحوذ عليه الشيطان، واتخذه مركبًا، وأملى له فغمسه في الغرور والكبر، وزيّن له سوء عمله، فأضلّه عن طريق الهدى والحق، واحتوت عليه شدة الجهالة، فصدته عن السعادة، واستحوذ عليه الشقاء، فصرفه عن الرشد.

وإذا ذكرت قولًا لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أقبل ذلك المبتدع الأثيم ينصره أهل الفرقة والزيغ والشقاق، ولسان حاله يردد:

وَكُنْتُ امْرَأً مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى ... بِي الحَالُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي
فَلَو مَاتَ قَبْلِي كُنْتُ أُحْسِنُ بَعْدَهُ ... طَرَائِقَ فِسْقٍ لَيْسَ يُتْقِنُهَا بَعْدِي

ثم تبختر وتهدد وتوعد، وسب وشتم، معتقدًا أنه أحدث خوفًا ورعبًا بصراخه، لكن ما نفعه ذلك:

فَدَعِ الوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي   أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ

ووعيده وصراخه ليس غريبًا عليه، فالمبتدع لا يحجزه تقى، ولا يردعه نُهى.

وبحمد الله فمذهب أهل السنة والجماعة شهدت له العدول، وقام عليه البرهان.

ولا يزال علماؤنا ـ حفظهم الله ورعاهم ـ يذبّون عن حريم الإسلام، وها هي ذي كتبهم وشروحهم، آيات عظيمة باهرة، وحجج بليغة قاهرة، رآها المبتدعة عيانًا، وكانت عليهم ـ بفضل الله ـ دليلًا وبرهانًا، عرض الحق عليهم بأيسر بيان، وأظهر دليل، ولكن ـ للأسف ـ كثير من هؤلاء أمعن في إساءته، وتعمَّه في سَكْرته، وتسكع في باطله وطمّته، وصدق القائل:

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا   وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ

وأعداء الحق عاهدوا الشيطان وواثقوه، ونشروا رايات ضلالهم وباطلهم، وأعلام جهالتهم، محكمين عقولهم الخربة، وأهواءهم المنحرفة، معرضين بها عن الكتاب والسنة، فعصفت بهم الأهواء، وطوّح بهم الحسد والبغضاء، فتشعب صدعهم، وانشقت عصاهم، وانقطع نظامهم، ووقعوا في شراك الشيطان.

وما أخرجوه من كتب الردود على مذهب أهل الحق عفى عليها الدهر، وصارت إلى زاوية من زوايا النسيان، وطمس ما فيها من تزوير وبهتان.

ولو اتسعت لهؤلاء الأمور في وقت، وذاع لهم صوت وكتاب، فسوف تغشى عليهم بعد ظلمة المعاصي.

وهم باستمرار عنادهم وحربهم لأهل السنة والجماعة، جرثومة قد حان انجعافها، وثمرة خبيثة آن قطافها، وهاهي ذي بدعهم قد ضعفت قواعدها، وتضعضعت دعائمها، وكفاهم حسرة ما يعيشونه من ذل وصغار، كما قال الحسن ـ رحمه الله ـ : «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعاصي لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه»[1].

ولا يغتر عاقل إن رأى هؤلاء المبتدعة قد أُعطوا شيئًا من حطام هذه الدنيا، فقد جاء في الحديث: «وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ»[2].

وصدق القائل:

عَتِبْتُ عَلَى الدُّنْيَا لِرِفْعَةِ جَاهِلٍ ... وَخَفْضٍ لِذِي عِلْمٍ فَقَالَتْ خُذِ الْعُذْرَا
بَنُو الجَهْلِ أَبْنَائِي لِهَذَا رَفَعْتُهُم ... وَأَهْلُ التُّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتِي الْأُخْرَى
أَأَتْرُكُ أَوْلَادِي يَمُوتُونَ ضَيْعَةً ... وَأُرْضِعُ أَوْلَادًا لِضَرَّتِي الْأُخْرَى

وبحمد الله استمر علماؤنا على منهج التعليم، وشرح كتب أهل السنة

(١) ذكر ذلك الأثر شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٥٨)، وابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٤٨)، والجواب الكافي (ص٣٨)، ونسباه إلى الحسن البصري رحمه الله.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

والجماعة في العقيدة، التي حفظت حديثهم، وأبقت ذكرهم، ومن هذه الكتب: كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب ـ رحمهم الله ـ وغيرها، وقد نُشر أكثرها في كتب وأشرطة، فكانت هذه الكتب زاجرة للمبتدعة، فصاروا أحدوثة سائرة، وعبرة ظاهرة.

وكان من هؤلاء العلماء الأبرار، والأولياء الأخيار، سماحة شيخنا العلامة الفقيه بقية السلف الحفي الوفي التقي النقي عبدالله بن عبدالرحمن ابن عبدالله الجبرين، حفظه الله ورعاه، وجعل الجنة مثوانا ومثواه، فهو ممن رسا طوده، وارتفع جده.

فقد ابتدأ في التدريس في حدود عام تسعين وثلاثمائة وألف للهجرة، في عدة مساجد، ودور للعلم، وشرح كتبًا في العقيدة، ومتونًا في مختلف الفنون، طبع أكثرها، وكان ضمن ما شرح وعلق عليه: شرح ابن أبي العز على العقيدة الطحاوية، فقد طلب منه بعض طلبة العلم ذلك، فابتدأ شرحه عام ثمانية وأربعمائة وألف للهجرة ـ واستمر شرحه نحو عشر سنين ـ تبدّل القراء وتعددوا، واستمر شيخنا حفظه ربي وسدد خطاه في شرحه حتى أتمه، وهذه صفة العالم الرباني، يكون بعيد الهمة، صائب الرأي، مسدد العزم.

وقد صرف ـ حفظه الله ـ في شرحه عنايته، وأفرغ مجهوده، وبذل وسعه وطاقته، وكان شرحه للكتاب من محفوظاته، دون أن يرجع إلى المصادر والشروح، لضيق وقته؛ إذ كان عضو إفتاء، تُحال إليه كثير من المعاملات

والاستفسارات، ورغم مشاغله الكثيرة، وأعبائه الجسيمة، ومحاضراته وندواته، وأحاديثه، وكلماته في المساجد والمناسبات، وبعض المجلات، ودوراته العلمية في مناطق كثيرة، وفتاواه الشفهية والتحريرية، ومقابلاته، ودروسه الصباحية والمسائية، إلا أن شرحه جعل الكتاب للقارئ قريب المتناول، داني الملتمس، بيِّن المنهج، بمثله تستهال القلوب النافرة، وتستصرف الأبصار الطامحة، وترد الأهواء الشاردة، ولا عجب، فشيخنا في الفصاحة صارم اللسان، شديد العارضة، مجنب - بفضل الله - مواقف الزلل، مؤيد بالتوفيق والسداد.

ولما انتهى الشيخ - حفظه الله - من شرح الكتاب، شرفني بالعناية به، وتحقيقه، والإشراف على طبعه، وقد سُجل الشرح في أربعة وثمانين شريطًا، ولكن لما فرّغت الأشرطة، وجدت في الكتاب مواطن كثيرة غير مشروحة، بسبب تغيب الشخص الموكل بالتسجيل عن بعض الدروس، فأحصيت النقص، وعرضته على سماحة شيخنا، وطلبت منه أن يشرحه مرة أخرى؛ ليتم الكتاب، فشرحه في اثنين وعشرين شريطًا، فرغت كلها، فكانت ربع الكتاب تقريبًا.

قرأت الكتاب أولًا محققًا، وبعد بضع صفحات قرأته مستفيدًا متعلمًا؛ إذ عرض فيه سماحة الشيخ الوالد كثيرًا من الفوائد، والقواعد، والتنبيهات، والنكت، والأبيات الشعرية، والقصص، وكلام المحققين من أهل العلم

الكثير، مما زين الشرح وأكمله، فلا عجب أن كان شيخنا قريع دهره، وكوكب نظرائه، وما زال - أعزه الله - يصعد إلى العز، ويترقى إلى ذرى المجد.

وكان العمل في التحقيق على حذف المكرر من الشرح، وتخريج الأحاديث دون الآثار، مستفيدًا من تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي لشرح ابن أبي العز.

ثم رأيت من الفائدة تخريج الآثار أيضًا، وعزو الأبيات الشعرية، وذكر بعض المصادر المشار إليها في الشرح، وكنت بين فترة وأخرى أجمع أوراقًا من الشرح، حصل عندي فيها إشكال، وأعرضها على سماحة الشيخ، فيبيّن لي ما أشكل، ويزيل عني ما استغلق، حتى اكتمل - بحمد الله ومنته وفضله - تحقيق الكتاب، ثم رأيت من كمال الاستفادة من الكتاب، أن توضع فهارس في آخره؛ ليسهل على القارئ مراجعة الموضوع، أو الحديث الذي يريد الاطلاع عليه.

وبعد؛ فهذا تحقيق الكتاب قد بذلت فيه جهدي وطاقتي، وأنفقت فيه وقتًا كثيرًا، شجعني لتحمل ذلك العناء، أنه علم شرعي، يبقى بإذن الله أجره، ولعلنا نحظى بدعوات صادقة، من كل قارئ للكتاب، ومستفيد منه.

وزاد من همتي أيضًا هذا العمل، شرف خدمة سماحة شيخنا - أعزه الله ورفع درجته - فقد أغدق علي من غير منة ولا أذى من المعروف ما لا أستطيع سداده أو سداد بعضه، مهما شكرته ومجدته في مقدمتي هذه، فقد

عرفته جوادًا فياضًا معطاءً نفاحًا بالخير، متواضعًا سمحًا لينًا، وحق لي أن أحبه وأقول له:

كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ النُّفُوسِ مُرَكَّبُ فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ الأَنَامِ حَبِيبُ

وما طلبت منه شيئًا منذ عرفت نفسه الطاهرة الزكية، إلا وجدته ندي الكفين، رحب الذراع، شماله أندى من يمين غيره، يقال له:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ كِلْتَا يَدَيْكَ مُفِيدَةٌ
شِمَالُكَ أَنْدَىٰ مِنْ يَمِينِ سِوَاكَا

وفي أمثال سماحة شيخنا يقال:

يَمِينُكَ فِيهَا اليَمْنُ وَاليُسْرُ فِي اليُسْرَىٰ
فَبُشْرَىٰ لِمَنْ يَرْجُو النَّدَىٰ بِهِمَا بُشْرَىٰ

ولطالما استشهدت بعد منّه وأفضاله علي بقول القائل:

تَبَرَّعْتَ لِي بِالْجُودِ حَتَّىٰ نَعَشْتَنِي
وَأَعْطَيْتَنِي حَتَّىٰ حَسِبْتُكَ تَلْعَبُ
فَأَنْتَ النَّدَىٰ وابْنُ النَّدَىٰ وَأَبُو النَّدَىٰ
حَلِيفُ النَّدَىٰ مَا لِلنَّدَىٰ عَنْكَ مَذْهَبُ

فلله دره فهو السري السخي، وكم نقش بأياديه البيضاء في سويداء قلبي، آيات شكر وثناء، لن أنساها بإذن ربي ما بقيت لي عين تطرف، وقلب يخفق، وكيف أنسى معروفه، وأنا الذي لم أسمع في كل ما طلبته منه إلا كلمة نعم، وأراني أمام أياديه الكثيرة، التي لا تجازى والتي حظيت بها مستشهدًا

للثناء عليه بقول الشاعر:

لَزِمْـتَ نَعَـمْ حَتَّـىٰ كَأَنَّـكَ لَمْ تَكُـنْ
سَـمِعْتَ مِـنَ الأَشْـيَاءِ شَـيْئًا سُـوَىٰ

وَأَنْكَـرْتَ لَا حَتَّـىٰ كَأَنَّـكَ لَمْ تَكُـنْ
سَمِعْتَ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ وَالْأُمَمِ

وحسبي أخيرًا من هذا الجهد، أن يكون موضع رضا القارئ المنصف وتشجيعه، وكنت في كل عملي أرجو أن أحسن فيه ما أمكنني الإحسان، فإن كان ذلك فالحمد لله الكريم المنان على بلوغ التمام، وإلا فأسأله بلوغه - مع الحمد والشكر والاعتراف بالتقصير - كما أسأله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يبارك في حياة سماحة شيخنا، وفي علمه، وعمله، وعمره، وذريته، وطلابه، ومؤلفاته، وأن يديم له سوابغ نعمه، وقرائن قسمه، ويصل سوالفها بعواطفها، كما أسأله سبحانه أن يبلغه الرتب الجليلة، والمحال النفيسة، وأن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يجعل ما بذله ويبذله في ميزان حسناته، وأن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه/

د. طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر
ص.ب ٢٦٥٣٥ الرياض ١١٤٩٦



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى[١]

الحمد لله الملك المعبود، الرحيم الودود، المعروف بالكرم والجود، له الأسماء الحسنى، وصفات الكمال في الشاهد والمشهود، سميع بصير فلا يخفى عليه خافية في جميع الوجود، أحمده سبحانه وهو الرب المحمود، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ند له ولا معبود، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، والمقام المحمود، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن بذل في نصرة دينه غاية المجهود.

أما بعد:

فإن ربنا سبحانه فطر عباده على معرفة ربهم وخالقهم، ومدبر أمورهم، فخلقهم حنفاء، ومنحهم العقول والأفهام؛ للتمييز بين الخالق والمخلوق، ونصب لهم الأدلة الظاهرة، حتى تدل كل عاقل ومفكر على وظيفته التي خُلق لأجلها في هذه الحياة الدنيا، ومع ذلك سلط عليهم الأعداء والأضداد، الذين يصدونهم عن الهدى، ويوقعونهم في الردى، فتمكن الشيطان وجنوده من إغواء الكثير، وتغيير فطرتهم، وإيقاعهم في الشرك والكفر والبدع والمعاصي،

---

(١) هذه المقدمة كتبها سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين - حفظه الله - قبل أن يكمل النواقص من شرح الطحاوية.

فبعث الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى ما خُلقوا له، ويبصرونهم بالدين الذي يجب أن يدينوا به، وأنزل كتبه لبيان شرعه ودينه الذي كلف به عباده، وقد بلَّغ الرسل ما نزل عليهم، وبشروا وأنذروا وحذروا وخوفوا، فمن الناس من هداه الله وتقبل الخير وفرح به، وعمل بما جاءه عن ربه على ألسن رسله، ومنهم من كفر وأنكر وكذَّب الرسل واتبع الهوى، وركن إلى الدنيا فحقت عليه الضلالة.

وقد ختم الرسل بنبينا محمد ﷺ، وجعل شريعته آخر الشرائع، وعمم برسالته الإنس والجن، والعرب والعجم، والقريب والبعيد، وقد بدأ دعوته إلى التوحيد، وإخلاص الدين لربه سبحانه، وترك الشرك وعبادة المخلوقات، وقد كان الشرك متمكنًا في نوع البشر، فهم يعبدون الأوثان، ويدعون مع الله آلهة أخرى، وينكرون البعث والنشور، ولقد أعلن دعوته إلى الدين الخالص، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى ربًا وخالقًا ومدبرًا ومتصرفًا في الكون، وإلهًا ومعبودًا وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه، ودعاهم إلى الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال.

وقد أنزل الله تعالى عليه هذا القرآن الكريم، الذي وصفه بأنه بيان وهدى، ورحمة، وموعظة، وشفاء لما في الصدور، وقد كلفه الله تعالى أن يبلغ رسالة ربه، وأن يُبين للناس ما نزل إليهم، وأن يوضح لهم ما جاء به من الشريعة، فقام بذلك أتم قيام، ووضح الأوامر والنواهي بقوله وفعله؛ حتى

ظهر أمر الله تعالى ودينه، وتحقق ما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

وقد صدق على ذلك صحابته الكرام، الذين آمنوا برسالته، وتقبلوا ما جاء به من الشريعة، وآمنوا به وبما جاء به، وبذلوا في نصرته غاية الجهود، ونشروا الإسلام والإيمان والقرآن في شرق الأرض وغربها، وجاهدوا في الله حق جهاده، فكانوا مضرب المثل في الصبر والمصابرة والدعوة والبيان، فقامت حجة الله على العباد، وانتشر الإسلام، وبلغ ما بلغه الليل والنهار.

ومع ذلك حدث في الملة خلاف وبدع ومنكرات؛ كما أخبر النبي ﷺ بأن الأمة تفترق ثلاثًا وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي ما كان على مثل ما كان عليه هو وأصحابه [(١)].

وقد حصل هذا التفرق والاختلاف، فظهر الخوارج ونحوهم ممن يكفر بالذنوب، وخرجوا عن الطاعة، وقاتلوا المسلمين.

ثم خرج من أنكر صفات الله تعالى، وعطل الرب عن صفات الكمال،

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وقد ورد من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فقد رُوي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو، رضي الله عنهم. أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠، ٢٦٤١)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠، ١٤٥)، وغيرهم.

وعُرِفُوا عند سلف الأمة بالجهمية، حيث إن الذي اشتهر بذلك وأعلنه ودعا إليه هو الجهم بن صفوان.

ثم تتابعت البدع والمحدثات وتمكنت عبر القرون الماضية، ولَـمَّا ظهرت وانتشرت حذَّر منها سلف الأمة وأئمتها، واهتموا ببيان السنة، وإظهار الأدلة في الرد على أولئك المبتدعة، والتحذير من شرهم، ومن الانخداع بشبهاتهم التي يروجونها كأدلة عقلية أو نقلية، واتفق علماء صدر الأمة وحملة السنة على محاربة تلك البدع وأهلها، والإنكار عليهم بشدة، وصدرت منهم كلمات قوية في التحذير من البدع، والتشديد عليهم بما يقرب من التكفير والتفسيق في حق الجهمية، والمعطلة، والرافضة، والمرجئة، والجبرية، والقدرية، والمعتزلة، ونحوهم.

وكثرت المؤلفات في السنة وأدلتها في التوضيح وبيان الحق، والتحذير من ضده، وضمَّن أكابر العلماء ذلك ضِمْن مؤلفاتهم؛ كما فعل البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه، حيث بدأ كتابه وختمه بالإيمان والتوحيد، وبدأ مسلم ـ رحمه الله ـ صحيحه بعد المقدمة بكتاب الإيمان، وأورد فيه الأحاديث التي على شرطه تتعلق بالعقيدة، والتي يستدل بها أهل السنة والجماعة، وكذا ما يستدل به من خالفهم حتى لا يُقال: إنه يذكر ماله ويترك ما عليه. وهكذا بقية أهل السنن حيث ضمَّنوا كتبهم ما يتعلق بالعقيدة في أثناء مؤلفاتهم، كما فعل أبو داود والترمذي، أو في مقدماتها كابن ماجه والدارمي.

ومع ذلك فقد صنف علماء السلف كتبًا كثيرة تختص بالعقيدة وبيان السنة

وأدلتها، وأكثروا من المؤلفات في ذلك، ويسر الله تعالى وجود الكثير منها وطبعها ونشرها؛ مما كتبه المحدثون وعلماء صدر الأمة الموثوق بهم. واعتمدوا في إثبات عقائدهم على الأحاديث، والآثار الصحيحة، التي نقلوها بالأسانيد الثابتة، حتى لا يتهموا أنهم ابتدعوها من أنفسهم، وحتى يُعرف عن الأئمة الأربعة المشهورين ما يقولونه في باب الاعتقاد، فإنهم معترف بهم في المذاهب والفروع، ولهم أتباع يقلدونهم، ويتمسكون بأقوالهم، ويعتمدون مذهبهم، ومع ذلك يخالفونهم أو يخالفون بعض أقوالهم في الأصول والعقائد، وأغلبهم الذين تسموا بالأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، فقد تمكنت عقيدتهم في القرون الوسطى وحتى هذا الزمان، مع أنهم خالفوا أبا الحسن في عقيدته المتأخرة، التي ذكرها في رسالته «الإبانة»، وفي كتابه «مقالات الإسلاميين»، ومع ذلك تمسك هؤلاء الأشاعرة بكتبه القديمة، والتي وافق عليها ابن كلاب وغيره، وكتبوا في هذه العقيدة العديد من الكتب الكبيرة والصغيرة، وطُبعت واشتهرت، وكثر معتنقوها عبر القرون الماضية، ولم يشتهر أحد بمجادلتهم ومناظرتهم والرد على أدلتهم مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، مع أن أهل السنة لا يزالون كثيرًا يكتبون في العقيدة، ويبينون ما هم عليه، ولكن الشهرة والسمعة لأولئك الأشاعرة.

وكان من جملة من كتب في العقيدة الإمام الطحاوي رحمه الله، وهو من الحنفية، وله المؤلفات المشهورة في الحديث والفقه، مع ما فيها من التعصب للمذهب، فألَّف نبذة في العقيدة، ذكر فيها عقيدته في أركان الإيمان، وفي

الصفات، وفي أغلب معتقد أهل السنة، ومع ذلك ذكر ما عليه الأحناف في باب الإيمان ونحوه، ولم يصرح بإثبات أغلب الصفات، وقد اشتهرت «العقيدة الطحاوية»، وشرحها الكثير من الأحناف، وتوسعوا في الشروح، إلا أن أغلبهم سار على ما هو متمكن من المعتقد الأشعري في إنكار الصفات وتأويلها، وحمل كلام الطحاوي على ما يوافق معتقد الأشاعرة المتمكن في تلك الأعصار.

وكان ممن شرحها عالم شهير حنفي المذهب، إلا أنه سلفي العقيدة، وهو ابن أبي العز الأذرعي رحمه الله تعالى، فقد التزم في شرحه التقيد بمعتقد السلف الصالح، وما كان علماء الأمة يقولون؛ كالأئمة الأربعة ونحوهم، وقد طُبع شرحه، وقرر تدريسه في الجامعات الإسلامية في المملكة العربية السعودية وغيرها، وحيث إن الحنفية غالبًا لا يركنون إلى مؤلفات غيرهم فقد تقبلوا هذا الشرح، وانتفعوا به، ورجع الكثير منهم إلى معتقد السلف الصالح والصدر الأول، وتأثروا بمثل هذا الشرح مع أنه يتوسع ويذكر الأدلة، ويوضح ما يقوله ويشرحه بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة والآثار السلفية التي لا مطعن فيها إلا للمتكلف.

ولَـمَّا كان له هذا التمكن اختار بعض التلاميذ علينا قراءته وشرحه، واقترحوا ذلك عليَّ، فالتزمت بذلك في أحد مساجد الرياض، وذلك في سنة ثمان من القرن الخامس عشر، وكان الدرس بعد صلاة المغرب إلى أذان صلاة العشاء في مساء يوم السبت ليلة الأحد من كل أسبوع، باستثناء أيام الإجازات

ونحوها، والطريقة في الشرح: قراءة بعض التلاميذ للجملة من المتن، وكلام الشارح عليها إن كان قليلاً كصفحة أو نحوها، ثم أتكلم على المعنى الإجمالي لتلك الجملة بما فتح الله، وقد أتوسع حسب ما يقتضيه المقام، وأذكر عقيدة أهل السنة في ذلك، وتوضيح أدلتهم، وأجيب عن بعض الأسئلة التي يوردها بعض الحاضرين، ويفوتني كثيرًا الكلام على بعض الجملة، أو بعض الأدلة، أو أحيل على كلام الشارح، ولا أتكلم على جميع الأدلة والوجوه والتقاسيم التي يذكرها الشارح رحمه الله؛ وذلك لوضوحها، ولأن الكلام على معانيها ووجه دلالتها قد يطول، ولا تحتمله أفهام السامعين، وقد ينقطع الكلام بدخول الوقت الثاني، أو بالاشتغال بأجوبة الأسئلة، ثم في الأسبوع الثاني أبدأ بمقدمة في موضوع الدرس السابق، أو كلام موسع على عموم العقيدة وأهميتها، ثم نبدأ في الدرس الجديد، وقد أتجاوز بعض الجمل أو التعليلات سهوًا؛ حيث لا أتذكر كلام الشارح جميعه عند الشرح، فأقتصر على ما علق بالذهن منه، واكتفي بالمعنى العام للموضوع.

وقد استمر هذا الشرح عدة سنوات حتى يسر الله إتمامه، وتولى قراءة الشرح على الحاضرين بعض التلاميذ، وتولى تسجيل هذا الدرس تسجيلات الراية لقربها من المسجد، واستمروا في التسجيل لهذا الدرس وغيره من الدروس التي ألقيتها في ذلك المسجد مع كثرتها، وقد فات بعض المواضيع لم تسجل، لكنها قليلة، وقمت بعد ذلك بشرحها مع الاختصار، وقد بقيت أشرطة التسجيل في تسجيلات الراية، واشتراها الكثير من التلاميذ، ومن أهل

التسجيلات الأخرى.

ثم وفق الله تعالى الشيخ الدكتور: طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر للاشتغال بها، فعمل على تفريغها من تلك الأشرطة، رغم ما في ذلك من التعب والمشقة، وبعد أن فرغها وكتبها قام بالتصحيح والترتيب للكلام والتنسيق، وحذف التكرار، وما لا صلة له بالشرح، وغيَّر بعض العبارات والكلام الذي ليس بفصيح، وهكذا عمل على تخريج الآثار والأحاديث التي ترد في الشرح، وذكر مواضعها وأرقامها ودرجاتها ونحو ذلك، وقد صبر على ذلك، وبذل جهدًا كبيرًا . وقد فوضت إليه الترتيب والتصرف؛ حيث إنه أهل لذلك، وله حقوق الطبع والإشراف والتصحيح، وله أن يستعين على العمل في ذلك بمن يراه من طلبة العلم الموثوق بهم.

ومع ذلك فهذا جهد المقل، وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله، فللقارئ غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، فهذه بضاعته المزجاة تعرض على القراء، ويرحم الله من أهدى إلينا عيوبنا، وأصلح ما وجده من الأخطاء والأغلاط، فإن الإنسان محل النسيان، لاسيما في هذا الشرح الذي حصل ارتجالاً في ساعة الإلقاء، دون مراجعة للمؤلفات، ولا استعداد ولا تحضير ولا تأهب، وإنما هو توضيح لما ذكره الشارح، وبيان للمعنى العام، اعتمادًا على الذاكرة وما علق بالذهن من العلوم العامة التي تمر بنا وتقرأ علينا في مؤلفات علماء أهل السنة وصدر الأمة.

وهكذا يقع أيضًا تكرار كثير لبعض الموضوعات والمعاني، وللأدلة والأحاديث والآثار؛ حيث إن المقام يستدعي ذكرها، ولو كانت قد سبقت مرارًا؛ لِـمَا في ذكرها من المناسبة، ولم ننبه على التكرار في موضعه لظهوره، وللحاجة إليه، فهذا ما عملنا في هذا الشرح.

نسأل الله تعالى أن ينفع بأصله، وأن يصلح أحوال المسلمين، وأن يتوب على التائبين، ويرد ضال المسلمين، ويقمع البدع والمبتدعين، ويرشد الغاوين ويبصرهم بأصل الدين، ويرحمنا ويعفو عنا بفضله ومغفرته وهو أرحم الراحمين، والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين

عضو هيئة الإفتاء المتقاعد

مقدمة الشارح

قال ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْل

الحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَن لا إِلـه إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

قال الشيخ[1]:

الحمد لله رب العالمين، قيوم السموات والأرضين، مدبر الخلائق أجمعين، عالم الغيب والشهادة، الملك الحق المبين، لا إله غيره ولا رب ولا معين، نحمده سبحانه على جزيل الفضل والامتنان، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تعالى عن مشاركة الأوثان، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الداعي إلى رضوانه، الهادي إلى إحسانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأعوانه، وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

---

(١) هذه المقدمة سجلها سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ـ حفظه الله ـ بصوته مع بداية إكماله لشرح الطحاوية.

فإن الله تعالى كمَّل لنا دين الإسلام، ورضيه لنا دينًا، وجعله يدور على خمسة أركان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وبيَّن ذلك وفصله نبينا محمد ﷺ، فأوضح ما يجب إيضاحه، وبيَّن للأمة ما يحتاجون إلى بيانه، وعلمهم علم العقيدة وعلم التوحيد، وبيَّن عليهم ما التبس عليهم في ذلك.

ونقل ذلك صحابته رضي الله عنهم، فأخبروا بأنه علمهم كل شيء يحتاجون إليه، ولم يكتم شيئًا من العلم الذي آتاه الله تعالى، وتناقل ذلك المسلمون قرنًا بعد قرن، ينقلون علم الشريعة، وعلم العقيدة، وعلم التوحيد، وعلم أصول الدين، وما يتفرع عن ذلك، وتلقى ذلك تلاميذهم عن المشايخ الكبار، ثم وصل إلى الذين دونوا ذلك، وكتبوا فيه المؤلفات. وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك تلاميذهم كانوا على عقيدة راسخة، ألا وهي عقيدة أهل السنة والجماعة، يؤمنون بآيات الله تعالى، وبكلماته، ويؤمنون بأسمائه وصفاته التي تلقوها من الكتاب والسنة، والتي أخذوها عن نبيهم ﷺ مجملة ومفصلة، وهكذا استمروا على هذا الاعتقاد، وجزمت به نفوسهم، وعقدت عليه قلوبهم. وكان من آثار هذا الاعتقاد الذي رسخ في قلوبهم أن فدوا دينهم بأموالهم وبأنفسهم، وبكل ما يملكونه وما يستطيعونه. فيقول أحدهم بلسان الحال: أنا مسلم، أنا مسلم، ديني أقدمه على كل شيء، أفدي ديني بنفسي وبكل ما أملك، أتمسك بذلك كل التمسك، ولا أغير شيئًا من دين الإسلام الذي أنا عليه، ولو قُتلت ولو مُزقت، ولو حصل لي ما حصل من

العذاب، والشقاق، والنكال، ونحو ذلك. صبروا على ذلك.

ثم كان من آثار هذه العقيدة أن جاهدوا في سبيل الله؛ لأجل إظهار هذا الدين وهذه العقيدة التي امتلأت بها قلوبهم، قالوا: لابد أننا مسؤولون عن الأمة الإسلامية في شرق الأرض وغربها وجنوبها وشمالها، لابد أننا نقوم بإبلاغ هذا الدين، وإذا لم يقبله إنسان دعوناه، وإن أصر واستكبر فإننا نقاتله حتى يدين بالإسلام، حتى نتغلب عليه، ونعمل بما جاء عن نبينا ﷺ أنه قال: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإذا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ على الله»**[1].

فغزوا شرق الأرض وغربها، وفتح الله عليهم البلاد، وفتح أيضًا عليهم القلوب، واطمأن الناس إلى صحة ما جاءوا به، وشرح الله صدور أهل الإسلام لهذا الدين؛ صدور من اطمأنوا إلى ذلك، وعرفوا صلاحيته لكل زمان ومكان، فكان ذلك من أسباب انتشار هذا الدين حتى انتشر على ثلاثة أرباع المعمورة: في الشرق والغرب.

وواصل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتلاميذ الصحابة والمسلمون القتال إلى أن وصلوا إلى ما وصلوا إليه، وفتحوا البلاد الغربية وكذلك البلاد المشرقية، وتوسعوا في نشر الإسلام، وكل ذلك لأنهم اطمأنوا بأنه الدين

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الحنيف، الدين القويم الذي يصلح لكل زمان ومكان، وعرفوا أن هذه العقيدة التي أخذوها من الكتاب والسنة هي الصحيحة، التي من اعتقدها فإنه يكون من أهل السلامة، ومن الذين يسيرون على سبيل النجاة.

وحيث أخبر النبي ﷺ بحدوث البدع وكثرة المبتدعات، فإنهم حذروا ذلك لَمَّا حذرهم نبيهم ﷺ في قوله في آخر حياته: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فإنه من يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسنتي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإن كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[1]. أخبر بأن الذي يعيش منهم يرى اختلافًا كثيرًا في هذه الأمة، وقد أخبر ﷺ بأن هذه الأمة تتفرق فرقًا بقوله: «**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»[2]، وفي رواية: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»[3]، وفي رواية عند الترمذي[4]: قالوا: وَمَنْ هِيَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢) من حديث معاوية ﷺ، وأخرجه عن أنس ﷺ وفيه زيادة: أحمد (٣/ ١٢٠/ ١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٩٢).

(٤) برقم (٢٦٤١).

وَأَصْحَابِي». بيّن أن هذه الفرقة الناجية هم الذين على سيرة النبي ﷺ، وعلى ما كان عليه هو وأصحابه.

ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ حتى يَأْتِيَ أَمْرُ الله، وَهُمْ كَذَلِكَ»(١). قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعلم من هم»(٢). وهذا صحيحٌ، فإن الذين اشتغلوا بالحديث النبوي وقرؤوه وحفظوه، واعتقدوا ما دل عليه هم أقرب إلى أن يكونوا المتمسكين بسنة النبي ﷺ، ينطبق عليهم أنهم مثل الصحابة.

يقول بعض الشعراء:

أَهْلُ الحَدِيثِ هُمُوا صَحْبُ النَّبِيِّ وَإِنْ لَمْ يَصْحَبُوا نَفْسَهُ أَنْفَاسَهُ صَحِبُوا(٣)

أي أنهم صحبوا كلامه الذي يخرج مع أنفاسه، بمعنى: أنهم يشتغلون به.

وحيث أخبر النبي ﷺ بتفرق هذه الأمة فقد وقع هذا التفرق كثيرًا، فأول

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان ﵁، وأخرجه بنحو هذا اللفظ البخاري (٣٦٤٠، ٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧، ١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة، ومعاوية رضي الله عنهما، وسيأتي تفصيل تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٢)، وأبو الفضل الهروي في «مشتبه أسامي المحدثين» (ص٢١)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ١١٨)، وانظر: فتح الباري (١/ ١٦٤، ١٣/ ٢٩٣)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).

(٣) ذكره ابن الصلاح في طبقات الشافعية (١/ ٣٥٧)، ونسبه إلى الحسن بن محمد القومسي.

ما حدث من الفرق: طائفة الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، والذين يجعلون العفو ذنبًا والذنب كفرًا، ولأجل ذلك قاتلوا الصحابة، وقاتلوا المسلمين.

ووردت فيهم أحاديث كثيرة تدل على أن قتالهم أفضل من قتال غيرهم، ومن ذلك: قوله ﷺ: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ من المُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ»(١). وقد جاء رَجُلٌ من بَنِي تَمِيمٍ يُدعى ذُو الخُوَيْصِرَةِ، فقال: يا رَسُولَ الله اعْدِلْ، فقال ﷺ: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ؟ قد خِبْتَ وَخَسِرْتَ إن لم أَكُنْ أَعْدِلُ»، فقال عُمَرُ: يا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لي فيه فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فقال ﷺ: «دَعْهُ فإن له أَصْحَابًا يَحْقِرُ أحدكم صَلاتَهُ مع صَلاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يقرؤون الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِهِ فلا يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى رِصَافِهِ فما يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى نَضِيِّهِ - وهو قِدْحُهُ - فلا يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يُوجَدُ فيه شَيْءٌ، قد سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أو مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ من الناس»(٢).

وقد خرجوا على عهد علي ﷺ، وقاتلهم يوم النهروان، وقتل منهم مقتلة كبيرة، ومع ذلك فإنهم استمروا بقية القرن أو بعده، وإلى اليوم لهم بقايا يكفرون بالذنوب، ويقاتلون من خالف عقيدتهم، وهؤلاء فرقة ضالة ولو كانوا

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

يصلون ويصومون ويقرؤون القرآن ويعملون بأكثر ما فيه.

كذلك حصلت فرقة ثانية ظهرت في آخر عهد علي ﷺ، واستفحل شرها في عهد بني أمية، وهم الذين يسمون أنفسهم شيعة علي ﷺ، وسبب خروجهم أنهم أحبوا عليًا ﷺ؛ لِمَا رأوا من سيرته في العراق، ولمَّا أحبوه وسمعوا في دولة بني أمية من يسبه ويضلله ويشتمه ويلعنه على رؤوس المنابر، قالوا: لابد أن ننتصر لإمامنا علي ﷺ. فعند ذلك أخذوا يجمعون من الأكاذيب في فضله؛ ليردوا على الذين قد ينخدعون بسماع لعنه وشتمه على المنابر، فكذبوا عليه أكاذيب لا تُحصى في فضله، وفي إمامته، وفي تقدمه، وبالغوا في ذلك بفضائل يعرف العاقل أنها مكذوبة، قصدهم بذلك الرد على أولئك الذين يضللونه.

ولما أنكر عليهم بعض أتباعهم، وقالوا: إذا كانت له هذه الفضائل فَلِمَ لَمْ يكن هو الأول، وكيف سبقه ثلاثة من الخلفاء دامت خلافتهم خمسًا وعشرين سنة؟ أليس ذلك ظلمًا له؟ فعند ذلك قالوا: بلى إنه مظلوم، وإن الذين استبدوا بالأمر وبالولاية قبله هم ظلمة. وركزوا على أبي بكر وعمر وعثمان، وكذلك بقية الصحابة، وادعوا أنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ حيث بايعوا أبا بكر ثم عمر ثم عثمان، وادعوا أنهم كتموا الوصية لعلي بأنه هو الولي، ولفقوا أكاذيب في ولايته لا أساس لها، وقد تمكنوا في العراق ودام تمكنهم، وزاد عددهم.

ولما خرج زيد بن علي - رحمه الله - ودعا إلى نفسه في آخر خلافة بني أمية، قالوا: نواليك على أن تتبرأ من أبي بكر وعمر. فامتنع وقال: هما صاحبا جدي.

فعند ذلك تركوه، فقال: إذًا عند ذلك ترفضوني؟! فسموا: رافضة[1].

ومع ذلك استفحل شرهم، وصاروا يزيدون بما يلفقونه من الأكاذيب، ولم يزل أمرهم يستفحل إلى زماننا هذا، وقد أكثروا من المؤلفات في تراجم أئمتهم الاثني عشر، وكذلك تراجم من يؤمهم أو من يميل إليهم من الرافضة ونحوهم، وأكثروا من المؤلفات في هذا المذهب الباطل، الذي من سمعه وتعقله عرف بطلانه وبعده عن الصواب.

كذلك أيضًا في آخر القرن الأول وفي أول القرن الثاني خرجت بدعة أخرى، ألا وهي بدعة التعطيل، وهم الذين ينفون قدرة الله تعالى، وينفون كلامه، وينفون محبته وصفاته التي وصف بها نفسه. اشتهر بإنكار القدرة في آخر القرن الأول معبد الجهني، وغيلان الدمشقي. وقد أدركهم ابن عمر - رضي الله عنهما - وحَذَّر منهم، وبين أنه لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره[2].

كذلك ظهر أيضًا في أول القرن الثاني آخرون منهم، واشتهر ذلك عن الجعد بن درهم، الذي جادل في إنكار كلام الله، وفي إنكار محبته، جادل على ذلك وصبر على القتل، وقتله خالد القسري رحمه الله؛ ذلك لأنه لما خطب

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٦ وما بعدها)، والفرق بين الفرق (ص١٥)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٨).

بالناس خطبة عيد النحر قال: «أيها الناس! ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا» - تعالى الله عما يقول الجعد - ثم نزل فذبحه[١].

وقال في ذلك ابن القيم - رحمه الله - في مقدمة نونيته[٢]:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ... قَسْرِيّ يَومَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلاَ مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّاني

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِب سنَّةٍ ... لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

أي: أنه جعله ضحيته يتقرب بها إلى الله تعالى، فشكر هذه الضحية كل صاحب سنة. وقد روى هذا الأثر البخاري - رحمه الله - في رسالته: «خلق أفعال العباد»[٣]، ورواه غيره من الأئمة[٤].

وظهر في ذلك الزمان أيضًا واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، واشتهرا بإنكار قدرة الله تعالى، واشتهرا أيضًا بأن العاصي ليس بمؤمن ولا كافر، وجعلاه بمنزلة بين المنزلتين.

---

(١) سيأتي الكلام عن ذلك في شرح ابن أبي العز رحمه الله.

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

(٣) (ص٢٩).

(٤) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٢١)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٥)، والذهبي في «العلو» (ص١٣١).

ثم خرج أيضًا في القرن الثاني رجل يُقال له: الجهم بن صفوان. الذي أنكر صفات الله تعالى، فأنكر الاستواء، وأنكر الكلام، وأنكر بقية الصفات الفعلية والذاتية، وتمنى أن يمحو آيات الاستواء من القرآن.

وقد اشتهرت بدعته وصار كل من اشتهر بالتعطيل يسمونه جهميًا. ومذهب الجهمية هو تعطيل الله تعالى عن صفات الكمال، وقد ورث هذا المذهب كثيرون من المعتزلة، واشتهر منهم: بشر بن غياث المريسي، ثم بعده أيضًا: أحمد بن أبي دؤاد، والذين مكنوا لكثير من الناس أن يعتقدوا هذه العقيدة، ودعوا أيضًا بعض الخلفاء - ومنهم المأمون - إلى أن يمتحن الناس بقول إن القرآن مخلوق، ويعذب من لم يقل بهذه المقالة، وقد جرت فتن عظيمة، وامتُحن العلماء، وكان منهم الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - الذي صبر على الأذى، وصبر على الضرب والجلد والحبس.

قال الشاعر[1]:

وَيَقُولُ عِنْدَ الضَّرْبِ لَسْتَ بِتَابِعٍ ... يَا وَيْحَكُمْ لَكُمْ بِلَا بُرْهَانِ
أَتَرَوْنَ أَنِّي خَائِفٌ مِنْ ضَرْبِكُمْ ... لَا وَالْإِلَـٰهِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
كُنْ حَنْبَلِيًّا مَا حَيِيتَ فَإِنَّنِي ... أُوصِيكَ خَيْرَ وَصِيَّةِ الْإِخْوَانِ
وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ فَأَحْمَد ... زَيْنُ الثِّقَاتِ وَسَيِّدُ الْفِتْيَانِ

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٥/ ٢٨٢)، ونسبها إلى أبي المعالي القاسم بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المدائني.

ثـم إن الله تعـالى نـصر الحـق، وانتـصر الإمـام أحمـد عـلى الـذين خـالفوه، وظهرت حجة الله تعالى، وظهر أمر الله.

ولما تمكن هؤلاء المبتدعة الـذين ينكـرون أسـماء الله وصفاته، اهـتم علـماء الأمة بأمر العقيدة، فكتبوا في ذلك العقائد الكثيرة ليردوا على أولئك المبتدعـة، وكان من جملة من كتـب: الإمـام أحمـد رحمـه الله، فلـه رسـالة اسـمها: «أصـول السنة»، ولـه رسـالة أخـرى اسـمها أيـضًا: «الـسنة»، ولـه رسـالة يـرد بهـا عـلى الجهمية فيما شكّت فيه من متشابه القرآن. ثم ألَّف ابنه عبـد الله رسـالة موسـعة أيضًا سماها: «السنة»، ثم ألَّف أيضًا تلميذه أبو بكر الخـلال كتابًـا واسـعًا سـماه باسم «السنة»، وكلها ـ والحمد الله ـ مطبوعة منتشرة، وإن كـره نـشرها وطبعهـا كثير من المخالفين والمبتدعين.

كـذلك أيـضًا ألَّـف ابـن أبي حـاتم رسـالة أيـضًا في الـسنة، وألَّـف ابـن أبي عاصـم رسـالة الـسنة، وكتـب عثمان بـن سـعيد الـدارمي رسـالة في الـرد عـلى الجهمية، وهي رسالة قوية، وأخرى ناقش بهـا رسـالة كتبهـا الثلجـي في عقيـدة المريسي، وكلتاهما مطبوعتان يمدحهما علماء أهل السنة ويثنون عـلى محتوياتهما، وهي أدلة واضحة.

وكـذلك كتـب الكثـير مـن المتقـدمين كـابن خزيمـة كتابـه الـذي سماه: «التوحيد»، وابن منـده كتابـه: «التوحيـد»، وكتابـه: «الإيـمان»، وابـن أبي شـيبة رسالة صغيرة في الإيمان، وأبي عبيد القاسم بن سلام رسالة أيضًا صغيرة تتعلق بالإيمان، وتوسـع آخـرون فكتبـوا في ذلـك كتبًـا واسـعة، ومـنهم: الإمـام ابـن

بطة ـ رحمه الله ـ كتابه الذي سماه: «الإبانة الكبرى»، و«الإبانة الصغرى» التي احتوت على أدلة واضحة رواها بالأسانيد، وهكذا كتب الآجري ـ رحمه الله ـ كتابًا واسعًا سماه: «الشريعة»، وهكذا كتب اللالكائي كتابًا واسعًا في شرح أصول اعتقاد أهل السنة. وكلها مطبوعة متوفرة والحمد لله.

وكذلك للبربهاري ـ رحمه الله ـ رسالة بعنوان: «شرح السنة» مطبوعة أيضًا، كلها تتعلق بعقيدة أهل السنة والجماعة. وكذلك نظم ابن أبي داود منظومة حائية في عقيدة أهل السنة[1]، يقول في أولها:

تَمَسَّكْ بحبْلِ الله واتَّبعِ الهُدَى ... ولا تَكُ بدْعِيًا لَعلَّكَ تُفْلِحُ

... إلى آخر ذلك.

وكتب أيضًا كثيرٌ من العلماء الذين كانوا قد دخلوا في علم الكلام، وذلك أن أبا الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ كان في أول الأمر معتزليًا، متتلمذًا على الجبائي ونحوه، ثم إنه جرت بينهما مناقشة في بعض المسائل، فعجز الجبائي عن أن ينتصر عليه، فترك مذهبه، ثم إنه اعتنق مذهب ابن كُلاَّب المشهور، ولـمَّا انتقل إلى مذهب ابن كُلاَّب بقي على ذلك مدة طويلة، وألَّف عليه كتبًا كثيرة، اشتهرت تلك الكتب، وتلقاها جمع من العلماء في القرن الرابع، واشتهر عنه أنه على تلك العقيدة، وصار المذهب الأشعري هو الذي يُعرف وينتشر في شرق البلاد وغربها إلا ما شاء الله.

---

(١) وقد شرحها سماحة شيخنا عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين ـ حفظه الله ـ في رسالة مستقلة.

ثم إن الأشعري ـ رحمه الله ـ رجع في آخر أمره، وألّف رسالة له مختصرة اسمها: «الإبانة في أصول الديانة»، ونعم ما فعل، فقد نصر فيها الحق، وذكر أنه على طريقة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وكأنه ترك طريقة الْكُلاَّبي، وكذلك أيضًا أَلَّف كتابًا واسعًا في فرق الأمة اسمه: «مقالات الإسلاميين»، ولما أتى على مقالة أهل السنة توسع في ذكر عقيدتهم، وقال في آخر ذلك: «وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب»[1].

ومع صراحة كلامه فإن المذهب الأشعري لم يزل متمكنًا إلى زماننا هذا، ومع ذلك فإن أهله يجادلون على ذلك المذهب، وهو ليس مذهب أهل السنة حقًا، ولو ادعى بعض الأئمة وبعض العلماء أنهم من السنة ـ أعني الأشاعرة وكذا الماتريدية ـ وذلك لمخالفتهم لأهل السنة في أمور كثيرة، فهم لا يثبتون صفة العلو، ولا صفة الاستواء، ولا الصفات الفعلية كالمحبة والرضى والغضب والرحمة والعجب والضحك وما أشبه ذلك، ولا يثبتون صفة الوجه ولا صفة اليد وما أشبهها، وهكذا أيضًا ينفون النزول والمجيء وما أشبه ذلك، مما يدل على أنهم ليسوا على مذهب أهل السنة الصحيحة.

وقد اشتهرت مؤلفاتهم، وتمكنت عقيدتهم، ولَـمّا أظهر الله شيخ الإسلام ابن تيمية في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن جادلهم، وخافوا مجادلته؛ لأن له شعبية ومكانة وشهرة في المسلمين في زمانه، حيث يعترفون بفضله،

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (٢٩٧).

ويقدرونه ويرفعون من مكانته، ولأجل ذلك جادلوه مجادلات قوية في دمشق، وفي مصر، وفي كلها يظهر عليهم، ولا يجدون حيلة إلا أن يأمروا السلطان بأن يسجنه، فسُجن مرارًا في مصر، ثم سُجن أخيرًا في دمشق حتى مات، وأحبه المسلمون ولو ضلله وكفره من يكفره من كثير من المخالفين له من العقيدة، فلا عبرة بهم ولو كثروا، فإنه لا يضر السحاب نبح الكلاب.

وكان من المتقدمين الذين كتبوا، ولكنهم قربوا من المذهب الأشعري: البيهقي - رحمه الله - في كتابه «الأسماء والصفات»، فإنه تساهل في ذلك، وكان له بعض الهفوات، ولكنه من المُحَدِّثين، ولا يستطيع أن يكتم الأحاديث التي صحت عنده بالأسانيد، فروى الأحاديث الكثيرة بإسناده في كتابه «الأسماء والصفات»، ولكن قد أفسده كثير من الذين حققوه وطبعوه، وصرفوا ما فيه عن ظاهره. وله أيضًا كتاب «الاعتقاد» على عقيدة أهل السنة، وإن كان فيه شيء من الإجمال وعدم التصريح بعقيدة أهل السنة التي تخالف معتقد الأشاعرة.

وكان من جملة المتقدمين الذين كتبوا في العقيدة: الشيخ العالم الطحاوي رحمه الله، الذي كان شافعيًا، ثم حصل بينه وبين علماء الشافعية شيء من الخلاف، فتحول وصار حنفيًا، وتعصب للمذهب الحنفي، وألف رسالته، عُرفت بـ«العقيدة الطحاوية».

وهذه العقيدة ألَّفها الإمام أحمد بن جعفر الطحاوي الحنفي، المتوفى سنة ثلاثمائة وواحد وعشرين للهجرة، واسمها: «بيان السنة والجماعة»، وقد اعتنى

بها كثير من الحنفية وشرحوها:

أولًا: شرح شجاع الدين هبة الله بن أحمد المعلى التركستاني، المتوفى سنة سبعمائة وثلاث وثلاثين.

ثانيًا: شرحها نجم الدين بكبرس بن يلنقح التركي، المتوفى سنة ستمائة واثنتين وخمسين، في مجلد كبير سماه: «النور اللامع والبرهان الساطع».

ثالثًا: شرحها صدر الدين على بن أحمد بن أبي العز الأذرعي الدمشقي الحنفي، المتوفى سنة سبعمائة واثنتين وتسعين.

رابعًا: شرحها محمود بن أحمد بن مسعود القونوي الحنفي، المتوفى سنة سبعمائة وسبعين، شرحًا بسيطًا، أوله: حمدًا لله المتوحد بكمال صمديته، وسماها: «القلائد في شرح العقائد».

خامسًا: القاضي سراج الدين عمر بن إسحاق الهندي الحنفي، المتوفى سنة سبعمائة وثلاث وسبعين، رتب الأصل على مقدمة ومهمات وتتمة، وفي مقدمته عشر تنبيهات.

سادسًا: شرحها المولى أبو عبد الله محمود بن محمد بن أبي إسحاق الفقيه الحنفي القسطنطيني، وأول شرحه: الحمد لله الذي هدانا لهذا. وأتمه سنة تسعمائة وستة عشر.

سابعًا: شرحها المولى كافي الحسن البسنوي الأقحصاري، المتوفى سنة ألف وخمس وعشرين، شرحًا وجيزًا وسماه: «نور اليقين في أصول الدين»، أتمه عند المحاصرة تحت قلعة استرغون سنة ألف وأربع وعشرين قبل الفتح بيومين.

مما يدل على عناية علماء الحنفية بهذه العقيدة، ولكن الكثير من الذين شرحوها سلكوا طريقة الأشاعرة، ولم ينهجوا نهج العقيدة السلفية إلا ابن أبي العز الأذرعي رحمه الله، فإنه من أهل السنة؛ وذلك لأنه تتلمذ على الإمام أبي الفداء ابن كثير صاحب التفسير والتاريخ رحمه الله، وكان ابن كثير قد تتلمذ أيضًا على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، بحيث إنه قرأ عليه واختص به، ومات شيخ الإسلام وعمره ثمان وعشرون، ولكنه تأثر به كثيرًا، وصحح معتقده ولو كان شافعي المذهب. فلما قرأ عليه الأذرعي - رحمه الله - تأثر به أيضًا، وصحح العقيدة وأصبح من أهل السنة الذين ينصرون السنة ويبتعدون عن البدع وما أشبهها.

وهذا الشرح لابن أبي العز هو الذي طُبع في هذه المملكة، وذلك لأن علماء أهل السنة عرفوا ميله ووجدوه موافقًا ومناسبًا لما عليه أهل السنة، فلأجل ذلك طُبع مرارًا، وكذلك أيضًا قُرر شرحه على الكليات في هذه البلاد، فيُقرأ في كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود، وكذلك في جامعة أم القرى، وفي الجامعة الإسلامية، وقد اشتهر - والحمد لله - وعرفوا بذلك صحة معتقده، مع أن الطحاوي - عفا الله عنه - لم يُفصح بكثير مما كان عليه السلف الصالح، ولكن استنبطوا ذلك من بعض الإشارات وبعض الأماكن. وذكر أيضًا كلمات فيها شيء من الإجمال أو الكلمات التي لم يستعملها أهل السنة، مثل: التنزيه عن الأبعاض والأعراض، والجهات الست، وما أشبهها. وحمله على ذلك أن هذا قد اشتهر في زمانه عند الذين تسموا بأنهم أشعرية،

ولكنه ـ رحمه الله ـ حملها على أحسن محامل، وقد أكثر في شرحه هذا من النقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وعن ابن القيم من كتبهما الموجودة، ولكنه لا يتجرأ على الإفصاح بالنقل عنهما؛ لأنه قد اشتهر عند أهل زمانه ومن قبلهم ومن بعدهم أن ابن تيمية مجسمٌ، وأنه ممن خالف معتقد الأشاعرة، وكذلك أيضًا تلميذه الذي سلك طريقته الإمام ابن القيم رحمهما الله.

فهو ينقل عن كتبهما كثيرًا، ولكنه لا يُفصح باسميهما، فينقل ذلك وكأنه كلام منه، ثم بعد ذلك يضيف إليه عبارات وتصرفات، وكذلك أيضًا بعض الملاحظات وما أشبهها. ولما أتى على الإيمان ـ الذي هو عند الحنفية اسم للتصديق فقط ـ عند ذلك حاول أن يذكر أن الخلاف ليس معنويًا وإنما هو خلاف لفظي، وتكلف في صرف كلام الطحاوي، ولكنه لم يصنع شيئًا، كما قال ذلك كثير من الأئمة.

وبكل حال فإن هذا الشرح هو الذي اشتهر والحمد لله، وقبله حتى الحنفية الذين هم متشددون في أطراف البلاد في الهند والسند والباكستان والأفغان وفي تلك البلاد، الذين يتمسكون بالمذهب الحنفي، والذين يتقبلون ما جاء في كتب الحنفية، فلأجل ذلك أصبح مرجعًا عندهم وعند غيرهم؛ لأنه يتقيد بما كان عليه السلف الصالح رحمه الله تعالى.

وحيث إن هذا المتن محتوٍ على جل العقيدة وإن كان فيه بعض الملحوظات، فقد يسر الله أن قمت بشرحه مفردًا في كثير من الدورات في هذه البلاد وفي غيرها، في الإجازات التي نتولى فيها شرح كثير من المتون، ونشرحها

شرحًا غير موسع بقدر ما يحتمله الوقت الذي هو وقت تلك الدورة؛ كأسبوع أو خمسة أيام أو نحو ذلك. وهكذا أيضًا شرحه كثير من المشايخ في مثل هذه الدورات في المملكة وفي غيرها، وكل ذلك دليل على أنهم اهتموا بهذا الشرح، وأنه قريب من معتقد أهل السنة.

أما شرح ابن أبي العز فقد يسر الله أن قمت بشرحه أو بالتعليق عليه، وكان ذلك في ابتداء سنة ألف وأربعمائة وثمان للهجرة، وذلك في مسجد الراجحي القديم الذي في الربوة.

وكذلك يكون هناك درس آخر في «عمدة الأحكام» وغيرها من المتون، ثم تُلقى أيضًا أسئلة كثيرة، ثم نجيب على كثير منها.

وكان الذي يتولى تسجيله هو تسجيلات الراية، فيأتي منتدب منهم ويسجل الدرس متنًا وشرحًا، وكذلك الشرح الثاني، وكذلك الإجابة على الأسئلة. وبقيت تلك الأشرطة عند ذلك الفرع، ثم قام بتفريغها أخونا الشيخ الدكتور طارق بن محمد الخويطر، وفقه الله وسدده.

وطريقتنا في الشرح أن يُقرأ علينا شرح ابن أبي العز ثم أتكلم عليه إجمالًا، نتكلم على الجملة التي شرحها، ولم أتمكن من مطالعة شروح غيره، ولا أستعد لذلك، ولا أقدر على أن أُحَضِّر لذلك الدرس، وإنما أتكلم بما فتح الله وبما أعرفه من المعلومات القديمة، وأشغل بذلك أكثر الوقت إلى قرب الأذان، ثم بعده نقرأ في متن آخر. وقد يفوتني كثير من الجمل لا أتعرض لها في شرحي، وذلك إما لضيق الوقت، وإما لنسياني بعض الجمل أو بعض الأدلة التي

يستدل بها ابن أبي العز رحمه الله، حيث إنه يذكر أدلة كثيرة؛ لأنه يكتب على مهل، وأما أنا فأتكلم ارتجالًا بما استحضره مما يتعلق بتلك الجملة، أريد بذلك التوسع، وأريد إفهام الحاضرين الذين قد لا يفهمون الكلام الفصيح الذي يأتي به الشارح، فإذا فصلته وذكرت بعض الأمثلة والأدلة فإنهم قد يفهمونه أكثر.

هكذا استمر على ذلك عملنا إلى أن أنهينا ذلك الشرح والحمد لله، ولكن مع ذلك قد فاتنا شيء كثير، إما أننا لم نشرحه - لبعض الجمل - وإما أنه فات الذين يسجلون، حيث إنهم قد يغيب المسجل أحيانًا؛ لانشغاله في بعض الأوقات، ومن جملة ما لم يُسجل مقدمة ابن أبي العز مع طولها، وكذلك كثير من الجمل التي بأول الكتاب لم نجد أنها سُجلت. وحيث إنها بحاجة إلى أن تُشرح وأن يكون شرحها مساويًا لشرح غيرها مما بعدها طلب مني الدكتور طارق - حفظه الله - أن أشرحها، وأن أكمل ذلك الشرح حتى يكون الكتاب واسعًا، وحتى يُطبع ويُستفاد منه، وقد يصل إلى مجلدين أو أكثر إذا فُرغ كله وطُبع كطبعة شرح ابن أبي العز.

وأقول بعد ذلك إنني أعتذر عما قد يكون في الشرح من الهفوات ومن الأخطاء التي قد يكون سببها عدم الاستحضار، وسأحرص أنا وأخونا طارق الخويطر على تتبع الشرح وملاحظة ما فيه، وإصلاح ما قد يحتاج إلى إصلاح، ويحتاج أيضًا إلى تكميل. وكذلك أيضًا تخريج الأحاديث التي فيه والآثار.

وأما النقول التي ينقلها من كلام ابن القيم أو من كلام الشيخ ابن تيمية

ـ رحمهما الله ـ فإن تمكنا أشرنا إلى مواضعها من كتب الشيخين، وإن لم نعثر عليها أو لم نتمكن اقتصرنا على الإشارة إلى أن هذا من كلام فلان، أو لا نتمكن من ذكر ذلك.

أما تخريج الأحاديث التي في الشرح فقد تولى تخريجها الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، وسوف نعتمد فيها على تخريجه وفيه الكفاية. وهكذا أيضًا ما نزيده وما نضيفه نحرص أيضًا على أن نسجل شيئًا من التعاليق وما أشبهها، وقد يتولى ذلك الشيخ الدكتور طارق الخويطر أثابه الله، وقد نشير إلى بعضها عند الحاجة إلى ذلك مع أنه قد يكون كثير منها يذكر الشارح من خرجه، إلا أنه يحتاج إلى الجزء والصفحة حتى يرجع إليها المراجع؛ وذلك لأنها قد تُذكر بالمعنى في نفس الكتاب، ونذكرها أيضًا ونغير من لفظها، فإذا رجع إليها المراجع ووجد لفظها عرف بأنها ذُكرت بالمعنى، والأحاديث بلا شك تختلف ألفاظها عند المخرجين، حتى عند المخرج الواحد، بحيث إن الأحاديث التي في صحيح مسلم يختلف لفظها مع كونها عن راوٍ واحد، وكذلك أيضًا في صحيح البخاري، فضلًا عن الكتب الأخرى.

كذلك أيضًا نحرص على إضافة ما نستطيعه من توضيح لبعض الجمل، وننبه على بعض الأخطاء التي قد يكون فيها شيء من الخطأ العقدي الذي قلد فيه المؤلف ما اشتهر في معتقدهم من معتقد الأشاعرة، وننبه أن هذا اجتهاد منه، وهو مأجورٌ حيث إن هذا المعتقد ـ الذي هو المعتقد الأشعري ـ كاد أن يغطي بقية المعتقدات، وكاد أهل السنة ألا يعرفوا شيئًا في ذلك الزمان إلا هذا

المذهب إلا ما شاء الله، وكان أهل السنة يستخفون بمعتقدهم، وينالهم شيء من الأذى إذا صرحوا بذلك؛ كما حصل للإمام البربهاري الذي في القرن الرابع لمَّا صرَّح بعقيدة أهل السنة، حاربه أهل زمانه وأساؤوا إليه؛ لأنه جهر بذلك . وهكذا لمَّا أن أبا يعلى - رحمه الله - وكتب بعض الرسائل التي تتعلق بصفة العلو وبإثبات الصفات، خطؤوه أو ضللوه وقالوا: إن أبا يعلى رجل مشبه أو مجسم. فاعتذر بأنه لم يأت بشيء من نفسه، وإنما نقل من كتب الأئمة؛ كالإمام أحمد وابنه والخلال وغيرهم، ممن سلكوا هذا المسلك.

ولكن لما أن هؤلاء - في القرن الرابع وما بعده - انشغلوا بهذا المعتقد الجديد الذي هو معتقد الأشاعرة كما يقولون، مع أن الأشعري - رحمه الله - تراجع عن ذلك، ولكن تمسكوا بهذا وانتشر هذا المعتقد الذي هو معتقد الأشاعرة، وصاروا يجادلون عليه ويؤلفون فيه مؤلفات تتعلق بذلك، كالعقائد النسفية، وكذلك بدء الأمالي، وكذلك متن الخريدة، وغير ذلك، حتى ذكر بعض ذلك الشيباني أيضًا في عقيدته التي نظمها، وقال[1]:

سَأَحْمَدُ رَبِّي طَاعَةً وَتَعَبُّدًا وَأَنْظِمُ عِقْدًا فِي الشَّرِيعَةِ أَوْحَدَا

وهكذا في بدء الأمالي وغيرها من الشروح، وكذلك المتون التي كتبوها واعتنوا بها وشرحها كثير منهم، كلها على هذا المعتقد الذي هو معتقد الأشاعرة. وانتشر ذلك حتى في القطر الغربي الذي هو جهة الأندلس،

---

(١) انظر: كشف الظنون (٢/ ١٣٤٠).

وكذلك المغرب وأفريقيا، والمشرق كله - بلاد الهند والسند والأفغان والباكستان ونحو ذلك - تمكن عندهم هذا المعتقد.

فنقول: إن هذا المعتقد فيه شيء من الأخطاء التي نبه عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في مؤلفاته، وابن القيم في كتابيه: «اجتماع الجيوش الإسلامية»، و«الصواعق المرسلة»، والإمام الذهبي في كتاب «العلو». ومن جاء بعدهم على نهجهم وسلك ذلك أئمة الدعوة الذين هداهم الله تعالى، ويسر لهم أن اعتنقوا هذا المعتقد وكتبوا فيه، وكذلك العقائد التي كتبها أئمتنا ومشايخنا في زماننا، كلها - والحمد لله - على عقيدة أهل السنة والجماعة.

كتب في ذلك الشيخ زيد بن فياض - رحمه الله - شرحًا وافيًا على العقيدة الواسطية، والشيخ عبد العزيز بن رشيد - رحمه الله - شرحًا وافيًا ضافيًا على العقيدة الواسطية، وألف الشيخ عبدالرحمن بن سعدي - رحمه الله - أيضًا متنًا مختصرًا في بيان العقيدة السليمة الصحيحة، وهكذا أيضًا شيخنا الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين - رحمهما الله - وشرح أيضًا شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - الواسطية شرحًا متوسطًا، وكذلك أيضًا شرح الحموية شرحًا متوسطًا، وكل ذلك دليل على أنهم تبنوا هذه العقيدة التي هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وخافوا أن تفشو عقيدة الأشاعرة التي عليها الكثير من الوافدين ومن تلك البلاد، والتي يتمسكون بها ويدّعون أنها هي الصواب، مع ما فيها من المخالفة للنصوص، ولكن يعتمدون في عقائدهم على أدلة عقلية في

نظرهم أنها سليمة لا يقع عليها شيء من الخطأ، ولكن ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾ [فاطر:٨].

ونقول: نحن ـ والحمد لله ـ على العقيدة السليمة، تُدرس هذه العقيدة في هذه الدولة في المعاهد العلمية، والكليات الإسلامية وغيرها، يتلقى ذلك الطلاب عن مشايخهم الذين يثقون بهم، يشرحون لهم ما تيسر من هذه المتون، كـ «الواسطية» لابن تيمية، وكذلك «لمعة الاعتقاد» للإمام موفق الدين، وعقائد أيضًا لبعض أهل زمانهم لابن رجب ـ رحمه الله ـ تتعلق بالصفات؛ ذلك لأنهم أيضًا تأثروا بمن في زمانهم كابن تيمية ونحوه، فكانوا على العقيدة السليمة الصحيحة، تبنوا هذه العقيدة وساروا عليها، وهدى الله من شاء إليها، ولو أنكر ذلك وبدَّع في زماننا الكثير من الذين على المعتقد الأشعري، ومنهم: زاهد الكوثري وغيره، فإنه أخذ يمتعض وينهى عن طبع بعض كتب أهل السنة كـ «الرد على المريسي» للدارمي، وكتاب «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد رحمه الله، وغيرهم، إلى أن ظهر الحق واستبان، والحمد لله.

ولا عجب إذا امتعض هؤلاء أو أظهروا بعض الإنكار للمسائل العقدية التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وبيّن أدلتها النبي ﷺ، واعتمد فيها أهل السنة على الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة.

قوله: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ابتدأ ـ رحمه الله تعالى ـ بالبسملة

والحمدلة تأسيًا بالقرآن الكريم، فإنه ابتدأ بالبسملة والحمدلة، وكان النبي ﷺ يبدأ مكاتباته بالبسملة في كتابته لغيره من الملوك ونحوهم إذا كتب يدعوهم إلى الله تعالى[١]، وقد رُوي أنه ﷺ قال: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فيه بِبِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ فَهُوَ أَقْطَعُ»[٢]، وفي رواية: «لاَ يُفْتَحُ بِذِكْرِ الله عز وجل فَهُوَ أَبْتَرُ»[٣]، وفي رواية: «لا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ الله فَهُوَ أَقْطَع»[٤]، وفي رواية: «أجذم»[٥]. والمعنى: أنه ناقص البركة.

وهذه التسمية ذُكرت في القرآن في أوائل السور ما عدا سورة براءة، وقد

---

(١) كما في كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وفي أوله: «بِسْم الله الرحمن الرَّحِيمِ، من مُحَمَّدٍ عبد الله وَرَسُولِهِ إِلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ على من اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ...»، أخرجه البخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان ﷺ.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٢٥٥)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان (١/ ١٧٣)، والبيهقي (٣/ ٢٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٤١) من حديث كعب بن مالك ﷺ. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٤٣): «قال النبي ﷺ: كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع، وفي رواية: بحمد الله، وفي رواية: بالحمد فهو أقطع، وفي رواية: أجذم، وفي رواية: لا يُبدأ فيه بذكر الله، وفي رواية: ببسم الله الرحمن الرحيم، روينا كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي سماعًا من صاحبه الشيخ أبي محمد عبدالرحمن بن سالم الأنباري عنه».

اختُلف فيها هل هي من القرآن أو لا؟ ولا خلاف أنها بعض آية من سورة النمل في قصة سليمان -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل:٣٠]. وهي تتضمن التبرك باسم الله، والتقدير: باسم الله أتبرك، أو تبركي باسم الله، وذلك لأن الاسم الشريف يُتبرك به؛ لأنه دال على ذات الإله وحده، فالله تعالى هو ذو الألوهية والعبودية على خلقه.

ثم قد وصف نفسه وسمى نفسه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر»[1]. وقيل: الرحمن رحمة عامة لجميع الخلق، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٣].

والرحمة صفة من صفات الله تعالى التي تليق به، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ»[2]. ولما رُفع له ابن ابنته ونفسه تقعقع فاضت عيناه، فقال له سَعْدٌ: يا رَسُولَ الله ما هذا؟ فقال: «هذه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله في قُلُوبِ عِبَادِهِ»[3]. وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فرآه يُقَبِّلُ الْحَسَنَ، فقال: إِنَّ لي عَشَرَةً من الْوَلَدِ ما قَبَّلْتُ وَاحِدًا منهم، فقال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، والبيهقي (٩/ ٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[1].

فدل على أن «الرحمن» اسم من أسماء الله ينطبق على الذات الربانية، وكذلك أيضًا يدل على صفة الرحمة التي تليق بالله تعالى، ولا نؤولها ولا نكيفها إلا أنها رحمة حقيقية، وقد أخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١].

ثم يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: (حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْل)، هكذا جاء في مقدمة هذه الخطبة، وجاء في بعض الروايات بدلها: (الحَمْدُ لله، وَصَلَّى اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ)، وكل ذلك ثابت، وقد كان النبي ﷺ يُعَلِّم أصحابه خطبة الحاجة، فيقول: إذا كان لأحدكم حاجة فليقل: «الحَمْدُ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»[2]، هذه الخطبة ذكرها عبد الله بن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) هذه خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي ﷺ بين يدي حاجته، أخرجها مسلم مختصرة من حديث جابر ﷺ (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود ﷺ عند أبي داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ شرح لها في جزء لطيف.

مسعود ﷺ، ورُويت في كتب السنن، وهي خطبة لائقة مناسبة، ابتُدِئت بالحمد الذي هو الثناء على الله تعالى.

وقد فُسر الحمد بأنه فعل يُنبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره، وقيل: إن الحمد هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله.

ثم يقول: (نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ)، الواجب أن العباد يستعينون بالله في كل حاجاتهم، ولذلك جاء في سورة الفاتحة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: نطلب منك الإعانة فإنك أنت الذي تعين؛ كما في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١١٢]. فالعباد يستعينون به على أمور دينهم حتى يوفقهم ويعينهم؛ ليعملوا الأعمال الصالحة التي كلفهم الله بها والتي يحبها الله، ويستعينون به على أمور دنياهم في تجاراتهم وحروثهم وبناء بيوتهم وغير ذلك، فإنه لو وكل العبد إلى نفسه لوكله إلى ضيعة، فلأجل ذلك لابد أن يطلب من ربه الاستعانة على كل شيء من أمور الدنيا والدين.

وأما الاستغفار فإنه طلب المغفرة، والتي هي غفر الذنوب وسترها وإزالة أثرها، والعبد بحاجة إلى أن يغفر الله له، وذلك لأنه محل الخطايا، ويكتسب الكثير من الذنوب، فإذا كثرت عليه الذنوب ولم يطلب من ربه محوها تراكمت عليه وأهلكته، فلابد أنه يطلب من ربه الغفر أي: الستر، (نستغفرك) أي:

نطلب منك غفر الذنوب، يعني: محوها وإزالة أثرها حتى لا تتراكم علينا.

وقد وردت أدلة كثيرة في القرآن والسنة في الأمر بالاستغفار، من ذلك: قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:٣]، وكذا قول نوح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح:١٠، ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:٩٠]، وقول الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد:١٩]، وذكر الله عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح:٢٨]، طلب من ربه أن يغفر له ولوالديه، وقد كانا مؤمنين.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا)، الاستعاذة: مشتقة من العياذ الذي هو الاحتماء، نعوذ: يعني نحتمي بربنا، ونستجير به، ونسأله الحفظ لنا من كل ما يسوؤنا، فالاستعاذة: هي الالتجاء واللياذ والاعتصام والاستجارة بالرب سبحانه وتعالى. ولا شك أن المستعيذ يشعر من نفسه بالعجز، ويشعر من نفسه بالتذلل، ويشعر من نفسه بالضعف، فينطرح بين يدي ربه، ويطرح نفسه على باب الرحمة، يطلب من ربه أن يحميه ويحوطه، ويحفظه من كل سوء، ومن الشرور التي تحدق به، ومن الشياطين من الإنس والجن الذين يكيدون له. فالله تعالى هو الذي يعيذ من استعاذ به، وهاهنا

الاستعاذة من شرور الأنفس، ومن سيئات الأعمال، كأنه يقول: إن أنفسنا فيها شرور، وأنت الذي تعيذنا من تلك الشرور، بأن تعصمنا وتحفظنا أن نقترف شرورًا مما تجرنا إليه الأنفس، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وكذلك سيئات الأعمال، أي: الخطايا والذنوب التي وقعنا فيها وعملناها، نعوذ بك أن نصر على سيئات، ونعوذ بك أن نقع في محرمات، وأن نقع في الخطايا والذنوب، نسألك أن تحفظنا من تلك السيئات، وأن تعفو عنا وتغفرها لنا.

ثم يقول: (مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ)، الهداية من الله: التوفيق، فهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فمن هداه الله تعالى ووفقه وسدده، فلا يقدر أحد على أن يضله، ولا على أن يصرفه عن ذلك الهدى، ومن أضله وحكم عليه بالضلال، فلا حيلة في هدايته، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر:٣٦]، يعني: من أضله الله حكم عليه فما له من هاد، ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ [الزمر:٣٧]، أي: من وفقه الله واهتدى فليس له من يتسلط عليه ويقدر على إضلاله، بل يحفظه الله تعالى ويوفقه.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (وأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)، هاتان الشهادتان ركن من أركان الإسلام، بل هما الركن الأساس والذي لا يقبل الله من أحد الإسلام إلا إذا أتى

بالشهادتين، موقنًا بهما وعاملًا بمقتضاهما.

والشهادة: معناها الإقرار والاعتراف، أي: أقر وأعترف على نفسي، وأعلم علمًا يقينًا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ومعنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله، أي: لا أحد يستحق العبادة غير الله، فإنه الإله وحده. والإله: هو الذي تألهه القلوب، محبةً ومودةً وتقربًا إلى الله وتعظيمًا، أي: لا أحد يستحق أن يؤلَّه ويُعبد ويُعظم ويُقدس إلا الله وحده لا شريك له.

كلمة (لا إله إلا الله)، أولها نفي (لا إله)، وآخرها إثبات، نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله، ومثبتًا العبادة لله وحده.

وكلمة (وحده لا شريك له)، وحده: تأكيد للإثبات، أي: الله وحده هو الإله، و(لا شريك له)، تأكيد للنفي، أي: لا إله يشاركه.

وقد تكلم العلماء - رحمهم الله - على هذه الشهادة، وبالأخص أئمة الدعوة، وذكروا لها سبعة شروط، نظمها بعضهم في قوله:

عِلْمٌ يَقِيْنٌ وَإِخْلاصٌ وَصِدْقُكَ مَعَ مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولِ لَهَا

أولًا: العلم: يعني أن يكون الذي يقول (لا إله إلا الله) يعلم بمعناها، يعلم ما تدل عليه من إثبات الإلهية لله التي هي العبادة، ومن نفي العبادة عن غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

ثانيًا: لابد أن يستيقن بما دلت عليه، أن يستيقن بمدلولها، يعلم يقينًا أن الإلهية لله وحده، ويوقن بذلك ويعتمده اعتقادًا جازمًا.

ثالثًا: أن يخلص الإلهية لله، فيعبد الله مخلصًا له الدين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، أي: قد أخلصوا دينهم وصفوه لله تعالى، فلا يطلبون من غيره، ولا يلتفتون إلى سواه، يعملون بقول الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٣].

رابعًا: أن يقولها صادقًا؛ لأن هناك من يقولها بلسانه ولا يعتقد معناها بقلبه، فالمنافقون وكثير من اليهود يقولونها ومع ذلك يشركون؛ لأنهم ما أيقنوا بأن الإلهية حق لله تعالى.

خامسًا: المحبة لما تدل عليه، والواجب على العباد أن يكون حبهم لله مقدمًا على حبهم لغيره، وكذلك محبتهم لأنواع العبادة كلها، أن يحبوا التواضع وأن يحبوا الخضوع وأن يحبوا الخشوع وأن يحبوا الدعاء لله وحده، ونحو ذلك من أنواع العبادة.

سادسًا: الانقياد، وهو الاتباع لما جاء في الحديث، ولما جاء في القرآن.

سابعًا: القبول، وهو تقبل كل ما جاء عن الله تعالى في القرآن وفي السنة.

وأضاف بعض العلماء إليها شرطًا ثامنًا، ونظمه بقوله:

وَزِيْدَ ثَامِنُهَا الكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... سِوَى الإِلَهِ مِنَ الأَنْدَادِ قَدْ أُلِهَا

دليل ذلك قول النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»[1]. فلا بد أن يكون المسلم كافرًا بالآلهة كلها، معتقدًا بطلان كل ما

(١) أخرجه مسلم (٢٣) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه رضي الله عنهما.

يُعبد من دون الله.

وأما شهادة أن محمدًا عبده ورسوله، فإنها أيضًا لازمة لكل من دخل في الإسلام، ولازمة أيضًا للمسلم أن يتقرب بها، وأن يكرر هذه الشهادة؛ لأجل ذلك قُرن بين الشهادتين في الأذان، فالمؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله. وكذلك في التشهد في آخر الصلاة أو في وسط الصلاة يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أي: أقر وأعترف أن محمدًا عبد الله ورسوله.

وهو سيدنا؛ لقوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١]، وفي رواية: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢]، واسمه العلم (محمد)، ذُكر في القرآن في عدة مواضع، وسُمي به لكثرة خصاله الحميدة، وسُمي به قبله سبعة عشر على ما قاله ابن الهائم؛ كما ذكر ذلك في مقدمة «الرَّوْض المُرْبع»[٣].

والشهادة هاهنا له بالعبودية والرسالة، أي: لابد أن يُشهد له أنه عبد وأنه رسول. والعبودية مشتركة بينه وبين غيره من سائر الخلق، فإنهم جميعًا عبيد الله: الملائكة والرسل والبشر كلهم عبيد لله، وذلك أنهم مملوكون له يتصرف فيهم كيف يشاء، فهو يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يسعد ويشقي، يفقر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) (١/ ٩).

ويغني، يريش ويبري، يتصرف فيهم بما يشاء، فهم عبيده وملكه. وكذلك الأنبياء أيضًا فخرهم وشرفهم الانتماء إلى العبودية، أنهم عبيد الله، ولذلك قال الله في حق نبينا ﷺ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة:٢٣]، ذكره بالعبودية يدل على أنه لم يترق إلى رتبة الربوبية، ولكنه عبدٌ شرفه الله تعالى بالرسالة. وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، هذا شرف له وهو أنه أُسري به إلى بيت المقدس كما ذُكر في هذه السورة: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾، وكذلك قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]. كل هذه صفات له بالعبودية، ولكنها تعتبر شرفًا؛ لأن العبد هو العابد المتعبد المتذلل لمعبوده.

ولا شك أيضًا أن الأنبياء كلهم عبيد لله، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص:١٧]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾[ص:٤١]، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥]، وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء:١٧٢]، فالملائكة عبيد لله؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، ونحو ذلك من الأدلة.

واختص ﷺ عن الأمة بأنه رسول، أي: أن الله تعالى اختاره لحمل الرسالة فأرسله إلى الناس كافة، وتميز على غيره من الرسل بأن دينه باقٍ، وأنه خاتم الأنبياء والرسل، وأن رسالته إلى جميع الخلق، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقد كان الأنبياء من قبله إنما يُبعث النبي إلى قومه خاصة وبُعث ﷺ إلى الناس كافة؛ كما في حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ ولم تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى الناس عَامَّةً»[1]، أرسله الله تعالى بهذه الرسالة التي هي هذه الشريعة، وفرض على الناس أن يطيعوه، وكل ذلك دليل على أن العبد عليه أن يشهد هاتين الشهادتين؛ ليكون دخوله في الإسلام دخولًا كاملًا.

ثم يقول: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا)، الصلاة من الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى. هكذا نقل البخاري عن أبي العالية[2]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) كما ترجم بذلك في صحيحه (٦/ ١٢٠) قال: «باب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾، قال أبو العَالِيَةِ: صَلاةُ الله ثَنَاؤُهُ عليه عِنْدَ المَلائِكَةِ».

والأصل أن الصلاة الدعاء؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، ولكنها من الله تستدعي رحمة ورفعة وأجرًا وثوابًا لمن يصلي عليهم(١)، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣]، أي: يرحمكم ويعفو عنكم.

ثم يقول: (وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ)، آله: قيل إنهم أهل بيته؛ كزوجاته وأعمامه وبني عمه من بني العباس ومن بني أبي طالب ومن بني عقيل ونحوهم، كلهم أهله وأقاربه، وكذلك زوجاته فإنهن من أهل بيته، وبيوته بيوتهن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾[الأحزاب:٥٣]، أي: بيوت زوجاته. فقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأحزاب:٣٣]، هذا خطاب لأمهات المؤمنين، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، هاهنا ذكَّر، ولم يقل: (ويطهركن)؛ لأن النبي ﷺ دخل معهن لأنه صاحب البيت، أي: يريد الله أن يطهركم أنت وبيوتك وزوجاتك ومن فيهن، وهكذا أيضًا أقاربك.

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٩٨): «في صلاة الله علينا خمسة أقوال:
أحدها: أنها رحمته، قاله الحسن، والثاني: مغفرته، قاله سعيد بن جبير، والثالث: ثناؤه، قاله أبو العالية، والرابع: كرامته، قاله سفيان، والخامس: بركته، قاله أبو عبيدة .

وهناك من يقول: إن آله هم أتباعه على دينه، ورجح ذلك بعض العلماء، منهم: الشوكاني في «نيل الأوطار»[1]، وأنشد قول الشاعر:

آلُ النَّبِيِّ هُمُو أَتْبَاعُ مِلَّتِهِ ... مَنْ كَانَ مِنْ عَجَمٍ مِنْهُمُ وَمِنْ عَرَبِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ آلُهُ إِلَّا قَرَابَتُهُ ... صَلَّى الْمُصَلِّي عَلَى الطَّاغِي أَبِي لَهَبِ

وبكل حال يصدق على أن آله أتباعه، وأن آله خاصة أهل بيته؛ لأنه جاء في بعض الروايات: «اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ»[2].

وأما (صحبه)، فإنهم صحابته الذين اتبعوه وساروا على طريقته، وصدقوه ولم يكذبوه، وعملوا بسنته عملًا كاملًا، عملوا بها في الأقوال والأعمال، ولم يتخلفوا عنه في شيء من الغزوات، بل هم دائمًا يغزون معه.

ومن أشرافهم وأكابرهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذا بقية الستة: سعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعامر الذي هو أبو عبيدة بن الجراح، وكذلك بقية الصحابة، فقد رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾، هؤلاء من السابقين الذين هاجروا والذين نصروا الله، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾، أي: جاؤوا بعدهم

---

(١) فِي بَابِ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى تَفْسِيرِ آلِهِ الْمُصَلَّى عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ صِفَةِ الصَّلَاةِ (٢/ ٣٢٧ - ٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧) من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

متأخرين وصحبوا النبي ﷺ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

ثم يقول: (وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا)، والسلام: دعاء بالسلامة، أي: صلِّ وسلم عليه وعلى آله وأصحابه جميعهم، أكثر تسليم وأتمَّه.

قال الشارح:

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّهُ لَـمَّا كَانَ عِلْمُ أُصُولِ الدِّينِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ، إِذْ شَرَفُ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ، وَهُوَ الْفِقْهُ الأَكْبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِقْهِ الْفُرُوعِ، وَلِهَذَا سَمَّى الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ـ رحمة اللَّهِ عليه ـ مَا قَالَهُ وَجَمَعَهُ فِي أَوْرَاقٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ «الْفِقْهَ الأَكْبَرَ»، وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ حَاجَةٍ، وَضَرُورَتُهُمْ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ؛ لأَنَّهُ لا حَيَاةَ لِلْقُلُوبِ، وَلا نَعِيمَ وَلا طُمَأْنِينَةَ، إِلا بِأَنْ تَعْرِفَ رَبَّهَا وَمَعْبُودَهَا وَفَاطِرَهَا، بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيَكُونَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِمَّا سِوَاهُ، وَيَكُونَ سَعْيُهَا فِيمَا يُقَرِّبُهَا إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ.

قال الشيخ:

كلمة (أَمَّا بَعْدُ)، يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، وقد كان النبي ﷺ يأتي بها في خطبه[1]، وكذلك في مقالاته[2].

يقول الشارح ـ رحمه الله ـ: (فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ عِلْمُ أُصُولِ الدِّينِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ)، صحيح أنه أشرف العلوم، والمراد بأصول الدين: علم العقيدة؛ لأن العقيدة

---

(١) كما في حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، الذي أخرجه البخاري (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥) وفيه: «فَخَطَبَ رسول الله ﷺ الناس، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: أَمَّا بَعْدُ...».

(٢) كما في كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، المتقدم تخريجه.

تعتبر أصلًا لغيرها متى صحت العقيدة ورسخت في القلب وتمكنت من الضمير وأيقن المسلم بصحة تلك الأصول، فإنه بلا شك تنبعث جوارحه إلى العمل بما جاء. فعلم أصول الدين أشرف العلوم، وعلينا أن نهتم به، وعلم العقيدة أشرف من سائر العلوم؛ كعلوم الفقه وفروع المسائل، وعلوم السير، وعلوم الأدب، وعلوم اللغة، وعلوم النحو، وسائر العلوم، ويدل على ذلك قول بغض العلماء شعرًا:

الْعِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ خُلْفٌ فِيْهِ
مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ سَفِيْه
كَلاَّ وَلاَ نَصْبُ الْخِلافِ جَهَالَةً ... بَيْنَ النُّصُوصِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيْه[1]

وأما قول بعض النحويين:

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَّهَا ... فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيْمُ الأَلْسُن[2]

يعني: النحو.

فقد رد عليه ابن عبد البر في كتاب «العلم»[3] وقال:

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَّهَا ... فَأَجَلُّهَا عِنْدَ التَّقِيِّ الْمُؤْمِن

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٧٩)، والحطة في ذكر الصحاح الستة (ص٥١).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٨) بسنده عن أبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، المعروف بالمبرد.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٦).

عِلْـمُ الْدِيَانَـةِ وَهُـوَ أَرْفَعُهَـا لَـدَى كُــلِّ امْــرِئٍ مُتَفَقِّــهٍ مُتَــدَيِّنِ
هَـذَا الْـصَحِيْحِ وَلا مَقَالَـةُ جَاهِـلٍ فَأَجَلُّهَــا مِنْهَــا مُقِيْـمُ الأَلْــسُنِ
لَــوْ كَــانَ ذَا فِقْــهٍ لَقَــالَ مُبَــادِرًا فَأَجَلُّهَــا مِنْهَــا مُقِيْـمُ الأَدْيُــنِ

فعلم الأصول هو الذي يقيم الدين، وهو شرط في قبول بقية الأعمال، فإن من لم يحقق علم العقيدة فلابد أنه سيقع في البدع ويقع في المخالفات، فتُرد عليه أعماله.

وقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: (إِذْ شَرَفُ الْعِلْمِ بِشَرَفِ المَعْلُومِ)، يعني: أن المعلوم الذي هو أصول الدين أشرف من غيره، فالعلم الذي هو تعلم هذه الأصول هو أشرف كل العلوم؛ لأن معلوماته أشرف من غيرها.

ثم يقول: (وَهُوَ الْفِقْهُ الأَكْبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِقْهِ الْفُرُوعِ)، والمراد بفقه الفروع: مسائل العبادات والمعاملات والجنايات، وكذلك الآداب والأخلاق ونحوها، فإن أصول الدين أكبر من غيرها، فهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى سائر الفروع.

يقول ـ رحمه الله ـ: (وَلِهَذَا سَمَّى الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ـ رحمة الله عليه ـ مَا قَالَهُ وَجَمَعَهُ فِي أَوْرَاقٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ «الْفِقْهَ الأَكْبَرَ»)، أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ جمع له مسائل تتعلق بالعقيدة، وسماها: «الفقه الأكبر»، وقد نقل عنها العلماء، مما يدل على أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ كان على عقيدة سليمة في أمور الاعتقاد في الأسماء والصفات، نقل عنها ابن تيمية في «الحموية»[1]، وكذلك الذهبي في كتاب

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦).

«العلو»[1]، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية»[2]، ونقل غيرهم منها.

وهذه الرسالة تتضمن عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد اشتهرت، ولكن لما أن المتأخرين من الحنفية تغيروا في علم العقيدة، وصاروا أشعرية أو ماتريدية، أو نحو ذلك من البدع، ما راقتهم هذه العقيدة بل أصبحت مخالفة لما هم عليه، فلأجل ذلك سعوا في تغييرها، فغيروا منها شيئًا كثيرًا، وحذفوا منها بعض الجمل الصريحة، وكذلك أضافوا إليها كلمات تغير مدلولها. ويُرجع فيها إلى نقول العلماء الأولين كابن تيمية ومن معه، فإنهم نقلوا من أصلها. وقد شرحها بعض علماء الحنفية كأبي منصور الماتريدي، وعلي بن سلطان الهروي، كل ذلك دليل على أنها محل اعتماد.

يقول الشارح ـ رحمه الله ـ: (وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ حَاجَةٍ)، أي: حاجتهم إلى علم أصول الدين فوق كل حاجة إلى غيره من العلوم، وذلك لأن بالتعمق فيه تصح العبادات وتُقبل، وبالخطأ فيه يقع العالم في بدع ومحدثات، فتعلمه ضرورية؛ ولهذا قال: (وَضَرُورَتُهُمْ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ)، أي: أشد من ضرورتهم إلى المأكل والمشرب، أشد من ضرورتهم إلى النَفَس الذي يتلقونه بأفواههم، أشد من ضرورتهم إلى الأرواح؛ لأنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة لها إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته

---

(١) (ص١٣٤).

(٢) (ص٧٣).

وأفعاله، فمتى تعلم الناس معرفة الله تعالى، عرفوه بآياته ومخلوقاته وبدلالاته، وعرفوا أنه معبودهم وخالقهم، وأنه فاطر السَّمَوات والأرض، عرفوه بأسمائه الحسنى التي سمى بها نفسه، وسماه بها نبيه ﷺ، وعرفوه بصفاته العلى التي وصف بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ، واقتصروا في ذلك على ما وصفه به نفسه، وما وصفه به نبيه ﷺ، وابتعدوا عن البدع، وعرفوه أيضًا بأفعاله التي يتصرف بها في العباد أنفسهم، ويتصرف في جميع الخلق كيف يشاء، وأنه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فإن القلوب تحيا حياة طيبة وتطمئن في حياتها.

ولابد مع ذلك أن يكون الرب تعالى أحب إليها مما سواه؛ لقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: ٢٤]، وقال النبي ﷺ: «ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِليه مِمَّا سِوَاهُمَا...»[1] إلى آخره. معنى ذلك أن العبد إذا عرف ربه ومعبوده وخالقه، وأقر بأسمائه وصفاته، وأقر بإنعامه عليه، فلابد أنه يحبه محبة شديدة قوية ثابتة، ولابد أن يكون القلب سائرًا في كل ما يقرب إلى الله دون غيره من سائر المخلوقات.

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس ﷺ.

متى أحب العبد ربه كان سيره فيما يحب الله، وفيما يرضى به، وما يقرب إليه من الأعمال الصالحة، وأعرض عن غيره من المخلوقات، واعتمد على الله تعالى، وصبر على ما أصابه، وطلب من ربه قضاء حاجاته دون غيره، إذا مسه ضرٌ أو جهدٌ تضرع إلى الله تعالى وحمده؛ كما جاء أنه ﷺ لما خيّره الله بين أن يكون ملكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، قال: «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا»[1]، وجاء عنه ﷺ أنه قال: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قلت: لا يا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا، فإذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وإذا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»[2].

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وابن حبان (١٤/ ٢٨٠)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧١٠)، والبيهقي (٧/ ٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/ ٢٥٤)، والطبراني في الكبير (٧٨٣٥) من حديث أبي أمامة ﷺ.

قال الشارح:

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ تَسْتَقِلَّ الْعُقُولُ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَإِدْرَاكِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ، فَاقْتَضَتْ رَحْمَةُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أَنْ بَعَثَ الرُّسُلَ بِهِ مُعَرِّفِينَ، وَإِلَيْهِ دَاعِينَ، وَلِمَنْ أَجَابَهُمْ مُبَشِّرِينَ، وَلِمَنْ خَالَفَهُمْ مُنْذِرِينَ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَ دَعْوَتِهِمْ، وَزُبْدَةَ رِسَالَتِهِمْ: مَعْرِفَةَ الْمَعْبُودِ سُبْحَانَهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، إِذْ عَلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ تُبْنَى مَطَالِبُ الرِّسَالَةِ كُلِّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

قال الشيخ:

العقول مهما فكرت ومهما تأملت تعجز عن أن تستقل بمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وتعجز أن تدرك ذلك على التفصيل الذي جاء في رسالة الرسل، فاقتضت رحمة الله - وهو العزيز الرحيم - أن بعث الرسل، كما ذكر قصصهم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ [هود:٢٥]، ثم قال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود:٥٠] ... إلى آخره. وذكر وظائفهم بقوله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤].

فبعث الرسل يعرفون بربهم، يعرفون الخلق أن الإله الحق هو الله، وأنه خالق الخلق ومدبرهم، وأنه الذي تجب عليهم عبادته، يعرفون بالله، ويدعون الناس إليه؛ كما وصف الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا

مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٦]، وأخبر بأنهم يبشرون من أجابهم، وينذرون من خالفهم، وفي رسالة النبي ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥]، يبشر المؤمنين بأن لهم الجنة، وأن لهم النصر والتمكين، وأن لهم الثواب العاجل، ولهم الأجر في الآخرة، ويعدهم على ذلك بأن الله تعالى معهم، وأنه ينصرهم، وأنه يُعلي مكانهم، ويحذر الكافرين الذين يعصون الرسل، والذين يخالفون دعوة كل رسول، والذين يخالفون ما دلت عليه عقولهم، ويجعلون مع الله معبودات أخرى، أو يجحدون الله ويجحدون حقه عليهم، ينذرهم ويخوفهم بالعذاب الأليم.

أولئك الرسل مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم: معرفة المعبود سبحانه، بأسمائه وصفاته وأفعاله، بل يدعونهم إلى التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦]، أي: كل أمة جاءهم رسول يقول لهم: اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت، أي: الأصنام ونحو ذلك. فمفتاح دعوتهم معرفة الله تعالى وعبادته، فنوح - عليه السلام - قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩]، وكذلك قالها هود وصالح وشعيب - عليهم السلام - كلهم يقول: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]، أي: أنه جعل رسالتهم أنهم يأمرون بطاعة الله تعالى وطاعة

الرسل، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فهذا مفتاح دعوتهم، وهذا زبدة رسالتهم، أنهم يدعون إلى معرفة الله سبحانه، معرفته بأسمائه الحسنى، وبصفاته العلى، وبأفعاله في خلقه.

على هذه المعرفة تُبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها، كل الرسل متفقون على هذه الدعوة، وكلهم جاؤوا بالتوحيد، وحققوه ودعوا إليه.

قال الشارح:

ثُمَّ يَتْبَعُ ذَلِكَ أَصْلانِ عَظِيمَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَعْرِيفُ الطَّرِيقِ المُوَصِّلِ إِلَيْهِ، وَهِيَ شَرِيعَتُهُ المُتَضَمِّنَةُ لأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَالثَّانِي: تَعْرِيفُ السَّالِكِينَ مَا لَهُمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ.

قال الشيخ:

هذان أصلان عظيمان شريفان، فالأصل الأول: أن الرسل وأتباع الرسل يعرفون الأمة الطريق الموصل إليه، الذي هو الصراط المستقيم، والذي هو الشريعة المتضمنة للأمر والنهي، فإن الله تعالى لا يُعبد إلا بما أمر به، وبما قرره، وبما أنزله.

يقول الحفظي[1] ـ رحمه الله ـ:

والله لَيْسَ يَقْبَلُ الْعِبَادَه إِلَّا عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي أَرَادَه

ولا شك أن الطريق إلى الشريعة هو اتباع ما جاءت به الرسل الأولون والآخرون، فمن سار على نهجهم فهو على الصراط المستقيم.

والمصلي في صلاته يدعو بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]،

---

(١) هو الشيخ محمد بن أحمد الحفظي الحجازي اليمني، وهذا البيت من أرجوزة له نظمها في بيان دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، ذكر فيها مآثر آل سعود لما استجابوا لدعوته ونصروه، وقال في مطلعها: «الحمدُ حقًا مستحقًا أبدا لله رب العالمين سرمدا»

أي: دلنا وأرشدنا وثبتنا على الطريق الموصل إليك يا رب، الذي ليس فيه اعوجاج، والذي هو طريق من قبلنا ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، والذي هو هذه الشريعة التي جاءت بها الرسل، والتي تتضمن أمر الله تعالى ونحوه، أي: تحتوي على ما أمر الله به من العبادات التي يحبها، والتي رتب عليها الثواب العظيم، ومن المحرمات التي نهى عنها وحذر منها، فكلها من الشريعة.

ولهذا لا يجوز أن يُضاف إلى الشريعة ما ليس منها، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما ليس منه فَهُوَ رَدٌّ»[1]، أي: مردود عليه، فلابد أن العباد يعرفون هذا الطريق، الذي هو الصراط المستقيم، والذي هو الشريعة السمحة التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:١٨]، أي: اتبع هذه الشريعة التي تتضمن أمر الله تعالى ونهيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، والآيات التي بعدها فيها أوامر ونواه.

أما الأصل الثاني: فإنه (تَعْرِيفُ السَّالِكِينَ مَا لَهُمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ)، السالكون لهذا الصراط، المتبعون له، والعاملون به، هم الذين أنعم الله عليهم، والذين وفقهم وسددهم، والذين هداهم وأرشدهم، هؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لابد أن نعرفهم حتى نكون معهم، ولابد أيضًا أن يعرفوا ما لهم بعد الوصول إلى الله من النعيم المقيم، وقد جاءت الرسل بذلك وجاءت بها الكتب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء:٩، ١٠]، فالذين آمنوا هم السالكون، يُعرفهم ويذكر الله تعالى ما لهم بعد الوصول إليه، أي: بعد وصولهم إلى ربهم في الآخرة، أن لهم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وأنهم خالدون فيها لا يظعنون ولا يرحلون، وأن لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف:٧١]، وفي قول النبي ﷺ عن الجنة: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»[1]. وقد وصف الله تعالى مقامهم بأنه مقيم في قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النساء:٥٧]، بعدما أخبر الله عنهم بأنهم لهم أجر كبير، ولهم أجر عظيم مقيم، أي لا يتغير ولا يتبدل.

فهكذا يعرف المسلم هذين الأصلين: الطريق الموصل إلى الله، وكذلك أيضًا جزاء الذين يسلكون هذا الطريق، إذا وصلوا إلى الله، كيف يجدون ثواب ذلك عند الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الشارح:

فَأَعْرَفُ النَّاسِ بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَتْبَعُهُمْ لِلطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ، وَأَعْرَفُهُمْ بِحَالِ السَّالِكِينَ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ رُوحًا، لِتَوَقُّفِ الحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ عَلَيْهِ، وَنُورًا لِتَوَقُّفِ الهِدَايَةِ عَلَيْهِ. فَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، فَلا رُوحَ إِلا فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلا نُورَ إِلا فِي الاسْتِضَاءَةِ بِهِ.

وَهُوَ الشِّفَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت: ٤٤]، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ هُدًى وَشِفَاءً مُطْلَقًا، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمُنْتَفِعُ بِذَلِكَ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ، خُصُّوا بِالذِّكْرِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَلا هُدَى إِلا فِيمَا جَاءَ بِهِ.

قال الشيخ:

الذين يتبعون هذه الشريعة ويسيرون عليها ولا يحيدون عنها يعملون بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهؤلاء أتبعهم للطريق الموصل إليه،

وهؤلاء أعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، يعني: الذين عرفوا الطريق لا شك أنهم يعرفون حال السالكين، ويعرفون ماذا يكون لهم إذا قدموا على الله تعالى.

ثم ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الله تعالى سمى هذا الوحي روحًا: ﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر:١٥]، أي: الحياة التي تحيى بها القلوب تُسمى روحًا؛ لأن الحياة الحقيقية لا تكون إلا به، وكذلك سماه نورًا في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]. هكذا أخبر تعالى بأنه جعل هذا الكتاب والإيمان نورًا يهدي به من يشاء من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام:١٢٢]، هذا نور معنوي ينير للناس الطريق التي يسلكونها، وهي طريق معنوية توصلهم إلى رضى الله تعالى، فإذا ساروا على هذا الطريق فإنهم يسيرون على نور في الدنيا، وفي الآخرة أيضًا ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ﴾ [التحريم:٨].

قال ـ رحمه الله ـ: (فَلا رُوحَ إِلا فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلا نُورَ إِلا فِي الاسْتِضَاءَةِ بِهِ)، فالنور الحقيقي هو الاستضاءة بنور الوحي، وكذلك الروح التي تحيى بها القلوب حقيقة العمل بهذه الشريعة التي جاءت بها الرسل

وخاتمهم نبينا ﷺ، فمتى تمسك العباد بهذا القرآن وبهذا العمل، فإنهم يُرجى أن يكونوا على نور من الله تعالى، حتى يأتيهم أجلهم وهم على الهدى.

ولا شك أن النبي ﷺ قبل أن ينزل إليه القرآن ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان، أي: أنه لم يكن يعرف القرآن قبل أن يوحى إليه، وأما الإيمان: فقيل إنه بمعنى الدعوة أو الشرائع والمعالم.

وهذا القرآن روح ونور فكذلك يكون هو الشفاء؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤].

قال ـ رحمه الله ـ: (فَهُوَ وَإِنْ كَانَ هُدًى وَشِفَاءً مُطْلَقًا، لَكِنْ لَـمَّا كَانَ الْمُنْتَفِعُ بِذَلِكَ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ خُصُّوا بِالذِّكْرِ)، فالقرآن والشرع شفاء ورحمة للمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧]، الشفاء: هو العلاج الذي يزيل الأمراض، والقرآن والإيمان يزيل أمراض القلوب من الشك والشرك والغل والحسد والأحقاد وسوء الظن ونحو ذلك، فهو شفاء عام لكل أحد، ولكن الذي ينتفع به حقًا هم المؤمنون، فلذلك قال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]، فكما أنه شفاء للقلوب فهو شفاء أيضًا للأجساد، وكذلك رحمة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ [فصلت:٤٤]، وذلك لأنهم لا يتقبلونه ولا يهتدون، هذا سبب تخصيص المؤمنين بأنه شفاء لهم.

قال - رحمه الله -: (وَاللهُ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ، فَلا هُدَى إلا فِيمَا جَاءَ بِهِ)، دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة:٣٣] والرسول هاهنا هو محمد ﷺ، والله تعالى هو الذي أرسله، والهدى الذي أُرسل به يعم هدى الدلالة وهدى البيان، أي: بما فيه هدى، فالقرآن فيه هدى بيان وفيه هدى دلالة، وكذلك الشرع كله يُعتبر فيه الهدى، وهو دين الحق الدين الصحيح الذي جاءت به الرسل، وفصله نبينا محمد ﷺ، فلا هدى إلا فيما جاء به في هذه الشريعة التي جاء بها، ليس هناك هدى في غيرها.

قال الشارح:

وَلا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ إِيمَانًا عَامًّا مُجْمَلًا، وَلا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَى التَّفْصِيلِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي تَبْلِيغِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَدَاخِلٌ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَعَقْلِهِ وَفَهْمِهِ، وَعِلْمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَحِفْظِ الذِّكْرِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والدُّعاءِ إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْمُجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ مِنْهُمْ.

قال الشيخ:

لا شك أنه يجب على كل البشر الإيمان بالشرع إيمانًا مجملًا، وذلك بأن يصدق بأن ما جاء به النبي ﷺ كله حق، وكله من الله، وأن الله تعالى أمر به وكلَّف الأمة به، ثم أمر نبيه ﷺ أن يبينه للناس بيانًا كاملًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، أي: لتبين وتوضح لهم الشرع المجمل والعبادات المجملة؛ حتى يكونوا على بصيرة من دينهم.

قوله: (وَلا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَى التَّفْصِيلِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ)، أي: فرض كفاية على الأمة أن يعلموا ويتعلموا تفاصيل الشريعة وأحكامها كلها، وبيان ما جاء فيها، ومعرفة ما تدل عليه، ومعرفة ما أُمروا به

ونُهوا عنه، يجب عليهم في الجملة أن يكون فيهم من يعرف ذلك، حتى إذا توقف أحد في العمل يجد من يدله، ويجد من يخبره بأن هذا واجب، عليك أن تفعل كذا، وعليك أن تجتنب كذا.

الله تعالى أجمل كثيرًا من العبادات، أجمل ذكر الصلاة، وذكر الحج، وذكر الزكاة ونحوها، وأجمل أيضًا ذكر المحرمات: ذكر الربا، والزنى، والخمر. وتفصيل هذه الأشياء كلها جاء به النبي ﷺ، أمره الله تعالى بالبيان وبالبلاغ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧]، فهو داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[النور:٥٤]، فتفاصيل الشريعة بينها الرسول ﷺ للصحابة، ونقلها الصحابة لمن بعدهم، فلأجل ذلك كانت الشريعة محفوظة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩].

كذلك أمر الله تعالى بتدبر القرآن، وبتعقله وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[النساء:٨٢]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص:٢٩]، والتدبر: هو التعقل والتفهم والتأمل في دلالة كل آية، وفيما تعبر عنه، وما تدور حوله، ومن تدبر القرآن تبين له طريق الحق.

كذلك يدخل تفصيل الشريعة في علم الكتاب والحكمة، الكتاب: القرآن، والحكمة: هي السنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى

بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤]، وقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾[البقرة:٢٦٩] فعلم الكتاب: تفصيل القرآن، وعلم الحكمة: تفصيل السنة.

وكذلك يدخل في حفظ الذكر الذي أمر الله بالمحافظة عليه في قوله تعالى: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤١]، وفي قوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وحفظ الذكر: معناه تفكر في الآيات التي فيها تذكير، وكذلك الآيات التي فيها تسبيح وتحميد واستغفار ونحو ذلك.

وذلك داخل في الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وهذا دليل على أن هذه كلها من فروض الكفاية، أمة يقومون بالحق، ويدعون الناس إلى الخير، يعني: إلى الدين وإلى العبادة وإلى الأعمال الصالحة، وإلى العلم النافع والعمل الصالح، **ويأمرون الناس بالمعروف**، وينهونهم عن المنكر.

والمعروف: كل ما أمر الله به؛ لأن النفوس تعرفه وتألفه، وتشهد بملاءمته وحسنه، وكل ما أمر الله تعالى به أو رسوله ﷺ فإنه من المعروف.

أما المنكر: فإنه كل ما تنكره الفطر وتستقبحه، وتشهد بقبحه وببعده عن الصواب، وكل ما نهى الله عنه أو نهى النبي ﷺ عنه فإنه من المنكر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية على الأمة، يجب عليهم

أن يكون فيهم من يقوم بذلك.

كذلك يدخل في الدعاء إلى سبيل الله تعالى المذكور في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]. فأولًا: الدعاء بالحكمة، أي: بالكلام اللين، واجتناب الشدة، واجتناب الكلام السيئ الذي ينفر، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فإذا كلمت الذي تدعوه بكلام لطيف، وبكلام ليِّن، وبصرته بما يجب عليه، وبينت له ما هو مكلف به من الأوامر والنواهي والعبادات وما أشبهها، فلا شك أنه إذا أراد الله به الخير يتقبل ذلك ويلين.

وإذا لم تؤثر فيه الحكمة فانتقل إلى الموعظة الحسنة، وهي تذكيره بربه وبواجباته عليه بأن الله هو الذي خلقه وأمره بالعبادة، وتذكيره أيضًا بالدنيا وزوالها وزوال من عليها، وتذكيره بالبعث بعد الموت الذي أخبر الله تعالى به، وتذكيره بالعذاب الشديد في الدنيا بما ينزله الله من العقوبات، وفي الآخرة بعذاب النار، وتذكيره أيضًا بالثواب الذي هو ثواب على الأعمال الخيرية الصالحة، ثواب على الحسنات، وفي الآخرة أيضًا ثواب أعظم ألا وهو الجنة.

فإذا لم يتأثر بالحكمة ولا بالموعظة فانتقل معه إلى المجادلة بالتي هي أحسن، وهي: المنازعة والمخاصمة ولكن بلين ولطف؛ ليكون ذلك أدعى إلى تقبله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

[العنكبوت:٤٦]؛ ذلك لأنه قد يكون عنده شبهة يتشبث بها ويتعلق بها، أو رؤية من حوله من الناس على هذه المعصية وهذا الكفر، فإذا كانت عنده هذه الشبهة فإنك تجادله وتستجلب منه بيان ما عنده من الشبهة، فإذا أقر واعترف بها فإنك بذلك تخصمه، ويلين معك، وتنقطع شبهاته، وذلك لأن الإنسان:

إما أن يعرف الحق ويعمل به، وهذا من أهل السعادة؛ لأنه اتبع الحق وعمل بما جاء به. وإما أن يعرفه ولكن لا يعمل به، وهذا كحال أهل الكتاب الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

وإما أن ينكر الحق ولا يعترف به، لا يعترف بالكتاب، ولا يعترف بالرسالة، ولا يعترف بالشريعة، ولا بغير ذلك.

والذي يدعوه بالحكمة هو الذي يعرف الحق، ويعمل به ويتمناه، ولكن قد يكون معه شيء من الخلل، أما الذي لا يعمل به فننتقل معه إلى الموعظة.

والعامة من الناس الذين يقعون في المعاصي يعرفون أنها معصية، ولكن تغلبهم نفوسهم وشهواتهم، فيحتاجون إلى من يعظهم ويذكرهم؛ حتى يتركوا ما تميل إليه أنفسهم من الشهوات المحرمة، وما تميل به إلى الباطل، وإلى الدعة والراحة. أما الذي يُجادل فإنه الذي يجحد الحق ويعارضه.

وبكل حال فهذا من فروض الكفاية، وهكذا كل ما أوجبه الله تعالى على المؤمنين يعتبر العبادات والعلوم واجبة عليهم وفرض كفاية.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا يَجِبُ عَلَى أَعْيَانِهِمْ: فَهَذَا يَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ قُدَرِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ، وَمَا أُمِرَ بِهِ أَعْيَانُهُمْ، وَلا يَجِبُ عَلَى الْعَاجِزِ عَنْ سَمَاعِ بَعْضِ الْعِلْمِ أَوْ عَنْ فَهْمِ دَقِيقِهِ مَا يَجِبُ عَلَى الْقَادِرِ عَلَى ذَلِكَ.

وَيَجِبُ عَلَى مَنْ سَمِعَ النُّصُوصَ، وَفَهِمَهَا مِنْ عِلْمِ التَّفْصِيلِ مَا لا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، وَيَجِبُ عَلَى الْمُفْتِي الْمُحَدِّثِ وَالْحَاكِمِ مَا لا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ.

قال الشيخ:

فروض الأعيان تجب على كل مسلم، إذا كان قادرًا على أن يتعلمها ويعملها، وأن علماء المسلمين وقادتهم يجب عليهم ما لا يجب على العامة، هذا هو الصحيح. فالواجبات العينية واجبات على كل الأفراد، والواجبات الكفائية تتنوع بتنوع قُدرهم، وقد يكون أيضًا بعض الواجبات العينية لا تجب على بعض الأفراد؛ كالعاجز عن الحج لا يجب عليه أن يتعلم مناسك الحج كلها، حتى يقدر على الإتيان به، وكذلك أيضًا العاجز عن الزكاة الذي ليس له مالٌ يُزكى، لا نكلفه بأن يعرف عن صفة الزكاة وأهل الزكاة ونحوها. فوجوب الأشياء العينية على حسب القدرة، وعلى حسب الحاجة وعلى حسب المعرفة.

فما أُمر به أعيانهم فإنهم يعملون به، وأما العاجز فلا يجب عليه كما إذا كان

عاجزًا عن سماع بعض العلم، مثل ما يجب على القادر، فإن العامة قد لا يستطيعون سماع بعض العلوم، وليس عندهم قدرة أن يتابعوا فروع المسائل. وكذلك العامة قد يصعب عليهم فهم دقيق المسائل، فلا يجب عليهم مثل الذي يجب على القادر الذي يسمع النصوص ويفهمها أو يتصورها، ويفهم الأدلة من الآيات والحديث، ويجب عليه أن يتعلمها بالتفصيل، ويجب عليه من العلم المفصل ما لا يجب على الآخرين الذين لم يسمعوها؛ كالعامة والبوادي ونحوهم.

كذلك المفتي والمُحَدِّث والحاكم يجب عليهم ما لا يجب على من ليس كذلك، وذلك لأن المفتي مأمور بأن يتثبت وأن يتعلم المسائل التي يستفتيه الناس فيها، كذلك المحدث الذي يحمل الحديث لابد أن يكون عنده علم بالحديث وما يكون فيه، والحاكم والقاضي ونحوهم لا شك أنه يجب عليه ما لا يجب على من ليس كذلك، وذلك لأن الناس يحتاجون إليه، فلابد أن يتعلم ما الناس يحتاجون إليه، حتى إذا ترافعوا عنده وجدوا عنده علمًا.

قال الشارح:

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ عَامَّةَ مَنْ ضَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ أَوْ عَجَزَ فِيهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، فَإِنَّمَا هُوَ لِتَفْرِيطِهِ فِي اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَتَرْكِ النَّظَرِ وَالاسْتِدْلالِ الْمُوَصِّلِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ. فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ ضَلُّوا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أَنْ لا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ[١].

قال الشيخ:

لابد أن العامة الذين ضلوا في هذا الباب - يعني: في باب العقيدة وفي باب المعرفة - أو عجزوا فيه عن معرفة الحق، أو عن تصوره، فعدلوا عن الحق إلى الباطل، واتبعوا ما تهواه أنفسهم، لابد أن لذلك سبب، كيف ضلوا وكيف

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٢١)، والطبري (١٦/ ٢٢٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٠)، والطبراني في الكبير (١٢٤٣٧)، والحاكم (٢/ ٣٨١) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٦).

عجزوا عن معرفة الحق مع أن الحق واضح؟ لأنهم فرطوا في اتباع السنة النبوية، لم يتبعوا النبي ﷺ فيما جاء به، فلذلك عجزوا عن معرفة الحق، ولو بذلوا سببًا لقدروا على أن يعرفوا الحق وأن يتبعوه، ولكنهم فرَّطوا وأضاعوا أوقاتهم، واتبعوا ما تهواه أنفسهم وتشتهيه، ولم يهتموا بما جاء به الرسول من السنة النبوية، وتركوا النظر والاستدلال الموصل إلى معرفة الله، وإلى معرفة شريعته، وقد أُمروا بالنظر؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ [ق:٦]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ ﴾[الغاشية:١٧]، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾ [غافر:٨٢]. ولم يهتموا بالاستدلال؛ كالاستدلال بالمخلوقات على من خلقها، والاستدلال بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، وهو الذي أنزل هذه الشريعة.

فإذا تأمل الإنسان، وتفكر فيما بين يديه بل في نفسه، وصل إلى معرفة ربه، ومعرفة شريعته، أما الذين عجزوا وفرطوا، وتركوا النظر وتركوا الاستدلال، فإنهم يعتبرون معرضين، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا والعياذ بالله؛ كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٧]، ولذلك يوصف النصارى بأنهم من أهل الضلال، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣].

الهدى: هو الشرع الذي يكون هاديًا لمن سار عليه، من سار عليه فإنه

يهتدي إلى طريق الحق والصواب. ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، أي: لا يضيع ولا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾، أي: عن شرعي وديني وكتابي، وعمل بضد ذلك ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قد يُقال: إن هذه المعيشة عاجلة في الدنيا، وذلك بسبب ذل المعاصي؛ كما رُوي عن بعض السلف أنه قال في العصاة: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعاصي لا يفارق قلوبهم، أبي الله إلا أن يذل من عصاه»[1]. هذه هي المعيشة الضنك العاجلة.

وروي أيضًا عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس، وإن للسيئة ظلمةً في الوجه، وسوادًا في القلب، وضنكًا في المعيشة، وبغضًا في قلوب الناس»[2].

وروي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: «ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله في قلوبهم له البغض»[3].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣).

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح (٦/ ٤٨٩)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٢٧)، وابن القيم في الجواب الكافي (ص٣٥)، وروضة المحبين (ص٤٤١). وأخرج نحوه ابن الجوزي في ذم الهوى (١٨١) عن أنس ﷺ.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٥)، وذكره ابن القيم في الجواب الكافي (ص٣٤)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٦٣).

أخبر تعالى أن الذي يعرض عن ذكر الله، يعني: عن كتابه وعن شرعه وعن دينه، فيغفل عن ذلك أن له هذه المعيشة الضنك في الدنيا، ولو توسع في الدنيا، ولو أعطى نفسه ما تشتهي، فإن ذل المعاصي لا يفارق قلوبهم.

ثم قال: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه:١٢٤]، هكذا، قيل: أعمى عن حجته، وقيل: إن الله إذا ألقاه في النار سلبه بصره؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الإسراء: ٩٧]، فلا يُستنكر أن يكون عندما يُلقى في النار يؤخذ بصره، وإن كان في الآخرة يكون بصيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق:٢٢]، ولقوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾[مريم:٣٨].

ثم قال: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾[طه:١٢٥]، يعني: سلبت بصري وأنا في الدنيا بصير أبصر وأعرف الطريق. يقول الله: ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه:١٢٦]، يعني: جزاءً لك، نسيت آياتنا وشريعتنا وأعرضت عنها، ولم تهتم بها، فاليوم ننساك. والله تعالى لا يضل ولا ينسى، ولكن يعاملهم معاملة من نُسوا، ولذلك قال تعالى في المنافقين: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة:٦٧].

قال ـ رحمه الله ـ: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أَنْ لا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ)، قرأ القرآن

وتدبره وعقله، ثم عمل بما فيه، واتبع إرشاداته، فإنه لا يضل في الدنيا، بمعنى: أنه يكون على هدى، ويكون على عمل بر، ولا يشقى في الآخرة، أي: لا يكون من الذين شقوا، الذين توعدهم الله تعالى في الآخرة بالعذاب.

قال الشارح:

كَمَا فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ»، قُلْتُ: فَمَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الهُدَى مِن غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى مِثْلِ هَذَا المَعْنَى.

قال الشيخ:

هذا الحديث رواه الترمذي[١]، والدارمي[٢]، والبغوي في «شرح السنة»[٣]، لكن في إسناده الحارث بن عبد الله الأعور، وهو ضعيف[٤]، مشهور بالضعف.

---

(١) برقم (٢٩٠٦).

(٢) (٢/ ٥٢٦).

(٣) (٤/ ٤٣٨).

(٤) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٢/ ١٨٥)، وتهذيب الكمال (٥/ ٢٤٦).

وقد روى مسلم في مقدمة صحيحه[١] عن الشعبي، قال: «حدثني الحَارِثُ الأَعْوَرُ الْهَمْدَانِيُّ، وكان كَذَّابًا». وكان يميل إلى عقيدة الشيعة، وإن لم يكن من الذين يحملون على الصحابة، ولا يبغضون أبا بكر وعمر وغيرهما.

ويمكن أن هذا الحديث من كلام علي ﷺ، فإنه قد آتاه الله تعالى حكمة، فيكون من كلام علي ﷺ، ولكن غلط الحارث فرفعه، أو مَنْ دون الحارث.

ورُوي عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**إن هذا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله، فَتَعَلَّمُوا من مَأْدُبَتِهِ ما اسْتَطَعْتُمْ، إن هذا الْقُرْآنَ حَبْلُ الله، وَالنُّورُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عصمه لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ، لا يزيغ فَيُسْتَعْتَبُ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، ولا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، ولا يَخْلَقُ عن كَثْرَةِ الرَّدِّ، فاتلوه، فإن اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ على تِلاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ...**»[٢] إلى آخره. قد يكون هذا أيضًا من كلام ابن مسعود، وأنه وهم فيه من جعله مرفوعًا.

وكذلك روى الطبراني في «المعجم الكبير»[٣]، وأبو نعيم في «الحلية»[٤]، عن مُعَاذِ بن جَبَلٍ ﷺ، قال: ذَكَرَ رسول الله ﷺ يَوْمًا الْفِتَنَ فَعَظَّمَهَا وَشَدَّدَهَا،

---

(١) (١/ ١٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٧٥)، والدارمي (٢/ ٥٢٣)، والطبراني في الكبير (٨٦٤٦) موقوفًا على ابن مسعود ﷺ، ورفعه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥)، والحاكم (١/ ٥٥٥)، والبيهقي في الصغرى (ص٥٤١).

(٣) برقم (١٦٠).

(٤) (٥/ ٢٥٣).

فقال عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ ﷺ: يا رَسُولَ الله، فما المُخْرَجُ مِنهَا؟ فقال: «كِتَابُ الله، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ...» إلى آخره. وهذا أيضًا ضعيف.

وبكل حال فإن هذا حديث فيه علوم نافعة، وفيه وصف للقرآن، وهذا الوصف صحيح لا خلاف فيه، وأنه يكون سببًا للخروج من الفتن، فإن هذا القرآن فيه أخبار الأمم السابقة، وأخبار الأمم اللاحقة، وأخبار ما يكون بين العباد من المخاصمات، فيُتخذ حكمًا يرجع إليه، وهذا القرآن هو الفصل الذي يفصل بين الحق والباطل، وليس فيه هزل، ولا كلام سيء، بل كله حق، فمن تركه ولم يمتثل به ولم يعمل به فهو جبار، والله تعالى يقصم الجبابرة، ويميتهم ويقطع دابرهم.

وهذا القرآن هو الهدى، والذي يريد الهدى فإنه يتبعه، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، فإذا طلب الهدى من قوانين أو من نحاتة أفكار، أو زبالة أذهان، فإن الله يضله.

هذا القرآن (هُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ)، قيل: يُفسر به قول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[آل عمران:١٠٣]، فالحبل في الأصل: هو السبب الذي يُدلى به الدلو، ويُصعد به أو يُنزل به، شبهه بأن الذي يتمسك به فإنه لا ينقطع كالحبل المتين.

ووصفه بأنه (الذِّكْرُ الحَكِيمُ)، في قول الله تعالى لما ذكر القرآن: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[آل عمران:٥٨]، أي: أنه محكم ليس

فيه خطأ ولا خلل، والقرآن كله يُسمى ذكرًا.

وكذلك: (هُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ)، في قولنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، أي: الطريق المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج.

ووصفه بأنه (لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ)، أي: الأهواء إذا اتبعت ما جاء به هذا القرآن فإنها لا تزيغ ولا تضل، ولا تنحرف يمنة ولا يسرة، وأما من اتبع غيره فإنه يزيغ؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[الصف:٥]، أما إذا كان هواه متبعًا له فلا يزيغ؛ لقوله ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكونَ هواهُ تَبَعًا لما جِئْتُ بِهِ»[1].

وكذلك: (لا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ)، يعني: الألسن التي تقرأه وتتأمله لا يلتبس عليها. وكذلك: (لا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ)، كما ذُكر أن بعضهم لم ينم في سفر طويل، ويقول: «إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلى وقعت في أخرى»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص١٨٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. وقد أورده النووي في آخر الأربعين، وقال: «حديث صحيح، رُوِّيناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح». وانظر تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (ص٣٨٧، ٣٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (ص١٦٧)، أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٠، ١٥١).

وكذلك: (لا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ)، العارفون، العلماء بالله لا يشبعون من قراءته، ولا يشبعون من تأمله، ولا يشبعون من تفسيره ولا من متابعة معانيه وتأملها.

(مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ)، الذي يستدل بالقرآن لا يجب الاعتراض عليه وتكذيبه؛ لأن من كذبه فقد كذب الله.

(وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ)، يعني: من اتبعه وعمل بما فيه فأجره على الله.

(وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ)، يعني: من اتخذه حكمًا، ومن لم يحكم به فإنه ضال، وإنه ظالم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[المائدة:٤٥]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، فمن حكم بالقرآن فإنه حاكم بالعدل.

(وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، الذين يدعون إلى القرآن، ويدعون إلى ما فيه، فإن الله تعالى يهديهم إلى الصراط المستقيم.

هكذا دلالة الحديث على تعظيم كتاب الله تعالى.

قال الشارح:

وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ دِينًا يَدِينُونَ به، إلا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِدِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَلامُ.

وَقَدْ نَزَّهَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْعِبَادُ، إلا مَا وَصَفَهُ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[الصافات:١٨٠ ـ ١٨٢]، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْكَافِرُونَ، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، لِسَلامَةِ مَا وَصَفُوهُ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، ثُمَّ حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالأَوْصَافِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا كَمَالَ الحَمْدِ.

قال الشيخ:

لا يقبل الله تعالى إلا دين الإسلام الذي شرعه لهذه الأمة وللأمم قبلها، فإنه الدين الصحيح الذي من لم يدن به فإن عمله مردود، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩]، أي: الدين الصحيح الذي يجب أن يدين به كل مخلوق من البشر هو دين الإسلام.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥]، فالذين يدينون بدين اليهود، أو النصارى، أو الشيوعيين والدهريين، أو البوذيين، أو القبوريين ونحوهم، أو الهندوس، أو

الذين لا دين لهم، كل هؤلاء خاسرون؛ لهذه الآية: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾، فلا يقبل الله إلا الدين الموافق للدين الذي شرعه على ألسن رسله صلى الله عليهم وسلم، وخاتمهم محمد ﷺ.

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون، فإن قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، انتقاد للكفار، وتنزيه عما يصفون الله تعالى به من النقائص والعيوب، وكذلك من جعل الصاحبة والولد له، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا عن ما يصفه به الكفار؛ كاليهود والنصارى والمشركون الذين يقولون: إن الملائكة بنات الله. فالله تعالى سبح نفسه عن ما يصفه به هؤلاء: جميع الكفار ونحوهم.

ثم قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وذلك لأن المرسلين جاؤوا بما هو الحق والصواب، فوصفوا الله تعالى بصفات الكمال، ونزهوه عن النقائص والعيوب، وجميع ما جاؤوا به فيه سلامة للرب تعالى عن كل نقص وعن كل عيب.

ثم قال: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، حمد نفسه؛ لأنه المتفرد بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد، فهو المحمود على كل حال، يُحمد على الخير وعلى الشر، ويُحمد على صفاته، ويُحمد على أفعاله، ويُحمد على تقديره، ويُحمد على جميع تصرفاته.

قال الشارح:

وَمَضَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، يُوصِي بِهِ الأَوَّلُ الآخِرَ، وَيَقْتَدِي فِيهِ اللاحِقُ بِالسَّابِقِ. وَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ مُقْتَدُونَ، وَعَلَى مِنْهَاجِهِ سَالِكُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]. فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿أَدْعُوٓا۟﴾، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمُ الدُّعَاةُ إِلَى اللهِ، وَإِنْ كَانَ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ، فَهُوَ صَرِيحٌ أَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ فِيمَا جَاءَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَكِلا الْمَعْنَيَيْنِ حَقٌّ.

قال الشيخ:

ما جاء به الرسول ﷺ من هذه الشريعة مما يتعلق بالعقائد ومما يتعلق بالأعمال والأحكام قد تقبله خير القرون ـ القرن الأول ثم القرن الثاني ثم الثالث ـ فهم خير قرون الأمة؛ كما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وخير القرون القرن الأول، والذين هم صحابة النبي ﷺ - رضوان الله عليهم - الذين صحبوه وتقبلوا ما جاء به، وتلقوا الشريعة عنه بدون واسطة. ثم يتبعهم التابعون الذين هم تلامذة الصحابة، ثم بعدهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، أي من سار على نهجهم، واتبع هداهم إلى يوم القيامة. كلهم مضوا على ما جاء به النبي ﷺ، أولهم يوصي تلاميذه الذين يأخذون عنه، فالأول يوصي به الآخر، يقتدي اللاحق فيه بالسابق، والتلاميذ واللاحقون من الأمم المتمسكون بالسنة يقتدون بمن سبقهم من السابقين من الصحابة، الذين رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[التوبة:١٠٠]، فذكر في الآية المهاجرين من مكة وغيرها إلى المدينة، ثم ذكر الأنصار الذين في المدينة الذين نصروا الله ورسوله، ثم ذكر الذين اتبعوهم بإحسان، يعني: الذين أسلموا بعد ذلك، سواء هاجروا أو لم يهاجروا، وكذلك الذين ساروا على نهجهم وطريقتهم إلى يوم القيامة، وكلهم من التابعين لهم بإحسان، كلهم يقتدون بنبيهم محمد ﷺ، ويتمسكون بسنته، ويتبعون شريعته، ويسيرون على منهاجه، ويسلكون طريقته التي أوصى بها، والتي علمها لمن كان من أمته؛ كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

السبيل: الطريق، الذي هو الطريق المعنوي، يعني: أن هذه الشريعة هي

سبيلي الذي أسير عليه وأتبعه، وإن منه أني أدعو إلى الله على بصيرة، أي: أدعو إلى دين الله، وأدعو إلى معرفة الله، وأدعو إلى شريعة الله تعالى حال كوني على بصيرة، أي: حال كوني على نور وعلى برهان، وعلى علم صحيح، لا أدعو على جهل، ولا أدعو على ضلال.

ثم قال: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، قيل: إن التقدير: أدعو إلى الله أنا وأتباعي. كل من كان من أتباع النبي ﷺ فإنه يدعو إلى الله، كأنه يقول: أتبع النبي ﷺ وأدعو إلى ما دعا إليه. ولابد أن يكون أيضًا على بصيرة، أي: أنا أدعو على بصيرة وأتباعي يدعون على بصيرة.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ: (**قَوْلُهُ: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿أَدْعُوٓا۟﴾**)، أي: أدعو ويدعو من اتبعني، فهو دليل على أن أتباعه هم الذين يدعون إلى الله، ويمكن أن يكون ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، معطوفًا على الضمير المنفصل الذي هو ﴿أَنَا۠﴾، والتقدير: على بصيرة أنا، وعلى بصيرة من اتبعني. أي: أن أتباعه على بصيرة فيما جاء به دون غيرهم. وكلا المعنين حق، فهو لابد أن تكون دعوته على بصيرة، وأتباعه لابد أيضًا أنهم يقومون بما قام به، فيتبصرون في دينهم، ثم بعد ذلك يدعون إلى ما دعا إليه.

قال الشارح:

وَقَدْ بَلَّغَ الرَّسُولُ ﷺ الْبَلاغَ الْمُبِينَ، وَأَوْضَحَ الْحُجَّةَ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ. ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَافْتَرَقُوا، فَأَقَامَ اللَّهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْهَا أُصُولَ دِينِهَا، كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ بقوله: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ»(١).

قال الشيخ:

هكذا نشهد أن الرسول ﷺ بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، ووجههم، ووضح لهم ما يحتاجون إليه، عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧].

فالله تعالى كلَّفه أن يبلغ، وقد شهد له الصحابة - رضي الله عنهم - بهذا البلاغ لما ناشدهم في خطبته في حجة الوداع، قال: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»، قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فقال بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى الناس: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ(٢)، وقال في رواية: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُم الغَائِبَ»(٣).

---

(١) يأتي تفصيل تخريجه في شرح سماحة الشيخ عبد الله بن جبرين حفظه الله.

(٢) قطعة من حديث جابر ﷺ الطويل في صفة حج النبي ﷺ، الذي أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

فقد بلَّغ الرسالة التي أُرسل بها ووضحها، وكذلك أقام الحجة على المستبصرين الذين هم أهل بصيرة وأهل علم. ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩]، فقد أرسل الله الرسل لحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]، فلا حجة لأحد أن يقول: ما جاءنا من بشير ونذير. فقد جاءكم بشير ونذير.

قال: (وَسَلَكَ سَبِيلَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ)، أي: سلك سبيل النبي ﷺ خير القرون، الذين هم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، فالصحابة هم الذين أخذوا عن النبي ﷺ، وتلقوا عنه الشرع، وكذلك تلامذتهم الذين تلقوا عنهم، فإنهم كانوا كلهم - والحمد لله - على هدى، إلا من شذ منهم من المبتدعة؛ كالخوارج والرافضة والقدرية ونحوهم.

وكذلك القرن الثاني فإنهم أيضًا متمسكون، وفيهم العلماء الأجلاء، منهم: أبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، والليث بن سعد، وأبو عمرو الأوزاعي، وسفيان الثوري، هؤلاء أئمة الدنيا في زمانهم في القرن الثاني، ولو كان قد خلف في ذلك القرن بعض المبتدعة، نبغت الرافضة والزيدية، وكذلك الجهمية والمعطلة، ولكنهم كانوا ذليلين مقموعين.

وكذلك أيضًا القرن الثالث فيه أئمة وعلماء وأجلاء، مات فيه الشافعي والإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وغيرهم من العلماء الذين حفظ الله تعالى بهم الشريعة، وأقاموا الحجة على من بعدهم.

وبعد القرون الثلاثة خلف من بعدهم خلوف يدخلون في قول الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾[مريم:٥٩]. هؤلاء الذين خلفوا بعد القرون الثلاثة اتبعوا ما تميل به الأهواء، وكذلك أيضًا تفرقوا فرقًا متباينة، والغالب أنهم خالفوا الشريعة، وبالأخص فيما يتعلق بالأسماء والصفات، وصاروا فرقًا كثيرة. فالمعتزلة فرقهم متعددة، وكذلك الأشعرية، والماتريدية، والكرامية، والكلابية، وكذلك فرق الرافضة؛ كالإمامية، والجعفرية، والإسماعيلية، والزيدية، ونحوهم، تفرقوا فرقًا.

ولكن الله تعالى أقام لهذه الأمة من يحفظ عليها دينها، ويحفظ عليها أصول دينها، ففي كل قرن أئمة يدعون إلى الحق، ويسيرون عليه، ويتمسكون به، هؤلاء هم ورثة الشريعة، الذين هم الأمة المعصومة أو الطائفة المنصورة. كل زمان - والحمد لله - فيه أئمة يحفظون الحق فيجددونه إذا تتبعنا قرون الأمة، ولكن يقلون أحيانًا ويكثرون، والغلبة عادة للأشرار والمبتدعة، وأهل الحق قلة، يعتبرون فرقة من ثلاث وسبعين فرقة.

أقام الله تعالى لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها، أخبر بذلك الصادق المصدوق بقوله ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُم، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله»، وهذا حديث مروي عن جماعة من الصحابة:

أولًا: أخرجه مسلم[1]، وغيره[2] من حديث ثوبان ﷺ.

ثانيًا: أخرجه البخاري[3]، ومسلم[4]، وغيرهما[5]، عن المغيرة بن شعبةﷺ.

ثالثًا: أخرجه البخاري[6]، ومسلم[7]، وغيرهما[8]، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

رابعًا: أخرجه مسلم[9]، وغيره[10]، عن جابر بن سمرة ﷺ.

خامسًا: أخرجه مسلم[11]، وغيره[12]، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

---

(١) برقم (١٩٢٠).

(٢) أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وابن ماجه (١٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)..

(٣) برقم (٣٦٤٠).

(٤) برقم (١٩٢١).

(٥) أحمد (٤/ ٢٤٤)، والدارمي (٢/ ٢٨٠)،

(٦) برقم (٧١، ٣٦٤١).

(٧) برقم (١٠٣٧).

(٨) أحمد (٤/ ٩٣، ٩٩)، والطبراني في الكبير (٨٤٠، ٩٠٥).

(٩) برقم (١٩٢٢).

(١٠) الطبراني (٢٠٦١).

(١١) برقم (١٥٦).

(١٢) أحمد (٣/ ٣٤٥)، وابن حبان (١٥/ ٢٣١)، والبيهقي (٩/ ٣٩).

سادسًا: أخرجه مسلم[١]، وغيره[٢]، عن عقبة بن عامر ﷺ.

سابعًا: أخرجه الدارمي[٣]، والحاكم[٤] عن عمر بن الخطاب ﷺ.

ثامنًا: أخرجه ابن ماجه[٥] عن أبي هريرة ﷺ.

تاسعًا: أخرجه الترمذي[٦] وابن ماجه[٧] وأحمد[٨] عن قرة بن إياس ﷺ.

عاشرًا: أخرجه أحمد[٩]، وأبو داود[١٠]، وغيرهما[١١]، عن عمران بن حصين ﷺ.

وغير ذلك من الطرق ومن الأحاديث، فهذه الطائفة هم الذين كانوا على الشريعة، وأخرج الترمذي[١٢] أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لما سألوا

---

(١) برقم (١٩٢٤).

(٢) الطبراني في الكبير (٢١١، ٢٢٨).

(٣) (٢/ ٢٨٠).

(٤) (٤/ ٤٤٩).

(٥) برقم (٧).

(٦) برقم (٢١٩٢).

(٧) برقم (٦).

(٨) (٣/ ٤٣٦).

(٩) أحمد (٤/ ٤٢٩، ٤٣٤).

(١٠) برقم (٢٤٨٤).

(١١) الطبراني في الكبير (٢٢٨)، والحاكم (٤/ ٤٥٠).

(١٢) برقم (٢٦٤١).

النبي ﷺ عن الفرقة الناجية، وقالوا: مَنْ هِيَ يا رَسُولَ الله؟ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، أي: من كان متمسكًا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فإنه من هذه الفرقة الناجية.

وفسرهم البخاري بأنهم أهل العلم[1]، يعني: الذين يَعْلَمُون ويَعْمَلُون ويُعَلِّمُون ويَدْعُون إلى العلم، والعلم هنا: العلم الصحيح الذي هو ميراث الأنبياء، «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولا دِرْهَمًا، إنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[2].

وقال الإمام أحمد في هذه الطائفة: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»[3]. أراد الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بأهل الحديث: أهل السنة والجماعة ومن يعتقد معتقدهم من أهل الحديث.

ويقول النووي[4]: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم

(١) قال البخاري ـ رحمه الله ـ: «باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً ﴾، وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم». انظر: فتح الباري (١٣/ ٣١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٢)، وأبو الفضل الهروي في «مشتبه أسامي المحدثين» (ص٢١)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٥ ـ ٢٧)، و«تاريخ بغداد» (٤/ ١١٨).

(٤) في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).

شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض».

وعلى كل حال فإن هذه بشارة من النبي ﷺ أنه قد يبقى في هذه الأمة جماعة تقوم بهم الحجة، يبلغون الشريعة، ويحفظونها، ويعملون بها.

قال الشارح:

وَمِمَّنْ قَامَ بِهَذَا الحَقِّ مِنْ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ: الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَلامَةَ الأَزْدِيُّ الطَّحَاوِيُّ، تَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، بَعْدَ المِئَتَيْنِ، فَإِنَّ مَوْلِدَهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلاثِينَ وَمِئَتَيْنِ، وَوَفَاتَهُ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ.

فَأَخْبَرَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ، وَنَقَلَ عَنِ الإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ ابْنِ ثَابِتٍ الكُوفِيِّ، وَصَاحِبَيْهِ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الحِمْيَرِيِّ الأَنْصَارِيِّ، وَمُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَه مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَيَدِينُونَ بِهِ رَبَّ العَالَمِينَ.

قال الشيخ:

هكذا أخبر بأن من الذين قاموا بهذا الحق، والذين بلغوه وكانوا عليه من علماء المسلمين: الإمام الطحاوي: إمام لأنه قدوة في العلم، كنيته أبو جعفر، واسمه: أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي، تغمده الله برحمته، قام بذلك بعد المئتين، ذكر أن ولادته سنة تسع وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، فعمره قد قارب الثمانين.

يقول: إنه - رحمه الله - كتب عقيدته، وضمنها ما كان عليه السلف رحمهم الله، يعني: سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين، وقد كان - رحمه الله - في الفروع على مذهب الشافعي، ثم إنه حصل بينه وبين بعض الشافعية خلاف فتحول إلى مذهب أبي حنيفة. وأبو حنيفة فقيه من فقهاء الأمة، وهو عالم

العراق، ولد سنة ثمانين، ومات سنة مائة وخمسين، واسمه النعمان بن ثابت، مولى بني تيم. رأى أنس بن مالك لما قدم الكوفة، ولكن لم يثبت له رواية عن الصحابة رضوان الله عليهم.

فهو إمام من الأئمة، ولكن لما كان يقول بأن الإيمان مجرد التصديق أساء الظن به كثيرون وطعنوا فيه، وذكروا فيه جرحًا. نقل بعض ذلك عبد الله ابن الإمام أحمد في كتابه الذي هو «السنة»[1] الطبعة الثالثة، ولكن الذين صححوه وحققوه أجابوا عن تلك المطاعن. وكذلك أيضًا نقل بعض تلك المطاعن الإمام ابن حبان في كتابه «المجروحين»[2]، والذين أيضًا طبعوه ذكروا أجوبة عن تلك المطاعن. ونقل المطاعن وتوسع فيها أيضًا الخطيب البغدادي في ترجمة أبي حنيفة من «تاريخ بغداد»[3].

ولا شك أنها قد تكون صحيحة، ولكن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ معذور.

ثم إن كثيرًا من الذين يقلدون أبا حنيفة قد تشددوا في رد تلك الآثار، وزادوا في التشدد في ردها بأسانيد، بتضعيف بعضها. وعلى كل حال هو إمام معتبر، وما خالف فيه من الأحاديث فإنه معذور؛ لأنها لم تبلغه.

وأما أبو يوسف فإنه من الذين رووا فقه أبي حنيفة، وكذلك محمد بن

---

(١) (١/ ١٨٠) الطبعة الأولى.

(٢) (٣/ ٦٠ وما بعدها).

(٣) (١٣/ ٣٢٣).

الحسن اشترك في تسجيل فقه أبي حنيفة، وكتبوا من فقهه مؤلفات كثيرة، اشتهرت تلك المؤلفات، ولما اشتهرت وكُتبت تلقاها كثيرٌ من الناس، وقالوا: نذهب إليها ونعمل بها. واشتهر مذهب أبي حنيفة في الهند والباكستان والأفغان، وغيرها من تلك البلاد، وكذلك أيضًا يوجد من يتمذهب بمذهبه في تركيا وفي مصر وفي غيرها من الدول الإسلامية. ولكن قد يكون معهم شيء من التعصب لمذهبهم الذي هم عليه، حيث إنهم يردون أحاديث صحيحة ثابتة، وأبو حنيفة معذور؛ لأنها ما بلغته، وأما هم فإنهم ليسوا معذورين؛ لأنها قد بلغتهم وقامت عليهم الحجة.

يقول: إنهم نقلوا ـ يعني أبا حنيفة وصاحبيه ـ ما كانوا يعتقدونه من أصول الدين يدينون به رب العالمين، وإن الطحاوي كتب ذلك، وأثبته في عقيدته التي شُرحت في هذا الكتاب.

قال الشارح:

وَكُلَّمَا بَعُدَ الْعَهْدُ، ظَهَرَتِ الْبِدَعُ، وَكَثُرَ التَّحْرِيفُ الَّذِي سَمَّاهُ أَهْلُهُ تَأْوِيلًا لِيُقْبَلَ، وَقَلَّ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ؛ إِذْ قَدْ يُسَمَّى صَرْفُ الْكَلامِ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى مَعْنًى آخَرَ يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ فِي الْجُمْلَةِ تَأْوِيلًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ قَرِينَةٌ تُوجِبُ ذَلِكَ، وَمِنْ هُنَا حَصَلَ الْفَسَادُ. فَإِذَا سَمَّوْهُ تَأْوِيلًا قُبِلَ وَرَاجَ عَلَى مَنْ لا يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا.

قال الشيخ:

رد كثير من المتأخرين أدلة الكتاب والسنة، أو بالأخص فيما يتعلق بالعقيدة، وحرفوا تلك النصوص من الآيات الصحيحة ومن الأحاديث الصحيحة، صرفوها عن ظاهرها، وسموا ذلك التحريف تأويلًا حتى يُقبل.

الأصل في التأويل أنه اسم لما يؤول إليه الأمر، وتأويل الأمر بيان نهايته وما يؤول إليه. هذا هو الأصل في التأويل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٦]، وقول يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:١٠١]، يعني: تأويل الرؤيا. وكما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

وقد يُراد بالتأويل معنى الكلام وتفسيره؛ كما اصطلح على ذلك ابن جرير، حيث يقول: القول في تأويل قوله تعالى. ويقول: اختلف أهل التأويل

في ذلك. ويقول: وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. يريد بذلك تفسير الكلام وما يحتمله.

ولكن المتأخرين استعملوا التأويل بمعنى قريب من التحريف، ويفسرونه بأنه صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به. يقولون: إذا كان هذا اللفظ له احتمالان، وكان الاحتمال المرجوح هناك قرينة ترجحه، فإننا نصرف اللفظ إلى ذلك المرجوح؛ لنتخلص من أن يكون حجة علينا. فيؤولون آيات الاستواء ويحرفونها، ويقولون: الاستواء بمعنى الاستيلاء. وما أشبه ذلك، وكذلك آيات العلو، وآيات الرفع، وآيات الفوقية، يقولون: المراد علو القدر وعلو القهر، وفوقية القهر. ويستدلون بقول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وبقولهم: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. وهذا صرف للفظ عن الفوقية الصريحة التي هي الرفع والارتفاع إلى معنى بعيد، الذي هو صرف هذه الأدلة كلها إلى أن المراد فوقية القهر ونحو ذلك.

وقلّ من يهتدي من الناس إلى التفريق بين التحريف والتأويل، فالتأويل معروف أنه هو التفسير أو نهاية الكلام وما يؤول إليه. وأما التحريف فإنه طريقة اليهود، قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[المائدة:٤١]، يعني: يتكلفون ويصرفونه ويتصرفون فيه تصرفًا يُبطل دلالته.

فهؤلاء المتأخرون يصرفون الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر بعيد - وإن كان يحتمله اللفظ في الجملة - فيسمونه تأويلًا، ولكن احتماله بعيد، مع أنه قد لا يكون هناك قرينة توجب هذا الصرف، ولكن يقولون: إن القرينة هي نفي التشبيه وإنكار العقل لما يدل عليه هذا المعنى. وما أشبه ذلك.

فلما تسلطوا على هذه الآيات وهذه الأحاديث بهذا التحريف الذي سموه تأويلًا، حصل الفساد. ولكن لما سموه تأويلًا قبله كثير من الناس وراج على من لا يهتدي إلى الفرق بين التحريف والتأويل، وظنوا أنهم على صواب، وأنهم يريدون بذلك الجمع بين الأدلة حتى لا يكون هناك اختلاف بين الآيات، ولا يكون هناك آيات تعارض ما يميلون إليه، وما يسلكونه من المذاهب المبتدعة.

قال الشارح:

فَاحْتَاجَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى إِيضَاحِ الأَدِلَّةِ، وَدَفْعِ الشُّبَهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهَا، وَكَثُرَ الْكَلامُ وَالشَّغَبُ، وَسَبَبُ ذَلِكَ إِصْغَاؤُهُمْ إِلَى شُبَهِ الْمُبْطِلِينَ، وَخَوْضُهُمْ فِي الْكَلامِ الْمَذْمُومِ، الَّذِي عَابَهُ السَّلَفُ، وَنَهَوْا عَنِ النَّظَرِ فِيهِ وَالاشْتِغَالِ بِهِ وَالإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، امْتِثَالا لأَمْرِ رَبِّهِمْ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[الأنعام:٦٨]، فَإِنَّ مَعْنَى الآيَةِ يَشْمَلُهُمْ.

قال الشيخ:

لما اشتهر هذا التأويل، الذي هو في الحقيقة تحريف، فإن المؤمنين وأهل السنة والجماعة بحاجة وضرورة إلى إيضاح الأدلة الدالة على هذه الصفات ونحوها، يجمعون الآيات ويبينون دلالتها، ويبينون أنها واضحة الدلالة. واحتاجوا أيضًا إلى دفع الشبه التي يوردها عليهم أولئك المتكلمون وأولئك المعطلون، فإنهم قد ملؤوا كتبهم بهذه الشبهات، ذكروا منها شيئًا كثيرًا. يدل على ذلك النظر في كتب الكلام التي ملؤوها بتلك الشبهات، والتي هي متناقضة غاية التناقض، والتي وسعوا فيها الكلام بدون فائدة.

إذا نظرت ـ مثلًا ـ في تفسير الرازي[1] على قوله تعالى في سورة الأعراف:

---

(١) (٨٣/١٤).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]، وجدت فيه كلامًا كثيرًا كله تقديرات لا أصل لها، يعترض بها على تفسير الاستواء بأنه الاستقرار والعلو ونحو ذلك.

وكذلك التأويلات التي سلطوها على مثل هذه الآيات وسموها تأويلًا وهي تحريف، وقد أكثروا الكلام وشاغبوا أكثر الشغب، الذي هو شقاق ونزاع في أمور ظاهرة واضحة الدلالة.

وسبب كثرة الكلام وسبب هذا التأويل أن هؤلاء الذين سموا أنفسهم علماء قد أصغوا إلى شُبه المبطلين من الملاحدة والزنادقة والذين دخلوا في الإسلام تسترًا من اليونان ونحوهم، وأرادوا بذلك إفساد دين المسلمين وتشكيكهم في الدين الذي يدينون به. دخل كثيرٌ من الناس في ذلك.

وهكذا أيضًا لما عُربت الكتب اليونانية وقرأها كثيرٌ من الناس، وفيها أيضًا تشكيك وفيها كلام سيء، فأخذوا يخوضون في الكلام المذموم الذي لا فائدة فيه، وملؤوا بها المؤلفات التي سموها كتب العقائد، ما بين متوسع وما بين مختصر.

وقد سبق أن السلف ـ رحمهم الله ـ كانوا يعيبون علم الكلام ويحذرون منه، حتى يقول الشافعي ـ رحمه الله ـ: «حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ أن يضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء مَنْ ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم

الكلام» انتهى[(١)].

وللسلف ـ رحمهم الله ـ كلام كثير يعيبون به على هؤلاء المتكلمين، الذين ملؤوا بهذا الكلام السيئ مؤلفات كثيرة. فالسلف ـ رحمهم الله ـ ينهون عن الكلام، وعن النظر فيه، وعن الاشتغال به، والإصغاء إليه، وعن مجالسة أهله، وعن استماع شبهاتهم؛ لأنها قد تسبب شكًا، أو قد تقع في القلب ويصعب بعد ذلك استخراجها. وقد روى ابن بطة في كتابه المشهور الذي هو «الإبانة الكبرى» آثارًا كثيرة عن علماء السلف ينهون عن الإصغاء إلى دعاة الضلال، ولو كانوا يقرؤون الآيات والأحاديث؛ لأنهم قد يصرفونها عن دلالتها.

والله تعالى قد نهى عن هذا الخوض، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[الأنعام:٦٨]، الذين يخوضون في آيات الله، يعني: يتكلمون فيها بغير علم، ويحرفونها ويصرفونها عن دلالتها، ويتأولون دلالاتها إلى دلالات بعيدة، يقول: إذا رأيتهم فابتعد عنهم، ولا تجلس معهم، حتى يتركوا ذلك، ويخوضوا في حديث مباح، مما يتعلق بالدين ونحو ذلك. فمعنى هذه الآية يشمل هؤلاء المتكلمين الذين خاضوا في علم الكلام، والذين توسعوا في ذلك، فلأجل ذلك يجب على المسلمين أن يبتعدوا عن علم الكلام ونحوه.

---

(١) سيأتي تخريجه.

قال الشارح:

وَكُلٌّ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالانْحِرَافِ عَلَى مَرَاتِبَ: فَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا، وَقَدْ يَكُونُ فِسْقًا، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً، وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً.

قال الشيخ:

التحريف على مراتب، وكذلك الانحراف عن مدلولها، (فَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا)، كالذين يحرفون العرش بأنه الملك، أو يحرفون آيات الصفات بأنها ليست حقيقية، وكذلك أيضًا الذين ينكرون العلم وينكرون جميع الصفات، قد يبلغ بهم ذلك إلى أن يكونوا كفارًا؛ كما قال ابن القيم - رحمه الله -:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرُهُم خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البِلْدَانِ

خمسون تُضرب في عشر، أي: خمسمائة عالم.

قال: (وَقَدْ يَكُونُ فِسْقًا)، يعني: يؤدي بصاحبه إلى أن يكون من الفساق، (وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً)، يعني: ذنبًا من الذنوب لا يصل إلى الفسق، ولا يصل إلى الكفر، (وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً)، قد يُقال: أخطأ هذا المتأول، أو أخطأ هذا المحرر، وإن كان معذورًا ومأجورًا على اجتهاده.

وعلى ذلك فالتحريف كله مذموم، سواءً ما بلغ حد الكفر، أو ما أوصل حد الفسق، أو ما أوقع في الذنب والمعاصي، أو ما كان خطأً ليس بصواب، وعلى المسلم أن يجتنب هذا التحريف، وأن يتبع الحق والصواب.

قال الشارح:

فَالْوَاجِبُ اتِّبَاعُ الْمُرْسَلِينَ، وَاتِّبَاعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ خَتَمَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَجَعَلَهُ آخِرَ الأَنْبِيَاءِ، وَجَعَلَ كِتَابَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كُتُبِ السَّمَاءِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَجَعَلَ دَعْوَتَهُ عَامَّةً لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، الْجِنِّ وَالإِنْسِ، بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَانْقَطَعَتْ بِهِ حُجَّةُ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكْمَلَ لَهُ وَلأُمَّتِهِ الدِّينَ خَبَرًا وَأَمْرًا، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَةً لَهُ، وَمَعْصِيَتَهُ مَعْصِيَةً لَهُ، وَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوهُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ - وَهُوَ الدُّعَاءُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَدُّوا صُدُودًا، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا.

قال الشيخ:

اتباع المرسلين واجب على الأمم؛ لأنهم رسل الله، ولأنهم واسطته بينه وبين عباده، فالواجب على أممهم أن يتبعوهم، وأن يتبعوا ما أنزل الله تعالى عليهم من الشرائع ومن الكتب.

وقد ختمهم الله تعالى بنبينا محمد ﷺ، فجعله آخر الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب: ٤٠]،

وقال النبي ﷺ: «أنا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»(١). فليس بعد رسالته رسالة، وليس بعده نبيٌّ، وليس بعد كتابه كتاب، أخبر الله بأنه جعل كتابه مهيمنًا على ما قبله من الكتب، وعلى ما بين يديه من كتب السماء، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة:٤٨] قال ابن عباس: «أي مؤتمنًا على هذا القرآن»، وقال: «القرآن أمين على كل كتاب قبله»(٢). وقيل: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، ما وافقه فهو حق، وما خالفه فهو باطل، أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب. فهكذا هذا الكتاب الذي يحتوي على ما تحتوي عليه وزيادة، كل الكتب التي قبله تضمنها؛ كما ذُكر ذلك، والمراد مسألة التوحيد ومسألة العقيدة والأسماء والصفات.

وكذلك أنزل الله تعالى على نبينا ﷺ الكتاب والحكمة؛ كما أخبر بذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[النساء:١١٣]، الكتاب: هو هذا القرآن، والحكمة: ما فيه من الأحكام، أو ما أُلهمه من الأحاديث.

كذلك جعل دعوته عامة لجميع الثقلين ـ الإنس والجن ـ لأن الله تعالى لـمَّا جعله خاتم الرسل جعل رسالته خاتمة الشرائع كلها، فرسالته عامة للإنس

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وأخرج شطره الأخير البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج هذين الأثرين: الطبري (٦/ ٢٦٦، ٢٦٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٥٠).

والجن، وعامة للعرب والعجم، وعامة للبعيد والقريب، لجنس بني آدم؛ لقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام:١٩]، أي: من بلغه القرآن فإنه مكلف أن يتبعه.

كذلك جعل رسالته باقية إلى يوم القيامة، أي: أنها لا تنقطع، ودينه صالح لكل زمان ومكان. ردًا على الذين يقولون: إنما يصلح لذلك الزمان الذي نزل فيه، وأن هذا الزمان قد تطور وقد تعددت الهمم، وقد تجددت أحكام، وتجددت فيه أشياء. نقول: كل هذا ليس بصحيح، بل هو صالح للزمان المتقدم ولهذا الزمان، وقد انقطعت به حجة العباد على الله؛ كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾[الأنعام:١٤٩]، أي: حجته غالبة على حجتهم، فليس لهم حجة وليس لهم عذر. وقد بين الله بهذا القرآن كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل:٨٩]، أي: كل شيء يحتاجون إليه.

وكذلك النبي ﷺ بيّن لأمته كل شيء يحتاجون إليه، وأكمل له ولأمته الدين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣]. أكمل لنا هذا الدين؛ أكمله في الأخبار، وأكمله في الأوامر والنواهي، وأكمله في الأحكام، وأكمله في المواعظ، وكل شيء

يحتاجون إليه.

كذلك (جَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَةً لَهُ، وَمَعْصِيَتَهُ مَعْصِيَةً لَهُ)، فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء:٨٠]، وقرن طاعته بطاعة رسوله، فقال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال:١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[النساء:١٤]، فجمع بين طاعته وطاعة رسوله، وطاعته هي الامتثال والاتباع، فمن أطاعه فإنه لابد أن يتبعه، وثبت أنه ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قالوا: يا رَسُولَ الله، وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1].

وأقسم الله تعالى بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥]، أي: لا يكونون مؤمنين صحيحًا إيمانُهم إلا إذا جعلوك حكمًا، ورضوا بحكمك في كل ما يختصمون فيه، وفي كل ما يختلفون فيه من أمور دينهم ومن أمور دنياهم، فيرضون بحكمك، ويسلمون بذلك، ولا يكون في صدورهم حرج

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مما قضيت به، بل يعلمون أنه حكم واجب الاتباع، وأنه من الله تعالى؛ لأن حكمه ﷺ إنما يكون بأمر الله، فلابد أن يتخذوه حاكمًا، وإذا جاءهم أمرٌ فإن عليهم أن يبحثوا، فإذا ثبت أنه عن نبيهم ﷺ، فعليهم أن يقولوا: رضينا بذلك وسلمنا. ولا يردون شيئًا منه.

قوله: (وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِهِ)؛ كما في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠]، فهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطواغيت ويمتنعون من التحاكم إلى النبي ﷺ، إما لأنه لا يأخذ رشوة، وإما لأنه يحكم بالعدل، وهم قد يكون في خصوماتهم جور وظلم، فلأجل ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦١]، إذا دُعوا إلى حكم الله وإلى حكم الرسول فإنهم يملون، ويصدون صدودًا، ولا يرضون بحكم الله ولا بحكم رسوله. وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[النساء:٥٩]، والرد إلى الله: الرد إلى القرآن، والرد إلى النبي ﷺ بعد موته: الرد إلى سنته.

فالذين يصدون صدودًا إذا دعوا إلى الله وإلى الرسول، هؤلاء من المنافقين الذين ذُكروا في هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾، يعني: يدَّعون

أنهم مؤمنون وليسوا بمؤمنين ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، يعني: يدَّعون أنهم على الإيمان،ولكنهم لا يفعلون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:٦١، ٦٢]، هكذا يقولون: ما أردنا إلا أن نجمع بيننا وبين الآخرين، نريد بتحاكمنا الإحسان والتوفيق بيننا وبين إخواننا. كل ذلك من دعاوي المنافقين والعياذ بالله.

قال الشارح:

كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ: إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُحِسَّ الأَشْيَاءَ بِحَقِيقَتِهَا، أَيْ: نُدْرِكَهَا وَنَعْرِفَهَا، وَنُرِيدُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الدَّلائِلِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْعَقْلِيَّاتِ -وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ جَهْلِيَّاتٌ- وَبَيْنَ الدَّلائِلِ النَّقْلِيَّةِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ الرَّسُولِ، أَوْ نُرِيدُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْفَلْسَفَةِ.

وَكَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ، مِنَ الْمُتَنَسِّكَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ: إِنَّمَا نُرِيدُ الأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الْحَسَنِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَبَيْنَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ حَقَائِقَ، وَهِيَ جَهْلٌ وَضَلالٌ. وَكَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَمَلِّكَةِ وَالْمُتَأَمِّرَةِ: إِنَّمَا نُرِيدُ الإِحْسَانَ بِالسِّيَاسَةِ الْحَسَنَةِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

هذه أقوال هؤلاء الذين هم من المتكلمين ومن الفلاسفة، وكثيرًا ما يؤولون الأدلة الصحيحة، أو يردونها ولا يعملون بها ولو كانت في الصحيحين، فيردون الأحاديث بأنها أخبار آحاد لا تفيد إلا الظن، أو يسلطون عليها التأويلات حتى يبطلوا دلالتها، فيقولون: (إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُحِسَّ الأَشْيَاءَ بِحَقِيقَتِهَا، أَيْ: نُدْرِكَهَا وَنَعْرِفَهَا)، يعني: يخوضون في الأمور الغيبية فيقولون: نريد أن ندرك حقيقتها، ونعرف دلالتها، ونعرف ماهيتها، فيبحثون عن الأمور الغيبية التي طوى الله تعالى علمها عن الخلق، كعلم كيفية أسماء الله وصفاته، وكيفية مجيئه ونزوله، وكيفية إرادته وأفعاله، وما أشبه ذلك.

هكذا يقولون، وهذا مما لا حاجة بهم إليه، فالله سبحانه وتعالى قد أخبر بذلك فعليهم ألا يبحثوا عن الكيفية، ولا يبحثوا عن الماهية والحقيقة، بل يؤمنون به على ما يتبادر وعلى ما يظهر.

كذلك يقولون: نريد التوفيق بين الدلائل العقلية وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول ﷺ. فيقولون: إن العقول دلت على صدق الرسل، وما علمنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاء عن الرسل شيءٌ يحيله العقل لم نقبله، بل لابد أن نجمع بين العقل والنقل. وفي الحقيقة أن تلك العقليات جهالات، ليست عقليات، وإنما هي ظنون وتخمين، واتباع للظن بغير حقيقة، فكيف يُحتاج إلى أن يُجمع بينها وبين أدلة الشريعة الصريحة الصحيحة، التي جاءت عن النبي ﷺ وليس بها أية خلاف؟!

ولكن خُيل إليهم أن العقول يجب أن تُقدم، وأن كل شيء يخالف هذه العقول فإنه يُرد ولو كان ما كان، فأبطلوا بعقلياتهم الكثير من الشرعيات، وما علموا أنه لا مدخل للعقول في خلق الله تعالى ولا في أمره، وقد يعجزون عن إدراك ماهية بعض المخلوقات، فإن العقل نفسه لا يدرون ماهيته، والروح التي في هذا البدن لا يدرون ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف يتدخلون في أمور الله تعالى وفي أسمائه وصفاته؟!

كذلك كثيرٌ من المبتدعة المتنسكة الذين يسمون أنفسهم النُسَّاك، وكذلك المتصوفة الذين يتسمون بالصوفية، يقولون: (إِنَّمَا نُرِيدُ الأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الْحَسَنِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَبَيْنَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ حَقَائِقَ، وَهِيَ

جَهْلٌ وَضَلالٌ)، فالنساك والمبتدعة والمتصوفة هؤلاء يخوضون أيضًا بعقولهم في الغيبيات، ولذلك يسمون التصوف بأسماء غريبة عجيبة، فيقولون: (الأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الحَسَنِ)، يعني: الجمع بين العمل الحسن وبين الشريعة لابد أن نعمل به، ونوفق بين الشريعة وبين ما يُدعى أنه من الباطل، الذي يسمونه حقائق، وهي في الحقيقة جهالات وضلالات. هذه من شبههم. وكذلك كثير مين أهل الكلام والتأويل يقولون: (إِنَّمَا نُرِيدُ الإِحْسَانَ بِالسِّيَاسَةِ الحَسَنَةِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ)، هؤلاء أيضًا يردون كثيرًا من الأدلة، ومن الأعمال، ومن الغيبيات، ومن الأحكام التي أمر الله بها، فيردونها ويقولون: إنها لا توافق السياسة الحسنة، ونريد أن نوفق بين السياسة الحسنة وبين الشريعة.

كل هذا من الكلام السيئ الذي لا حقيقة له، والواجب أنهم يتقبلون ما جاءت به هذه الشريعة على ما هي عليه.

قال الشارح:

فَكُلُّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يُحَكِّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ غَيْرَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ مَا يُخَالِفُهُ، فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَافٍ كَامِلٌ، يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ حَقٍّ.

وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّقْصِيرُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَعْلَم مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ الْكَلامِيَّةِ الاعْتِقَادِيَّةِ، وَلا فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْوَالِ الْعِبَادِيَّةِ، وَلا فِي كَثِيرٍ مِنَ الإِمَارَةِ السِّيَاسِيَّةِ، أَوْ نَسَبُوا إِلَى شَرِيعَةِ الرَّسُولِ - بِظَنِّهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ - مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَأَخْرَجُوا عَنْهَا كَثِيرًا مِمَّا هُوَ مِنْهَا.

فَبِسَبَبِ جَهْلِ هَؤُلاءِ وَضَلالِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ، وبِسَبَبِ عُدْوَانِ أُولَئِكَ وَجَهْلِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، كَثُرَ النِّفَاقُ، وَدَرَسَ[1] كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الرِّسَالَةِ.

قال الشيخ:

كل من طلب أن يُحكِّم في شيء من أمر الدين غير ما جاء بها الرسول، يعني: غير الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ وبلغها وتلقاها عنه صحابته وأمته، فإذا طلب أن يُحكِّم في شيء غير ما جاء به الرسول، ويعتقد أن هذا حكم حسن؛ كقولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء:٦٢]، وأن هذا أيضًا جمع بين ما جاء به الرسول ﷺ وبين ما يخالفه، فله نصيب من ذلك. يعني: من

(١) دَرَسَ دَرْسًا وَدُرُوسًا: عفا وذهب أثره وتقادم عهده. انظر: لسان العرب (درس).

عمل المنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، أو الذين لا يؤمنون حتى يُحكِّموا الرسول فيما شجر بينهم، أو من طريقة المتكلمين والمبتدعة والمتملكة، له نصيب من هذا، بل الواجب عليه أن يحكم الرب والشرع في أمور الدين كلها.

وإذا قالوا: إن هذا مما جاء به الرسول ﷺ، وإن لم يكن من النصوص.

نقول: إن ما جاء به الرسول كافٍ شامل كامل، يدخل فيه كل شيء، ويدخل فيه حقوق الآدميين، وتدخل فيه الأمور الدنيوية، وتدخل فيه المحدثات الجديدة، كل هذا داخل في الشريعة، وليس في الشريعة نقص، وليس هناك شيء إلا ويوجد له حكم في شريعة الله تعالى. فما جاء به الرسول كافٍ كامل يدخل فيه كل حق، وإنما وقع التقصير حقًا من كثير ممن ينتسبون إلى الشريعة، حيث لم يعلموا ما جاء به الرسول في كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية؛ لأنهم اشتغلوا بضد ذلك، وقصروا في تعلم ما جاء به النبي ﷺ في الأمور الاعتقادية، واشتغلوا بالأمور الكلامية، وكذلك قصروا في كثير من الأحوال العبادية، وكذلك في كثير من الإمارة والسياسة، وكذلك نسبوا إلى شريعة النبي ﷺ ما ليس منها، بظنهم وتقليدهم، وأخرجوا عنها كثيرًا مما هو منها. هؤلاء بلا شك هم الذين جنوا على الأمة وأوقعوا أنفسهم بهذا الظن السيئ.

يقول الشارح: (فَبِسَبَبِ جَهْلِ هَؤُلاءِ وَضَلالِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ)، يعني: تقصير هؤلاء الذين ينتسبون إلى العلم، الذين هم علماء لكن لم يشتغلوا بالعلم

الصحيح بسبب جهلهم وتفريطهم، (وبِسَبَبِ عُدْوَانِ أُولَئِكَ وَجَهْلِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، كَثُرَ النِّفَاقُ)، أولئك المتفلسفة والمتزندقة ونحوهم اعتدوا على الأدلة وأخربوها، وبسبب عدوانهم وجهلهم ونفاقهم كثر النفاق (وَدَرَسَ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الرِّسَالَةِ)، أي: من علم الشريعة الذي جاء به النبي ﷺ، واشتغل كثير من الناس بما هو بعيد عن الحق.

قال الشارح:

بَلِ الْبَحْثُ التَّامُّ، وَالنَّظَرُ الْقَوِيُّ، وَالاجْتِهَادُ الْكَامِلُ، فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ لِيُعْلَمَ وَيُعْتَقَدَ، وَيُعْمَلَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَيَكُونَ قَدْ تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَأَنْ لا يُهْمَلَ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ عَاجِزًا عَنْ مَعْرِفَةِ بَعْضِ ذَلِكَ، أَوِ الْعَمَلِ بِهِ، فَلا يَنْهَى عَمَّا عَجَزَ عَنْهُ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، بَلْ حَسْبُهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْهُ اللَّوْمُ لِعَجْزِهِ، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْرَحَ بِقِيَامِ غَيْرِهِ بِهِ، وَيَرْضَى بِذَلِكَ، وَيَوَدَّ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِهِ، وَأَنْ لا يُؤْمِنَ بِبَعْضِهِ وَيَتْرُكَ بَعْضَهُ، بَلْ يُؤْمِنُ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَأَنْ يُصَانَ عَنْ أَنْ يُدْخِلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، مِنْ رِوَايَةٍ أَوْ رَأْيٍ، أَوْ يَتَّبِعَ مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، اعْتِقَادًا أَوْ عَمَلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢].

وَهَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُهُمُ السَّلَفُ الْقَدِيمُ مِنَ التَّابِعِينَ الأَوَّلِينَ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ. وَمِنْ هَؤُلاءِ أَئِمَّةُ الدِّينِ الْمَشْهُودُ لَهُمْ عِنْدَ الأُمَّةِ الْوَسَطِ بِالإِمَامَةِ.

قال الشيخ:

حقيقة أن البحث التام والنظر القوي والاجتهاد الكامل هو فيما جاء به الرسول ﷺ؛ لأجل أن يُعلم ويُعتقد، ولأجل أن يُعمل به ظاهرًا وباطنًا، فيكون قد تُلي الكتاب حق تلاوته، ولم يُهمل منه شيء. هذا حقًا هو الواجب أن يبحث

المسلم بحثًا كاملًا، وينظر نظرًا قويًا، فيجتهد اجتهادًا كاملًا تامًا في كل ما بلغه النبي ﷺ، حتى يعلم ذلك ويعتقده، وحتى يعمل بالشريعة في الظاهر والباطن، وحتى يكون من الذين يتلونه حق تلاوته ويتبعونه، وحتى لا يكون من الذين يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[النساء:١٥٠]، والذين وبخهم الله تعالى بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥].

لاشك أن كثيرًا من الناس قد يعجز عن معرفة بعض ذلك، أو العمل به، وأن العبد قد يعجز عن معرفة تفاصيل ذلك، أو تطبيقه والعمل به، ولكن لا ينهى غيره عما عجز عنه، فلا يقول: لا تقم بذلك. نقول: هذا مما جاء به الرسول، فلا تنه غيرك عن أن يتعلمه ويطبقه، ويبحث عن معانيه. حسبك أن يسقط عنك اللوم؛ لأنك عاجز حيث إنك عجزت عن معرفة شيء من ذلك أو كله، فلا تمنع غيرك، ولا تقل: إن هذا لا يجوز. بل عليك أن تفرح إذا قام به غيرك، فإذا رأيت من العلماء من اشتغلوا بهذا العلم الصحيح، وبيَّنوا صحيحه، وبيَّنوا ما يدل عليه، فإن عليك أن تُسر بذلك، وأن تفرح به فرحًا شديدًا، حتى تكون ممن يتبعون الحق، ويرضون به.

عليك أن تود أن تكون قائمًا به، تقول: يا ليتني قدرت فأكون قائمًا بهذا العلم. ولا تكن من الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فإن الله تعالى توعدهم بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ

مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾[البقرة:٨٥]، فهذا وعيد شديد للذين يؤمنون ببعضه دون بعض.

الواجب أن تؤمن بالكتاب كله، وأن يُصان الكتاب عن أن يُدخل فيه ما ليس منه، لا تُدخلوا في كتاب الله ولا في شريعته شيئًا ليس منه، ولا تقدموا عليه آراءكم، ولا رواياتكم، ولا أقوال مشايخكم، بل عليكم أن تتبعوا ما جاء من عند الله اعتقادًا وعملًا، وعليكم أن تتركوا كل ما هو مبتدع ليس من الكتاب ولا من السنة، وألا تردوا شيئًا من الحق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٤٢]، الحق الواضح تخلطونه بالباطل، تخلطون بينهما وتجعلون الباطل حقًا والحق باطلًا، وتعلمون الحق ولكنكم تكتمونه، مع أنكم تعرفون أنه حق؛ لأجل مصالح دنيوية، أو لأجل رئاسة، أو ما أشبه ذلك.

هذا كله من رد كتاب الله تعالى، ومن التجرؤ على الكتاب بكتمان شيء مما أنزل الله، وقد توعد الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[البقرة:١٧٤]، وعيد شديد للذين يكتمون شيئًا من الحق وهم يعلمونه؛ لأجل أن يشتروا به ثمنًا قليلًا من رئاسة أو مال أو ما أشبه ذلك.

فالذين يؤمنون بالكتاب كله ويتبعونه هؤلاء هم سلفنا الصالح، هذه

كانت طريقة السابقين الأولين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، طريقتهم أنهم لا يردون شيئًا صحيحًا، ولا يؤمنون ببعض دون بعض، بل يؤمنون بالكتاب كله، ويصونون كتاب الله، فلا يُدخلون فيه ما ليس منه من آرائهم أو نحوها، فإذا عجزوا عن بعضه فإنهم لا ينهون غيرهم عما عجزوا عنه، بل يفرحون إذا قام غيرهم به.

فهذه طريقتهم رحمهم الله، وكذلك طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، أي: علماء كل زمان كلهم جاؤوا بالحق واتبعوه، أولهم: السلف القديم من التابعين الأولين، الذين تتلمذوا على الصحابة رضي الله عنهم، ثم من بعدهم من الأئمة والعلماء الذين حفظ الله تعالى بهم الدين، وهؤلاء منهم أئمة الدين الذين شهد لهم عند الأمة الوسط بالإمامة، الأمة الوسط: هي هذه الأمة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣].

قال الشارح:

فَعَنْ أَبِي يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّهُ قَالَ لِبِشْرٍ الْمِرِّيسِيِّ: الْعِلْمُ بِالْكَلامِ هُوَ الْجَهْلُ، وَالْجَهْلُ بِالْكَلامِ هُوَ الْعِلْمُ، وَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ رَأْسًا فِي الْكَلامِ قِيلَ: زِنْدِيقٌ، أَوْ رُمِيَ بِالزَّنْدَقَةِ[1].

أَرَادَ بِالْجَهْلِ بِهِ اعْتِقَادَ عَدَمِ صِحَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ عِلْمٌ نَافِعٌ، أَوْ أَرَادَ بِهِ الإِعْرَاضَ عَنْهُ أَوْ تَرْكَ الالْتِفَاتِ إِلَى اعْتِبَارِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَصُونُ عِلْمَ الرَّجُلِ وَعَقْلَهُ، فَيَكُونُ عِلْمًا بِهَذَا الاعْتِبَارِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ بِالْكَلامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ الْمَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ.

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلامِ.

قال الشيخ:

هكذا نقل هذه الآثار الشارح رحمه الله.

وأبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي، صاحب أبي حنيفة، والذي نقل كثيرًا من علم أبي حنيفة رحمه الله، والذي تفقه عليه.

---

(١) سيأتي تخريجه في كلام سماحة الشيخ حفظه الله.

أما بشر المريسي: فإنه مبتدع ضال، رأس في الطائفة المريسية، ولو كان قد تفقه على أبي يوسف وعلى غيره، ولكن اشتهر بالبدعة وإنكار الصفات، وإنكار أن يكون القرآن كلام الله، فهو مبتدع ضال لا ينبغي أن يُروى عنه. اتبع طريقة الجهم بن صفوان وإن لم يدركه، وقد توفي سنة مئتين وثمانية عشر.

وبكل حال فإن هذه نصيحة من أبي يوسف ـ رحمه الله ـ يقول: (**الْعِلْمُ بِالْكَلامِ هُوَ الجَهْلُ**)، يعني: أن الذي يتعلم الكلام يُقال له: أنت جاهل ولست بعالم، ولو ادعيت أنك وصلت إلى العلم. (**وَالجَهْلُ بِالْكَلامِ هُوَ الْعِلْمُ**)، فالذي يشتغل بالعلم الصحيح ويترك الكلام هو الذي يُقال له عالم. وإذا صار الرجل رأسًا في الكلام فإنه يُقال له: هذا زنديق. أو يُرمى بالزندقة، التي هي النفاق وإخفاء العقيدة السيئة.

يريد ـ رحمه الله ـ بقوله: (**الجَهْلُ بِالْكَلامِ هُوَ الْعِلْمُ**)، أي: اعتقاد عدم صحته، فإن ذلك علم نافع. أو يريد الإعراض عنه، فالجهل بالكلام: يعني الإعراض عنه وترك الالتفات إلى اعتباره، فإن ذلك يصونك أيها المسلم، يصون علمك وعقلك، فتكون عالمًا بهذا الاعتبار.

هذا كله نهي عن علم الكلام الذي ولده المتكلمون.

وكذلك يقول أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: (**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ بِالْكَلامِ تَزَنْدَقَ**)، أي: إذا انشغل بالكلام أدى به ذلك إلى أن يلتحق بالزنادقة المنافقين الذين يخفون عقيدتهم السيئة. ويقول: (**وَمَنْ طَلَبَ المَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ**)، الكيمياء: طريقة يتعلمونها يكتسبون بها، وكثير من العلماء ينهون عن تعلمها، وإن كان

المتأخرون قد يمدحون بعض صفاتها. ويقول: (وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ)، أي: من طلب الأحاديث الغريبة التي ليس لها طرق وليست مشهورة، لابد أنه يقع في الكذب.

وهذا الأثر عن أبي يوسف قد أخرجه البغدادي الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[1] عن أبي يوسف، قال: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ بِالْكَلامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ المَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ).

والشافعي - رحمه الله تعالى - ذكرنا عنه سابقًا أنه يقول: (حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلامِ)، هذا الأثر رواه البيهقي في «مناقب الشافعي»[2]، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[3]، وابن حجر في «توالي التأسيس»[4]، وغيرهم.

الشافعي: عالم الأثر، وناصر الحديث، أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي المطلبي المكي، المتوفى سنة مئتين وأربعة، صاحب المذهب المشهور. حكم في أهل الكلام الذين يشتغلون بعلم الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال،

---

(١) (ص٥). وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ١٤٥)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٤٧).

(٢) (١/ ٤٦٢).

(٣) (ص٧٨).

(٤) (ص٦٤).

وأن يُطاف بهم بين الناس والعشائر، وبين القبائل، قبائلهم وقبائل غيرهم، وأن يُقال: هذا جزاؤهم؛ لأنهم تركوا الكتاب والسنة والعلم الصحيح، وأقبلوا على علم الكلام الذي هو جهل.

وقد بين هذا ـ رحمه الله ـ بيانًا واضحًا حقًا يجب أن يُعتمد، وأن يُعرف أنه ـ رحمه الله ـ ناصح بترك هذا العلم الذي هو علم الكلام.

قال الشارح:

وَقَالَ أَيْضًا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ:

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ إِلَّا الحَدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ

الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا وَمَا سِوَى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

قال الشيخ:

البيتان منسوبان للشافعي في «طبقات السبكي»[1]، و«البداية»[2]، وغيرهما، وقيل: منسوبان لبعض علماء الشاش[3]. ومعناهما جيد.

والمراد بالعلوم: العلوم الكلامية التي اشتغل بها كثير من المتكلمين، وصدوا بها عن كلام الله تعالى، وعن الحديث، وعن السنة، وعن العقيدة، وعن الأحكام، وعن الفقهيات، وعن تراجم العلماء، وكذلك عن الأخبار والتراجم ونحوها. هذه كلها داخلة في علم القرآن، فالقرآن مشتمل على جميع العلوم النافعة: على الأحكام، وعلى الآداب، وعلى القصص، وعلى الأمثال، وعلى الآداب والأخلاق وما أشبهها. فما سواه من العلوم فإنها مشغلة صادة

---

(١) (١/ ٢٩٧).

(٢) (١٠/ ٢٥٤).

(٣) نقل ذلك الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٧٩) عن أبي زيد الفقيه، ومن طريق الخطيب أخرجه القاضي عياض في «الإلماع» (ص٤١). والشاش: من بلاد الترك، ويجمع كورًا من كور خراسان. انظر: معجم ما استعجم (٣/ ٧٧٦).

عن الخير إلا الحديث، أي: علم الحديث والاشتغال به والفقه الذي هو استنباط الأحكام من الأدلة.

ثم يقول: (**الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا**)، يعني: رواية المحدثين بقولهم: حدثنا محمد بن رافع .. أو حدثنا وكيع .. ونحو ذلك، وما سوى ذلك من العلوم فإنه وسواس الشياطين، أي أنه من وسوسة الشياطين.

ويقول ابن القيم[1] ـ رحمه الله ـ:

الْعِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الْصَحَابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ

مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الْنُصُوصِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلانِ

فهكذا فرّق بين العلم الصحيح وبين ما ليس بعلم صحيح.

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٧٩).

وَذَكَرَ الأَصْحَابُ فِي الْفَتَاوَى: أَنَّهُ لَوْ أَوْصَى لِعُلَمَاءِ بَلَدِهِ: لا يَدْخُلُ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَلَوْ أَوْصَى إِنْسَانٌ أَنْ يُوقَفَ مِنْ كُتُبِهِ مَا هُوَ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ، فَأَفْتَى السَّلَفُ أَنْ يُبَاعَ مَا فِيهَا مِنْ كُتُبِ الْكَلامِ. ذُكِرَ ذَلِكَ بِمَعْنَاهُ فِي الْفَتَاوَى «الظَّهِيرِيَّةِ». فَكَيْفَ يُرَامُ[1] الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الأُصُولِ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؟!

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ[2]:

أَيُّهَا الْمُغْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْمًا ... كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ
تَطْلُبُ الْفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلًا ... كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أَصْلِ الأُصُولِ

قال الشيخ:

وهذا صحيح إن شاء الله، إذا أوصى الإنسان وقال: هذا المال أو هذه الغلة لعلماء هذا البلد. فلا يدخل المتكلمون الذين اشتغلوا بعلم الكلام، فإنهم لا يسمون علماء. وكذلك إذا أوصى أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم بقوله: أوقفوا كتبي العلمية، أي: اجعلوها وقفًا. فإنه إذا كان فيها شيء من كتب الكلام فإنه لا يكون وقفًا، بل يجوز بيعه، مع أن الموقوف لا يجوز أن يباع. هكذا ذكره بمعناه صاحب الفتاوى «الظهيرية» لظهير الدين أبي بكر محمد بن

(١) يُرام: يُطلب، رام الشيء: طلبه. انظر: لسان العرب (روم).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ١٥٨).

أحمد بن عمر البخاري، الفقيه الأصولي القاضي، الذي تولى الحسبة ببخارى، وتوفي سنة ستمائة وتسعة عشر.

ذكر هذه الفتاوى: فتوى الذي أوصى لعلماء بلده، وفتوى الذي أوصى أن يوقف من كتبه كتب العلم.

(**فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الأُصُولِ**)، أي: علم العقائد (**بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؟!**)، لا يمكن، من أراد علم الرسول واتبعه فإنه يحصل على علم الأصول، فلا يمكن أن يصل إلى علم الأصول ـ وأصلها العقيدة ـ إلا إذا كان متبعًا لما جاء به النبي ﷺ.

وهكذا ما قاله هذا الشاعر: (**أَيُّهَا الْمُغْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْمًا**)، أي: الذي يغدو أو يروح لأجل طلب العلم، أخبروه وقولوا: (**كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ**)، العلوم التي يجب أن تتعلموها إنما هي العلم الذي بلغه النبي ﷺ.

(**تَطْلُبُ الْفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلا   كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أَصْلِ الأُصُولِ**)

لا تنشغل بالفروع حتى تصحح الأصول، فالأصول هي ما جاء به النبي ﷺ، فتغفل علم الأصل وتشتغل بفروع وأنت لم تشتغل بما هو الأصل الأصيل.

قال الشارح:

وَنَبِيُّنَا ﷺ أُوتِيَ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ، فَبُعِثَ بِالْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ وَالْعُلُومِ الأَوَّلِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ، وَلَكِنْ كُلَّمَا ابْتَدَعَ شَخْصٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا، فَلِذَلِكَ صَارَ كَلامُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَثِيرًا، قَلِيلَ الْبَرَكَةِ، بِخِلافِ كَلامِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَإِنَّهُ قَلِيلٌ، كَثِيرُ الْبَرَكَةِ، لا كَمَا يَقُولُهُ ضُلالُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَجَهَلَتُهُمْ: إِنَّ طَرِيقَةَ الْقَوْمِ أَسْلَمُ، وَإِنَّ طَرِيقَتَنَا أَحْكَمُ وَأَعْلَمُ! وَلا كَمَا يَقُولُهُ مَنْ لَمْ يُقَدِّرْهُمْ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْفِقْهِ: إِنَّهُمْ لَمْ يَتَفَرَّغُوا لاسْتِنْبَاطِ الفقه وَضَبْطِ قَوَاعِدِهِ وَأَحْكَامِهِ اشْتِغَالًا مِنْهُمْ بِغَيْرِهِ! وَالْمُتَأَخِّرُونَ تَفَرَّغُوا لِذَلِكَ، فَهُمْ أَفْقَهُ!!

قال الشيخ:

هكذا يذكر - رحمه الله تعالى - أن النبي ﷺ قد أتاه الله فواتح الكلم، وخواتمه، وثبت عنه أنه قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»[1]، أو: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ»[2]، وقد أورد ابن رجب في كتاب: «جامع العلوم والحكم»[3] روايات لهذا الحديث، وفيها أنه أُوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، واختُصِرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣) وليس فيه «وخواتمه» من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٢/ ١٧٢) بلفظ: «أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) (ص٤، ٥).

له الكلام اختصارًا، فقد بعثه الله تعالى: (**بِالْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ**)، يعني: الجامعة، والألفاظ القليلة التي يدخل فيها شيء كثير من العلوم، وكذلك أيضًا بعثه: (**وَالْعُلُومِ الأَوَّلِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ**)، يعني: بعلوم الأولين والآخرين، (**عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ**)، وأكملها.

ثم يذكر أنه: (**كُلَّمَا ابْتَدَعَ شَخْصٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا، فَلِذَلِكَ صَارَ كَلامُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَثِيرًا، قَلِيلَ الْبَرَكَةِ**)، وذلك لكثرة البدع، فإن القدرية يبتدعون بدعًا ويحبذونها ويذكرون حججًا عليها، فيضطر العلماء في زمانهم إلى مناقشتها، ويطول الكلام، ويبتدع أيضًا المعتزلة والجهمية والمعطلة بدعًا وشبهات، يقررون بها ما هم عليه، ويطيلون شعبها،ويطيلون فروعها، فيستدعي ذلك أهل السنة إلى أن يناقشوها، وأن يتكلموا فيها، فيطول الكلام ويكثر، ولا حاجة إلى هذا التوسع، إنما الواجب أن نقول: اقتصروا على كتاب الله وسنة رسوله، وكذلك أيضًا على تفسير سلف الأمة وأئمتها، ولا تشتغلوا ببدع هؤلاء المتأخرين الذين وسعوا الكلام، وتوسعوا في ذكر التقديرات، وفي ذكر التخمينات وما أشبهها، وتوسعوا فيما يظنونه وفيما يقدرونه، فصار كلامهم كثيرًا، ولكن قليل البركة.

(**بِخِلافِ كَلامِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَإِنَّهُ قَلِيلٌ، كَثِيرُ الْبَرَكَةِ**)، إذا نظرنا في كتب المتقدمين في عقائدهم كعقائد الإمام أحمد وابنه، وتلميذه الخلال وغيرها من كتب السلف ـ رحمهم الله ـ وجدناها مختصرة، ولكن فيها بركة كثيرة.

نُقل عن المتكلمين الضلال والجهلة أنهم يقولون: (طريقة السلف أسلم،

وطريقة الخلف أعلم وأحكم)[١]. وهذا ظلم وكذب، بل طريقة السلف المتقدمين أسلم وأعلم وأحكم، وأما طريقتكم أيها الخلف وأيها المتكلمون فإنها طريقة ضالة، قد وقعتم في الزلل، ووقعتم في التناقض الكثير، فكانت نهايتكم الحيرة والضلال.

هكذا يقول بعض المتأخرين الذين لم يقدروا السلف قدرهم، ومع ذلك ينتسبون إلى الفرقة فيظلمون السلف ويقولون: إنهم لم يتفرغوا للاستنباط. وكذبوا، بل تفرغوا واستنبطوا، وبينوا الأحكام، وشرحوا الأحاديث، وبينوا ما فيها، كما تدل عليه كتبهم ومؤلفاتهم التي تتعلق بالعقيدة، وتتعلق بالأحكام، وتتعلق بالشريعة، كيف يُقال: إنهم لم يتفرغوا للاستنباط، ولا لضبط قواعده وأحكامه، مشتغلين عنها بغيرها؟! وأما المتأخرون فقد تفرغوا لذلك، وهم أعلم وأفقه؟! وهذا ليس بصحيح، بل السلف ـ رحمهم الله ـ تفرغوا لذلك، وجاءوا بكل ما يقدرون عليه مما هو خير كثير، وأما المتأخرون فإنهم وسّعوا الكلام، ووسعوا الكتب، وشغلوا الناس بقراءة تلك الكتب التي لا طائل تحتها.

---

(١) انظر في بيان هذه المقالة وبطلانها: مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧)، ودرء التعارض (٥/ ٣٧٨)، والصواعق المرسلة (٣/ ١١٣٣)، وفتح الباري (١٣/ ٣٥٢)، والتحف في مذاهب السلف للشوكاني (ص١٦)، وآيات الأسماء والصفات لمحمد الأمين الشنقيطي (ص٤٦).

قال الشارح:

فَكُلُّ هَؤُلاءِ مَحْجُوبُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِ السَّلَفِ، وَعُمْقِ عُلُومِهِمْ، وَقِلَّةِ تَكَلُّفِهِمْ، وَكَمَالِ بَصَائِرِهِمْ. وَتَاللهِ مَا امْتَازَ عَنْهُمُ المُتَأَخِّرُونَ إلا بِالتَّكَلُّفِ وَالاشْتِغَالِ بِالأَطْرَافِ الَّتِي كَانَتْ هِمَّةُ الْقَوْمِ مُرَاعَاةَ أُصُولِهَا، وَضَبْطَ قَوَاعِدِهَا، وَشَدَّ مَعَاقِدِهَا، وَهِمَمُهُمْ مُشَمَّرَةٌ إِلَى المَطَالِبِ الْعَالِيَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَالْـمُتَأَخِّرُونَ فِي شَأْنٍ، وَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ آخَرَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

قال الشيخ:

يقول: إن هؤلاء الذين يقولون إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، محجوبون عن معرفة مقدار السلف، فإن السلف ـ رحمهم الله ـ أعلم وأحكم وطريقتهم أسلم، وقد تكلموا وبينوا ما فيه الخير، ونقل السلف والخلف عنهم علمًا كثيرًا، ويدل على مقادير السلف ومعرفتهم، ويدل على عمق علومهم، وعلى قلة تكلفهم؛ لأنهم لا يتكلفون في علم الأشياء المحجوبة عنهم، ويدل على أن الله تعالى بصّرهم بالحق، وأنهم أكمل بصيرة، وأن المتأخرين لم يمتازوا عنهم إلا بالتكلف والتعمق في أشياء لا حاجة بهم إليها، يشتغلون: (بِالتَّكَلُّفِ وَالاشْتِغَالِ بِالأَطْرَافِ الَّتِي كَانَتْ هِمَّةُ الْقَوْمِ مُرَاعَاةَ أُصُولِهَا)، لم يكونوا يهتمون بعلم الغيوب، والأشياء الغيبية والتقادير ونحوها، إنما يحتاجون إلى: (ضَبْطَ قَوَاعِدِهَا، وَشَدَّ مَعَاقِدِهَا)، يقعدون لها قواعد، ويشدون تلك المعاقد.

(وَهِمَمُهُمْ مُشَمَّرَةٌ إِلَى المَطَالِبِ الْعَالِيَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ)، يعني: أن مطالبهم فوق مطالب هؤلاء المتأخرين، (فَالْمُتَأَخِّرُونَ فِي شَأْنٍ، وَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ آخَرَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا).

قال الشارح:

وَقَدْ شَرَحَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعْضَ الشَّارِحِينَ قَدْ أَصْغَى إِلَى أَهْلِ الْكَلامِ الْمَذْمُومِ، وَاسْتَمَدَّ مِنْهُمْ، وَتَكَلَّمَ بِعِبَارَاتِهِمْ.

وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوا التَّكَلُّمَ بِالْجَوْهَرِ وَالْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالاصْطِلاحِ عَلَى أَلْفَاظٍ لِعُلُومٍ صَحِيحَةٍ، وَلا كَرِهُوا أَيْضًا الدَّلالَةَ عَلَى الْحَقِّ وَالْمُحَاجَّةِ لأَهْلِ الْبَاطِلِ.

بَلْ كَرِهُوهُ لاشْتِمَالِهِ عَلَى أُمُورٍ كَاذِبَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْحَقِّ، وَمِنْ ذَلِكَ مُخَالَفَتُهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلِهَذَا لا تَجِدُ عِنْدَ أَهْلِهَا مِنَ الْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا عِنْدَ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَضْلًا عَنْ عُلَمَائِهِمْ، وَلاشْتِمَالِ مُقَدِّمَاتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، كَثُرَ الكلام، وَانْتَشَرَ الْقِيلُ وَالْقَالُ، وَتَوَلَّدَ لَهُمْ عَنْهَا مِنَ الأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ الصَّحِيحِ وَالْعَقْلِ الصَّرِيحِ مَا يَضِيقُ عَنْهُ الْمَجَالُ. وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ الكلام زِيَادَةُ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِهِ: (فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ...).

قال الشيخ:

عقيدة الطحاوي ـ رحمه الله ـ شرحها كثير من علماء الحنفية، وقد ذكرنا في المقدمة نقلًا عن صاحب «كشف الظنون» عددًا من الذين شرحوها، واطلع صاحب الشرح عليها، لكن كثيرًا منهم اشتغلوا بعلم الكلام المذموم، ونقلوا في ذلك شيئًا كثيرًا. وقد تقدم بيان الكلام المذموم الذي هو توليد المتأخرين، فبعض الشراح استمد منهم، وتكلم بعباراتهم، وحرّف كثيرًا من كلام

الطحاوي، وأسقط بعض العبارات التي لم تكن مناسبة وموافقة لمذهبهم.

قوله: (**وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوا التَّكَلُّمَ بِالْجُوْهَرِ وَالْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالاصْطِلاحِ عَلَى أَلْفَاظٍ لِعُلُومٍ صَحِيحَةٍ**)، لا شك أن الجوهر والجسم والعرض ونحوها اصطلاحات اصطلح عليها المتكلمون، وأخذوا يولدون ويقولون: إن الله ليس بجوهر، ولا عرض، ولا جسم، ومنزه عن الأعراض والأبعاض والأعضاء ونحو ذلك. وهذا قد يكون اصطلاحًا جديدًا على معانٍ صحيحة، ولكن الغالب أنهم يستعملونه في معانٍ غير صحيحة. وأنه لم يرد عن السلف ولا عن الصحابة الكلام في الجوهر والجسم والعرض ونحوها، سواء كانت اصطلاحًا على معانٍ صحيحة أو غير صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، اصطلح العلماء على ألفاظ للعلوم الصحيحة، كما في اصطلاح أهل الحديث في علم المصطلح، فإنها علوم صحيحة.

والسلف ـ رحمهم الله ـ ما كرهوا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، ما كرهوا إلا محاجة المبطلين وتوسيع باطلهم، وكرهوا هذه المحاجة وهذه الدلالة؛ لأنها تشتمل على أمور كاذبة مخالفة للحق، ولأن هذه العلوم الكلامية مخالفة للكتاب والسنة، ومخالفة للأدلة الشرعية. ولما كانت مخالفة لها تسلطوا عليها بالتأويل والتحريف، وسلطوا عليها الكلام الذي يريدون به صرفها عن ظاهرها، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلًا عن علمائهم.

وسيأتي لذلك أمثلة في كلام الشارح رحمه الله، وأن كثيرًا من علماء هـؤلاء علمهم جهل، وكانت نهايتهم الحيرة، مقدمتهم تشتمل على الحق والباطل، فلما كان كذلك كثر بينهم المراء والجدال والمحاكة والمماحكة، وانتشر بينهم القيل والقال، وولدوا أنواعًا من الكلام، تولد عنها تلك الأقوال التي تخالف الشرع الصحيح والعقل الصريح مما يضيق عنه المجال. وهذا كله بسبب توليدهم لتلك العبارات.

وأخبر أنه سيأتي مزيد لذلك عند قوله: (فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ...).

قال الشارح:

وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْرَحَهَا سَالِكًا طَرِيقَ السَّلَفِ فِي عِبَارَاتِهِمْ، وَأَنْسُجَ عَلَى مِنْوَالِهِمْ، مُتَطَفِّلا عَلَيْهِمْ، لَعَلِّي أَنْ أُنْظَمَ فِي سِلْكِهِمْ، وَأُدْخلَ فِي عِدَادِهِمْ، وَأُحْشَرَ فِي زُمْرَتِهِمْ ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩].

وَلَمَّا رَأَيْتُ النُّفُوسَ مَائِلَةً إِلَى الاخْتِصَارِ، آثَرْتُهُ عَلَى التَّطْوِيلِ وَالإِسْهَابِ، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

قال الشيخ:

أخبر ـ رحمه الله ـ بأنه سوف يشرحها، وأنه سلك في شرحه طريقة السلف في عباراتهم. وذلك لأنه تتلمذ على ابن كثير ـ رحمه الله ـ وتأثر به، وابن كثير تتلمذ على ابن تيمية وتأثر به فيما يتعلق بعلم العقيدة، ولما كان كذلك اقتنى كثيرًا من كتب ابن تيمية ومن كتب ابن القيم، وتأثر بها وصار ينقل منها، وإن كان لا يُصرح بأن هذا من كلام فلان أو فلان إلا عند الحاجة. ولعله رأى أن كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم منبوذ عند أهل زمانه، أو عند أهل مذهبه من الحنفية الذين هم من المتكلمة، فلأجل ذلك لم يُصرح بالنقل عنهم من كتبهم.

سلك ـ رحمه الله ـ طريقة السلف بعباراتهم، يُكثر من الآثار التي تدل على

إثباتهم للصفات رحمهم الله، ونسج على منوالهم، وسار على مسيرهم، متطفلًا عليهم، يعني: أنه عد نفسه كأنه طفيلي عليهم، راجيًا أن ينظمه الله تعالى في سلكهم، أي: معهم، وأن يدخله في عداد السلف الصالح، وأن يحشره في زمرتهم، أي: إذا حُشروا زمرًا، وأن يجعله الله تعالى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[النساء:٦٩].

النبيون: الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم بإنزال الوحي عليهم.

الصديقون: هم الذين صدقوهم وبالغوا في تصديقهم.

الشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، أو الذين شهدوا بالحق وهم يعلمون.

الصالحون: الذين أصلحهم الله تعالى، وأصلح أعمالهم وأقوالهم.

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾، أي: ما أحسن رفقتهم، ويُرجى أن يكون هذا الشارح - إن شاء الله - من جملتهم.

أخبر بأنه رأى النفوس مائلة إلى الاختصار، فآثره على التطويل والإسهاب، ولو أراد لتوسع توسعًا زائدًا بذكر الأدلة، وبذكر المحاجة وبيان ما تدل عليه، ولكن كلامه فيه شفاء وفيه الكفاية، فإنه شرحها شرحًا واضحًا ظاهرًا، ليس فيه أية خفاء، واقتصر على النقل عن السلف رحمهم الله، وترك النقل عن أهل الكلام، واعتمد على الله تعالى، وآثر الاختصار على الإسهاب وعلى الإطالة، وأخبر بأنه يعتمد على الله.

يقول: (وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)، راجيًا من الله تعالى توفيقه لكل ما هو صواب، متوكلًا عليه، ومنيبًا إليه، ومتضرعًا إليه، ومخبرًا بأنه حسبه ونعم الوكيل، والحسب: هو الكافي، والوكيل: هو الذي يوكل على كل شيء. والله سبحانه وتعالى حسب عباده المؤمنين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٤]، أي: وحسب أتباعك من المؤمنين الله سبحانه وتعالى أن يكفيكم جميع أموركم.

(وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) هذه الجملة ذكرها الله تعالى عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣]، قالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السَّلام حين ألقي في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

وَحَسْبُنَا اللَّـهُ وَنِعْمَ الْكَافِي ذُو الْعِزِّ وَالْقُدْرَةِ وَالإِلْطَافِ

فهو سبحانه حسب من توكل عليه.

فالشارح ـ رحمه الله ـ يُرجىٰ أن يكون موفقًا حيث طلب من الله تعالى التوفيق، واعتمد عليه ورجا ذلك، واختصر هذا الشرح ولو شاء لأطال،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وبحث فيه عما هو الحق، وتقيد فيه بطريقة السلف، ونقل فيه النقول الصحيحة عن سلف الأمة في إثبات الصفات كلها، فيما يتعلق بصفة الاستواء وصفة العلو، وأن الله تعالى فوق كل شيء، وكذلك في الصفات الفعلية، صفات القدرة والإرادة والعلم والرحمة وما أشبهها.

وفقه ربه لذلك فكان بذلك من الموفقين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالِمِينَ.

قَالَ العَلامَةُ حُجَّةُ الإِسْلامِ أَبُو جَعْفَرٍ الوَرَّاقُ الطَّحَاوِيُّ بِمِصْرَ - رَحِمَهُ اللهُ -:

هَذَا ذِكْرُ بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، عَلى مَذْهَبِ فُقَهَاءِ المِلَّةِ: أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الكُوفِيِّ، وَأَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الأَنْصَارِيِّ، وَأَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَيَدِينُونَ بِهِ رَبَّ العَالِمِينَ.

قال الشيخ:

إنَّ هذه العقيدة على مذهب أهل السُّنَّة والأئمَّة كلِّهم، ولكنَّ الطَّحاوي ذكر أنَّها على مذهب أبي حنيفة وصاحبَيْه، وذلك لأنَّه كتبها لتلاميذه المختصِّين، الذين في قلوبهم وَقْعٌ وَقَدْرٌ لهؤلاء الأئمَّة الثلاثة، الذين هم أبو حنيفة وصاحِباه؛ لأنَّ صاحبيه - محمد بن الحسن وأبا يوسف - هما اللذان دَوَّنا مذهبه، وكتبا المسائل التي سُئِلَ عنها ونشراها؛ فلأجل ذلك أصبحا مختصَّين به.

فيقول: إنَّ هذه العقيدة فيها معتقد هؤلاء الثَّلاثة. ولا ينافي أنَّ فيها معتقد الأئمَّة الآخرين؛ كالشَّافعيّ ومالك، وأحمد، وكذلك بقيَّة الأئمَّة؛ لأنَّ العقيدة كما ذكرنا سالمة من الخلافات، إلَّا خلاف المبتدعة، والمبتدعة لا يُعتدُّ بخلافهم.

قَالَ الْإِمَامُ الطَّحَاوِيُّ ـ رحمه الله ـ:

نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ ـ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ ـ: أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لا شَرِيكَ لهُ.

قال الشارح:

اعْلَمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩]، وَقَالَ هُودٌ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥]، وَقَالَ صَالِحٌ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٧٣]، وَقَالَ شُعَيْبٌ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

وَقَالَ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»[1]. وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لا النَّظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٢).

الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ.

قال الشيخ:

هذا الكلام يدلُّ على أهميَّة التَّوحيد، والتَّوحيد الذي ذكره الشارح هو توحيد العبادة؛ فإنَّه الذي دعت إليه الرُّسل، واتَّفقت عليه دعوتُهم، فيقول: إنَّ التَّوحيد هو أوَّل ما يكلَّفُ به العباد، وهو الذي يُسأل عنه في الحشر يوم المعاد، وهو الذي يُفْتَن فيه في القبور ويُسأل عنه المقبور، وهو أوَّل دعوة الرُّسل، وهو الذي اتَّفقت عليه الرِّسالات.

نأخذ من هذه الأدلَّة أهميته؛ لأنَّ الشَّيء الذي اتَّفقت عليه دعوة الرُّسل يدلُّ على أهميَّته، وشيءٌ بدأ به كلُّ رسولٍ دعوتَه يدلُّ على أهميَّته.

دعوة الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم بدأت بنوعٍ من أنواع التَّوحيد، وهو توحيد العبادة؛ كما في هذه الآيات؛ فإنَّ كلَّ نبيٍّ كان يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩]، وهذا توحيد العبادة.

وجمَعَهم تعالى في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، هذا توحيد العبادة، يعني: نُوحي إلى كلِّ رسولٍ، فنقول له: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، يعني: افعل ذلك وأمر أُمَّتك به، وادْعُهم إليه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، هذا هو توحيد العبادة.

ويقول تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ﴾[الزخرف:٤٥]، الجواب: لو سأل؛ لقيل: ما جعل اللهُ من إله غيره، وما أَذِنَ لرسولٍ أن يدعُوَ إلى عبادة إلهٍ مع الله.

ثم يقول: إنَّ أَوَّل واجبٍ على العباد والمخلوقات أن يأتوا بالشَّهادتين، ولهذا مكث الرَّسول ﷺ بمكَّةَ عشرَ سنين، لا يدعو إلَّا إلى الشَّهادتين، يدعو إلى تحقيق لا إله إلَّا الله، وإلى تصديقه بأنَّه رسولٌ من الله، عشرَ سنين لا يدعو إلَّا إلى توحيد العبادة، أليس ذلك دليل أهميَّته؟! ما فُرضت عليه العبادات إذ ذاك؛ لأنَّها متفرِّعةٌ عن أصلٍ وهو التَّوحيد؛ فالعبادات كلُّها ما تُقْبَلُ إلَّا بهذا الأصل، لو أتعب المشركون أنفسهم، فصلَّوا وتصدَّقوا وحجُّوا وأنفقوا وجاهدوا وقرؤوا القرآن، دون أن يوحِّدوا الله، ويذروا ما يدعون من دونه؛ ما قُبلت منهم عباداتهم ولم تنفعهم؛ لأنَّهم فقدوا شرطَها.

أمَّا المتكلِّمون، الذين نهى علماؤنا عن الخوض في كلامهم من المعتزلة ونحوهم، فيقولون: إنَّ أَوَّل واجبٍ النَّظر، وبعضهم يقول: أوَّل واجبٍ قصد النَّظر، وبعضهم يقول: أوَّل واجبٍ الشَّكُّ، وهذه أقوالٌ باطلةٌ.

صحيحٌ أنَّ الله تعالى أمرنا بالنَّظر لأجل الاعتبار، بل قد أمر الذين كَذبوا بالنَّظر والاعتبار في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ [ق: ٦]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾

[الغاشية: ١٧، ١٨]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾[محمد: ١٠]؛ إلَّا أنَّ النَّظر هنا يُدعى إليه لأجل الاقتناع، يعني: يُقال لكَ: إذا دعوتَ مسلمًا فادعه إلى الشَّهادتين، فإذا توقَّف فادعه إلى النَّظر، قل له: انظر إلى هذه المخلوقات، انظر إلى هذه الأفلاك الثَّابتة، وهذه الأفلاك الزَّائلة، وهذه المخلوقات المُنبثَّة؛ هل خُلِقَتْ عبثًا؟! انظر إلى نفسك وتقلُّبِ أحوالِكَ؛ هل خُلِقْتَ من غير خالقٍ؟! فإذا نظر وتفكَّر، فإنَّه عند ذلك يعتبر ويرجع إلى ما تدعوه إليه، فالنَّظر والقصد إلى النَّظر وسيلةٌ ودلالةٌ وحجةٌ على المعاند، لا بمعنى أنَّ أوَّل واجبٍ النَّظر، بل يُدعى مَن شكَّ وتوقَّف إلى أن ينظر حتَّى يستيقن.

وأمَّا قولهم: إنَّ أوَّل واجبٍ الشَّكُّ؛ أي: إنَّ أوَّل ما يجب على الإنسان عندما يعقل أن يشكَّ، ثم بعد ذلك يسأل في إزالة ذلك الشَّكِّ!! فهذا قولٌ باطلٌ، بل الواجب أوَّلًا ـ أي: أوَّل كلِّ شيءٍ ـ أن يأتي بالشَّهادتين، ثم بعد ذلك يعمل بمقتضاهما، والأعمال متفرِّعةٌ عن الشهادتين.

قال الشارح:

بَلْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ الشَّهَادَتَانِ، وَمُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ الْبُلُوغِ لَمْ يُؤْمَرْ بِتَجْدِيدِ ذَلِكَ عَقِيبَ بُلُوغِهِ، بَلْ يُؤْمَرُ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ أَوْ مَيَّزَ عِنْدَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ، وَلَمْ يُوجِبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى وَلِيِّهِ أَنْ يُخَاطِبَهُ حِينَئِذٍ بِتَجْدِيدِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَاجِبًا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَوُجُوبُهُ يَسْبِقُ وُجُوبَ الصَّلَاةِ، لَكِنْ هُوَ أَدَّى هَذَا الْوَاجِبَ قَبْلَ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

معنى هذا الكلام: أن الأطفال عندما ينشؤون بين آبائهم يلقِّنهم الأبُ معالِمَ التَّوحيد من وقت تمييزه، فيلقِّنه معرفة ربِّه، ومعرفة نبيِّه، واستحقاقَ الله العبادةَ، ووجوب العبادة عليه، فينشأ على الإسلام وعلى قول لا إله إلَّا الله، ويسمع ذلك من أبويه وهو صغيرٌ لم تجب عليه الأحكام بعدُ، فإذا بلغ استمرَّ في العمل، ولا يحتاج عند البلوغ أن تقول له: انطق بالشَّهادتين الآن! أصبحت مكلَّفًا، بل يكفي نطقه فيما سبق؛ في تشهُّده، في صلاته، في إجابته للمؤذِّن ... وما أشبه ذلك، فلا حاجة بعد ذلك عند البلوغ إلى تلقينه، ولا إلى تجديد إسلامه، بل هو مسلمٌ بين أبوين مسلمين، منذ عقِلَ وهو يُلقَّن ويُؤلَّف.

ولو أنَّه بلغ بعدما صلَّى، لم يُؤمر بإعادة الصَّلاة، خلافًا لبعض العلماء الذين يقولون: لو صلَّى الظُّهر قبل أن يبلغ ثمَّ بلغ بعدها باحتلامٍ أو نحوه، نأمره بإعادة الظُّهر؛ لأنَّه صلاَّها قبل أن يبلغ، وهي في حقِّه غير واجبةٍ، فبعدما بلغ تصير

واجبةً عليه. والصَّحيح أنَّه لا يؤمر؛ لأنَّ الله ما أمر بالصَّلاة مرَّتين، فإذا أدَّاها - ولو قبل البلوغ - كانت مجزئةً.

فكما لا يُؤمر بإعادة الصَّلاة بعد البلوغ لو كان الوقت باقيًا، فكذلك لا يُؤمر بعد البلوغ بتجديد الشَّهادتين، بل يكفيه أنَّه على الفطرة، وأنَّه تلقَّن ذلك وتعلَّمه وفهمه.

قال الشارح:

وَهُنَا مَسَائِلُ تَكَلَّمَ فِيهَا الْفُقَهَاءُ؛ كَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِالشَّهَادَتَيْنِ، أَوْ أَتَى بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا: هَلْ يَصِيرُ مُسْلِمًا أَمْ لَا؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَصِيرُ مُسْلِمًا بِكُلِّ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ.

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ مَا يُدْخِلُ فِي الْإِسْلَامِ، وَآخِرُ مَا يُخْرَجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]. فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ وَآخِرُ وَاجِبٍ.

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ، أَعْنِي: تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ.

قال الشيخ:

هذه مسألةٌ فرضها أيضًا ليس بصحيحٍ، وهو قولهم: إنَّه قد يوجد من ينشأ ولم يتكلَّم بالشَّهادتين من أوَّل أمره إلى أن يبلغ، فهل تصلح عبادته؟

نقول: هذا محالٌ، وذلك لأنَّ النُّطق بالشَّهادتين قد يكون شرطًا في صحَّة العبادة؛ كما في التَّشهُّد، فالصَّلاة مثلًا لا بدَّ من التَّشهُّد في آخرها، يقول: أشهد ألَّا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ثم يأتي بالصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣) بنحوه، والطبراني في الكبير (٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٥) من حديث معاذ رضي الله عنه. وله شاهد عند مسلم (٢٦) من حديث عُثْمَانَ بن عفان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

يُسَلِّم، ولا تصحُّ صلاته إلَّا بهذا التَّشهُّد، فهو ركن من أركانها . فكيف يُتصوَّر أن إنسانًا يُولد بين أبوين مسلمين، ويبلغ، وهو ما تكلَّم بكلمة (لا إله إلَّا الله محمدٌ رسول الله)؟ هذا فرضٌ غير واقعٍ، وذلك لأنَّ المسلم يسمع كلمة لا إله إلَّا الله مرارًا وتكرارًا؛ في الأذان، وفي الخطب، وفي التَّشهُّد، وفي القرآن ... وقد ذُكرت الشَّهادة في القرآن في عِدَّة مواضعٍ؛ كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]، فلابدَّ أنَّ الصَّبيَّ يقرأ من القرآن أو يسمع من يقرؤه، فينطق به، فيكون بذلك مسلمًا قد أتى بالشَّهادتين.

والتَّوحيد الذي عرفنا أهميَّته هو توحيد العبادة، وهو أوَّل ما يُدخل به الإسلام، وأوَّل ما يُدعى إليه الكافر، وأوَّل ما ينطق به إذا أسلم، فيقال له: قل: أشهد ألَّا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله؛ وذلك لقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»[1]، فإذا أسلم كافرٌ فإنَّه يُلَقَّنُ الشَّهادتين، ويُبيَّنُ له معناهما، ويُؤمر بالعمل بمقتضاهما، فهذا أوَّل ما يُدْخِل العبدَ في الإسلام، وهو نطقه بالشَّهادتين واعتقاده بمدلولهما.

وتوحيد العبادة أيضًا هو آخر ما يخرج به العبد من هذه الدُّنيا، فالإنسان مأمور أن يختم حياته بـ (لا إله إلَّا الله)؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[2]، يعني: خُتم له بالتَّوحيد أو بما يدلُّ على هذا المعنى، وختم

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٢).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

له بخاتمةٍ حسنةٍ، ولهذا قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم[١]، وغيره[٢]: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، يعني: ليكن آخر ما ينطقون به كلمة (لا إله إلَّا الله)؛ حتَّى يُختَم لهم بما ابتدؤوا به؛ يُختَمَ لهم بعقيدةٍ سليمةٍ، وهي اعتقاده أنَّ الله هو الإله الحقُّ، وأنَّ إلهيَّة ما سواهُ باطلةٌ، فبذلك يكونُ أوَّلُ الأمر وآخرُه هو هذا التَّوحيد، الذي هو توحيد العبادة.

(١) برقم (٩١٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، (٩١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٧)، والترمذي (٩٧٦)، والنسائي (١٨٢٦)، وابن ماجه (١٤٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قال الشارح:

فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: الْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ.

وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَبَيَانُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

وَالثَّالِثُ: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ اسْتِحْقَاقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَإِنَّ نُفَاةَ الصِّفَاتِ أَدْخَلُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ، كَالْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَمَنْ وَافَقَهُ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ يَسْتَلْزِمُ تَعَدُّدَ الْوَاجِبِ! وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ لَا يُتَصَوَّرُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَإِنَّمَا الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ الْمُحَالَ وَيَتَخَيَّلُهُ، وَهَذَا غَايَةُ التَّعْطِيلِ.

قال الشيخ:

نعرف ـ بل يعرف حتَّى أطفال المسلمين والحمد لله ـ أنَّ أقسام التَّوحيد ثلاثة: توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات.

ويجب أن يُلقَّن الطِّفل هذه الألوان، وأن يُعرَّف مدلولَها.

والمتقدِّمون من صدر هذه الأمَّة أكثروا من التَّأليف في توحيد الأسماء والصِّفات، بل غالب كتبهم التي ألَّفوها في العقيدة تدور حول الأسماء والصِّفات، حتَّى ولو سمَّوْها كتاب التَّوحيد ـ كابن خزيمة وغيره ـ فإنَّ الخلاف

في الأسماء والصِّفات مشتهرٌ في القرون الأولى، فقد أظهر الخلاف فيها ابتداءً الجهم بن صفوان في أوَّل القرن الثَّاني، ثمَّ تبعه أتباعٌ له سمَّاهم السَّلف بالجهميَّة، وسُمُّوا أيضًا بالمعتزلة، وكثروا وانتشروا وتمكَّنوا، وكان من عقيدتهم إنكار الصِّفات.

وإنَّما أنكر الجهم وأتباعه صفات الله عزَّ وجل؛ لأنَّهم إنَّما تَخيَّلُوا فاعتمدوا على الفكر والخيال والعقول، فأدلَّتهم في نفي الصِّفات أدلَّةٌ تخمينيَّةٌ عقليَّةٌ؛ ولهذا يقول كثيرٌ منهم: إنَّ هذا الباب لا يكشفه إلاَّ الخيال، وإنَّهم يعجزون عن التعبير.

والحاصل: أنَّ عقيدتهم هي نفي الصِّفات، يعني: أنهم نفوا عن الله تعالى صفاته كلها، ومنهم من أثبت سبع صفاتٍ كالأشعريَّة، ومنهم من نفى حتَّى أسماء الله مع الصِّفات.

والعلَّة التي نفوا لأجلها هذه الصِّفات ـ ما ذكره الشَّارح رحمه الله ـ هي قولهم: إنَّ إثبات الصِّفات يستلزم تعدُّد الواجب، فهم يقولون: إنَّ الواجب الله وحده، أي: الله تعالى هو واجب الوجود. وهذه لفظةٌ من ألفاظ المتكلِّمين: واجب الوجود، وممكن الوجود، وهي من جملة ما تكلَّموا به وتوسَّعوا فيه.

وأخصُّ أوصاف الله عند المعتزلة (القِدَم): إنَّه هو القديم، فيقولون: إذا أثبتنا أنَّ الله قديمٌ، وأثبتنا أنَّ سمع الله قديمٌ، وقدرة الله قديمةٌ، وعلمه قديمٌ، وكلامه قديمٌ، ما صار القديم واحدًا، بل صار عددًا، فلا جَرَمَ أنَّنا نمحو الصِّفات ونجعل القدم لذات الله وحده.

فنفوا الصِّفات، وأثبتوا الذَّات، وأثبتوا القِدَم للذَّات.

كيف يُرَدُّ عليهم؟

مر بنا كلام الشَّارح، حيث قال: إنَّ إثبات ذاتٍ مجرَّدةٍ عن الصِّفات لا يمكن في الوجود - ولو هَضَمَ العقل إثبات ذلك - فإنَّ العقل قد يهضم المُحَال، فهذا من المحال، يعني: مستحيلٌ أن تُوجد ذاتٌ مجرَّدةٌ عن صفاتٍ ومتَّصفةٌ بالقِدَم، فكما أنَّكم يا معتزلة ويا مبتدعة تُثبتون أنَّ الله تعالى له ذاتٌ، فلا بدَّ أن تثبتوا له الصِّفات، فإنَّ الصِّفات من جملة الذَّات، والوحدانيَّة لا تنافيها، فالله تعالى واحدٌ بصفاتِهِ، فذاته وصفاته شيءٌ واحدٌ، ولا يلزم لإثبات الصِّفات تعدُّدٌ.

هذا الردُّ عليهم باختصارٍ.

قال الشارح:

وَهَذَا الْقَوْلُ قَدْ أَفْضَى بِقَوْمٍ إِلَى الْقَوْلِ بِالْحُلُولِ أو الِاتِّحَادِ، وَهُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُفْرِ النَّصَارَى، فَإِنَّ النَّصَارَى خَصُّوهُ بِالمَسِيحِ، وَهَؤُلَاءِ عَمُّوا جَمِيعَ المَخْلُوقَاتِ.

قال الشيخ:

هذا الكلام مما تقشعرُّ منه الجلود، وهذه التشريعات تخص مذهب أهل الوحدة وهم طائفةٌ يُقال لهم: أهل وحدة الوجود، أو يسمّون: أهل الحلول، وأهل الاتِّحاد، وهم الذين يقولون: إنَّ ذات المخلوق حالَّةٌ بذات الخالق، وإنَّه لا فرق عندهم بين خالقٍ ومخلوقٍ، بل الأمر شيءٍ واحدٍ، لا فرق بين الخالق والمخلوق، تعالى الله عن قولهم.

وهذه الطَّائفة كانت منتشرةٌ في القرون الوسطى، وأشهر من أشاع هذا القول في القرن الثالث: رجلٌ يُقال له الحسين الحلَّاج[1]، أظهر التصوُّف، وأبطن هذا القول ثم أظهره، وحُفِظَتْ عنه كلماتٌ شنيعةٌ تدلُّ على هذه المعتقدات،

---

(١) قال ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (١٢/ ٢٩٨): «حدثت بدعة الإرجاء بعد انقراض عصر الصحابة ... ثم حدثت بدعة التجهم بعد انقراض عصر التابعين، واستفحل أمرها واستطار شرها في زمن الأئمة كالإمام أحمد وذويه، ثم حدثت بعد ذلك بدعة الحلول وظهر أمرها في زمن الحسين الحلاج، وكلما أظهر الشيطانُ بدعة من هذه البدع وغيرها، أقام الله لها من حزبه وجنده من يردها ويحذر المسلمين منها».

وحُفِظَتْ - أيضًا - عن بعض أهل زمانِهِ.

فنقول: إنَّ هذا القول - مع شناعته - يؤدِّي إلى هذه الأقوال الشَّنيعة، ونبيِّن ذلك على وجه الاختصار، يعني: من فروع قولهم إن فرعون صادقٌ لَـمَّا قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]؛ لأنَّه من جملة الرَّبِّ، أخطأ فرعونُ حيث خصَّ نفسَهُ، ولو قال: أنا وأنت وهذا وهذا كلُّنا الربُّ؛ لكان مصيبًا، فهو صادقٌ؛ لأنَّه من جملة الرَّبِّ. كذلك المشركون لما عَبَدوا هذا الصَّنم وهذا الوثن وهذا القبر وهذا وهذا، هم على صوابٍ؛ لأنَّهم ما عبدوا إلاَّ الله، ولكنَّهم أخطؤوا لَـمَّا خصَّصوا، لو قالوا: إنَّ الله هو كلُّ شيءٍ، وإنَّ كلَّ شيءٍ من جملة الله؛ لكانوا مصيبين، ولكنَّهم لما خصَّصوا أخطؤوا.

وكذا قولهم: ما يكون هناك حلالٌ وحرامٌ. يعني: الجميع شيءٌ واحدٌ، لا فرق عندهم بين نكاح الأمِّ والأخت والأجنبيَّة؛ كلُّ ذلك من عينٍ واحدةٍ، بل هو العين الواحدة، تعالى الله عن قولهم.

قد صَدَرَتْ من أكابرهم كلماتٌ شنيعةٌ من مثل هذا، يقشعرُّ الجلدُ منها؛ حيث حُفِظَ عن الحسين الحلاَّج هذا: قوله: ما في الجُبَّةِ إلَّا الله! يعني: نفسه، وعن بعضهم أنَّه قال: سبحاني! سبحاني! ما أعظم شاني! وعنه أنَّه مرَّة كانوا يمشون خلفَهُ، فالتفت، فلمَّا رآهم يمشون خلفه؛ قال لهم: إنَّني أنا الله، لا إله إلَّا أنا فاعبدونِ! تعالى الله عن قوله. هذا بعض من أقوالهم.

وكان بعض العلماء المتأخِّرين يَذُبُّ عن الحلاَّج، ويدَّعي أنَّه من أهل

العقيدة، وأنَّه مُوَحِّدٌ، ولما نُقِلَ له قولُهُ في أبياتٍ:

سُبْحَان مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرَّ سَنَا لَاهُوتِهِ الثَّاقِبِ

حَتَّىٰ بَدَا مُسْتَتِرًا ظَاهِرًا فِي صُورَةِ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ

قال: لُعِنَ من قال هذا[1]. فقيل: إنَّه الحلاَّج. فظهر بذلك كفرُهُ.

هذان البيتان فيهما الكفر الصَّريح؛ فإنَّ (النَّاسوت): هو النَّاس، و(اللاَّهوت): هو الإله؛ أي: أظهر ناسوته؛ يعني: أظهر النَّاس في صورة نفسه، (سرَّ سنا لاهوته الثَّاقب): حتَّى بدا في خلقه ظاهرًا في صورة ثاقب، تعالى الله عن قولهم.

ويقول بعضهم أيضًا[2]:

الربُّ عبدٌ والعبدُ ربٌّ يا ليت شعري من المكلَّفْ

إن قلتَ عبدٌ فذاك ربٌّ أو قلتَ ربٌّ أنَّى يُكلَّفْ

تعالى الله عن قولهم.

والذي أدَّى بهم إلى هذه الأقوال الشَّنيعة: أنَّهم لَمَّا نفوا الصِّفات، وجعلوا

---

(١) قال ابن خفيف ـ رحمه الله ـ: على قائل هذا لعنة الله، فلما قيل له: هذا شعر الحسين الحلاج، قال: إن كان هذا اعتقاده فهو كافر. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٢٦).

(٢) هو ابن عربي صاحب كتاب «فصوص الحكم». انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٢٤٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وهذا مبني على أصله، فإن عنده ما ثم عبد ولا وجود إلا وجود الرب، فمن المُكَلَّف؟! وعلى أصله هو المُكَلَّفْ وَالمُكَلِّفْ، كما يقولون: أرسل من نفسه إلى نفسه رسولًا!».

وجود الله وجودًا مطلقًا؛ أدَّى بهم إلى أنْ يقولوا: إنَّ ذات المخلوق حالَّة في ذات الخالق، وإنَّه عين وجود المخلوقات . تعالى الله عن ذلك.

والمسلم عليه أن يعرف نفسه، وأن يعرف أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ خالقه مباينٌ للخلق، وأنَّ الرَّبَّ ـ سبحانه وتعالى ـ فوق عرشه بائنٌ من خلقه، ليس في ذاته شيءٌ من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، ويَستحضرُ أنَّه ـ سبحانَهُ ـ هو العليم بكلِّ شيءٍ، الذي لا تخفى عليه من عباده خافيةٌ، وإذا استحضر عظمته، وجلاله، وكبرياءه، وقُربَه، وابتعاده، وأنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنَّه لِمَا توسوس به النُّفوس وما يحيك في الصُّدور عليمٌ؛ ألزمه ذلك أن يعظِّمه حقَّ التَّعظيمِ، وأن يخافَهُ حقَّ الخوف.

إننا إذا بحثنا في مسألة الصِّفات وعَلِمنا صفات الله تعالى؛ أُوجِبَ للعالِمِ بها أنْ يخافه حقَّ الخوف، وأنْ يعبده حقَّ العبادة.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا التَّوْحِيدِ: أَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ كَامِلُو الإِيمَانِ، عَارِفُونَ بِاللَّهِ عَلَى الحَقِيقَةِ!

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ عُبَّادَ الأَصْنَامِ عَلَى الحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوا اللَّهَ لا غَيْرَهُ!

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّهُ لا فَرْقَ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ بَيْنَ الأُمِّ وَالأُخْتِ وَالأَجْنَبِيَّةِ، وَلا فَرْقَ بَيْنَ المَاءِ وَالخَمْرِ وَالزِّنَى وَالنِّكَاحِ، الْكُلُّ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، لا بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ.

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ الأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا عَلَى النَّاسِ. تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قال الشيخ:

يريد بالتوحيد: ما سلكه أهل الحلول والاتحاد، الذين يقولون: إن الله تعالى بذاته حال في جميع المخلوقات، وأن كل المخلوقات عين الذات الربانية. هكذا يعتقدون، ومن أشهرهم ابن عربي الاتحادي، الذي يقول فيه بعض المتأخرين:

مَعْبُودُهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ بَدَا ... الْكَلْبُ وَالْقِرْدُ وَالْخِنْزِيرُ وَالْأَسَدُ

يعني: أنه يدَّعي أن الذات الربانية حالة في جميع المخلوقات، ومن ذلك الكلاب والخنازير والقردة وما أشبهها.

فهكذا يجعلون كل شيء من المخلوقات والموجودات هو عين ذات الرب، فعلى قولهم يكون فرعون على صواب؛ لأن قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، يعني: أنا جزء من الرب، فيكون كامل الإيمان هو وقومه، فيكونون العارفين بالله على الحقيقة، إلَّا أنهم أخطؤوا حيث خصصوا، ولو عمموا وقالوا: فرعون وموسى وجميع الخلق كلهم من الله، فعلى هذا القول الاتحادي يكونون كمل إيمانهم.

وكذلك أيضًا عباد الأصنام الذين يعبدون الأشجار والأحجار والأموات ونحوهم، على قول هؤلاء الحلولية أنهم مصيبون وأنهم عبدوا الله؛ لأن تلك الأصنام من ذات الله تعالى - تعالى الله عن قولهم - إنما أخطؤوا حيث خصصوا، ولو قالوا: إن الأصنام وجميع الموجودات كلها معبودة، وكلها من الذات الربانية لأصابوا، ومع ذلك فإنهم على قول أهل الاتحاد إنما عبدوا الله.

ومن فروع هذا المذهب أنه لا فرق في التحريم والتحليل، بين الأم والأخت والأجنبية، وذلك لأن الجميع من ذات الرب تعالى، وعلى قولهم يجوز أن ينكح الرجل أمه وأخته، كما ينكح المرأة الأجنبية؛ لأن الكل واحد.

وعلى قولهم: لا فرق بين الماء والخمر، والشرع أخطأ حيث حرم الخمر دون الماء، وأخطأ حيث حرم الزنى دون النكاح، مع أن الكل من عين واحدة، بل هو العين الواحدة، الزنى نفس النكاح، والخمر نفس الماء، والأم كالأجنبية، كلهم جزء من الذات الربانية تعالى الله عن قولهم.

ويدّعون أن الأنبياء ضيقوا على الناس حيث خصصوا العبادة بالله تعالى، ولم يعمموا، ولو قالوا لهم: اعبدوا كل شيء في الوجود. لكانوا صادقين، هكذا على قولهم هذا الباطل.

وقد اشتهرت مقالاتهم هذه، وناقشها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتوجد له رسائل في المجلد الثاني من مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، في مناقشة هؤلاء الذين هم الاتحادية، ولهم رؤوس مشهورون: كابن سبعين، والحلاج، وابن الفارض، ونحوهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا الثَّانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَهُوَ الْغَايَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ.

وَهَذَا التَّوْحِيدُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى نَقِيضِهِ طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، بَلِ الْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِهَا مَفْطُورَةً عَلَى الْإِقْرَارِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، كَمَا قَالَتِ الرُّسُلُ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال الشيخ:

هذه الرُّبوبيَّة يقرؤها الأطفال في المدارس، يعرفون أنَّها معرفة الله تعالى بآياته، التي هي مخلوقاته.

إذا قيل لك: بمَ عرفت ربَّك؟

فَقُلْ: بآياته ومخلوقاته؛ فهذا هو توحيد الرُّبوبيَّة، يعرف بالنَّظر في هذه المخلوقات، وهي أفعال الله تعالى.

ذكروا أنَّه لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال كفار قريش بمكة: كيف يسعُ الناسَ إلهٌ واحد؟ فنزلت الآية بعدها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤][1]، يعني: تذكَّروا مثل هذه الأشياء التي تدلكم على أنَّ الربَّ هو الإله الواحد.

وكم في القرآن من الآيات في مثل هذا؛ كقوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ [يس: ٣٣]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس:٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [الروم:٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]... إلى غير ذلك من الآيات.

وفي السُّور المكيَّة الكثير من هذه الأدلة، حتَّى إن بعض السُّور تتوالى فيها الأدلة وتتكرر؛ كقوله ـ جل وعلا ـ في سورة المرسلات: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥] ... إلى آخرها. ثمَّ في السُّورة التَّي تليها: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ [النبأ:٦] ... إلى آخرها. ثمَّ في السُّورة التي تليها: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٦١) عن عطاء رحمه الله.

[النازعات:٢٧] ... إلى آخرها. ثمَّ في السُّورة التي تليها: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ [عبس:٢٤، ٢٥] إلى آخرها. فإنَّ هذه آياتٌ على توحيد الرُّبوبيَّة الذي يُقصد منه تثبيت توحيد الإلهيَّة.

فتوحيد الربوبية معتَرَفٌ به، ولكن لا يكفي، بل لابدَّ معه من ثمرته، وهذا التَّوحيد أصبح حجةً عليهم في التَّوحيد الذي هو حقُّ الله، يُقال لهم: اعملوا ما دمتم أقررتم به، يقول تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[المؤمنون:٨٤، ٨٥]، يعني: أفلا تعبدونه، ويقول ـ جل شأنه ـ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٦، ٨٧]، يعني: تتَّقون الشِّرك وتعبدون الله وحده، ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٨، ٨٩]، أي: كيف تُصرفون عن عبادته؟

فأصبح توحيد الرُّبوبيَّة حجَّةً عليهم.

قال الشارح:

وَأَشْهَرُ مَنْ عُرِفَ تَجَاهُلُهُ وَتَظَاهُرُهُ بِإِنْكَارِ الصَّانِعِ: فِرْعَوْنُ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيْقِنًا بِهِ فِي الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ مُوسَى ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢].

وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ قَوْمِهِ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣]، عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ لَهُ تَجَاهُلَ الْعَارِفِ، قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء:٢٤-٢٨].

وَقَدْ زَعَمَ طَائِفَةٌ أَنَّ فِرْعَوْنَ سَأَلَ مُوسَى مُسْتَفْهِمًا عَنِ الْمَاهِيَّةِ، وَأَنَّ الْمَسْئُولَ عَنْهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَاهِيَّةٌ، عَجَزَ مُوسَى عَنِ الْجَوَابِ! وَهَذَا غَلَطٌ. وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَجَحْدٍ، كَمَا دَلَّ سَائِرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ جَاحِدًا لِلَّهِ، نَافِيًا لَهُ، لَمْ يَكُنْ مُثْبِتًا لَهُ طَالِبًا لِلْعِلْمِ بِمَاهِيَّتِهِ. فَلِهَذَا بَيَّنَ لَهُمْ مُوسَى أَنَّهُ مَعْرُوفٌ، وَأَنَّ آيَاتِهِ وَدَلَائِلَ رُبُوبِيَّتِهِ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ بِمَا هُوَ؟ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْرَفُ وَأَظْهَرُ وَأَبْيَنُ مِنْ أَنْ يُجْهَلَ، بَلْ مَعْرِفَتُهُ مُسْتَقِرَّةٌ فِي الْفِطَرِ أَعْظَمَ مِنْ مَعْرِفَةِ كُلِّ مَعْرُوفٍ.

قال الشيخ:

نأخذ من هذا الكلام أنَّ جميع الأمم معترفون بتوحيد الرُّبوبيَّة، أي: أنَّ الله هو الخالق، الرَّازق، وهو المدبِّر، وهو الذي أوجد الكائنات، لكن قد اشتهر عن فرعون أنَّه ادَّعى الرُّبوبيَّة؛ حيث قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، والصَّحيح أنَّه كان معترفًا في الباطن بأنَّ المخلوقات لها خالقٌ؛ لأنَّه يعرف أنَّه كان معدومًا فَوُجِدَ، ففرعونُ لم يكن شيئًا مذكورًا ثم خُلق، وقد يقال له: من ربُّهم قبل أن تُوجد؟ أنت وُلدت قريبًا وتموت، من ربُّهم قبل أن تُخْلَقَ أنتَ؟

فلا بدَّ أن فرعون معترفٌ بأنَّ هناك ربًّا خالقًا، والدَّليل على ذلك هذه الآية، وهي قول موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فالله أيَّدَ موسى بتسع آياتٍ، منها: العصا، واليد، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم، وفرق البحر، وتظليل الغمام، وما أشبهها، لَّما أيَّده بها؛ قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني: الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فأفاد بأنَّ فرعون عالمٌ بذلك.

وكذلك حكى الله عن آل فرعون اليقين بقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]؛ فدلَّ على كونهم مُسْتَيْقِنِينَ. وكذلك حكى عن عاد وثمود قوله في قصَّتهم: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، يعني: على

بصيرةٍ ممَّا جاءتهم به الرُّسل، ولكنَّ جَحْدهم كان عِنادًا.

ففرعون أظهر الإنكار، ولكنَّه في الباطن كان على يقينٍ لِـمَا يقول موسى، ولكنَّه خاف أن يذهب عنه ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف: ٥١]، ثمَّ قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، يعني: موسى، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، فهو أراد أن يخدع قومه بما هو فيه، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، وأمَّا قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٢٣]، لَـمَّا قال له موسى: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤]، فهذا على وجه العِناد.

وقد ذكر الشارح أنَّ بعض المتكلِّمين يقولون: إنَّ فرعون سأل عن الماهِيَة: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، يعني: من أيِّ شيءٍ ربُّ العالمين وما ماهيته؟ والصَّحيح أنَّ سؤاله إنَّما هو تعنُّتٌ، لا أنَّه يسأل عن الماهِيَة، فموسى ـ عليه السَّلام ـ ذكر له الأدلَّة على إثبات الرَّبِّ وقدرته وسيطرته، والآيات التي تدلُّ عليه: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الإسراء:١٠٢]، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:٢٦]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[الشعراء:٢٨]؛ فاستدلَّ عليه بهذه الأدلَّة الكونيَّة التي لا يجحدها، كما استدلَّ إبراهيم على النَّمرود بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذه أدلَّةٌ تدلُّ على أنَّ الربَّ هو الموجِدُ لهذه الكائنات، يعتبر بها أولو البصائر.

وقد ذكر الله عن المشركين أنَّهم يعبدون الله ويعبدون غيره في الرَّخاء، وأمَّا في الشِدَّة فإنَّهم لا يعبدون إلَّا الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]، فدلَّ على أنَّهم في الرخاء يعبدون الله ويعبدون غيره، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦]، فدلَّ على أنَّهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، ولكن لَـمَّا أشركوا حبطت أعمالهم، فأصبحتْ باطلةً لا يُعْتَبَرُ ما تقربوا به؛ لأن المطلوب منهم أن يكون الدين لله، وألَّا يُصرف منه شيءٌ لغير الله.

قال الشارح:

وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَمَاثِلَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ.

فَإِنَّ الثَّنَوِيَّةَ مِنَ الْمَجُوسِ، وَالْمَانَوِيَّةَ ـ الْقَائِلِينَ بِالْأَصْلَيْنِ: النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَأَنَّ الْعَالَمَ صَدَرَ عَنْهُمَا ـ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ النُّورَ خَيْرٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ، وَأَنَّ الظُّلْمَةَ شِرِّيرَةٌ مَذْمُومَةٌ، وَهُمْ مُتَنَازِعُونَ فِي الظُّلْمَةِ: هَلْ هِيَ قَدِيمَةٌ أَوْ مُحْدَثَةٌ؟ فَلَمْ يُثْبِتُوا رَبَّيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

قال الشيخ:

هذا تقريرٌ لتوحيد الرُّبوبيَّة، يعني: أنَّ توحيد الرُّبوبيَّة هو الاعتراف بأنَّ الله ربُّ كلِّ شيءٍ، وهو الذي أقرَّ به المشركون كما ذكر ذلك عنهم. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فإذا كانوا مشركين، ومع ذلك يعترفون بهذا النَّوع ـ وهو أنَّ الله تعالى هو الذي خلق ورزق، وهو الذي يُدَبِّر الأمر، ويملك السَّمع والأبصار ـ فإنَّ هذا لم ينفعهم، ولم يدخلهم في الإسلام.

يقول: ما عُرفت أمَّةٌ من الأمم يُشركون في توحيد الرُّبوبيَّة إلَّا المجوس، ومع ذلك فليس شركهم شركًا ظاهرًا، فالمجوس يدَّعون أنَّ العالَمَ مخلوقٌ من خالِقَيْن، ويقولون: إن النُّور خلق الخير، والظُّلمة خلقتِ الشَّرَّ. فالعالم عندهم صادرٌ عن النُّور والظُّلمة، ولأجل ذلك فهم يعبدون النار، فمعبودهم المقدَّس عندهم هو النار؛ يشعلونها، ويطوفون بها، ويصلُّون أمامها، ويستقبلونها، ولأجل ذلك نُهِيَ المسلمون أنْ يستقبلوا النار؛ حذرًا من التَّشبُّه بالمجوس، ومع ذلك لم يقولوا: إن النُّور والظُّلمة سواءٌ، بل يقولون: إن الخير هو النُّور، وإن الظُّلمة شريرةٌ، ما صدر منها خيرٌ. فهم لا يجعلونها سواء، ومع ذلك فإنَّهم مختلفون: هل النُّور والظُّلمة كلاهما قديمٌ؟ أو القديم هو النُّور، والظُّلمة حادِثَةٌ؟، وقد ذكر شيخ الإسلام هذا الكلام في «الرِّسالة التَّدمريَّة»[1].

وعلى اعتقاد أنَّهما قديمان، فإنَّهم لا يجعلونها سواءً، فهذا دليلٌ على أنَّه ليس في الوجود أحدٌ يشرك في توحيد الرُّبوبيَّة شركًا ظاهرًا.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٧٥).

قال الشارح:

وَأَمَّا النَّصَارَى الْقَائِلُونَ بِالتَّثْلِيثِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا لِلْعَالَمِ ثَلَاثَةَ أَرْبَابٍ يَنْفَصِلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، بَلْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَيَقُولُونَ: بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

وَقَوْلُهُمْ فِي التَّثْلِيثِ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُمْ فِي الْحُلُولِ أَفْسَدُ مِنْهُ، وَلِهَذَا كَانُوا مُضْطَّرِبِينَ فِي فَهْمِهِ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ، لَا يَكَادُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِمَعْنًى مَعْقُولٍ، وَلَا يَكَادُ اثْنَانِ يَتَّفِقَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ بِالذَّاتِ، ثَلَاثَةٌ بِالْأُقْنُومِ! وَالْأَقَانِيمُ[1] يُفَسِّرُونَهَا تَارَةً بِالْخَوَاصِّ، وَتَارَةً بِالصِّفَاتِ، وَتَارَةً بِالْأَشْخَاصِ. وَقَدْ فَطَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ، وَفِي الْجُمْلَةِ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

قال الشيخ:

وهذا أيضًا ردٌّ على النَّصارى، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[المائدة: ٧٣]. فهم يجعلون الله ثالث ثلاثة، ويجعلون عيسى ابن الله؛ كما حكى الله عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ١٧] ﴿وَقَالَتِ النَّصَـٰرَى

(١) الأقانيم: الأصول، واحدها: أقنوم. انظر: لسان العرب (قنم).

ﵟٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖﵞ [التوبة: ٣٠]، يعني: منهم من يقول: إنَّ الله هو المسيح - تعالى الله عن قولهم - ومنهم من يقول إنَّه ابن الله - وهذا أشهر وأكثر عندهم - ومنهم من يقول: إنَّ الله ثالث ثلاثةٍ، وهو قولهم بالأب والابن وروح القُدُس.

وقد حكى الله أيضًا عنهم في مخاطبته لعيسى - عليه السلام - يوم القيامة: ﵟءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖﵞ [المائدة: ١١٦]، وهذا دليلٌ على أنَّ المُثَلِّثَة يقولون: إنَّ الله إله، والمسيح إلهٌ، وأمُّه إلهٌ. تعالى الله عن قولهم، فأنكر ذلك عيسى - عليه السلام - وقال: ﵟسُبۡحَٰنَكَﵞ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﵟمَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚﵞ [المائدة: ١١٧].

ومشهورٌ في كتب النَّصارى أنَّهم يقولون بالأقانيم الثَّلاثة، وهم مختلفون في معنى الأقانيم، وكذلك مختلفون: هل هي قديمةٌ كلُّها، أو بعضها حادثٌ؟ لكن منهم من يفسِّرها بالأرواح، ومنهم من يفسِّرها بالآلهة، أو تُفسَّر عندهم بالأشياء القديمة، والحاصل أنَّهم مضطربون فيها.

وقد ردَّ عليهم الأئمة، ومن أراد تفصيل الردِّ عليهم فليقرأ كتاب شيخ الإسلام المشهور: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، وهو مطبوع متداول. وقد ضمَّنه الردَّ عليهم، وفصَّل في أجوبتهم، واستوفى ذلك - رحمه الله - وكذلك غيره من العلماء؛ حيث تتبَّعوا أدلَّتهم، واستوفوا ما يدور حول ذلك من الشُّبه، وبيَّنوا كيفيَّة تناقضهم، ومن ذلك ما أُثِر عنهم: إنَّ العالَم صادرٌ من ثلاثةٍ، وهم في الحقيقة يعترفون في نفس الأمر بأنَّ العالَمَ مخلوقٌ من واحدٍ، صادرٌ من واحدٍ.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ مَنْ يُثْبِتُ لِلْعَالَمِ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ وَالْفَلْسَفَةِ تَعِبُوا فِي إِثْبَاتِ هَذَا المَطْلُوبِ وَتَقْرِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنْ تَقْرِيرِ هَذَا بِالْعَقْلِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يُتَلَقَّى مِنَ السَّمْعِ.

قال الشيخ:

هذا بيانٌ لما عليه الفلاسفة ونحوهم، فالاعتراف بالخالق سبحانه وتعالى اعترافٌ فطريٌّ، ولكنَّ الفلاسفة كأنَّهم يريدون أنْ يُعَبِّروا عما فُطِروا عليه تعبيرًا مقنعًا، فلأجل ذلك اختلفت التَّعبيراتُ عندهم، وسيأتينا بعض تعبيراتهم التي يستدلُّون بها على أن العالَم لم يصدر إلاَّ من خالقٍ واحدٍ، وأكثرهم لـمَّا لم يقدروا على التعبير زعموا أنَّ هذا متلقَّىٰ من السَّمع - يعني: من الشَّرع - وأنَّ الاعتراف بالخالق مأخوذٌ عن الشَّرع.

وبلا شكٍّ هو أمرٌ فطريٌّ، ولو تُرِكَ كلُّ أحدٍ والفطرة التي فُطر عليها لعرف أنَّ له ربًّا، وأنَّه مخلوقٌ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»[1]، ويُسْتَدَلُّ بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولكنْ مع ذلك هناك أدلَّةٌ عقليَّةٌ صريحةٌ تبيِّن للإنسان أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ له خالقًا، وقد احتجَّ عليهم ـ سبحانه وتعالى ـ بالعقل في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[الطور: ٣٥].

فإذا عرفوا أنَّهم لم يُخلقوا من غير شيءٍ، فلابدَّ لهم من خالقٍ خلقهم.

قال الشارح:

وَالمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ إِثْبَاتُهُ بِدَلِيلِ التَّمَانُعِ، وَهُوَ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ فَعِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا - مِثْلَ أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَآخَرُ تَسْكِينَهُ، أَوْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا إِحْيَاءَهُ وَالْآخَرُ إِمَاتَتَهُ - فَإِمَّا أَنْ يَحْصُلَ مُرَادُهُمَا، أَوْ مُرَادُ أَحَدِهِمَا، أَوْ لَا يَحْصُلُ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَالْأَوَّلُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الجَمْعَ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ، وَالثَّالِثُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ خُلُوُّ الْجِسْمِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ، وَيَسْتَلْزِمُ أَيْضًا عَجْزَ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، وَإِذَا حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، كَانَ هَذَا هُوَ الْإِلَهَ الْقَادِرَ، وَالْآخَرُ عَاجِزًا لَا يَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ.

قال الشيخ:

أتى الشارح بهذا ليُبيِّن أنَّه هو الدَّليل عندهم، ويسمَّى دليلًا عقليًا، وتسمَّى دلالةُ التَّمانُعِ دلالةً عقليَّةً على أنَّ الخالقَ واحدٌ، وليس معه خالقٌ آخر.

فيقولون: لو كان للعالَمِ صانِعان متكافئان، كلاهما خالقٌ مستقلٌّ مكافئٌ للآخر، فأراد أحدهما تسكينَ شيءٍ، وأراد الآخر تحريكَه، أو أراد أحدهُما إحياءَ شخصٍ وأراد الآخرُ إماتَته، فاختلفا، فإذا كان للعالم خالقان فقد يختلفان؛ يقول أحدهما: سنحيي هذا. ويقول الآخر: سنميته. فإذا أراد هذا إحياء وهذا إماتةً، واختلفا؛ فماذا يحصل؟ هل يمكن أنْ يكون هذا الشَّخص حيًّا ميتًا؟ لا يمكن. هل يمكن أن يكون متحرِّكًا ساكنًا في آنٍ واحدٍ؟ لا يمكن.

يعني: لا يمكن أن يحصل مرادهما معًا؛ لأنه جمعٌ بين الضِّدَّيْن، فإذًا: لا بدَّ أنْ يحصل مراد واحد منهما، أو لا يحصل مراد أحدٍ منهما، وكونه أيضًا لا يحصل مراد كلٍّ منهما هذا ممتنعٌ أيضًا؛ لأن الجسم لا بدَّ أنْ يكون إمَّا متحرِّكًا وإمَّا ساكنًا، إمَّا حيًّا وإمَّا ميتًا، ولا يمكن أنْ يكون خاليًا من الحركة وخاليًا من السكون، ولا يمكن أيضًا أن يكون لا حيًّا ولا ميِّتًا. إذًا لا بدَّ أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر، فالذي يحصل مراده هو الإله، وهو الذي يَصْلُح للإلهيَّة، والذي لا يحصل مراده هو عاجزٌ، لا يصلح أنْ يكون إلهًا، هذا يسمَّى عندهم دليلُ التَّمانع.

وقد دلَّ على ذلك في القرآن قول الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، يعني: لو كان مع الله آلهة مساوية له لفسدت المخلوقات، وذلك لِمَا يلزمهم من اختلاف الأهواء واختلاف الإرادات.

فهذا ونحوه ممَّا يدلُّ عقلًا على أنَّ العالَمَ خالقه واحدٌ، وهو الله تعالى، وهو المتصرِّف بهذا الكون كما يشاء.

قال الشارح:

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ دَلِيلَ التَّمَانُعِ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي قَرَّرُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الَّذِي بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ، وَدَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ التَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَضَمِّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ خَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحِدٌ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٥]. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

قال الشيخ:

كثيرٌ من المتكلِّمين يدَّعون أنَّ التَّوحيد الذي دلَّت عليه هذه الآية، والذي دلَّت عليه دلالة التَّمانع: أنَّه هو الذي دعت إليه الرُّسل، وهذا خطأٌ، بل الرُّسل إنَّما دعوا إلى توحيد العبادة، وذلك لأنَّ توحيد الرُّبوبيَّة فطريٌّ لم ينكره المشركون الأولون، بل جميع الأمم كلُّهم معترفون بتوحيد الرُّبوبيَّة؛ كما ذكرنا في الآيات السابقة، ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٥]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦٣].

فإذا كانوا معترفين بهذا النَّوع الذي هو توحيد الرُّبوبيَّة، وأنَّ الرَّبَّ هو الخالق وحده، فالرسل إنما دعت إلى التَّوحيد الذي هو التَّوحيد العمليُّ، القصديُّ، الإراديُّ، الذي هو توحيد الإلهيَّة، أو توحيد العبوديَّة.

قال الشارح:

وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُشَارِكَةٌ لِلَّهِ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ، بَلْ كَانَ حَالُهُمْ فِيهَا كَحَالِ أَمْثَالِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَمِ مِنَ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ وَغَيْرِهِمْ، تَارَةً يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ تَمَاثِيلُ قَوْمٍ صَالِحِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا كَانَ أَصْلَ شِرْكِ الْعَرَبِ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ، وَقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِعَيْنِهَا صَارَتْ إِلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، ذَكَرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَبِيلَةً قَبِيلَةً[1].

قال الشيخ:

نرى أنَّ الرُّسل دعوا إلى توحيد العبادة الذي هو توحيد الطَّلب، وتوحيد القصد، والتَّوحيد الإراديُّ الذي طلبه الله من عباده وأمرهم به، هذا هو التوحيد العملي، وضدّه الشِّرك الذي هو دعوة غير الله تعالى معه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

والأمم السَّابقة متَّفقون - كما مرَّ - على أنَّ الخالق لهذا العالم واحدٌ؛ هو الله، ومع ذلك يدعون آلهةً غيره يسمُّونها آلهةً؛ كما حكى الله عن قوم إبراهيم أنَّهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء:٧١]، وأنَّهم قالوا لَّما كسَّرها: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥٩]، وقالوا: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فسمَّوها آلهةً، ومعلومٌ أنَّهم يألهونها، أي: يحبُّونها، ويعظِّمونها، ويصرفون لها أنواع التألُّه، وهكذا فعل المشركون في العهد النَّبويِّ، فإن قصدهم إنَّما هو التقرُّب إليها، وأنَّه غرضهم منها.

فقد ذكره الله تعالى في قوله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، هذه مقالة المشركين، وكذلك حكى الله عنهم أنَّهم قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وردَّ عليهم - كما حكى عن الرجل المؤمن - بقوله: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣]، فأخبر بأنَّهم إنَّما يريدون شفاعتهم، وأنَّهم لا يشفعون، ولا تغني شفاعتهم شيئًا.

هذا هو قصد المشركين الأوَّلين، وقصد المشركين المعاصرين، وهم سواءٌ، فهم يريدون شفاعتهم والتوسُّل بهم، ويزعمون أنَّ لهم وجاهةً وصلاحًا، فلكونهم ذوي صلاحٍ تُطلب منهم الشفاعة، ويشفعون لهم شفاعةً تفيدهم، إما في

العاجل، وإما في الآجل، وأول ما حدث هذا الشرك في قوم نوح؛ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وفي الحديث الذي أشار إليه الشارح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه أسماء قومٍ صالحين في قوم نوحٍ، أسماء رجالٍ من أهل العلم، ومن أهل العبادة، ومن أهل الفضل، لَـمَّا ماتوا أَسِفَ تلامذتهم عليهم وحزنوا، فجاءهم الشيطان، وقال: صوِّروهم، وانصبوا صورهم؛ حتَّى تتذكَّروا عبادتهم فتنافسوهم، أو تتذكَّروا علومهم فتعملوا بها، فصوَّروا تماثيل، وسمَّوها بأسمائهم: هذا ودٌّ، وهذا سُواعٌ، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسرٌ.

ولَـمَّا ذهب أولئك الَّذين صوَّروهم ونشأ أولادٌ لهم جُهَّالٌ، وصاروا يرون هذه الصُّور، جاءَهمُ الشَّيطان، وقال: إنَّ آباءكم ما صوَّروهم إلاَّ ليعظِّموهم، فإنَّهم من أهل الصَّلاح؛ فعند ذلك عظَّموهم، وزادوا من تعظيمهم شيئًا فشيئًا، إلى أنْ صاروا يصرفون لهم حقَّ الله، ثمَّ جاء الطُّوفانُ وغرق من على الأرض، ولكن بقيت تلك الصُّور؛ حتى وُجدت في العصر الجاهليِّ، وأوَّل من أثارها عمرو بن لُحَيِّ بنِ خَنْدَفٍ الخُزاعيُّ، وهو الذي يقول ﷺ فيه: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

السَّوَائِبَ»[١].

ذكروا أنَّ الشَّيطان تمثَّل له في صورة كاهنٍ، وكان كلام الكهنة يكون مسموعًا، فقال له: ائْتِ سيف جُدَّة؛ تجد بها أصنامًا معدَّةً، ثم أوردها تهامة ولا تهب، ثمَّ ادْعُ العرب إلى عبادتها تُجب. فأتى عمرو ساحل جدة، فوجد بها ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا، وهي الأصنام التي عُبِدت على عهد نوح وإدريس، ثم إن الطوفان طرحها هناك فسقى عليها الرمل، فاستثارها عمرو، وخرج بها إلى تهامة، وحضر الموسم، فدعا إلى عبادتها فأجيب[٢].

فتفرَّقت هذه الأصنام الخمسة في العرب، وصارت معبودةً إلى العهد النَّبويِّ، يعني: صورٌ قديمةٌ من عهد نوحٍ احْتُفِظ بها أو بأمثالها، وصارت تُعبد إلى العهد النَّبويِّ.

فهذا أوَّل شِركٍ، وآخره هو الشِّرك بعبادة الصَّالحين، وبتسميتهم أولياءَ أو سادةً أو أفاضلَ أو أشرافًا، هذه التَّسمية أوجبت أنَّهم يغْلُون فيهم حتَّى صرفوا لهم خالِصَ العبادةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٥/ ١٦١).

قال الشارح:

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[١] عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ «أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، قَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٣] أَنَّهُ ذُكِرَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَذُكِرَ لَهُ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٤] عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

---

(١) برقم (٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) برقم (٥٣٢) من حديث جندب ﷺ.

قال الشيخ:

هذه أحاديثُ تدلُّ على أنَّ أصل الشِّرك هو تعظيم القبور، ولاسيَّما قبور الأولياء والسَّادة والصَّالحين، وبطريق الأولى قبور الأنبياء والرسُّل، فالنَّبيُّ ﷺ عَرَفَ هذا، وعَرَفَ أنَّه أكبر سببٍ في حدوث الشِّرك في العالم.

فإنَّه لَّما مات أولئك الصَّالحون في قوم نوح.

أوَّلًا: عكفوا على قبورهم.

ثانيًا: صوَّروا تماثيلهم.

ثالثًا: طال عليهمُ الأمد فعبدوهم.

وكذلك في النَّصارى، وكذلك في اليهود، وكذلك في الأمم الأخرى؛ سبب الشِّرك فيهم عبادةُ الأولياء والصالحين والأنبياء ونحوهم.

في هذه الأحاديث يقول ﷺ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

وكذلك يقول ﷺ: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، أي: يُحذِّر مما صنعوا، ثم قالت: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ ـ أي: لجُعل بارزًا ـ وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

وكذلك في مرض موته ﷺ لـمَّا ذكرت له أمُّ سلمة وأمُّ حبيبة كنيسةً رأيْنها في أرض الحبشة يُقال لها: مارِيَّة، وفيها صور، فقال ﷺ: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ**

الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، يخاطب أمَّ سلمة أو أمَّ حبيبة.

فأولئك قد جمعوا بين الفِتْنَتَيْنِ: فتنة التَّماثيلِ، وفتنةَ القبورِ، فإذا مات فيهم الرَّجل الصَّالح صوَّروا صورته ـ هذا التِّمثال ـ ثمَّ بعد ذلك بنوا على قبره، وقد يكون البناء على قبره متقدمًا على الصُّورة، فهم يبنون على قبره ويصوِّرون صورته، فيجمعون بين فتنتين: فتنة الصُّور، وفتنة القبور، وكلاهما من الأسباب الدَّاعية إلى الشِّرك.

وهذا ما حصل في هذه الأمَّة، فهو ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في آخر حياته قبل أن يموت بخمسٍ حذَّر من ذلك على المنبر بقوله: «**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

ثمَّ لَمَّا كان في سياق الموت اهتَّم بهذا الأمر، طفق يطرح خميصة له كانت على وجهه، فإذا اغتَّم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ كأنَّه يشير إلى أنْ لا تتَّخذوا قبري مسجدًا كما فعل أولئك.

وقد بيَّن العلماء معنى اتِّخاذها مساجد: أنَّه تحرِّي تلك الأماكن للصَّلاة عندها، فمجرَّد قصدها لأجل الصَّلاة عندها اتِّخاذٌ لها، ولو لم يكن هناك بناءٌ، ولو لم يبنوا عليها بنيانًا مثل هذا المسجد، بل ما دام يقصد هذه البقعة التي يزعم أنَّ فيها قبر وليٍّ، أو قبر نبيٍّ، أو قبر سيِّدٍ، أو قبر رجلٍ صالحٍ، ويفضِّل الصَّلاةَ عندها، ويطيل الجلوس عندها، ويتبرَّك بتربتها، فَقَدِ اتَّخذها مسجدًا شاء أم أبى،

ما دام يتحرَّاها للصَّلاة، ويُفضِّل الصَّلاة عندها عن الصَّلاة في بيوت الله تعالى، فهو ممَّنِ اتَّخذها مسجدًا، سواءٌ أُقيم عليها بناءٌ، أو لم يُقَمْ عليها.

ولَمَّا كان كذلك ـ يعني: أن القبور مظِنَّة الفتنة ـ حَرَصَ ﷺ على ألَّا يكون هناك ما يدعو إلى ذلك، فثبت عنه ﷺ أنَّه **«نَهَىٰ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»**[1]؛ لأن هذه الأشياء مِمَّا يدفع الجُهَّال إلى الاعتقاد فيها، إذا رأوا هذا القبر على هذه الحال؛ قالوا: هذا قبر وليٍّ، هذا قبر سيِّدٍ، هذا ممَّن يُتبرَّك به، هذا ممَّا يُرجى تأثيره ونفعه، فيقصدونه ويَغْلُون فيه، فيحصل الشِّرك.

فنبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ حَسمَ مادَّةَ الشِّركِ، ومَنع من الوسائل التي توقع في شرك العبادة، وأرسل عليًّا ﷺ بقوله: **«لَا تَدَعْ تِمْثَالًا إلا طَمَسْتَهُ، ولا قَبْرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَهُ»**[2]، يعني: سوَّيته بالقبور الأخرى.

أمره بطمس الصُّور والتماثيل؛ لأنَّها أصلٌ في عبادة غير الله، وأمر بتسوية القبور ـ يعني: بتخفيض القبر المشرف الذي قد رُفع على ما سواه من القبور ـ مخافة أن يُعتقد فيه.

فهذا دليلٌ على أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قد حَرص كُلَّ الحرص على أن تكون أُمَّتُهُ متمسِّكةً بتوحيد الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٠) من حديث جابر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٩).

قال الشارح:

وَمِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ عِبَادَةُ الْكَوَاكِبِ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ بِحَسَبِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِلْكَوَاكِبِ مِنْ طِبَاعِهَا، وَشِرْكُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ - فِيمَا يُقَالُ - مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَكَذَلِكَ الشِّرْكُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ لَهُمْ.

قال الشيخ:

عبادة الكواكب أو الأفلاك - كالشَّمس والقمر - من جملة ما وقع فيه بعض الأمم؛ ولذلك نهى الله تعالى عن ذلك، وأخبر بضلال من يفعله.

وحكىٰ الله تعالى عن مَلِكة سبأٍ وقومها بقوله عن الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، يعني: صدَّهمُ الشَّيطان عن سجودهم لله الذي خلقهم، ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٤، ٢٥]، فهذا دليلٌ على أنَّ هناك أممًا عبدوا الشَّمس، وأخبرنا - عليه الصَّلاة والسَّلام - بأنَّ المشركين يسجدون لها، ونهى ﷺ عن الصَّلاة عند طلوع الشَّمسِ وعند غروبها، فقال: «فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حين تَطْلُعُ بين قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لها الْكُفَّارُ»[1].

وكذلك هناك أيضًا مَنْ شركهم بعبادة الكواكب، وقيل: إنَّ قوم إبراهيم كان

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢) واللفظ له، من حديث عمرو بن عبسة السلمي ﷺ. وأخرجه البخاري مختصرًا (٣٢٧٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

شركهم بعبادة الكواكب، يعبدونها ويبنون لها الهياكلَ، وقد حكىٰ الله أيضًا عنهم أنَّهم يعبدون أصنامًا بقولهم: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]، وأنَّ أصنامهم من حجارةٍ أو من خشبٍ، ولأجل ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾[الشعراء:٧٥، ٧٦]، ثُمَّ قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ﴾[الأنبياء:٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦]، يعني: خلقَكم وخلق ما عملتُم بأيديكم.

فهذا دليلٌ على أنهم يعبدون أصنامًا منحوتةً مع عبادتهم الكواكب.

وقد قيل: إنَّ من أدلَّة ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: ٧٦]، على وجه المناظرة، وكذلك قال للقمر: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام:٧٧]، وقال للشَّمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾[الأنعام:٧٨].

وقيل: إنَّ مِنْ أدلَّة ذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾[الصافات:٨٨، ٨٩]، ممَّا يدلُّ على أنَّهم كانوا ينظرون أيضًا في النُّجوم. فعبادة الكواكب لا شكَّ أنَّها شركٌ؛ لأنَّ هذه الكواكب مخلوقةٌ مُسيَّرةٌ، والله هو الذي يُسيِّرها، وهو الذي سخَّرها بقوله تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾[الأعراف:٥٤].

والحاصل: أنَّ من جملة المعبودات عبادة الكواكب، وبناء الهياكل لها، وكلُّ ذلك ممَّا محاه الإسلام، وحثَّ المسلمين على أن تكون عبادتهم لله وحده.

قال الشارح:

وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ، وَلَكِنِ اتَّخَذُوا هَذِهِ الوَسَائِطِ شُفَعَاءَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

قال الشيخ:

قد تقدَّم أنَّ المشركين الأوَّلين يعترفون بالخالق وأنه واحدٌ: هو الله تعالى، حكى الله ذلك عن مشركي العرب في عدَّة آياتٍ، منها: قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: هذا لله وحده، ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[المؤمنون:٨٤-٨٩].

يبيِّن أنَّهم يعترفون بهذا، وأنَّ اعترافهم بتوحيد الرُّبوبيَّة صار حُجَّةً عليهم في التَّوحيد الذي جحدوه، وهو توحيد الإلهيَّة. ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾، أي: كيف تُصرفون عن عبادته وأنتم تعرفون أنَّه الذي يُجير ولا يُجار عليه، والذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ، وهو ربُّ السَّمٰوات السَّبع، وهو ربُّ العرش العظيم، وهو الذي له

الأرض، وله السَّمٰوات، وله المخلوقات، ومع ذلك تعبدون غيره؛ أين عقولكم؟! .

فسُئلوا: لماذا تعبدون هذه المعبودات؟ فأخبر الله تعالى بأنَّهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، يريد: أي يقربونا إليه. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، أي: ما نريد إلا شفاعتهم.

هذه مقالتهم، وهي بعينها مقالة عُبَّاد القبور، وعُبَّاد الأولياء، ونحوهم؛ يقولون: إنَّهم أناسٌ ذوو فضلٍ ومنزلةٍ، الله يقبل منهم ولا يقبل منا، فإذا تقرَّبنا إليهم أدخلونا على الله، وقُبلت أعمالنا بسببهم، ويضربون مثلًا بملوك الدُّنيا، فيقولون: إنَّ ملوك الدُّنيا لا يوصَلُ إليهم إلاَّ بالشُّفعاء، إذا أردتَ حاجةً عندهم فإنَّك تتوسَّل بأحد الوزراء، أو أحد الكُتَّاب، أو أحد الخدم؛ حتَّى يدخلك عليهم ويشفع لك عندهم.

وهذا قياسٌ فاسدٌ، فإنَّ الملوك بشرٌ لا يعرفون ما في الضَّمير، ولا يعرفون الصَّادق من الكاذب، فيحتاجون إلى أن يقبلوا شفاعة من يعرفونه، والربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ ليس بحاجةٍ إلى من يُعرِّفه، فإنَّه أعلم بما في الضَّمائر، ويعلم ما توسوس به النُّفوس، وهو عليمٌ بذات الصُّدور، فلا حاجة إلى أن يشفع عنده أحدٌ، وإنما يأذن بالشَّفاعة في الآخرة لبعض عباده، ويقبل شفاعتهم تكريمًا لهم، ولكنْ بإذنه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن جملة الشرك الذي حذَّر منه نبيُّنا ﷺ: الشِّركُ في العبادة، وأنَّ من أسبابه

اتِّخاذ القبور مساجد، وتقدَّم لنا كثيرٌ من الأدلَّة في نهيه - عليه الصَّلاة والسَّلام - عن الشِّرك، وفي ذمِّه للذين يتَّخذون قبور أنبيائهم مساجد، وبيان ما آل إليه أمرهم، وسوف يمُّر بنا أيضاً ما يحقِّق التَّوحيد الذي هو توحيد الرُّبوبيَّة، ثمَّ بعد ذلك ينتج منه توحيد الإلهيَّة.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ كَانَ حَالُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ؛ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عنهم فِي قِصَّةِ صَالِحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ عَنِ التِّسْعَةِ الرَّهْطِ الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ـ أَيْ: تَحَالَفُوا بِاللَّهِ ـ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ. فَهَؤُلَاءِ الْمُفْسِدُونَ الْمُشْرِكُونَ تَحَالَفُوا بِاللَّهِ على قَتْلِ نَبِيِّهِمْ وَأَهْلِهِ، وَهَذَا بَيِّنٌ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ إِيمَانَ الْمُشْرِكِينَ.

قال الشيخ:

في قصَّة الرهط من قوم صالح ـ التي جاء ذكرها في قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [النمل:٤٨، ٤٩]، دلالة على أنَّهم ولو كذَّبوا صالحًا، فإنَّهم يعرفون الله، ويعترفون بالرُّبوبيَّة، ولهذا تقاسموا بالله أن يكونوا كفارًا مكذِّبين للنَّبيِّ، ومع ذلك يتقاسمون بالله، ما تقاسموا بغير الله.

فيُعرف من هذا أنَّ الكفَّار المشركين الذين كذَّبوا الرُّسل كانوا يعرفون أنَّ الله هو ربُّهم، وأنَّه هو الخالق، وهكذا أيضًا الذين كذَّبوا نبيَّنا ﷺ كانوا معترفين بأنَّ الله هو ربُّهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونحو ذلك من الآيات.

فإذا كانوا يُقِرُّون بأنَّ الله هو الخالق الرَّازق فماذا جَحَدوا؟ جحدوا توحيد

العبادة وهو حقُّ الله، إنَّما عرفوا الله ربًّا، ولكن ما عبدوه وحده، وما عظَّموهُ حقَّ تعظيمه، بل أشركوا به، وجعلوا معه آلهةً أخرى، فكانوا بذلك مشركين، وكذَّبوا الرُّسل الذين دعوهم إلى عبادته، فقوم نوحٍ كانوا يعرفون ربَّهم، ولكنِ احتقروا نوحًا وكذَّبوه، وهكذا قوم هودٍ وقوم صالحٍ وقوم إبراهيمَ ... إلى آخر الأمم، ومشركو العرب كذَّبوا نبيَّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أوَّل الأمر، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ ﴾ [ص:٥].

قال الشارح:

فَعُلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ المَطْلُوبَ هُوَ تَوْحِيدُ الإِلَهِيَّةِ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[إبراهيم ١٠].

وَقَالَ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[١]، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ مَعْنَاهُ يُولَدُ سَاذِجًا لَا يَعْرِفُ تَوْحِيدًا وَلَا شِرْكًا، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِمَا تَلَوْنَا.

وَلِقَوْلِهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ[٢] الشَّيَاطِينُ»[٣] الحَدِيثَ.

وَفِي الحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ: «يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» وَلَمْ يَقُلْ: وَيُسْلِمَانِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: «يُولَدُ عَلَى الْمِلَّةِ»، وَفِي أُخْرَى: «عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٩).

(٢) اجْتَالَتْهُمُ: حولتهم عن الهدى، فجالوا معهم في الضلالة. انظر: لسان العرب (جول).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عِيَاضِ بن حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه.

(٤) أخرج الروايتين مسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الشيخ:

معرفة الله - عزَّ وجلَّ - معرفةٌ فطريَّةٌ فُطِرَ الخلقُ عليها، ودين الإسلام الذي اختاره الله دينًا له، وأرسل به الرُّسل، دينٌ فطريٌّ، بمعنى: أنَّ القلوب مفطورةٌ على استحسانه، وعلى أنَّه الدِّين الصَّحيح، ولو فكَّر كلُّ عاقلٍ في هذا الدين؛ لعرف أنَّه أصحُّ الأديان، وأنَّ من دان بغيره فهو خاسرٌ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفي الآية الكريمة في سورة الروم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، يعني: فطرهم على معرفته وعلى استحقاقه لأن يُعبد، ولكن أفسدت عليهمُ الشَّياطين تلك الفطرة، وأفسدتها عليهمُ البيئات والمجتمعات، وأفسدها عليهمُ الآباء والأجداد والأمَّهات والجدَّات، وأفسدها عليهمُ المربُّون والمعلِّمون والمُنشئون، ولو تركوهم وما تميل إليه فطرتهم لمالوا إلى الإسلام، ولعرفوا أنَّه الدِّين الحقُّ، وإن كان لابدَّ من تنبيههم على تفاصيله.

وهذا ما دَلَّ عليه الحديث: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»، يعني: على معرفة أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ له خالقًا، وأنَّ الخالق هو الذي يستحقُّ أنْ يُعبد.

وكذلك معنى الحديثِ الآخرِ القُدُسيِّ: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ**»، حُنَفاء يعني: مستقيمين على الدِّين، ولكن تَسلَّطَتْ عليهمُ الشَّياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وأخرجتهم عن الحنيفيَّة، وحرَّمت عليهمُ الحلالَ، وأحلَّت

لهمُ الحرامَ، وأوقعتهم في الشِّرك والضَّلال.

ومما نعلمه بهذا أنَّ الإنسان بفطرته يُفضِّل الدِّين الصَّحيح، وأنَّ أصحَّ الأديان هو هذا الدِّين، ولكنَّ كثرة المنحرفين، وكثرة النَّصارى، وكثرة اليهود، وكثرة المشركين، وكثرة المبتدعين، هذه كلُّها بسبب الدِّعايات لها، والتي تصدُّ عن الإسلام.

ومعلومٌ أنَّ الله سبحانه أوضح الحقَّ، وأرسل به الرُّسل، وأنزل به الكتب، ولكن جعل هناك أعداءً للحقِّ، هؤلاء الأعداء يحرصون على أن يميلوا بالنَّاس إلى ما هم عليه، فالمشركون يحبُّون أنْ يكثُرَ أمثالهم، وكذلك المبتدعون، كلُّ أهل بدعةٍ يحبُّون أن يكون النَّاس معهم على بدعتهم، والأصل الذي يدفعهم إلى ذلك هو الشَّيطان الذي هو عدوُّ الإنسان، فإنَّه لـَمَّا كان عدوًّا للإنسان؛ زيَّن له البِدَع، وزيَّن له الشِّرك، وزَّين له الكفر، ثمَّ أمره أن يدعو النَّاس إلى ما ينتحله.

قال الشارح:

وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ ﷺ هُوَ الَّذِي تَشْهَدُ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ بِصِدْقِهِ.

مِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: لَا رَيْبَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ مَا يَكُونُ حَقًّا، وَتَارَةً مَا يَكُونُ بَاطِلًا، وَهُوَ حَسَّاسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَاتِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرَجِّحٍ لِأَحَدِهِمَا. وَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا عُرِضَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ وَأَنْ يُكَذِّبَ وَيَتَضَرَّرَ، مَالَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ، وَحِينَئِذٍ فَالِاعْتِرَافُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ، هُوَ الْحَقُّ أَوْ نَقِيضُهُ، وَالثَّانِي فَاسِدٌ قَطْعًا، فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي الْفِطْرَةِ مَا يَقْتَضِي مَعْرِفَةَ الصَّانِعِ وَالْإِيمَانَ بِهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَحَبَّتُهُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ أَوْ لَا، وَالثَّانِي فَاسِدٌ قَطْعًا، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي فِطْرَتِهِ مَحَبَّةُ مَا يَنْفَعُهُ.

قال الشيخ:

هذا من الأدلَّة على أنَّ معرفة الخالق سبحانه معرفةٌ فطريَّةٌ، يدركها الإنسان بفطرته، وهذا تقريرٌ من تقارير المتكلِّمين، ولكنَّه واضحٌ.

يقول: إنَّ الإنسان لا بدَّ أن يخطُر بقلبه خواطر، هذه الخواطر وهذه الإرادات قد تكون صحيحةً وقد تكون فاسدةً، ولا شكَّ أنَّه متى فكَّر في تلك الخواطر؛ عَرَفَ ما يضرُّه وما ينفعه، فمن ذلك: أن يفكِّر في نفسه وفي الوجود الذي حوله، فيعترف حينئذٍ أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ الوجود الذي حوله مخلوقٌ، ويعترف بعد ذلك أنَّ هذا المخلوق لا بُدَّ له من خالقٍ متصرِّفٍ، وأنَّ التصرُّف للخالق وحده، ثمَّ إذا

اعترف بذلك، انتفع بهذا الاعتراف كلُّ عاقلٍ، فإذا خَطَرت في قلبه هذه الخواطر، فلا بدَّ أن يفكِّر في نهايتها، فينظر: هل هي حقٌّ أو باطلٌ؟ فإن كانت حقًّا؛ فإنَّه يُؤثرها ولا يدخل عليها ما يضادُّها؛ إذ كلُّ عاقلٍ يُؤْثِرُ ما ينفعه ويترك ما يضرُّه.

فلو قيل لك مثلًا: اعترِفْ بالبعث والجزاء في الآخرة، ونحن نثيبك ونرفع منزلتك ونعطيك ونمكِّنك، أو أظْهِرِ الإنكار ونحن نحبسك ونضربك ونؤنِّبك ونحرمك.

العاقلُ يقولُ: لماذا لا أعترف وأنا أعرف ما في الاعتراف بالبعث من الثَّواب، سوف أعترف ما دام أنَّ الاعتراف أوَّلًا: عليه أدلَّةٌ وهي أدلَّة البعث، وثانيًا: فيه منفعةٌ، وثالثًا: أتَّقي فيه مضرَّةً.

فكلُّ عاقلٍ يُؤثر أن يعترف بالحقِّ؛ حتَّى يحصل له الانتفاع.

قال الشارح:

وَمِنْهَا: أَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى جَلْبِ المَنَافِعِ وَدَفْعِ المَضَارِّ بِحَسَبِهِ، وَحِينَئِذٍ وَإِن لَمْ تَكُنْ فِطْرَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مُسْتَقِلَّةً بِتَحْصِيلِ ذَلِكَ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ مُعَيِّنٍ لِلْفِطْرَةِ، كَالتَّعْلِيمِ وَنَحْوِهِ، فَإِذَا وُجِدَ الشَّرْطُ، وَانْتَفَى المَانِعُ، اسْتَجَابَتْ لِمَا فِيهَا مِنَ المُقْتَضِي لِذَلِكَ.

قال الشيخ:

هذا أيضًا دليلٌ عقليٌّ، معلومٌ أنَّ الله تعالى فَطَرَ العباد على معرفته، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ولكنَّ هذه الفطرة قد لا تكفي لتفاصيل الحقوق، والإنسان مثلًا لو نشأ في البادية؛ لم يسمع بالدِّين، ولم يعرفْ شيئًا عنه، فإنَّه ولو عرف أنَّه مخلوقٌ، وأنَّ هذا الكون مُدبَّرٌ مُسخَّرٌ، لكن يخفى عليه أشياء من تفاصيل العبادة، يقول مثلًا: أنا مخلوقٌ ولي خالقٌ، وخالقي له حقوقٌ عليَّ، ولكن ما هي وكيف أؤدي هذه الحقوق؟ وما الذي يحبُّه حتَّى أفعله؟ وما الذي يكرهه حتَّى أتركه؟

هذا يُرْجَع فيه إلى ما جاءت به الرُّسل، الذين بيَّنوا للنَّاس حقوق الله على العباد، فأمروهم أن يفعلوها، وبيَّنوا لهم ما حرَّمه؛ فأمروهم أن يتركوه؛ فهذا يُتلقى من الرُّسل، وإلَّا فالإنسان لو تُرِك وفطرَتَهُ دون تغيير؛ لمال إلى الحقِّ وآثره، ولكنَّ تفاصيل الحقِّ تُؤخذ عن الرُّسل.

قال الشارح:

وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ قَابِلَةٌ لِلْعِلْمِ وَإِرَادَةِ الْحَقِّ، وَمُجَرَّدُ التَّعْلِيمِ وَالتَّحْضِيضِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ، لَوْلَا أَنَّ فِي النَّفْسِ قُوَّةً تَقْبَلُ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلَوْ عُلِّمَ الْجُهَّالُ وَالْبَهَائِمُ وَحُضِّضَا لَمْ يَقْبَلَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ حُصُولَ إِقْرَارِهَا بِالصَّانِعِ مُمْكِنٌ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مُنْفَصِلٍ مِنْ خَارِجٍ، وَتَكُونُ الذَّاتُ كَافِيَةً فِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ الْمُقْتَضِي قَائِمًا فِي النَّفْسِ وَقُدِّرَ عَدَمُ الْمَعَارِضِ، فَالْمُقْتَضِي السَّالِمُ عَنِ الْمَعَارِضِ يُوجِبُ مُقْتَضَاهُ، فَعُلِمَ أَنَّ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهَا مَا يُفْسِدُهَا، كَانَتْ مُقِرَّةً بِالصَّانِعِ عَابِدَةً لَهُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْمُفْسِدُ الْخَارِجُ، وَلَا الْمُصْلِحُ الْخَارِجُ، كَانَتِ الْفِطْرَةُ مُقْتَضِيَةً لِلصَّلَاحِ؛ لِأَنَّ الْمُقْتَضِيَ فِيهَا لِلْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ قَائِمٌ، وَالْمَانِعَ مُنْتَفٍ.

قال الشيخ:

الصَّحيح أنَّ مجرَّد التَّحريضِ لا يدفع الإنسان، فلو كان لك ولدٌ وأنت تُحرِّضه، تقول: يا ولدي تعلَّم، يا ولدي اطلُبِ العلم، يا ولدي احفظِ القرآن، وهو مع ذلك ليس له رغبةٌ، بل نفسه مائلةٌ عن هذا التَّعلُّم، فلو ضربتَه وأدَّبته ونصحته وعلَّمته، ما قَبِلَ إلَّا إذا أقبلتْ نفسه، وهَوَى ذلك، وعَرَفَ فيه فائدةً ومنفعةً. وهذه المعرفة تتكوَّن من التَّصوُّر، وذلك أنَّ الإنسان له عقلٌ، وعقله يهديه إلى تصوُّر الأمر، فيتصوَّر الشَّابُّ ـ مثلًا ـ أنَّ الجهل نقصٌ، فيقول: لماذا أبقى على الجهل وهو نقصٌ؟! ويتصوَّر أنَّ العلمَ شَرَفٌ، فيدفعه هذا التَّصوُّر إلى

التَّعلُّم. أما مجرَّد الضَّرب أو التَّرغيب، ومجرَّد التَّرهيب والتَّخويف ونحو ذلك، إذا لم يكن هناك تصوُّرٌ وإقبالٌ من النَّفس فإنَّه لا يُفيد؛ كما هو مشاهدٌ.

فالذي يريدُ الخيرَ لا بدَّ أن يعرف فوائده من قبل؛ حتَّى تدفعه تلك المعرفة إلى طلبه، فالعبد ـ مثلًا ـ إذا عَرَفَ أنَّه مخلوقٌ، وعَرَفَ أنَّ المخلوق عليه حقوقٌ، وعَرَفَ أنَّ أداء تلك الحقوق سببٌ للسَّعادة، ألا يحرص على أداء تلك الحقوق؟! يؤدِّيها حتَّى تحْصُلَ له السَّعادة، وهي الحياة الطَّيِّبةُ في الدنيا، والجنَّة في الآخرة، ولكن: من أين يأخذ معرفة تلك الحقوق التي عليه؟

يأخذها من الشريعة، فيقول: الحقوق التي عليَّ هي: عبادة الله، ودعاؤه، وخوفه، ورجاؤه، والرَّغبة إليه، وخشيته، والخشوع له، وما أشبه ذلك من ترك التعلُّق بغيره من عبادة وطاعة، وما أشبه ذلك.

فالعاقل عليه أن يعلِّم الفائدة أوَّلًا، يعني: إذا أردتَ أن تُرَغِّبَ ولدك في أمرٍ فإنَّ عليك أن تُعْلِمه بفائدته؛ حتَّى يُقْبِل عليه، فإذا أردت أن تعلِّمه ـ مثلًا ـ حرفةً من الحرف أو صَنْعةً يتكسَّب بها، كبناءٍ، وغراسةٍ، وتجارةٍ، ورعايةٍ، أو أي صنعةٍ من الصَّنائع، فلا بدَّ أن تخبره بفوائدها، فتقول: **تعَلَّمْ هذه الحرفة، فإنَّها صنعةٌ** مفيدةٌ، وتحتاجها ويحتاج إليك النَّاس، وتكتسب كذا وكذا. فإذا قَنِعَ انْدَفَعَ وطلبها، فكذلك إذا قلت: أنت محتاجٌ إلى العلم، والعلم فائدته كذا وكذا، وقنع؛ انْدَفَعَ إلى العلم. وهكذا إذا قلت لإنسان: أنت محتاجٌ إلى ربِّك؛ حتَّى يثيبك ويعطيك، وربُّك غني عنك، وصدَّق بذلك، سألك عن الحقوق التي عليه، فقلت: حقُّ الله عليك أن تعبده، وعبادتُه كذا وكذا؛ انْدَفَعَ إلى عبادة ربه وطاعته.

فإذًا ننصح كلَّ إنسانٍ أراد إقناع آخر أن يخبره بذلك الأمر الذي يدفعه إليه؛ حتى يرغب فيه.

قوله: (وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْمُفْسِدُ الْخَارِجُ، وَلَا الْمُصْلِحُ الْخَارِجُ...) من هذا قد يُتصوَّر في إنسانٍ وُلِدَ ونشأ في بريَّةٍ، أو في بلدةٍ وحده، أو بين أُناسٍ لا يعرف كلامهم ولا يعرفون كلامه، وليس هناك أحدٌ يعلِّمه الخير، ولا أحدٌ يعلِّمه الشَّرَّ، لكن معه فطرةٌ، وهذه الفطرة هي الإسلام، فلابدَّ أن يكون معه دافعٌ يدفعه إلى معرفة الكون وماذا يُراد به، فإذا قُدِّرَ أنَّه ليس هناك مفسدٌ ولا مصلحٌ، فإنَّ الفطرةَ ميَّالةٌ إلى طلب المصلح، فيندفع إلى طلب الخير.

أمَّا إذا وُلد المولودُ ونشأ في بلدٍ أهلها يعرفون الخير ولَقَّنوه له، وقالوا: عبادة الله هي الأصلح، وأنت مخلوقٌ لها، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، فإنَّه يعرف ذلك، ثمَّ يتلقَّى العبادة.

وكذلك لو وُجد بين أناسٍ يشركون، وقالوا له: التَّعلُّق بهؤلاء الصَّالحين ينفع، وهؤلاء مقرَّبون عند الله، ونحن ندعوهم حتَّى يكونوا شفعاءنا عند الله، ونحو ذلك، صدَّقهم وفعل كفعلهم، وذلك لأنَّه ساذَجٌ لا يعرف إلا ما علَّموه.

كذلك إذا وُلد ونشأ بين نصارى يقولون: المسيح هو الله، أو ابن الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ صدَّقهم واندفع إلى ما يقولونه، وهكذا. بخلاف ما إذا ولد ليس عنده من يعلِّمه؛ لا بدعةً، ولا سُنَّةً، لا إسلامًا، ولا كفرًا، فإنَّه يبقى متحيِّرًا، ولكنَّ فطرته تدفعه إلى معرفة الإسلام أو محبَّته وتفضيله على غيره.

قال الشارح:

وَيُحْكَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَرَادُوا الْبَحْثَ مَعَهُ فِي تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ سَفِينَةٍ فِي دِجْلَةَ، تَذْهَبُ، فَتَمْتَلِئُ مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَتَاعِ وَغَيْرِهِ بِنَفْسِهَا، وَتَعُودُ بِنَفْسِهَا، فَتُرْسِي بِنَفْسِهَا، وَتَتَفَرَّغُ وَتَرْجِعُ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدَبِّرَهَا أَحَدٌ؟! فَقَالُوا: هَذَا مُحَالٌ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا! فَقَالَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ هَذَا مُحَالًا فِي سَفِينَةٍ، فَكَيْفَ فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ عُلْوِهِ وَسُفْلِهِ! وَتُحْكَى هَذِهِ الْحِكَايَةُ أَيْضًا عَنْ غَيْرِ أَبِي حَنِيفَةَ.

قال الشيخ:

هؤلاء قومٌ من الملاحِدَة، عندهم شكٌّ في توحيد الرُّبوبيَّة، وفي وجود الخالق سبحانه؛ فجاؤوا إلى أبي حنيفة ـ العالِم المشهور ـ وأرادوا أن يمتحنوه، ولكنَّه امتحنهم قبل ذلك بهذا السُّؤال، ولا شكَّ أنَّه شيءٌ محسوسٌ واقعٌ. يقول: ما يُصدِّق العاقل أنَّ هناك سفينةً تمشي بنفسها، تحمل نفسها وما بها من الذخائر، وترسل نفسها إلى مكانٍ ما، وتنزل حمولتها من نفسها، وترجع من حيث جاءت. فالسَّفينةُ خشبةٌ من الجمادات، ليس لها عقلٌ ولا إدراكٌ، كيف يُتصوَّر أنَّها تسلك الطَّريق، وأنَّها ترسو في المكان المعدِّ لها، وأنَّها تمتدُّ إلى الأثاث والمتاع والأطعمة وتحملها، وأنَّها ترسو وتنزل عن نفسها ؟! لا يمكن أبدًا.

ومثلُها أيضًا المراكب الجديدة، فالسَّيَّارة ـ مثلًا ـ ما تتحرَّك بنفسها، فلو قيل لك: إنَّ هناك سيارةً أو طائرةً أو باخرةً تتحرَّك بنفسها، وأنَّها تذهب إلى البلد

الذي تريده ولا تخطئ الطَّريق، وأنَّها إذا وقفت وقفت في الأسواق، وأنَّها حمَّلت نفسها من الأرزاق ومن الأكسية والأمتعة ونحوها، وجاءت إلى البلد المحتاج ونزلت من نفسها، هل يصدِّق بهذا عاقلٌ ؟ هذا محالٌ.

يقول: إنَّه إذا كان هذا محالًا، فإننَّا نشاهد هذا الكون مدبَّرًا أتمَّ تدبيرٍ، هل يصدِّق عاقلٌ أنَّه وُجد من غير موجدٍ، أو أنَّه وُجِدَ بالصُّدفةِ؟

هذه الكواكب التي تطلع وتغرب سيرُها منتظمٌ، لا يتقدَّم هذا عن وقته، ولا هذا عن وقته، هذه الشَّمس وهذا القمر اللذان سيرهما في الشِّتاءِ له حدٌّ، وفي الصَّيف له حدٌّ، هذه الرِّياح التي تثور أحيانًا وتسكن أحيانًا، هذه البحار والأنهار والأشجار والمخلوقاتُ المُنْبَثَّة في البرِّ وفي البحر والحيوانات والجماد، هل يُعقل أنَّها وُجدت بالصُّدفة؟ لا يمكن.

فإذا كان هذا غير ممكن، فلا بدَّ لها من موجدٍ، كما أن السَّيَّارة لا بدَّ لها من محرِّك، فكذلك هذه الموجودات لا بدَّ لها من مسيِّرٍ، وهو الخالقُ وحده الذي يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥، ١٦]، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس:٢٢]، في ظُلُمات البرِّ والبحر، هو الذي سخَّر ذلك، فهذه حُجَّةٌ عقليَّةٌ تدلُّ على وجود الله، وتدفع كلَّ مُنكرٍ وملحدٍ.

قال الشارح:

فَلَوْ أَقَرَّ رَجُلٌ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، الَّذِي يُقِرُّ بِهِ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، وَيَفْنَىٰ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، وَيَجْعَلُونَهُ غَايَةَ السَّالِكِينَ، كَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ (مَنَازِلِ السَّائِرِينَ) وَغَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَيَتَبَرَّأْ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، كَانَ مُشْرِكًا مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

قال الشيخ:

توحيد الرُّبوبيَّة هو الغاية عند أهل الكلام، وهو الذي يفنىٰ فيه المتصوِّفون، يعني: يجعلونه هو الغاية، فأكبر مقصد وأكبر مطلب عندهم هو توحيد الربوبية، وهو الاعتراف بأنَّ الله موجودٌ، وبأنَّه خالقٌ ورازقٌ ومدبِّرٌ، هذا هو الغاية عندهم، ولكن ليس هو الغاية عند أهل الحقِّ؛ بل الغاية والمطلب هو توحيد العبادة الذي هو عبادة الله، الذي هو القيام بحقِّه.

فالمتصوِّفة يفنون في توحيد الرُّبوبيَّة، ومعنى كونهم يفنون فيه: أنَّهم يبالغون في تعلُّمه إلى أن يأتي عليهم شيءٌ يسمى الفناء، لا حاجة لنا بذكره، هذا هو الغاية عندهم، والمتكلِّمون أيضًا كذلك، يعني أنَّهم يجعلونه هو الغاية؛ حتى إنهم يقولون: إنَّ معنى لا إله إلاَّ الله: لا خالِقَ إلاَّ الله، وهذا ليس بصحيحٍ؛ فإنَّ المشركين يعرفون أنَّه لا خالق إلاَّ الله، ولكن ما نفعهم حيث عبدوا غيره معه.

إذًا لابدَّ أن يكون الاعتراف بأنَّه لا إله إلا الله، يعني: لا معبود بحقٍّ إلاَّ الله، فتوحيد العبادة هو الغايةُ.

فالمتكلِّمون يُراد بهم أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، والمتصوِّفون يُراد بهم الصُّوفيَّة، وهم أهل العبادات السِّرِّيَّة، وغالبًا تكون عباداتهم قلبيَّةً، يبالغون في العبادات القلبيَّة، ولكنَّهم يقعون في بدعٍ، ومن جملة بدعهم: أنَّهم ينعزلون عن المسلمين وعن العبادات ونحو ذلك، وأنَّ أحدهم يبقى معتزلًا مدَّةً طويلةً حتَّى يحصل له حضور قلبه ومشاهداته، فيترك لذلك عدَّة صلواتٍ، ويقول: إنْ ذهبت أصلِّي تفرَّق عليَّ قلبي، فأنا الآن أفكِّر وأجمع همومي، فإذا قمتُ تفرَّقتْ تلك الهموم التي جمعتها.

والصُّوفيَّة موجودون بكثرةٍ في كثيرٍ من البلاد، ولهم تمكُّنٌ، وقد انخدع بهم خلقٌ كثيرٌ، ومع ذلك المتقدِّمون منهم في القرن الثَّالث كانوا على علم وعلى عبادة، إلاَّ أنَّهم زُهَّادٌ، وأما المُحْدَثون، فإنَّهم وقعوا في عقائدِ سيِّئةٍ وبِدَعٍ عمليَّةٍ.

قال الشارح:

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَجْعَلُ الْأَوَّلَ دَلِيلًا عَلَى الثَّانِي، إِذْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ الْأَوَّلَ، وَيُنَازِعُونَ فِي الثَّانِي، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَتَجْعَلُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى؟! كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ الْآيَاتِ [النمل:٥٩، ٦٠].

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آخِرِ كُلِّ آيَةٍ: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ﴾، أَيْ: أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ فَعَلَ هَذَا؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، يَتَضَمَّنُ نَفْيَ ذَلِكَ، وَهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ غَيْرُ اللَّهِ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أنه اسْتِفْهَامٌ: هَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ؟ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ الْكَلَامِ، وَالْقَوْمُ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ ۚ﴾ [الأنعام:١٩]، وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، لَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ مَعَهُ إِلَهًا ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ

﴿ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل:٦١]، بَلْ هُمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّـهَ وَحْـدَهُ فَعَلَ هَـذَا، وَهَكَـذَا سَـائِرُ الْآيَـاتِ.

وَكَـذَلِكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١]، وَكَذَلِكَ قَوْلُـهُ فِي سُـورَةِ الْأَنْعَـامِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [الأنعام:٤٦]. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

تقرير توحيد الرُّبوبيَّة في القرآن كثيرٌ، والقصد منه الإلزام بتوحيد العبوديَّـة، فإنَّ آية البقرة ـ وهي قولـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ـ ذكـر الله فيهـا تقريـر توحيـد الرُّبوبيَّـة بستَّة أدلَّـةٍ، وهـي قولـه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقـرة:٢١، ٢٢]؛ خلقهـم، وخلـق آبـاءهم، وخلـق الأرض، وخلق السَّماء، وأنزل المطر، وأنبت النَّبات.

يقول: استدِلُّوا بهذه على أنَّه المعبود، فاعبدوا الله الـذي جعـل هـذه الأشياء، أنـتم تعترفـون بأنَّـه الـذي خلقكـم، وأنَّـه الـذي خلـق مَـنْ قـبلَكم، وأنَّـه خـالق السَّمٰوات والأرض، وأنه مرسل السَّحاب ومنزلٌ منهـا المطر، ومنبت النَّبات؛ فلماذا تعبدون غيره؟

فيحتجُّ عليهم بإقرارهم بهذا التَّوحيد على التَّوحيد الثَّاني، ما داموا يقرُّون بتوحيد الرُّبوبيَّة، فيلزمهم توحيد العبادة.

وكذلك الآيات الأخرى في سورة النَّمل؛ فإنَّ قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[النمل:٦٠]، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[النمل:٦١]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٦٢]، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[النمل:٦٣]، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٦٤]؛ كلُّ هذه يقول بعد كلِّ آيةٍ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، يعني: هل هناك أحدٌ شارك الله في هذه الأشياء؟ فإذا كنتم تقرُّون بأنَّ الله هو الذي أنشأها وحدَهُ، فلماذا تعبدون غيره؟ لماذا تصرفون العبادة لغيره؟

فمعنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: هل هناك أحدٌ شريكٌ لله في هذه الأشياء، وفي خلق هذه المخلوقات، وفي هذه التصرفات؟ إذا كنتم تقرُّون بأنَّه ليس له شريكٌ، فلماذا جعلتم معه آلهةً تعبدونها؟.

هم جعلوا معبوداتٍ وسمّوها آلهةً، وصرفوا لها العبادة، ولـمَّا دعاهم إلى قول «لا إلهَ إلَّا الله» أنكروا ذلك.

وجاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أتى عمَّهُ أبا طَالِبٍ يَعُودُهُ، وَأَتَتْهُ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: إنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَقَعُ في آلِهَتِنَا، قال: ما شَأْنُ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ؟ قال: «**يَا عَمِّ أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي الْعَجَمُ إِلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ**»، قال: مَا هِيَ؟ قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، فَقَامُوا فَقَالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص:٥][1]، وفي رواية: «فقالوا: إِلَهًا وَاحِدًا؟ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ [ص: ٧][2]».

والإله عندهم هو المألوه المعبود، أي: الذي تألَهُهُ القلوب؛ فاحتجَّ الله عليهم بالشَّيء الذي يعرفونه على الذي ينكرونه وهو العبادة، يقولون: إنَّ العبادة ليست لله وحده، فيجعلونها لغيره أو له ولغيره، وأما الخلق والتَّدبير، فإنَّه لله وحده، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١]، فإذا كانوا يعترفون بهذا، فإنَّه حجَّةٌ عليهم في أنَّ التَّوحيد المطلوب لا يستحقُّه إلَّا الله.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه الترمذي (٣٢٣٢)، وفيه أنهم قالوا: «إِلَهًا وَاحِدًا؟! ما سَمِعْنَا بهذا في المِلَّةِ الآخِرَةِ إن هذا إلا اخْتِلَاقٌ».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشارح:

وَإِذَا كَانَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ ـ الَّذِي يَجْعَلُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الصُّوفِيَّةِ هُوَ الْغَايَةَ فِي التَّوْحِيدِ ـ دَاخِلًا فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَام، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، فَلْيُعْلَمْ أَنَّ دَلَائِلَهُ مُتَعَدِّدَةٌ، كَدَلَائِلِ إِثْبَاتِ الصَّانِعِ، وَدَلَائِلِ صِدْقِ الرَّسُولِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ كُلَّمَا كَانَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ كَانَتْ أَدِلَّتُهُ أَظْهَر، رَحْمَةً مِنَ اللهِ بِخَلْقِهِ.

قال الشيخ:

يقول: إنَّ توحيد الإلهيَّة هو المطلوب، وتقدَّم أنَّ كلَّ رسولٍ يبدأ دعوته بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]؛ لأنَّه توحيدٌ عمليٌّ، وأفعالٌ مشاهدةٌ، وأمَّا توحيد الرُّبوبيَّة فهو في الغالب اعتقاديٌّ، وقد يكون خفيًّا، فإذا كانتِ الدَّعوة إلى التَّوحيد العمليِّ، فلابدَّ أنَّ الأدلَّة عليه واضحةٌ.

يقول: إنَّ كلَّ شيءٍ حاجة النَّاس إليه شديدةٌ، فالأدلَّة عليه واضحةٌ، والأدلَّة على توحيد الإلهيَّة أوضح الأدلة، وهي الأدلَّة الكونيَّة، يعني: الذي كوَّن هذا الكون هو الذي يكون أهلًا للعبادة.

يقول ابن كثيرٍ ـ رحمه الله ـ لـمَّا فسَّر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾[البقرة:٢١، ٢٢]،

يقولُ: «ومضمونه أنه الخالق الرازق، مالك الدار وساكنها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده، ولا يُشرك به غيره»[١].

هذا صحيح، فالأدلَّة على توحيد العبادة واضحةٌ وظاهرةٌ، يعني: توحيد الرُّبوبيَّة أقوى دليلٍ وأقوى حجَّةٍ على وجوب عبادة الله وحده، وظهورها من نواحٍ:

أوَّلًا: أنَّه الخالق المالك المتصرِّف، فيكون هو المستحقَّ للعبادة.

ثانيًا: أنَّه المنعم، فنِعم الله على عباده لا تنقطع، فيستحقُّ عليها أن يُعبد وحده.

ثالثًا: أنَّه يثيب على هذه العبادة أعظم ثوابٍ، ويعاقب على تركها أعظم عقابٍ.

فيستحقُّ العبادة لهذه الأمور، والعاقلُ لا يخفى عليه هذا الدَّليل.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٨).

قال الشارح:

وَالْقُرْآنُ قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيهِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَهِيَ الْمَقَايِيسُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُفِيدَةُ لِلْمَطَالِبِ الدِّينِيَّةِ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ الْحَقَّ فِي الْحُكْمِ وَالدَّلِيلِ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ مَعْلُومَةً ضَرُورِيَّةً مُتَّفَقًا عَلَيْهَا، اسْتُدِلَّ بِهَا، وَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا.

وَالطَّرِيقَةُ الفصيحة فِي الْبَيَانِ أَنْ تُحْذَفَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ، بِخِلَافِ مَا يَدَّعِيهِ الْجُهَّالُ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ فِيهِ طَرِيقَةٌ بُرْهَانِيَّةٌ، بِخِلَافِ مَا قَدْ يَشْتَبِهُ وَيَقَعُ فِيهِ نِزَاعٌ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُهُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ.

قال الشيخ:

طريقة القرآن ضرب الأمثلة، وكثيرًا ما تأتي الأمثلة على معبودات المشركين؛ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ ... ﴾ إلى آخرها، [الحج:٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ [الزمر:٢٩]، هذا أيضًا مثلٌ لمن يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهةً متفرِّقين كثير.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [الروم:٢٨]، يقول: هل ترضى أن يكون مملوكك شريكًا لك في مالك وأهلك؟! إذا كنت لا ترضى، فهذه الآلهة مملوكةٌ لله،

فكيف تكون شريكةً له في العبادة؟! .

فضَرْبُ الأمثلة في القرآن لأجل إقناع من يستمع ذلك، وطريقة القرآن هي إيضاح الحُجَج بهذه الأمثلة، ولكنه يحذف المقدِّمات التي لا حاجة لها اختصارًا، ويقتصر على الشَّيء المهمِّ.

وبالجملةِ فكلُّ من تأملَّ الأدلَّة اتَّضح له أن توحيد الإلهيَّة أدلته واضحةُ الدَّلالة، فعليه أن يَقْنَعَ به، ويُقْنِعَ الخصم.

قال الشارح:

وَلَـمَّا كَانَ الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مَعْلُومَ الِامْتِنَاعِ عِنْدَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، بِاعْتِبَارِ إِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَإِنَّمَا ذَهَبَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَنَّ ثَمَّ خَالِقًا خَلَقَ بَعْضَ الْعَالَمِ، كَمَا يَقُولُهُ الثَّنَوِيَّةُ فِي الظُّلْمَةِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ فِي أَفْعَالِ الْحَيَوَانِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الدَّهْرِيَّةُ فِي حَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ، أَوْ حَرَكَاتِ النُّفُوسِ، أَوِ الْأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ أُمُورًا مُحْدَثَةً بِدُونِ إِحْدَاثِ اللهِ إِيَّاهَا، فَهُمْ مُشْرِكُونَ فِي بَعْضِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ قَدْ يَظُنُّ فِي آلِهَتِهِ شَيْئًا مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ، بِدُونِ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

توحيد الرُّبوبيَّة قليلٌ جحوده في البشر، إلَّا أنَّ هناك من يشرك شركًا جزئيًّا، مثل المجوس، أشركوا بتوحيد الرُّبوبيَّة، فجعلوا الخَلْق من اثنين: من النُّور والظُّلمة، وقالوا: إن النُّور خَلَقَ الخير، والظّلمة خَلَقَتِ الشَّرَّ، ولم يجعلوهما سواءً، بلِ النُّور خيرٌ والظُّلمةُ شرِّيرةٌ، وهم لا يعظِّمون إلاَّ واحدًا، ولهذا يعبدون النَّار.

ومثل بعض المعتزلة الذين يجعلون بعض المخلوقات من إيجاد الحيوانات، ويقولون في الأفعال: إنَّ الإنسان يخلق أفعاله من دون قدرة الله، ولهذا المجوس يجعلون الوجود عن خالقين، والمعتزلة يجعلونه عن عددٍ؛ فلذلك يسمَّون: مجوسَ هذه الأمَّة، ولو زعموا أنَّهم ينزِّهون الله تعالى عنِ الظُّلم؛ لأن عملهم نوعُ شركٍ في الرُّبوبيَّة، وإن كانوا لا يعبدون إلَّا الله، ولكن كونهم يُسنِدون بعض الأفعال إلى

غير الله، ويقولون: إنَّ الإنسان يخلق فعله؛ صدَّق أنَّهم مشركون نوع شركٍ في الرُّبوبيَّة.

وعلى كلِّ حالٍ، فالأصل أنَّ الأمم كلَّهم يعترفون بتوحيد الرُّبوبيَّة، إلَّا من شذَّ؛ كفرعون الذي كان ينكر ذلك في الظاهر، ولكنَّه كان في باطن الأمر يعترِف بأنَّه مخلوقٌ، وأنَّ له خالقًا، ويوجد في هذه الأزمنة من يسمَّوْن بالشُّيوعيِّين، وقديمًا يسمَّون بالدَّهرِّيين، وهم في الحقيقة مُعاندون مكابرون، وإلَّا فلو رجعوا إلى تفكيرهم، ولو حكَّموا عقولهم؛ لما بقوا على هذه العقيدة السَّيِّئة، ولكنَّ مع المكابرة قلَّدوا من يقول فيها ومن يذهب إليها.

فالأصل أنَّ جميع طبقات العالم المكلَّفين يعترفون بأنَّ للعالم خالقًا، حتَّى الفلاسفة، وإن كانوا ينقسمون إلى دهرِّيين وإلهيِّين، لكنْ جُلُّهم على الاعتراف بالخالق، وأنَّ هذا الكون مفتقرٌ إلى من أوجده، وهذا هو توحيد الرُّبوبيَّة: أنَّ الموجد واحدٌ، لكنْ هناك أنواعٌ من الشِّرك في الرُّبوبيَّة، كشرك المجوس، وشركُ المعتزلة، وإن لم يكن صريحًا، وشرك الفلاسفة والمتصوِّفة.

قال الشارح:

فَلَمَّا كَانَ هَذَا الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مَوْجُودًا فِي النَّاسِ، بَيَّنَ الْقُرْآنُ بُطْلَانَهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [المؤمنون:٩١].

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْبُرْهَانَ الْبَاهِرَ، بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزِ الظَّاهِرِ. فَإِنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا فَاعِلًا، يُوصِلُ إِلَى عَابِدِهِ النَّفْعَ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ الضُّرَّ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ إِلَهٌ آخَرُ يُشْرِكُهُ فِي مُلْكِهِ، لَكَانَ لَهُ خَلْقٌ وَفِعْلٌ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَرْضَى تِلْكَ الشَّرِكَةَ، بَلْ إِنْ قَدَرَ عَلَى قَهْرِ ذَلِكَ الشَّرِيكِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْمُلْكِ وَالْإِلَهِيَّةِ دُونَهُ فَعَلَ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ انْفَرَدَ بِخَلْقِهِ وَذَهَبَ بِذَلِكَ الْخَلْقِ، كَمَا يَنْفَرِدُ مُلُوكُ الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِمَمَالِكِهِ، إِذَا لَمْ يَقْدِرِ الْمُنْفَرِدُ مِنْهُمْ عَلَى قَهْرِ الْآخَرِ وَالْعُلُوِّ عَلَيْهِ. فَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

إِمَّا أَنْ يَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِخَلْقِهِ وَسُلْطَانِهِ.

وَإِمَّا أَنْ يَعْلُوَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا تَحْتَ قَهْرِ مَلِكٍ وَاحِدٍ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ، بَلْ يَكُونُ وَحْدَهُ هُوَ الْإِلَهُ، وَهُمُ الْعَبِيدُ الْمَرْبُوبُونَ الْمَقْهُورُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

وَانْتِظَامُ أَمْرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ وَإِحْكَامُ أَمْرِهِ، مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ مُدَبِّرَهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَمَلِكٌ وَاحِدٌ، وَرَبٌّ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ لِلْخَلْقِ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ. كَمَا قَدْ دَلَّ دَلِيلُ

التَّمَانُعِ عَلَى أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ فَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَذَلِكَ تَمَانُعٌ فِي الْفِعْلِ وَالْإِيجَادِ، وَهَذَا تَمَانُعٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ. فَكَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِ رَبَّانِ خَالِقَانِ مُتَكَافِئَانِ، كَذَلِكَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ.

قال الشيخ:

عندما نتأمل الآيات التي تثبت توحيد الربوبية نجدها كثيرة، يقرِّر الله تعالى توحيد الرُّبوبيَّة، وذلك بذكر خلقه للمخلوقات؛ كقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وكقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٩]، وكقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

تقريرُ هذه الآيات للتَّوحيد يتبَّين منها أنَّ هذا يُراد به نتيجة، وهو أنَّ من عرف أنَّ الله تعالى واحدٌ في ربوبيَّته؛ لم يعبد معه غيره، وقد ذكرنا أنَّ ابن كثير قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١]، قال: «ومضمونه أنه الخالق الرازق، مالك الدار وساكنها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده، ولا يُشرك به غيره»[1]، ومن ذلك هذه الآية في سورة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٨).

المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، فالله تعالى ما اتَّخذ من ولدٍ، لو كان له ولدٌ ـ تعالى عن ذلك ـ لكان الولد يشارك أو يشابه أباه، والله منزَّهٌ عن ذلك، ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾، ولو كان معه إلهٌ لزاحمه في الخلق والتَّدبير، وفي التَّصرُّف وفي الملكية، وهذا معنى قوله: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾.

فالمشاهَدُ أنَّ ملوك الدنيا يتنافسون، وكلٌّ منهم يحبُّ أن يكون هو الأقوى وهو المسيطر، وقرأنا عن بعضهم أنَّه لمَّا قتَل قريبًا له عند الملك؛ قال: إنَّ هذا من أحبِّ النَّاس إليَّ؛ ولكنَّ المُلك عقيمٌ ـ يعني: لا أريد من يزاحمني في المُلك ـ. هذا مَلِكٌ من ملوك الدنيا، بطريق الأولى أن يقال: إنَّ الله تعالى لا شريك له، فلو كان له شريكٌ في الخَلْق والمُلك؛ لزاحمه، ولظهرت آثار هذه المزاحمة، وهو معنى قوله: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، يعني: لو كان معه آلهةً؛ لكان كلُّ إلهٍ ينفصلُ عنِ الآخر بخلقه، ويعتزل ويحاول أن يكون له السَّيطرة، ويكون له العلوُّ على الآخر، ويكون هو المتمكِّن، ولعلا بعضهم على بعض.

وإذا نظرنا فيما حولنا فإذِ الأمرُ منتظمٌ، وإذا هذا الخلق وهذا العالَم يسير على هيئةٍ وحالةٍ واحدةٍ، لا يختلُّ ولا يقع فيه أيُّ تغيُّرٍ، وهذا أكبر دليل على أنَّ الذي خلقه ليس له شريكٌ، وأنَّه ليس له مزاحمٌ، وإلا لذهب كلُّ خالقٍ أو كلُّ إلهٍ بِخَلْقه وانفصل، كما يحصل من ملوك الدُّنيا؛ فإنَّ ملوك الدنيا ـ كما هو مشاهدٌ ـ كلٌّ منهم ينفصل في مملكته مع أنها ملكيَّةٌ مؤقَّتةٌ، كلٌّ ينفصل وكلٌّ يدبِّر مملكة خاصَّةً،

بل كلٌّ يحاول التَّغلُّب على الآخر، فهذا ونحوه دليلٌ على أن الخالق واحد.

وتسمَّى هذه الآية: دليل التَّمانع، ودلالة التَّمانع يقول بها المتكلمون، واستدلوا على أنَّ الخالق واحدٌ بدلالة التَّمانع، فقالوا: لو كان للعالم خالقان متساويان، فأراد أحدهما تحريك جسمٍ وأراد الآخر تسكينه، أو أراد أحدهما إحياءه وأراد الآخر إماتته؛ فإمَّا أن يحصل مراد واحدٌ دون واحدٍ، فيكون أحدهما قادرًا والآخر عاجزًا، وإمَّا أن يحصل مرادهما جميعًا، وهو محالٌ، وإمَّا ألاّ يحصل مراد أحدٍ منهما أيضًا، وهو محالٌ، فإذًا: إذا حصل مراد واحدٍ منهما؛ فالذي حصل مراده هو القاهر الغالب، والذي لم يحصل مراده عاجزٌ لا يصلح أن يكون إلهًا ولا خالقًا.

فكذلك ما جاء في هذه الآية: لو كان معه آلهة لاستقلَّ كلُّ إلهٍ بما خلق، ولعلا بعضهم على بعضٍ، فلما لم يحصل ذلك، دلَّ على أنَّ الخالق واحدٌ.

قال الشارح:

فَالْعِلْمُ بِأَنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ عَنْ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ بُطْلَانُهُ، فَكَذَا تَبْطُلُ إِلَهِيَّةُ اثْنَيْنِ. فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُوَافِقَةٌ لِمَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ فِي الْفِطَرِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، دَالَّةٌ مُثْبِتَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ.

قال الشيخ:

إذا عرفنا توحيد الرُّبوبيَّة، فإنَّه يلزم منه توحيد الإلهيَّة، وقد ذكرنا أنَّ بعض المشايخ يقولون في تقريرهم: اعرفوا الله بأفعاله، ووحِّدوه بأفعالكم.

وأفعال الله هي خلقه وتدبيره؛ فإنَّها هي الدِّلالة على معرفة الله، فإذا قيل لك: بِمَ عرفت ربك؟ فقُلْ: بآياته ومخلوقاته. فاعرفوا الله بأفعاله، ووحِّدوه بأفعالكم، يعني: خصُّوه بعبادتكم.

فالآيات التي تقرِّر توحيد الرُّبوبيَّة كهذه الآية: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، والآياتُ الأخر تقرِّرُ توحيد الرُّبوبيَّة، وإذا استقرَّ توحيد الرُّبوبيَّة أصبح دليلًا على توحيد الإلهيَّة، يعني: أنَّ الله الخالق الرَّازق، المدبِّر، المتصرِّف في هذا الكون، الذي يُجري هذه الأشياء كما هي، ويحيي ويميت، والذي ابتدع هذا الكون من غير سابق خلقٍ، لا شكَّ أنَّه الذي يستحقُّ أن يُفرد بالعبادة، فيكون هذا دليلًا على توحيد العبادة.

قال الشارح:

وَقَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]. وَقَدْ ظَنَّ طَوَائِفُ أَنَّ هَذَا دَلِيلُ التَّمَانُعِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ ... إلخ، وَغَفَلُوا عَنْ مَضْمُونِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَقُلْ: أَرْبَابٌ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ وُجُودِهِمَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ آلِهَةٌ سِوَاهُ لَفَسَدَتَا.

قال الشيخ:

وهذه الآية أيضًا من أوضح الأدلَّة، وهي قول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، يعني: إذا قُدِّر أنَّ فيهما آلهةً إلَّا الله، فإنَّ كلَّ إلهٍ أو كلَّ خالقٍ يدبِّر ما يستطيعه، ويحرص على أن يتغلَّب على ما بجانبه، فلا تنتظم هذه الأفلاك ولا هذه المخلوقات، بل يحصل فيها شيءٌ من الخلل، ويحصل فيها شيءٌ من الاضطراب، ومثل ذلك مشاهدٌ، فإنه لو قُدِّر أنَّ هناك شريكين في أمرٍ، وكلٌّ منهما يحبُّ أن يكون هو المسيطر وهو المتسلِّط؛ لكان هذا يهمل الذي في جانب الثَّاني، وهذا يهمل الذي في جانب الثَّاني، فيقع الإهمال والاختلال، فلما رأينا الأمور منتظمةً؛ عرفنا أنَّه ليس فيهما آلهةٌ إلَّا اللهُ وحدَه.

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿لَفَسَدَتَا﴾، وَهَذَا فَسَادٌ بَعْدَ الْوُجُودِ، وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ يُوجَدَا. وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمَا آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، بَلْ لَا يَكُونُ الْإِلَهُ إِلَّا وَاحِدًا، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِلَهُ الْوَاحِدُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ فَسَادَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْآلِهَةِ فِيهِمَا مُتَعَدِّدَةً، وَمِنْ كَوْنِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا صَلَاحَ لَهُمَا إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ فِيهِمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا غَيْرُ. فَلَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ كُلُّهُ، فَإِنَّ قِيَامَهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَدْلِ، وَبِهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَأَظْلَمُ الظُّلْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ الشِّرْكُ، وَأَعْدَلُ الْعَدْلِ التَّوْحِيدُ.

قال الشيخ:

الله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقد استنبط المؤلِّف ـ رحمه الله ـ أنَّ هذه الآية دليلٌ على إثبات توحيد الإلهيَّة، وليس توحيد الرُّبوبيَّة، لم يقل: لو كان فيهما أربابٌ ولا ملوكٌ ولا ملائكٌ ولا خالقون، بل قال: آلهةٌ، والإله هو المعبود المألوه؛ كما سيأتي إن شاء الله.

وأيضًا فإنَّ الله قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾، ولم يقل: لو كان في الوجود، وهذا دليلٌ على أنَّه بعد إيجادهما، والله قال: ﴿لَفَسَدَتَا﴾، ولم يقل: لم توجدا.

فالآيةُ تقرِّر توحيد الإلهيَّة، ولكنَّه متوقفٌ على توحيد الرُّبوبيَّة، فيخبر تعالى بأنَّ الإلهيَّة لا تصلح إلَّا لإلهٍ واحدٍ، وهو الله، وأنَّ من جعل معه آلهةً أخرى، فإنَّه

قد ضلَّ، وقد أخبر الله بأنَّ المشركين يجعلون معه آلهةً في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ﴾ [الأنعام:١٩]، ولكن تلك الآلهة آلهةٌ مخلوقةٌ ضعيفةٌ، لا تصلح أنْ تُتَّخذ آلهةً، وهذا في شرك الأوَّلين، وكذا في شرك الآخرين، وإن كانوا لا يعترفون بتسميتها آلهةً.

والحاصلُ: أنَّ الإلهيَّة الحقَّة إنَّما هي للخالق وحده، وهذه الآية في توحيد الإلهيَّة: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، ولكن كما عرفنا أنَّ توحيد الإلهيَّةِ مسبوقٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة، لا يعترف العبد بتوحيد الإلهيَّة إلَّا بعدما يعترف بتوحيد الرُّبوبيَّة.

قال الشارح:

وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعَكْسِ، فَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَكُونُ عَاجِزًا، وَالْعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأنعام:١٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧]، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٢].

وَفِيهَا لِلْمُتَأَخِّرِينَ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا إِلَى مُغَالَبَتِهِ.

وَالثَّانِي - وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ، كَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ -: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [المزمل:١٩]، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾.

وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ، بَلْ جَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ، وَقَالُوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، بِخِلَافِ الْآيَةِ الْأُولَى.

قال الشيخ:

معنى كون توحيد الإلهية متضمِّنًا لتوحيد الرُّبوبيَّة: أنَّه لا يمكن أنْ يعترف بأنَّ الإلهيَّة الحقَّة لله تعالى، وهو ينكر أن يكون هو ربَّ العالمين، فمن اعترف بأنَّ

الله هو الإله الحقُّ؛ اعترف بأنَّه الخالق، الرازق، المدبِّر، المتصرِّف، فتوحيد الرُّبوبيَّة في ضِمْن توحيد الإلهيَّة دون العكس، وليس كلُّ مَنِ اعترف بتوحيد الرُّبوبيَّة يعترف بالإلهيَّة، فهناك من يعترف بتوحيد الرُّبوبيَّة ويشرك في توحيد الإلهيَّة.

وهذه الآيات ونحوها تقرِّر توحيد الإلهيَّة، ولكنه ـ كما عرفنا ـ مسبوقٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة ومتوقِّفٌ عليه، وتوحيد الرُّبوبيَّة يُعرف بالأدلَّة وبالآيات وبالفطرة ـ كما تقدَّم ـ ولكنَّ توحيد الإلهيَّة هو الذي يحتاج إلى أدلَّةٍ، ويحتاج إلى بيانٍ وتعليمٍ؛ ولهذا جاءتِ الرُّسل بالتَّعليم لتوحيد الإلهيَّة بأن يقولوا للنَّاس: وحِّدوا اللهَ بكذا، وحِّدوه بالدعاء، وحِّدوه بالرَّجاء، وحِّدوه بالاستعانة به وحده، وحِّدوه بالخوف منه، وحِّدوه بالخشية، لا تستعينوا بغيره، لا تستغيثوا بسواهُ ... إلى آخر أنواع العبادة، هذا هو توحيدُ الإلهيَّة الذي يحتاج إلى تفصيلٍ.

والشارح ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، رجَّح أنَّ السَّبيل هنا القربىٰ، يعني: لو قُدِّر أنَّ هناك آلهةً سوى الله؛ لكانت تلك الآلهة تتقرَّب إلى الله، وتتوسَّل إليه، وتبتغي السَّبيل إلى رضاه، وإذا كان كذلك؛ فإنَّ هذا هو الأولى بمن يعبد تلك الآلهة.

ودلَّ على ذلك ـ أيضًا ـ قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٥، ٥٦]، يخبر بأنَّ

أولئك الذين تدعونهم أيُّها المشركون خيرٌ منكم؛ فإنَّهم يدعون الله تعالى ويتوسَّلون إليه بالأعمال الصَّالحة.

والحاصل: أنَّ الآية صريحةٌ بأنَّه ليس هناك آلهةٌ غير الله، فلو كان هناك آلهةٌ غير الله؛ لكانت، تلك الآلهة تتقرَّب إلى الله، وتبتغي إليه الوسيلة وتعبده وتوحِّده، لكنَّها لا تصلح، وإذا كانت كذلك امتنع أن تكون آلهةً؛ كيف يكون إلهًا من هو عابدٌ لغيره ؟ كيف يصلح أن يُعبد من هو عابدٌ لغيره؟ إذا كانت تعبد الله فما لك أيُّها الإنسان تعبدها؟ اعْبُدِ الذي هي تعبده وحده.

قال الشارح:

ثُمَّ التَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ رُسُلُ اللَّهِ، وَنَزَلَتْ بِهِ كُتُبُهُ، نَوْعَانِ: تَوْحِيدٌ فِي الْإِثْبَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَتَوْحِيدٌ فِي الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ.

فَالْأَوَّلُ: هُوَ إِثْبَاتُ حَقِيقَةِ ذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَكَمَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ ﷺ. وَقَدْ أَفْصَحَ الْقُرْآنُ عَنْ هَذَا النَّوْعِ كُلَّ الْإِفْصَاحِ، كَمَا فِي أَوَّلِ «الْحَدِيدِ»، و«طه»، وَآخِرِ «الْحَشْرِ»، وَأَوَّلِ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةِ، وَأَوَّلِ «آلِ عِمْرَانَ»، وَسُورَةِ «الْإِخْلَاصِ» بِكَمَالِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ، مِثْلَ مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]، وَأَوَّلُ سُورَةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزمر:١] وَآخِرُهَا، وَأَوَّلُ سُورَةِ «يُونُسَ» وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا، وَأَوَّلُ سُورَةِ «الْأَعْرَافِ» وَآخِرُهَا، وَجُمْلَةُ سُورَةِ «الْأَنْعَامِ».

قال الشيخ:

مشهورٌ عند طُلَّاب العلم أنَّ أنواع التَّوحيد ثلاثةٌ: توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات. والشَّارح هنا ذَكَرَ أنَّ التَّوحيد نوعان: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الطَّلَب والقصد، وهذان النَّوعان يتضمَّنان

الأقسام الثَّلاثة التي ذكرنا؛ فإنَّ توحيد المعرفة هو توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الإثبات هو توحيد الصِّفات، وتوحيد الطَّلَب والقصد هو توحيد العبادة أو الإلهيَّة، هذه أقسامُ التَّوحيدِ.

فتوحيد الرُّبوبيَّة هو توحيد المعرفة، أي: معرفة الله. إذا قيل: بِمَ عرفتَ ربَّك؟ تقول: بآياته ومخلوقاته التي يُستَدلُّ بها على عظمة ذاته. وهذا النَّوعُ هو توحيد الذَّات، أو إثبات الذَّات، ويسمَّى توحيد الرُّبوبيَّة.

أمَّا الإثبات فهو توحيد الصِّفات، وهو اعتقاد أنَّ كلَّ صفةٍ لله تعالى فإنَّه منفردٌ بها، لا يشبه غيره في شيءٍ من صفاته، فيقال ـ مثلًا ـ: صفاته الذَّاتيَّة؛ كوجهه، ويده، وسمعه، وبصره، لا تشبه صفات المخلوقين، نوحِّده بها، ونقول: إنَّها لائقةٌ به. وكذلك الصِّفات الفعليَّة، فيقال: إنَّ الله يحبُّ ويرحم ويغضب ويرضى ويكره ويَمْقت، وإنَّ الله استوى ويجيء وينزل؛ كما أخبرنا، وهو في كلِّ ذلك لا يشبهه أحدٌ من خلقه، فهو منفردٌ بذلك وحده، وهذا توحيد الصِّفات.

وتوحيد الذَّات هو الاعتقاد بأنَّ الله واحدٌ بذاته، ليس معه شريكٌ في الخلق.

وتوحيد الإثبات هو اعتقاد أنَّ الله واحدٌ في صفاته، لا يشبهه أحدٌ من مخلوقاته في شيءٍ من خصائص صفاته.

وهذا النَّوع ـ وهو توحيد الصفات ـ قدِ اجْتهد السَّلف ـ رحمهم الله ـ في تقريره، وما ذاك إلاَّ لأنَّهم ابْتُلوا في زمانهم بمن أنكره، أو بمن غلا في إثباته، فأنكره قومٌ ـ وسمّوهم جهميَّةً ومعتزلةً ـ حيث نفوا صفات الله تعالى ذاتيَّةً أو فعليَّةً، وغلا فيه قومٌ، فسمّوهم مُشَبِّهَة؛ لأنهم زادوا في الإثبات، حتَّى جعلوا

صفاته كصفات خلقه. فاجتهد السَّلف ـ رحمهم الله ـ في إثبات ذلك، وقرَّروه أتمَّ تقريرٍ، وكتبهم ـ بحمد الله ـ موجودةٌ ميسَّرةٌ، سمَّوها «كتب السُّنَّة»، أو «كتب التَّوحيد»، أو «كتب الإيمان»، أو «الاعتقاد»، أو «الأسماء والصِّفات» ... أو ما أشبه ذلك من أسماءٍ.

فإذا وجدتَ للسَّلف كتابًا باسم «كتاب السُّنة»، فإنَّه الصفات، وإذا وجدت كتابًا باسم «التوحيد» فإنه يعني توحيدَ الصِّفات، وإذا وجدت كتابًا باسم «الاعتقاد»، فإنَّه يعني هذا الباب، أو وجدت كتابًا باسم «الأسماء والصفات»، فإنَّه يُعنى بهذا الأمر، أو وجدت كتابًا باسم «الإيمان»، فإنَّه يُعنى به هذا التَّوحيد.

وأمَّا توحيد الطَّلَب والقصد، فهو توحيد الإلهيَّة، ومعنى الطَّلَب: السؤال، والقصد: التَّوجُّه بالقلب إلى الله.

فالسُّؤال يسمَّى طَلَبًا، وهو من حقِّ الله، فالسَّائل هو الذي يقول ـ مثلًا ـ: أسألك رضاك، أسألك ثوابك، أسألك جنَّتك، أسألك عطاءك، هذا توحيدٌ في الطلَّب.

والقصد: أن يكون قلبه متوجِّهًا إلى ربِّه، هذا توحيد القصد.

هذا النَّوع يسمَّى التَّوحيد الطَّلَبيَّ، ويسمَّى التَّوحيد القصديَّ، والتَّوحيد الإراديَّ؛ لأنَّه مرادٌ من العباد، والتَّوحيد العمليَّ؛ لأنَّه أعمالٌ يعملونها، ويسمَّى توحيد الإلهيَّة، وتوحيد العبادة.

أمَّا الأوَّل فيسمَّى توحيدًا علميًّا، والتَّوحيد العلميُّ: هو التَّوحيد الخبريُّ؛ لأنَّه يعتمد على الأخبار، والتَّوحيد الاعتقادي؛ لأنَّه عقيدةٌ يعتقدها الإنسان،

فتوحيد الصِّفات، أو توحيد الذَّات، أو توحيد الرُّبوبيَّة، كلُّها أسماءٌ لتوحيدٍ واحدٍ.

فإذا قيل: ما هو التَّوحيد العلميُّ، الخبريُّ، الاعتقاديُّ؟

تقول: هو توحيد الأسماء والصِّفات وتوحيد الرُّبوبيَّة.

وإذا قيل: ما هو التَّوحيد الطَّلَبيُّ، الإراديُّ، القصديُّ، العمليُّ؟

تقول: هو توحيد العبادة.

والأدلَّة على ذلك كثيرةٌ، فإنَّ القرآن قد وضَّح ذلك كثيرًا، فسورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، في التَّوحيد العلميِّ الخبريِّ الاعتقاديِّ، وهو توحيد الأسماء والصِّفات.

وسورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، في التَّوحيد الطَّلبيِّ القصديِّ الإراديِّ، وهو توحيد العبادة أو الإلهيَّة.

والسُّور الأخرى متضمِّنةٌ لهذا ولهذا، فأوَّل سورة الحديد في الأسماء والصِّفات، وكذلك آخر سورة الحشر، وكذا آياتٌ كثيرةٌ متفرقةٌ في القرآن، وأوَّل سورة ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ - التي هي الزُّمَر - وآخرها وأوسطها أو أغلبها، وأوَّل سورة الأعراف وآخرها، ونحوها، هذه في التَّوحيد العمليِّ، الذي هو توحيد الطَّلب والقصد. وإذا تأمَّلنا هذه الآيات وجدناها تبيِّن هذا النَّوع، وتحثُّ عليه، وترغِّب فيه، فتدعو إلى معرفة توحيد الرُّبوبيَّة؛ حتَّى يرسخَ في القلب، ثمَّ ينبعث منه توحيد العبادة؛ حتَّى يُكْثِرَ العبدُ من أنواع القربات والعبادات.

قال الشارح:

وَغَالِبُ سُوَرِ الْقُرْآنِ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ، بَلْ كُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ.

وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ.

وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ، فَذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتِهِ.

وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ إِكْرَامِهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ.

وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ، فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ.

قال الشيخ:

جميع القرآن يدور حول التَّوحيد والإخبار عن الله تعالى؛ كقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤]، يُعَدُّ هذا توحيدًا، لكنَّه توحيد الذَّات أو الرُّبوبيَّة.

كذلك نقول في الأوامر، فقوله تعالى: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ [النساء: ١]،

ونحو ذلك، هذا توحيدٌ، وهو توحيد عبادةٍ؛ لأنَّه أمرٌ بعبادة الله.

كذلك ما في القرآن من الأحكام؛ كالعبادت والصلوات والقربات، هذه مكمِّلات التَّوحيد وثمراته، فإنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الله هو الواحد عَبَدَه، فأمثلة العبادات هي: الصَّلوات، والصَّدقات، والقربات.

كذلك ما في القرآن من محظوراتٍ؛ من النَّهي عن المحرَّمات، والنَّهي عن الفواحش والمنكرات، هذه اجتنابها يكمِّل التَّوحيد، وفعلها ينقص ثواب التَّوحيد، فإنَّ المعاصي تنقص ثواب التَّوحيد، فيُنهى عنها حتَّى يَكْمُلَ التَّوحيدُ.

كما أن في القرآن قصصًا؛ كقصَّة نوحٍ ـ عليه السلام ـ وقومه، وهودٍ ـ عليه السلام ـ وقومه، وشعيبٍ ـ عليه السلام ـ وقومه، فيها نجاة قومٍ لأجل التَّوحيد، وهلاك آخرين لأجل مخالفة التَّوحيد.

وفي القرآن ذكر الجنَّة وثوابها، والدَّعوة إليها، والجنَّة هي ثواب أهل التَّوحيد، وفي النَّار والعذاب والنَّكال والغضب وما أشبه ذلك، عقوبةٌ لأهل الشِّرك المبتعدين عن التَّوحيد.

والأمثلة التي ضُربتْ في القرآن كلُّها لأجل تقرير التَّوحيد، مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج:٧٣]، يعني: لا تدعوا إلَّا إلهًا واحدًا، فإنَّ هذه المخلوقات لا تخلق ذبابًا، وهذه المخلوقات التي أنتم تعبدونها مخلوقةٌ، ومع ذلك فهي ضعيفةٌ، فهذا في تقرير التَّوحيد.

ومثل قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ [الزمر:٢٩]، فيه تقرير التَّوحيد، فإنَّ السَّلم هو الخالص، يقول: الذي يعبد الله تعالى هو مثل العبد الذي يملكه واحد، والذي يعبد هذا وهذا لا شكَّ أنَّه مثل العبد الذي بين شركاء، كلٌّ منهم ينتزعه لنفسه، وكلٌّ منهم يقول: أريده لخدمتي. وهم مع ذلك متشاكسون، يعني: بينهم شيءٌ من البغضاء، وشيءٌ من الاختلاف والجدال والاضطراب.

لا شكَّ أنَّ هذه الأمثلة تقريرٌ للتَّوحيد، فإن كان الآيات قصصًا فهي لتقرير التَّوحيد، وإن كانت وعدًا ووعيدًا فهي في الثواب الذي يترتَّب على فعل التَّوحيد، وفي العقاب الذي يترتَّب على ترك التَّوحيد، وإن كانت أحكامًا وأوامر ونواهي وواجباتٍ ومحرَّماتٍ، فهي من مُكمِّلات التَّوحيد، فعلًا أو تركًا، أو كانت في أوامر بالعبادة ونحوها، فهي أمثلة أنواع التَّوحيد.

فأصبح القرآن دائرًا على التَّوحيد، وذلك دليلٌ على أهميَّته.

ولأجل ذلك صار التوحيد شرطًا في قَبول العبادات، فلا تُقبل الصَّلاة إلَّا بشرط الإسلام، ولا تُقبل الطَّهارة إلاَّ بشرط الإسلام، وهو التَّوحيد أصلًا، وكذا لا تُقبل الصَّدقات ولا تُقبل القُرُبات، ولا الصِّيام، ولا الحجُّ، وما أشبه ذلك، كلها لا تُقبل إلاَّ بأن يتقدَّمها شرطٌ واحدٌ، وهو التَّوحيد، حتَّى الفاتحة ـ التي هي أكثر سورة نكررها في صلاتنا كل يوم ـ تفسيرها يدور حول التَّوحيد؛ أوَّلها ووسطها وآخرها؛ كلُّها دائرةٌ على التَّوحيد، وكذا بقيَّة السُّور.

قال الشارح:

فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ، فَـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ تَوْحِيدٌ مُتَضَمِّنٌ لِسُؤَالِ الْهِدَايَةِ إِلَى طَرِيقِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، الَّذِينَ أَنْعَمْ عَلَيْهِمْ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الَّذِينَ فَارَقُوا التَّوْحِيدَ.

وَكَذَلِكَ شَهِدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا التَّوْحِيدِ، وَشَهِدَتْ لَهُ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٨، ١٩]، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِثْبَاتَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَالرَّدَّ عَلَى جَمِيعِ طَوَائِفِ الضَّلَالِ، فَتَضَمَّنَتْ أَجَلَّ شَهَادَةٍ وَأَعْظَمَهَا وَأَعْدَلَهَا وَأَصْدَقَهَا، مِنْ أَجَلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ.

قال الشيخ:

القرآن كلّه يدورُ حول تقرير التَّوحيد، كما تقدَّم أنَّ الأوامر والنواهي في الأحكام تكميلٌ للتَّوحيد أو أمرٌ بالتَّوحيد، والقصص والوقائع فيها بيان حال أهل التَّوحيد ومن خالف التَّوحيد، فالله يذكر قصَّة المكذِّبين بالتَّوحيد وكيف أهلكهم، وقصَّة الرُّسل ومن نجا معهم؛ لأنَّهم من أهلِ التَّوحيد، وكذلك ذكر

الثَّواب والعقاب؛ الثَّواب لأهل التَّوحيد، والعقاب لمن خالف التَّوحيد.

فيقول: إنَّ سورة الفاتحة تتضمَّن التَّوحيد، كلُّ آيةٍ منها فيها توحيدٌ:

الآية الأولى: التي فيها الحمد، أي: أنَّه المستحقُّ للحمد وحدَه، فهو توحيدٌ؛ لأنه تخصيصٌ للحمد بمن يستحقُّه.

والآية الثَّانية: فيها وصف الله تعالى بالرَّحمة، وهذا توحيد الصِّفات، يعني: إنَّ من صفاته أنَّه المتوحِّد بصفة الرَّحمة.

والآية الثَّالثةُ: فيها المُلْك؛ أي: هو وحده المالك، فلا يملك أحدٌ ملكَه.

والآية الرَّابعة: فيها العبادة، أي: لا نعبد غيرك، فأنت المعبود وحدك، وأنت المستعان به وحدك، وهذه هي حقيقة التَّوحيد؛ فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد العبادة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد العمل أو توحيد المعرفة.

وكذلك سؤال الهداية، والهداية هي: الدَّلالة على الصِّراط الذي هو صراط أهل التَّوحيد، والذين أنعم الله عليهم هم أهل التَّوحيد، والدُّعاء بأنْ يجنِّب الله السَّالك طريق الغاوين، وهم أهل الغضب وأهل الضَّلال؛ لأنَّهم خالفوا التَّوحيد.

فتضمَّنتْ سورة الفاتحة من أوَّلها إلى آخرها تقرير التَّوحيد.

وكذلك الآية التي ذكرها، وهي من سورة آل عمران، فإنَّ الله ذَكَر أنَّه شَهِدَ بهذه الشَّهادة، يقول: (فَتَضَمَّنَتْ أَجَلَّ شَهَادَةٍ وَأَعْظَمَهَا وَأَعْدَلَهَا وَأَصْدَقَهَا، مِنْ أَجَلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ)، فالشَّاهد هو الله والملائكة والعلماء: ﴿شَهِدَ اللَّهُ

أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فجعل أهل الشَّهادة هم هؤلاء الثَّلاثة: شَهِدَ لنفسه، وشَهِدَتْ له ملائكته، وشَهِدَ له أهل العلم به من خلقه، وأولو العلم هُمُ الذين آتاهمُ الله معرفةً بتوحيده، فهمُ الذين يخصُّونه بالتَّوحيد، أمَّا المشركون فإنَّهم جَهَلَةٌ، فكلُّ من أعطاه الله علمًا بهذا النَّوع فهو من أهل العلم.

فالشَّاهد هو: الله، وملائكته، وأهل العلم من خلقه.

والشَّهادة معناها: الإقرار بالمشهود به والاعتراف به.

والمشهود به هو: الإلهيَّة؛ ولهذا كرَّر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مرَّتين، وأتبعها أنَّ الإسلام هو دين الحقِّ. فهذه الآية في تقريرِ التَّوحيد.

وقد تكلم ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ على هذه الآية في آخر كتابه «مدارج السالكين»[1]، والشَّارح ـ رحمه الله ـ لخَّص كلامه ونقل منه كثيرًا، ممَّا يدُلُّ على أنَّ الآية تضمَّنَتْ معاني جديدةً مفيدةً، إذا تأمَّلها المسلم عَرَفَ كيفيَّة التَّوحيد، وكيف شَهِدَ الله به لنفسه، وشهدت به ملائكته له، وشَهِدَ به العلماء من خلقه.

---

(١) (٣/ ٤٥٠).

قال الشارح:

وَعِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي ﴿ شَهِدَ ﴾ تَدُورُ عَلَى الْحُكْمِ، وَالْقَضَاءِ، وَالْإِعْلَامِ، وَالْبَيَانِ، وَالْإِخْبَارِ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا حَقٌّ لَا تَنَافِيَ بَيْنَهَا؛ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَتَضَمَّنُ كَلَامَ الشَّاهِدِ وَخَبَرَهُ، وَتَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ وَإِخْبَارَهُ وَبَيَانَهُ.

فَلَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِهَا: عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ وَاعْتِقَادٌ لِصِحَّةِ الْمَشْهُودِ بِهِ وَثُبُوتِهِ.

وَثَانِيهَا: تَكَلُّمُهُ بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُعْلِمْ بِهِ غَيْرَهُ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَعَ نَفْسِهِ وَيَتَذَكَّرُهَا وَيَنْطِقُ بِهَا أَوْ يَكْتُبُهَا.

وَثَالِثُهَا: أَنْ يُعْلِمَ غَيْرَهُ بِمَا يَشْهَدُ بِهِ وَيُخْبِرُهُ بِهِ وَيُبَيِّنُهُ لَهُ.

وَرَابِعُهَا: أَنْ يُلْزِمَهُ بِمَضْمُونِهَا وَيَأْمُرُهُ بِهِ.

فَشَهَادَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ: عِلْمَهُ بِذَلِكَ سُبْحَانَهُ، وَتَكَلُّمَهُ بِهِ، وَإِعْلَامَهُ، وَإِخْبَارَهُ لِخَلْقِهِ بِهِ، وَأَمْرَهُمْ وَإِلْزَامَهُمْ بِهِ. فَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَضَمَّنُهَا ضَرُورَةً، وَإِلَّا كَانَ الشَّاهِدُ شَاهِدًا بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، وَقَالَ ﷺ: «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ»[١]، وَأَشَارَ إِلَى الشَّمْسِ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨)، والحاكم (٤/ ٩٨) بنحوه، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٩٨): «صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ، وفي إِسْنَادِهِ محمد بن سُلَيْمَانَ بن مَسْمُولٍ، وهو ضَعِيفٌ».

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ التَّكَلُّمِ وَالخَبَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩]، فَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَهَادَةً، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظُوا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ، وَلَمْ يُؤَدُّوهَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ.

قال الشيخ:

كلمة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾، قيل معناها: عَلِمَ، وقيل: أخبر، أو بيَّن، أو علَّم خلقه، أو أمر به وألزمهم، والكلمة تحتمل ذلك كلّه، أي: عَلِمَ بوحدانيَّته، وهو أعلم بنفسه وبخلقه، وقيل: بيَّن ذلك وأظهره، وقيل: أخبر به عباده وأعلمهم به، وقيل: أمر بذلك وألزم به عباده، وقيل: أمرهم بأن يوحّدوه وأن يخلصوا له العبادة، هذه هي حقيقة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

قوله: (فَلَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ)، أي: هذه الشَّهادة تضمَّنت هذه المراتب الأربع: تضمَّنَتْ أنَّ الله عَلِمَ بذلك وهو أعلم بنفسه، ثمَّ بعد ذلك تكلَّم به، ثمَّ بعد ذلك علَّم به خلقه، ثم بعد ذلك أمرهم به؛ فهذه مراتب أربع: العلم، ثمَّ التَّكلُّم، ثمَّ الإخبار، ثمَّ الإلزام؛ يعني: الأمر أمر إلزامٍ.

ثم تكلَّم ـ رحمه الله ـ على معاني هذه الأشياء، فقال: إنَّ الإنسان لا يشهد إلَّا بما عَلِمَ، قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف:٨١]، فأنت ما تؤمر بالشَّهادة إلَّا بعدما تعلمها وتعتقد معناها وتتحقَّقها، فلابدَّ من هذا الأمر، وهو العلم، ولا بدَّ أن يكون العلم علمَ يقينٍ لا علم شكٍّ وتردُّدٍ، ولا بدَّ أن يكون ذلك

العلم قائمًا على أدلَّةٍ، فإنَّ العلم الذي ليس له دليلٌ قويٌّ لا يؤمَنُ أن يأتي دليلٌ يبطله، ولا شكَّ أنَّ علم التَّوحيد قائمٌ على أدلَّةٍ قويَّةٍ لا يمكن أن يأتي ما يبطل دلالتها.

فهذه المرتبة الأولى، وهو أنَّ الشَّاهد يعلم ما يشهد به، يعلمه عِلْم يقينٍ، ويكون علمه ناشئًا عن أدلَّةٍ، وتكون تلك الأدلَّة صريحة الدِّلالة، ليس فيها شكٌّ ولا تردُّدٌ.

كذلك المرتبة الثَّانية، وهي مرتبة التكلُّم والإخبار، أنت إذا شهدت بالتَّوحيد واعتقدتَهُ بقلبك، فلا تسكتْ عمَّا في نفسك، بل عليك أن تخبر بما تقوله وبما تعتقده، فتخبر النَّاس بأنَّك على يقينٍ بهذا التَّوحيد، وأنَّك على عقيدةٍ راسخةٍ ومعرفةٍ تامَّةٍ بما تعتقده من إلهيَّة الله وحده، ومن استحقاقه لصفات الكمال، وللأسماء الحسنى، والصِّفات العُلى.

فالتَّكلُّم يسمى شهادةً، فإنَّ هذه الآية في المشركين في قوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]، هم ما قالوا: نشهدُ أنَّ الملائكة بنات الله، إنَّما تكلَّموا فيما بينهم، فلذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾، يعني: تكلَّموا فيما بينهم، وقالوا: الملائكة إناثٌ، الملائكة بنات الله، فجعل ذلك شهادةً، فقال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾، فهذا سبب تسميَتِها شهادةً: أنَّهم تكلَّموا بها.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْإِعْلَامِ وَالْإِخْبَارِ فَنَوْعَانِ: إِعْلَامٌ بِالْقَوْلِ، وَإِعْلَامٌ بِالْفِعْلِ. وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مُعْلِمٍ لِغَيْرِهِ بِأَمْرٍ: تَارَةً يُعْلِمُهُ بِهِ بِقَوْلٍ، وَتَارَةً بِفِعْلٍ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ جَعَلَ دَارَهُ مَسْجِدًا وَفَتَحَ بَابَهَا، وَأَبْرَزَهَا بِطَرِيقِهَا، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا: مُعْلِمًا أَنَّهَا وَقْفٌ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ وُجِدَ مُتَقَرِّبًا إِلَى غَيْرِهِ بِأَنْوَاعِ الْمَسَارِّ، يَكُونُ مُعْلِمًا لَهُ وَلِغَيْرِهِ أَنَّهُ يُحِبُّهُ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِقَوْلِهِ، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ.

وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ الرَّبِّ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَبَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ، يَكُونُ بِقَوْلِهِ تَارَةً، وَبِفِعْلِهِ أُخْرَى، فَالْقَوْلُ مَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَأَمَّا بَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ بِفِعْلِهِ، فَكَمَا قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: شَهِدَ اللَّهُ ـ بِتَدْبِيرِهِ الْعَجِيبِ، وَأُمُورِهِ الْمُحْكَمَةِ عِنْدَ خَلْقِهِ ـ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَقَالَ آخَرُ[1]:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّهَادَةَ تَكُونُ بِالْفِعْلِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة:١٧]، فَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَهُ.

(١) يُنسب هذا البيت لأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد. انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٤/ ٣٩)، وتاريخ بغداد (٦/ ٢٥٣)، وتاريخ دمشق (١٣/ ٤٥٣).

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَشْهَدُ بِمَا جَعَلَ آيَاتِهِ المَخْلُوقَةَ دَالَّةً عَلَيْهِ، وَدَلَالَتُهَا إِنَّمَا هِيَ بِخَلْقِهِ وَجَعْلِهِ.

قال الشيخ:

هذه المرتبة الثَّالثة التي هي إعلام الغير، يقول: إنَّ الله شَهِدَ لنفسه بالإلهيَّة، ومن آثار الشَّهادة ومن تمامها أن أعلم غيره بأنَّه لا إله إلاَّ هو، وهذا الإعلام ذَكَرَ بأنَّه يكون بأمرين: إعلامٌ بالفعل، وإعلامٌ بالقول.

إعلام الله لخلقه بالقول: هو ما تضمَّنه كلامه الذي أوحاه إلى رسله، فإنَّه أرسل الرَّسل، وأوحى إلى كلٍّ منهم بهذا التَّوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فهذا إعلامٌ بالقول؛ حيث أعلم كلَّ نبيٍّ بواسطة الملائكة بهذا النَّوع، الذي هو توحيد العبادة، وكذلك أنزل إلى كلِّ نبيٍّ كُتُبًا أو صُحُفًا، وضمَّن تلك الكتب كلامه الذي يتضمَّن توحيده وشرعه، فهذا إعلامٌ بالقول.

وأما الإعلام بالفعل: فهو ما نصبه تعالى من الآيات والدِّلالات، التي من تأمَّلها عَرَفَ حقيقة التوحيد، وعَرَفَ الدِّينَ الحقَّ، وعَرَفَ أنَّ الله هو الواحد الأحد، فإنَّه سبحانه نَصَبَ الآيات، ولفت إليها الأنظار، فلأجل هذا يُذَكِّر عباده بهذه المخلوقات التي خَلَقَها، فيخبرهم بخلقهم أنفسهم، وبخلق ما على الأرض من الدَّوابِّ، ويخبرهم بخلق الأرض واختلاف ما فيها من جبالٍ، ومهادٍ،

وبحارٍ، وأنهارٍ، وأشجارٍ، وثمارٍ، وما أشبه ذلك، وهكذا يلفت أنظارهم إلى ما فوقهم من الرِّياح، والسُّحب، والأفلاك، وما فيها من النُّجوم السيَّارة والثَّابتة، وما أشبهها، كلُّ ذلك من الآيات التي نصبها لعباده، يعلِّمهم بهذا التَّوحيد، كأنَّه يقول: تعلَّموا من هذه الآيات دلالتها على أنَّ الخالق لها هو الواحد الأحد، هو المستحقُّ لأن يُعبدَ ويُفردَ.

فشهد بالقول بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

وشَهِدَ بالفعل بأن أعلم عباده بالفعلِ، فَنَصَبَ الآيات والدَّلالاتِ؛ حتَّى يعلموا منها قدرته تعالى على كلِّ شيءٍ، واستحقاقه لأن يُؤَلَّه وحده، وأن لا يُؤَلَّه معه غيره.

يذكر الشَّارِح أنَّ الإعلام يكون بالقول وبالفعل حتى من واجبنا، فالواحد منَّا عليه أن يُعْلِم النَّاس بما يعتقده، نحن نعتقد أنَّ لا إله إلاَّ الله، فنخبر بأنَّا نعتقد ذلك، وهذا الإخبار يقتضي الإعلام، اعلموا بأنَّا نعتقد أنَّ الله هو الإله الحقُّ. فهذا إعلامٌ بالقول.

والإعلام بالفعل: هو أفعال الإنسان، فأنت مثلًا إذا رأيت المؤمن التَّقيَّ الموَحِّد يمدُّ يديه إلى ربِّه يتضرَّع إليه، عرفت أنَّه يعبد إلهًا واحدًا، وكذلك إذا رأيته يركع له ويسجد، ويقوم له ويقعد، ويخضع له ويتواضع، عرفت من ذلك أنَّه يعبد إلهًا واحدًا، فأعلمك هذا العابد بقوله، وأعلمك بفعله، فالإعلام يكون بالأمرين: بالقول، وبالفعل.

فمثلًا: الذي يبني مسجدًا لم يقل للنَّاس: أيُّها النَّاس! هذا وَقْفٌ، بل لَـمَّا بناه على هيئة المسجد، وفتح أبوابه، وشَرَّع للنَّاس ليجتمعوا فيه ليؤدُّوا الصَّلوات، وليحضروا فيه الخطب والحلقات، كان ذلك إعلامًا بالفعل، وإن لم يكن إعلامًا بالقول.

فكذلك إذا أعلمك طالب العلم أو المسلم بفعله أنَّه يعبد الله وحده، فإنَّ ذلك كافٍ في الإعلام.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْأَمْرِ بِذَلِكَ وَالْإِلْزَامِ بِهِ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الشَّهَادَةِ لا يَسْتَلْزِمُهُ، لَكِنَّ الشَّهَادَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتَتَضَمَّنُهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ شَهِدَ بِهِ شَهَادَةَ مَنْ حَكَمَ بِهِ، وَقَضَى وَأَمَرَ وَأَلْزَمَ عِبَادَهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل:٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[التوبة:٣١]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ.

قال الشيخ:

ذكر ـ رحمه الله ـ مرتبة العلم، ثمَّ مرتبة التَّكلُّم، ثمَّ مرتبة الإخبار، ثمَّ هذه المرتبة الرَّابعة، التي هي مرتبة الأمر والإلزام بالمأمور به، وهو التَّوحيد.

قال اللهُ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٨، ١٩]، هذه الشَّهادة قد لا يكون فيها أمرٌ صريحٌ للنَّاس بأن يشهدوا، فما قال: اشهدوا بما شهد به، ولا قال: ألزمتكم أيها الناس بأن تشهدوا بما شهدت به. ولكنَّ العاقل يتفكَّر إذا قرأ أو قيل له: إنَّ الله قد شهد لنفسه بالوحدانيَّة، وملائكته شهدوا له بذلك، والعلماء من خلقه شهدوا له بذلك؛ يفكر ويقول: كيف لا أكون

معهم؟ كيف لا أكون مع العلماء؟ إذا لم أكن مع العلماء كنت مع الجهّال، لا أرضى أن أكون بين الجاهلين أتقلَّب. فعند ذلك يشهد بما شهدوا به، فكأنَّ ذلك أمرٌ، كأنه يقول: شهدت بذلك أنا وملائكتي والعلماء من خلقي، فافعلوا ذلك واشْهَدوا به يا جميع الخلق.

هذا قد يُؤخذ من هذه الشَّهادة، ولكن هناك أدلَّةٌ صرَّحت بأمر النَّاس كلِّهم بهذه الشَّهادة وبهذا التَّوحيد، مثل الآيات التي تقدمت، فالله تعالى يقول: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ويقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة:٨٣]، ويقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ويقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١]، ويقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

فالأمر يقتضي الإلزام، إذا أمر الله بهذا فقد ألزمَنا به، ولا شكَّ أنَّ ما ألزم به يجب امتثاله، فإنَّ أمر الله هو الحقُّ، وضدُّه هو الباطل، فمن لم يمتثلْ هذا المأمورَ فإنَّه خاسرٌ.

قال الشارح:

وَوَجْهُ اسْتِلْزَامِ شَهَادَتِهِ سُبْحَانَهُ لِذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا شَهِدَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَدْ أَخْبَرَ وَبَيَّنَ وَأَعْلَمَ وَحَكَمَ وَقَضَى أَنَّ مَا سِوَاهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَأَنَّ إِلَهِيَّةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، كَمَا لَا تَصْلُحُ الْإِلَهِيَّةُ لِغَيْرِهِ. وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْأَمْرَ بِاتِّخَاذِهِ وَحْدَهُ إِلَهًا، وَالنَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِهِ مَعَهُ إِلَهًا، وَهَذَا يَفْهَمُهُ الْمُخَاطَبُ مِنْ هَذَا النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، كَمَا إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا يَسْتَفْتِي رَجُلًا، أَوْ يَسْتَشْهِدُهُ، أَوْ يَسْتَطِبُّهُ، وَهُوَ لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَيَدَعُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ، فَتَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بِمُفْتٍ، وَلَا شَاهِدٍ، وَلَا طَبِيبٍ، الْمُفْتِي فُلَانٌ، وَالشَّاهِدُ فُلَانٌ، وَالطَّبِيبُ فُلَانٌ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنْهُ وَنَهْيٌ.

قال الشيخ:

كأنَّ الشَّارح يقول: إنَّ كلمة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨] قد يُؤخذ منها الأمر، لكن كيف يكون ذلك؟

إذا أخبر الله بهذا الخبر؛ فقد أخبر بإلهيَّته الحقَّة، ونفى عن غيره الإلهيَّة، نفى أن يكون غيره صالحًا لأن يكون إلهًا، وإذا لم يصلح غيره للإلهيَّة، فكأنَّه يأمر عباده بأن يُؤلِّهوه، فيقول: الإله الحقُّ هو الله، فإذا كنتم تريدون نجاتكم، فاتَّخذوه إلهًا، واتركوا إلهيَّة ما سواه.

هذا وجه أخذ الأمر بقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾، كل من سمع ذلك يقول: هذه شهادة الله، فإذا شهد الله وملائكته والعلماء من خلقه بهذا الشَّيء، فقد بطل

ما عداه، وكلُّ ما سوى هذا المشهود به فهو باطلٌ، فلا يصحُّ حينئذٍ أن يُجعل معه آلهةٌ، ولا أن يؤلَّه غيرُه، فمن ألَّهَ غيرَه فقد ضلَّ سعيه في الحياة الدُّنيا، وخسر عمله.

ونضرب مثلًا: إذا سمعت إنسانًا يسأل آخر أن يعالجه، فقلت له: هذا ليس بطبيبٍ، بل الطَّبيب فلانٌ، فكأنَّك تقول: اذهب إليه، واترك هذا، فإنَّه ليس بطبيبٍ.

أو يستشهده يقول: اشهد معي ـ يعتقد أنَّه مقبول الشهادة ـ فإنَّك تقول: هذا ليس بشاهدٍ، ولكنَّ الشاهد فلانٌ، فكأنَّك تقول: اذهب إليه واستشهده، فإنَّه الذي تُقبل شهادته.

وكذلك إذا رأيته يستفتي جاهلًا، فقلت: هذا ليس بمُفْتٍ، المفتي فلانٌ، فكأنَّك تقول: اذهب إليه.

هذا الذي تخاطبه يفهم أنَّك تأمره بأن يذهب إلى ذلك الطَّبيب، والشَّاهد والمفتي، فكذلك إذا قال الله: الإلهيَّة الحقَّة لله، كأنَّه يقول: فألِّهوه، اتَّخذوه إلهًا، واتركوا إلهيَّة ما سواه. فهذا وجه الدِّلالة من الشَّهادة.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَالْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، تَضَمَّنَ هَذَا الْإِخْبَارُ أَمْرَ الْعِبَادِ وَإِلْزَامَهُمْ بِأَدَاءِ مَا يَسْتَحِقُّه الرَّبُّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ الْقِيَامَ بِذَلِكَ هُوَ خَالِصُ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ.

وَأَيْضًا: فَلَفْظُ «الْحُكْمِ» و«الْقَضَاءِ» يُسْتَعْمَلُ فِي الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ، وَيُقَالُ لِلْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ: قَضِيَّةٌ، وَحُكْمٌ، وَقَدْ حُكِمَ فِيهَا بِكَذَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات:١٥١ - ١٥٤]، فَجَعَلَ هَذَا الْإِخْبَارَ الْمُجَرَّدَ مِنْهُمْ حُكْمًا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم:٣٥، ٣٦]، لَكِنَّ هَذَا حُكْمٌ لَا إِلْزَامَ مَعَهُ، وَالْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُتَضَمِّنٌ الْإِلْزَامَ.

وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ شَهَادَةٍ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، وَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِمْ بِهَا الْحُجَّةُ، بَلْ قَدْ تَضَمَّنَتِ الْبَيَانَ لِلْعِبَادِ وَدَلَالَتَهُمْ وَتَعْرِيفَهُمْ بِمَا شَهِدَ بِهِ، كَمَا أَنَّ الشَّاهِدَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، وَلَمْ يُبَيِّنْهَا، بَلْ كَتَمَهَا، لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا أَحَدٌ، وَلَمْ تَقُمْ بِهَا حُجَّةٌ. وَإِذَا كَانَ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَّا بِبَيَانِهَا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ بَيَّنَهَا غَايَةَ الْبَيَانِ بِطُرُقٍ ثَلَاثَةٍ: السَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالْعَقْلِ.

قال الشيخ:

وهذا أيضًا بيان أنَّه يؤخذ الحكم من هذا الأمر، فالأمر بالتَّوحيد إلزام به،

فإنَّ الإنسان إذا سمع حكم الله تعالى فإنَّه يتبعه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠]، إذا عرف أنَّ الله أخبر بهذا الشَّيء، وأنَّه أعلم خلقه بأنَّه الإله، فإنَّه يعرف أنَّه الإله الحقُّ الذي يستحقُّ أن يؤلَّه، فكأنَّه يقول: إنَّ الله يأمرنا بأن نتَّخذه إلهًا ونترك التَّألُّه لغيره. هذا من جهةٍ.

ومن جهةٍ ثانيةٍ يقول: إذا فسَّرنا ﴿شَهِدَ﴾ بـ«حَكَمَ» و«أَخْبَرَ»، فإنَّ الخبر والحكم يقتضيان الإلزام، ومعلومٌ أنَّ الحكم هو: إثبات أمرٍ لأمرٍ أو نفيه عنه ـ كما يقول ذلك الأصوليُّون ـ فإذا حكم الله لنفسه بالإلهيَّة، وحكم لغيره بعدم الصَّلاحية للإلهيَّة، فهذا حكمٌ من الله، وحكم الله واجب الاتِّباع، والحكم قد يطلق على كلِّ قضيةٍ، فكلُّ قضيةٍ قد تسمَّى حكمًا، تقول: هذه قضيَّة فلانٍ، وحُكِمَ فيها بكذا وكذا؛ كما في هذه الآيات التي أخبر الله بها بأن هذا الأمر حكمٌ منه.

وعلى كلِّ حالٍ، فالآية صريحةٌ في إبطال إلهيَّة ما سوى الله تعالى، وإثبات الإلهيَّة له، والإثبات يستلزم الإلزام.

قوله: (وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ شَهَادَةٍ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا)، أي: أنَّ مجرَّد الشَّهادة لا تتمُّ إلاَّ إذا كان معها إلزامٌ، فالله تعالى عندما شهد كأنَّه ألزم، شهد لنفسه بأنَّه لا إله إلاَّ هو، وهذه الشَّهادة تستلزم الأمر الذي ينتج منه الإيجاد، ومعلومٌ أنَّ الشَّهادة لا يُنتفع بها إلاَّ إذا بُيِّنت، يقول: لو أنَّ إنسانًا عنده شهادةٌ لك وكتمها، ما حصل لك انتفاعٌ بها، فلا تنتفع بها إلا إذا بيَّن وقال: لك عندي شهادةٌ، استشهدني. فالله تعالى شهد لنفسه، وبيَّن هذه الشَّهادة بهذه الطُّرق.

قال الشارح:

أَمَّا السَّمْعُ: فَبِسَمْعِ آيَاتِهِ الْمَتْلُوَّةِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَا عَرَّفَنَا إِيَّاهُ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ كُلِّهَا، الْوَحْدَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا، غَايَةَ الْبَيَانِ، لَا كَمَا يَزْعُمُهُ الجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَمُعَطِّلَةِ بَعْضِ الصِّفَاتِ مِنْ دَعْوَى احْتِمَالَاتٍ تُوقِعُ فِي الحَيْرَةِ، تُنَافِي الْبَيَانَ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ وَرَسُولَهُ الْكَرِيمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١، ٢]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ تَأْتِي مُبَيِّنَةً وَمُقَرِّرَةً لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، لَمْ يُحْوِجْنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَأْيِ فُلَانٍ، وَلَا إِلَى ذَوْقِ فُلَانٍ، وَوَجْدِهِ فِي أُصُولِ دِينِنَا.

وَلِهَذَا نَجِدُ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مُخْتَلِفِينَ مُضْطَرِبِينَ، بَلْ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فَلَا يَحْتَاجُ فِي تَكْمِيلِهِ إِلَى أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ فِيمَا يَأْتِي مِنْ كَلَامِهِ بِقَوْلِهِ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَلِرَسُولِهِ ﷺ).

قال الشيخ:

لَـمَّا شهد الله تعالى هذه الشَّهادة بيَّنها، وبيانه عن طريق السَّمع، وعن طريق البصر، وعن طريق العقل، وعن طريق النَّظر، يعني: أنَّه بيَّنها بكلِّ أنواع البيان، لم يبقَ طريقٌ إلاَّ وبيَّنه من جهته أتمَّ بيانٍ.

فمن طريق السَّمع: سماعنا آيات الله، التي هي القرآن والكتب التي أنزلها على رسله، لا شكَّ أنَّ في هذا بيانًا واضحًا. وهذا هو الذي دعا الشارح ـ رحمه الله ـ إلى أن يستشهد بالآيات التي فيها ذكر البيان، فإنَّ قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، يبيِّن أيَّ شيءٍ؟ لا شكَّ أنَّه يبيِّن المهمَّ الذي يحتاجون إليه، وأهم ما يحتاجون إليه معرفة الله بآياته ومخلوقاته، ومعرفة حقِّه، وهو: عبادته وحده، وترك عبادة ما سواه، وطاعته بواسطة رسله.

وكذلك وَصَفَ القرآن بقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[يوسف:١]، يعني: المُبيِّن، الذي بيَّن الله فيه، فهو مبين من أوجه:

أوَّلًا: أنَّه بيِّنٌ واضحٌ.

وثانيًا: أنَّه مشتملٌ على بيانٍ، وأيُّ بيانٍ أوضح من بيان كلام الله تعالى؟

وثالثًا: أنَّ الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يوضِّحه، والرَّسول ﷺ بيَّن معانيه بقوله وبفعله، امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤]. وقد ذكر الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنَّهم كانوا يتعلَّمون

المعاني مع الألفاظ، يقول عبد الله بن حبيبٍ السلمي ﷺ: «حدثنا من كان يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُم كَانُوا يَقْتَرِئُونَ من رسول اللَّهِ ﷺ عَشَرَ آيَاتٍ، فَلاَ يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الأُخْرَى حتى يَعْلَمُوا ما في هذه مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قالوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»(١). ولا شكَّ أنَّ هذا لإقامة الحجَّة، ما دام أنَّ هذا القرآن قد بيَّن للنَّاس ما يحتاجون إليه ـ وبالأخصِّ في أمر العقيدة والتَّوحيد ـ فإنَّ الخلق واجبٌ عليهم أن يقبلوا ذلك البيان، وينتفعوا به، ويعملوا به، وما ظهر لهم فإنَّهم يقبلونه، وما خفي عنهم من الأمور الغيبيَّة فإنَّهم يُسلِّمون له، ويتوقَّفون عن البحث في حقيقته، وهذا معنى قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (**لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا**)، بل نتسلَّم ذلك على ما هو عليه:

أوَّلًا: أنَّه واضحٌ من حيث إنَّه مفهومٌ؛ لأنَّه بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ.

ثانيًا: أنَّ ما فيه من الخفيِّ قد بيَّنه الرَّسول ﷺ، وتلقَّى ذلك عنه صحابته، وبيَّنوا ذلك وشرحوه لتلامذتهم، ونُقلت شروحهم وتفاسيرهم في كتب التَّفسير موضحةً ظاهرةً، يجدها من طلبها، فما بقي لأحدٍ حجةٌ.

فالحاصل: أنَّ التوحيد قد بُيِّن أتمَّ بيانٍ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١١٧).

فالكون مليء بالآيات الدالة على وحدانية الله، وبينات الرسل وأحوالهم شواهد صدق على أن الله أرسلهم، وأسماء الله وصفاته من ألطف الأدلة على وحدانيته وصدق رسله.

والعلم في الأصل أفضل من الجهل، وكلٌّ يحب الانتماء والانتساب إلى العلم، ويهرب ويربأ بنفسه أن يُنسب إلى الجهل، والعلوم تتفاوت في الأهمية، فأهم العلوم هو العلم الذي يَفْقَه به العَبْدُ دِيْنَه، فيعرف كيف يعبد ربه، بل يعرف ربه ويعرف دينه، فهذا هو أشرف وأفضل العلوم.

وطريق تعلمه وتحصيله سهل ويسير على من يسره الله عليه؛ لأن الله سبحانه لما أقام الحجة على عباده ببعثة الرسل وإنزال الكتب، تكفل بحفظ ذلك؛ حتى لا يكون للمتأخر حجة كما لم تكن للمتقدم.

فيسر الله حفظ ذلك العلم الذي هو ميراث الأنبياء، حتى وصل إلى المتأخرين كما هو عند المتقدمين، ولكن حيث كان هناك أعداء لهذا الدين ولهذا العلم، فإن أولئك الأعداء قد حرصوا على أن يشوهوا سمعة هذا العلم الصحيح، وأن يلبسوا على أهله، وأن يرموهم بالعيوب، ولكن الله سبحانه حفظ شريعته، وقيض لأولئك من يدفع شبههم، ويبين ضلالهم وخطأهم، فقيض الله أهل السنة الذين ساروا على نهج الرسل، وساروا على نهج الصحابة، وعُرفوا - حتى عند الأعداء - بأنهم السائرون على طريقة السلف، أو بأنهم المتمسكون بالسنة، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ولا شك أن علم العقيدة من جملة العلوم التي حصل فيها شيء من الاشتباه والاختلاف، وأصل هذا العلم معرفة الله تعالى المعرفة التي ينتج منها عبادته، وأن يُترك ويُعرض عن عبادة ما سواه، فإذا عرف الإنسان أهمية هذا العلم استطاع بعد ذلك أن يعرف مفرداته وتفاصيله؛ حيث إنها موجودة ميسرة في متناول الأيدي، وقد يسر الله لها من اعتنى بها، فما على المسلم الذي يريد العلم الصحيح إلا أن يتناولها بالتعلم والتفقه ليعبد ربه على بصيرة.

قال الشارح:

وَأَمَّا آيَاتُهُ الْعِيَانِيَّةُ الخَلْقِيَّةُ: فَالنَّظَرُ فِيهَا وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا يَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ الْقَوْلِيَّةُ والسَّمْعِيَّةُ، وَالْعَقْلُ يَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ، فَيَجْزِمُ بِصِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَتَتَّفِقُ شَهَادَةُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ.

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ أهم العلوم معرفة الله ثم عبادته، ولكونها أهمَّ من غيرها جاءت الشَّريعة لبيانها، وقد بيَّنها الله عن طريق السَّمع، وعن طريق البصر، وعن طريق العقل.

فأمَّا البيان السَّمعيُّ: فهو ما بلَّغه الرُّسل من كلام الله ومن كلام الأنبياء الذين بيَّنوه، فإنَّ هذا بيانٌ لهذه العقيدة، يأخذه النَّاس عن طريق السَّمع، وتسمَّى الآيات السَّمعيَّة، فالقرآن والأحاديث أدلَّةٌ سمعيَّةٌ منقولةٌ عن عالمٍ بعد عالمٍ إلى أن تنتهي إلى النَّبيِّ ﷺ، أو إلى الأنبياء قبله.

أمَّا الأدلَّة النَّظريَّة: فهي الآيات التي تُرى بالعين، ويُقال: لها أيضًا: المخلوقات؛ وذلك لأنَّ النَّظر فيها يكسب النَّاظر عبرةً وعِظَةً، ويُكسبه معرفةً وبصيرةً، ولأجل ذلك كثيرًا ما يرشد الله العباد إلى النَّظر في الآيات والبراهين؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦]، وكقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [غافر:٨٢]، وأشباه ذلك من الآيات كثيرةٌ.

النَّظر في هذه المخلوقات هو الدَّليل النَّظريُّ، أو الدَّليل البصريُّ، وكلَّما كان العاقل فاهِمًا ذكيًّا كان نظره أتمَّ، وأمَّا إذا نقصت العقليَّة، فإنَّ النَّظر يكون أنقص؛ وذلك لأنَّ مجرَّد النَّظر بالعين لا يفيد حتَّى يكون نظرًا بالقلب، فالعين توصل إلى القلب، فإذا لم يكن هناك قلبٌ واعٍ حيٌّ لم ينفعِ النَّظر بالعين، وقد يكون هناك من هو أعمى لا يبصر، ولكن يَعتبر بما يحسُّه، فيكون نظره بقلبه أقوى من نظر المبصرين، وقد يكون من المبصرين من يشاهدون هذه الآيات والعجائب، ولكنَّ قلوبهم في غيبٍ وغفلةٍ، وفي أغشيةٍ وأكنَّةٍ، قلوبهم غُلْفٌ مُقفلٌ عليها، والعياذ بالله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

والحاصل: أنَّ الله سبحانه بيَّن هذه الآيات والبراهين بيانًا واضحًا عن طريق السَّمع بالآيات السَّمعية، وعن طريق النَّظر بالآيات البصريَّة، وعن طريق القلب بالعقل والفهم، ومتى اجتمعت في العاقل لم يتخلَّف أثرها، وهو الاستبصار، وإذا اختلَّ واحدٌ منها نقص الأثر، وأكثر ما يكون في النَّفس إذا فُقد النَّظر العقليُّ؛ لأنَّ هناك من يسمع ولكن لا يفقه، وهناك من يبصر ولكن لا يتبصَّر؛ لفقد النَّظر العقليِّ والعياذ بالله، فمن رزقه الله حياة قلبٍ انتفع بما يسمع ويرى، ومن فقد ذلك فالعمى خيرٌ له.

قال الشارح:

فَهُوَ سُبْحَانَهُ لِكَمَالِ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلْعُذْرِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا وَمَعَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل:٤٣، ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ [آل عمران:١٨٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:١٨٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧].

حَتَّى إِنَّ مِنْ أَخْفَى آيَاتِ الرُّسُلِ آيَاتُ هُودٍ، حَتَّى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣]، وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُهُ مِنْ أَوْضَحِ الْبَيِّنَاتِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِتَدَبُّرِهَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود:٥٤-٥٦].

فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ هُوَ وَاثِقٌ بِمَا قَالَهُ، جَازِمٌ بِهِ، فَأَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا

عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَغَيْرُ مُسَلِّطٍ لَـهُمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَـهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمُ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَـهُمْ فِي نُصْرَتِهِمْ لَهَا، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالِاسْتِهَانَةِ لَهُمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ، وَازْدِرَائِهِمْ، وَلَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ.

ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُمْ أَحْسَنَ تَقْرِيرٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى وَرَبَّهُمُ الَّذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ، هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَقَرَّ بِهِ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ.

فَأَيُّ آيَةٍ وَبُرْهَانٍ أَحْسَنُ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَرَاهِينِهِمْ وَأَدِلَّتِهِمْ؟ وَهِيَ شَهَادَةٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَيَّنَهَا لِعِبَادِهِ غَايَةَ الْبَيَانِ.

قال الشيخ:

أقام الله تعالى الحجَّة وقطع المعذرة ببينات الرسل، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٤، ١٦٥]، أي: أرسلنا أولئك لتنقطع الحجَّة وينقطع العذر؛ لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، كما حكى الله ذلك عنهم.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ

مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ ﴾ [القصص:٤٨]، فالله سبحانه أرسل الرُّسل، وجعل معهم بيِّناتٍ تُرجِّح جانبهم، وجعل لهم معجزاتٍ يظهر بها صدقهم، وكل نبيٍّ معجزاته تناسبه وتعجز أهل زمنه، فمنهم من أخبرنا الله بمعجزاته؛ كما أخبر عن صالح ـ عليه السلام ـ أنَّ من معجزاته تلك النَّاقة التي قال لهم عنها: ﴿ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وأخبر أن معجزات موسى ـ عليه السلام ـ تسع آيات، وهي: اليد، والعصا، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم أو الطَّمس، والسنين، ونقص الثمرات، وما أشبهها آياتٌ معجزةٌ لأهل زمانه.

وأن معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ: أنَّه يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بما يأكلون وبما يدَّخرون في بيوتهم.

ومعجزات داود ـ عليه السلام ـ: منها قوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ [ص:١٨، ١٩].

ومعجزات سليمان ـ عليه السلام ـ: في قوله: ﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾ [ص:٣٦ـ٣٨].

وكذلك معجزات نبِّينا ﷺ ودلائل نبوَّته، منها:

١ ـ هذا القرآن الذي تحدَّى به فصحاء العرب في زمانه، فعجزوا عن معارضته.

٢ـ ما أجرى الله على يديه من الآيات؛ كإخباره بالأمور المغيّبة.

٣ـ نصره وتأييده على أعدائه.

وهذه المعجزات يُراد منها ظهور صدق أولئك الرُّسل؛ وذلك أنَّ الله تعالى يحبُّ أن يقطع العُذْر عن العاصي والمفرِّط، ويحبُّ العذر إلى العباد؛ ولذلك ورد في حديث: «لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ»(١)، وقال في الحكمة في إرسالهم: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات:٦]، يعني: إعذارًا وإنذارًا، فهذا دليلٌ على أنَّه سبحانه قطع حجَّة النَّاس بقولِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ومن تأمَّل آيات الرُّسل عرف صدقَهم، ولكن إنما صدَّ عنهم من أعمى الله بصيرتَه، ولأجل ذلك عاقب الله من كذبهم بأنواعٍ من العقوبات، فأهلَكَ قوم نوحٍ بالغرَقِ، ثم عادًا ـ وهم قوم هود ـ أرسل الله عليهم الرِّيح، وقوم صالح ـ وهم ثمود ـ عاقبهم الله بالصَّيحة، وأشباه ذلك؛ كلُّهم ذكر الله عقوباتهم.

وذكر الشَّارح أنَّ قوم هودٍ كأنَّهم أنكروا رسالته لـمَّا لم يأْتِهم بآيةٍ ومعجزةٍ بيِّنةٍ، ولكنه قرَّر آية هود ومعجزته التي أُخذت من هذه الآية في سورة هود، وهي قول الله تعالى حكايةً عنهم أنَّهم قالوا: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣]، يعني: بآيةٍ مُعْجِزَةٍ، ثمَّ ظنُّوا أنَّه إنَّما به جنونٌ، فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود:٥٤]، يعني: إنَّ آلهتنا تسلَّطتْ عليك فأصابتك بجنونٍ، ولكنَّه ردَّ عليهم هذا الرَّدّ المتَّزن الذي يدلُّ على ثباته، فقرَّر أنَّه لا يخافهم، ولو حصل اجتماعُهم كلهم؛ حيث قال: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٥، ٥٦].

وتقدم تفصيل الشَّارح وتفسيره لهذا، وأنه أخذَهُ من كونه فردًا يتحدَّى أمَّةً من أقوى الأمم؛ حتَّى إنَّهم قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، ووصفهم بالجبروت بقوله: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[الشعراء:١٣٠]، وهو شخصٌ واحدٌ يتحدَّاهم ويقول لهم: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾، أي: ائتوا بكلِّ كيدٍ، ائتوا بكلِّ حيلةٍ إن كنتم تستطيعون، ولكنَّكم لا تستطيعون؛ لأنِّي معتمدٌ على الله، ومتوكِّلٌ على الله الذي هو ربِّي وربكم، والذي يأخذ بنواصي جميع الدَّوابِّ، فكلُّ الدَّوابِّ مسخَّرةٌ مذلَّلةٌ بأمره.

فهذا ونحوه دليلٌ على أنَّ الله قوَّى قلبَه وثبَّته؛ وذلك أعظم من بقيَّة المعجزات، وبلا شكٍّ أنَّ الله أيَّده بمعجزاتٍ أخرى لا ندري ما هي، لكن بها تقوم الحجَّة على العباد، فما بقي لأحدٍ على الله تعالى بعد الرُّسل حجَّةٌ.

قال الشارح:

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى «الْمُؤْمِنُ»، وَهُوَ فِي أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ: الْمُصَدِّقُ الَّذِي يُصَدِّقُ الصَّادِقِينَ بِمَا يُقِيمُ لَهُمْ مِنْ شَوَاهِدِ صِدْقِهِمْ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي بَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ حَقٌّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]، أَيِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ الْمُتَقَدِّمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [فصلت:٥٢]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣].

فَشَهِدَ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ بِقَوْلِهِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَوَعَدَ أَنَّهُ يُرِي الْعِبَادَ مِنْ آيَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ الْخَلْقِيَّةِ مَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَيْضًا، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَجَلُّ، وَهُوَ شَهَادَتُهُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، فَإِنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ «الشَّهِيدَ» الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ، بَلْ هُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُشَاهِدٌ لَهُ، عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِهِ.

وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالْأَوَّلُ اسْتِدْلَالٌ بِقَوْلِهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاسْتِدْلَاله بِالْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ اسْتِدْلَالٌ بِأَفْعَالِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

قال الشيخ:

كلُّ هذا تفصيلٌ لبيان أنَّ الله سبحانه أقام الحجَّة وقطع المعذرة.

وقوله: (وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى «الْمُؤْمِنُ»)، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر:٢٣]، فهو الذي يصدِّق رسله، وعباده المؤمنين، فيصدِّق الرُّسل بما يظهر على أيديهم من المعجزات والبراهين، ويصدِّق المؤمنين بما ينصرهم ويؤيِّدهم عند خصوماتهم للأعداء، أو عند قتالهم للكفار، فالنَّصر الذي يجريه على أيديهم هذا من التَّصديق لهم، وكذلك الحجَّة التي يجريها على ألسنتهم من التَّصديق لهم، يصدِّقهم حتَّى يعرف صدقهم، ويعرف ذلك مَنْ قصدُه الحقُّ والصواب.

وأمَّا من زاغ عقلُه، فإنَّه لا تُغني عنه النُّذر، ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

كذلك من أسمائه تعالى «الشَّهيد»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧]، والشَّهيد: الشَّاهد، والشَّاهد مأخوذٌ من المشاهدة؛ وذلك لأنَّه تعالى شاهدٌ على عباده، ومن جملتهم رسله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء:٧٩]، وشهادته على رسله سبحانه أنَّه شهد بصدق ما جاؤوا به، وذلك بما أجرى على أيديهم من الآيات والبراهين، وبذلك كلِّه يُعْرَف أنَّه ما بقي لأحد حجَّة بعد الرُّسل وبعد الكتب، فما بقي إلاَّ المعاندون الذين يخالفون الحقَّ عنادًا.

قال الشارح:

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِذَلِكَ لَا يُعْهَدُ فِي الِاصْطِلَاحِ؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ فِي الْفِطَرِ -الَّتِي لَمْ تَتَنَجَّسْ بِالجُحُودِ وَالتَّعْطِيلِ، وَلَا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ- أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَامِلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، وَمَا خَفِيَ عَنِ الخَلْقِ مِنْ كَمَالِهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ مِمَّا عَرَفُوهُ مِنْهُ.

وَمِنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ: شَهَادَتُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَاطِّلَاعُهُ عَلَيْهِ؛ بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ ذَرَّةٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ كَيْفَ يَلِيقُ بِالْعِبَادِ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ، وَأَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، وَيَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ؟ وَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَمَالِهِ أَنْ يُقِرَّ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْكَذِبِ، وَيُخْبِرَ عَنْهُ بِخِلَافِ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْصُرُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُؤَيِّدُهُ، وَيُعْلِيَ شَأْنَهُ، وَيُجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَيُهْلِكَ عَدُوَّهُ، وَيُظْهِرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَعْجِزُ عَنْ مِثْلِهِ قُوَى الْبَشَرِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَاذِبٌ عَلَيْهِ مُفْتَرٍ؟!

وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَقُدْرَتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَعِزَّتَهُ وَكَمَالَهُ الْمُقَدَّسَ يَأْبَى ذَلِكَ، وَمَنْ جَوَّزَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.

قال الشيخ:

ذكر ابن القيِّم -رحمه الله- في بعض كتبه أنَّه لقي بعض النَّصارى الذين يُكذِّبون برسالة النَّبيِّ ﷺ، فقال لهم: أنتم أيُّها النَّصارى قد طعنتم في حكمة الله،

وطعنتم في قدرته، وطعنتم في علمه واطِّلاعه! فاستغرب هؤلاء النَّصارى هذا الكلام. فقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: بلى بتكذيبكم لمحمد بأنَّه رسولٌ، هذا طعنٌ في الله، وذلك أنَّنا وأنتم نشاهد أنَّه ادَّعى أنَّه نبيٌّ، وقامت على يديه هذه الدَّلالات التي هي دلائل نبوةٍ، فكيف يقيمها الله على يديه وهو كذَّاب؟ ثمَّ نصره الله في مواطنَ كثيرةٍ؛ انتصر على الأعداء الكثير وعدد المسلمين قليل، فكيف ينصره على أولئك الأعداء وهو يكذب عليه، ويقول عليه ما لم يُقَل؟ ثمَّ مكَّن الله لدينه وانتشر هذا الدِّين الذي هو في زعمكم دينٌ باطلٌ مكذوبٌ؟ هل يليق بحكمة الله أن يُعلي هذا الدين وهو دينٌ باطلٌ، وأن يظهره، وأن يمكِّن أهلَه، وأن يسلِّطهم على النَّاس؛ يقتلون، ويأسرون، ويفتحون البلاد، ويدوِّخون العباد، وهم مع ذلك في زعمكم ـ أيُّها النَّصارى ـ كذبةٌ متَّبعون لنبيٍّ كذابٍ؟

لا شكَّ أنَّ هذا طعنٌ في الله، فأنتم يا معشر النصارى قد طعنتم في ربِّكم من حيث لا تشعرون، حيث كذَّبتم هذا النَّبيَّ الذي هو ـ في زعمكم ـ ليس بنبيٍّ، وطعنتم في حكمة الله تعالى؛ إذ هو سبحانه حكيمٌ يضع الأشياءَ في مواضعها، كيف يليق بالله أن ينصره، وأن يُعلي سلطانه، وأن يؤيِّده، وأن يُظهِر على يديه هذه المعجزات، وهو يسمع كلامه الذي هو افتراءٌ عليه وكذبٌ؟! كيف ينصره ويمكِّن له في الأرض؟! وكيف يهدي قلوب النَّاس إلى اتِّباعه؟! وكيف يُقبل بقلوبهم عليه؟! وكيف يُظهر من صفاته ما يكون سببًا في تصديقه؟!

ولا شكَّ أنَّ هذا شيءٌ واقعيٌّ حقيقيٌّ، فالذين يكذِّبون برسالته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وهم يشاهدون أنَّ دينَه الحقُّ قدِ انْتشر وتمكَّن حتَّى غطَّى ثلثي

المعمورة، وحتَّى دان له أكثر العباد، وشهدوا بُحْسنه وبملاءمته، حتى - وهم أعداءٌ - بمجرَّد ما يسمعون دعوته ويعرفون شريعته وطريقته تنطلق ألسنتهم بتحسين ما جاء به، وتشهد بذلك عقولهم، ويتَّبعونه بأدنى اتِّباع دون تلكُّؤ ودون توقف، فإنَّ هذا كلَّه دليلٌ على صحَّة هذا الدِّين، ودليلٌ على قَبول النُّفوس له، وأنَّ الذين أنكروه إنَّما انتكستْ معارفهم وفِطَرُهم، ولم يعرفوا الحقَّ مع قيام الأدلَّة الواضحة عليه.

فعلى هذا يُعَدُّ هذا التَّمكين مِنْ أكبر الآيات وأكبر المعجزات التي تدلُّ على صدق رسالته ﷺ؛ حيث مكَّن الله له، وحقَّق قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور:٥٥].

وصَدَّقَ الله هذا الوعد، فمكَّن لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، ومكَّن لهم في البلاد، وفتح لهمُ القلوب، وفتح لهمُ الأسباب، ويسَّر لهمُ اليسرى، وجنَّبهم العسرى، وظهر دينُ الله تعالى، وتحقق قول الله - عز وجل -: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[الصف: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقوله - جل شأنه -: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، فتمَّم اللهُ نورَه الذي هو هذه الشَّريعة، وأظهر هذا الدِّين على سائر الأديان، ولا شكَّ أنَّ ذلك من أكبر المعجزات.

فلو لم يكن هناك دلائل نبوةٍ تدلُّ على صدقه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وصحَّة ما جاء به، لو لم يكن دليلٌ إلاَّ النَّصر والتَّمكين وفتح القلوب له وفتح البلاد له، وما أيَّده به من هذا التَّمكين الذي أقبلتْ قلوب النَّاس عليه وأحبُّوه، وكان أحدهم يصبح وهو عدوٌّ له، فإذا أسلم بأوَّل النَّهار لم يأته اللَّيل إلَّا والإسلام أحبُّ إليه من الدُّنيا وما فيها؛ وذلك لما يشاهدونه بهذا الإسلام من سهولةٍ، ومحبَّةٍ، وصلاحٍ، وانشراح صدرٍ، وفرحٍ، وانبساطٍ، وقوة يقينٍ، لا شكَّ أنَّ هذا من أكبر الآيات والمعجزات، لو لم يكن هناك آياتٌ أخرى لكان هذا كافيًا في كون هذا الدِّين حقًا، وأنَّه من عند الله سبحانه وتعالى.

هذا ما يقرِّره الشَّارح في هذا الموضع.

قال الشارح:

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَهِيَ طَرِيقُ الخَوَاصِّ، يَسْتَدِلُّونَ بِاللَّهِ عَلَى أَفْعَالِهِ، وَمَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ وَلَا يَفْعَلَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَيَسْتَدِلُّ أَيْضًا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣]. وَأَضْعَافُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ. وَهَذِهِ الطَّرِيقُ قَلِيلٌ سَالِكُهَا، لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا إِلَّا الخَوَاصُّ. وَطَرِيقَةُ الجُمْهُورِ الِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَاتِ الشَّاهِدَةِ؛ لِأَنَّهَا أَسْهَلُ تَنَاوُلًا وَأَوْسَعُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُفَضِّلُ بَعْضَ خَلْقِهِ عَلَى بَعْضٍ.

قال الشيخ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾، حقٌّ وصحيحٌ، فإنَّ كلَّ من كذَّب على الله فإنَّ الله ينتقم منه ولو بعد حينٍ، فإنَّ فرعون لَمَّا كذَّب وادَّعى الرُّبوبيَّة عاقبه الله، مع كون مصر قد أطاعت له؛ حتى قال لهم: ﴿ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، يعني: موسى.

فماذا كانت عاقبته؟ انتقم الله منه وأغرقه وهم ينظرون.

كذلك الكذَّابون في زمن النَّبيِّ ﷺ لـمَّا ظنُّوا أنَّ محمدًا كاذبٌ، فقالوا: سوف ندَّعي مثل ما ادَّعى، فتنبَّأ شخصٌ يُقال له: مُسَيْلمة، فانخدع به بعض الجَهَلة من عشيرته، ولكنَّ الله انتقم منه وسلَّط عليه المسلمين، فقُتل وضلَّ أتباعه، وكذلك تنبَّأ آخر في اليمن، فما مُتِّع إلاَّ ثلاثة أشهرٍ؛ حتى انتقم الله منه وأهلكَه.

وهكذا مصير كلُّ من ظهر منه اعتداءٌ، يَعْرِف ذلك من قرأ التَّاريخ، ومن قرأ كتب التَّاريخ يجد أنَّ هنالك أناسًا حاولوا التَّكبُّر والتَّجبُّر، وحصل لهم شيءٌ من المُلك والقوَّة، فاستعملوا بطشهم وقوَّتهم، ثم أُمهلوا مدةً، ولكن أخذهمُ اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ. قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][1].

فكون هذا الإسلام باقيًا ومستمرًا يزيد ويظهر، كلما ضَعُفَ في جهة مكَّن الله له في جهة أخرى، وأهله يحبُّونه ويقبلون عليه ويتمسَّكون به، ويؤثرونه ولو قُتلوا ولو عُذِّبوا، كلُّ هذا دليلٌ على أنَّه من الله تعالى، وأنَّ ما يقولونه ويعتقدونه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

هو الدِّين الحقَّ، والكذَّابون والمفترون يُعجِّل الله لهمُ العقوبة ويأخذهم وينتقم منهم، دليلٌ على أنَّ الله لا يؤيِّد الكذَّابين ولا يمكنِّهم، كيف يمكِّنهم وهم يفترون عليه؟ كيف يمكَّن لهم في الأرض وهم كذَّابون يقولون عليه ويضلُّون عباده؟ هذا لا يليقُ بحكمة الله تعالى؛ فإنَّ من أسمائه «الحكيم»: الذي يضع الأشياء في مواضعها.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤكِّد صحَّة هذا الدِّين وهذه العقيدة وهذا التَّوحيد، ويدلُّ عباده على ذلك بآياته وبمخلوقاته وبأسمائه وبصفاته، يعني: بآثار تلك الأسماء وآثار تلك الصِّفات، فإنَّ من أسماء الله تعالى «الحكيم»: الذي يضع الأشياء في مواضعها، ومن أسمائه تعالى «العزيز»: الغالب لكلِّ من خرج على طاعته، ومن أسمائه تعالى أنَّه «عزيزٌ ذو انتقامٍ»، يعني: ينتقم مِمَّن خالف أمره ويأخذه أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، ومن أسمائه «العليم»: الذي لا يخفى عليه علم شيءٍ في الأرض ولا في السَّماء.

وهكذا يُقال ـ أيضًا ـ في حكمته، وخلقه، وتدبيره، وفيما قدَّره وقضاه في هذا الكون، لا شكَّ أنَّ هذا كلّه له آثارٌ تدلُّ على ما أعطاه الله تعالى لعباده من الفكر، ومن العقل الذي رزق به عبادًا صالحين قبلوه وتقبَّلوه.

قال الشارح:

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ فِي غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ وَالْمَدْلُولُ عَلَيْهِ، وَالشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ لَهُ، قَالَ تَعَالَى لِمَنْ طَلَبَ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الآيات. [العنكبوت:٥١].

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ - كَمَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ - فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَسَّمَ التَّوْحِيدَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ، وَجَعَلَ هَذَا النَّوْعَ تَوْحِيدَ الْعَامَّةِ، وَالنَّوْعَ الثَّانِيَ تَوْحِيدَ الْخَاصَّةِ، وَهُوَ الَّذِي يَثْبُتُ بِالْحَقَائِقِ، وَالنَّوْعَ الثَّالِثَ تَوْحِيدًا قَائِمًا بِالْقِدَمِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ!

قال الشيخ:

إنَّ القرآن الذي أنزله الله على قلب نبيِّنا محمدٍ ﷺ فيه الكفاية لِمَن اعْتبر، وفيه الدَّلالة، وفيه العبرة؛ فإنَّ المشركين لـمَّا طلبوا آيات، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [العنكبوت:٥٠]، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [العنكبوت:٥١]، فهذا الكتاب كافٍ عن جميع الآيات؛ لِـمَا فيه من الأخبار عن المتقدِّمين وعن المتأخِّرين، فمن نظر فيه واعتبر اكتفى بذلك.

والقرآنُ قد بيَّن حقيقة التَّوحيد ـ الذي هو توحيد الرُّسل ـ غاية البيان،

فالتَّوحيد الحقيقيُّ - كما تقدَّم - هو توحيد العبادة، وهو الذي أُرسلتْ به الرُّسل، وهو دين الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم، والذين حكى عنهم المؤلِّف أنَّهم جعلوا هذا النَّوع توحيدَ العامَّة؛ هؤلاء هم غُلاة الصُّوفيَّة، أو أهل الوِحدة، هُمُ الذين جعلوا هذا النَّوع - الذي هو عبادة الله - توحيدَ العامَّة، وجعلوا وراءه توحيدين: توحيدَ الخاصَّة، وتوحيدَ خاصَّة الخاصَّة، وكلُّ ذلك لا دليل عليه، وإنَّما الأصل أنَّ التَّوحيد الذي هو حقُّ الله على عباده، هو التَّوحيد الأصليُّ، الذي أُمر النَّاس أن يدينوا به، ويتعلَّموه، ويعبدوا الله تعالى بموجبه. وسيأتي بيان الأدلَّة على بقية أنواع التَّوحيد إن شاء الله تعالى.

وقد مرَّ بنا بيان شيءٍ مما أوضحه الله تعالى من العلم الذي هو من أهمِّ العلوم، وأنَّ الله بيَّنه عن طريق السَّمع، وعن طريق البصر، وعن طريق العقل، فبيَّنه بالآيات السَّمعيَّة؛ وذلك بالقرآن والسُّنَّة التي تسمع وتتلى، وكذلك بالآيات النَّظريَّة، وهي المخلوقات التي جعلها الله علاماتٍ ودلالاتٍ يعتبر بها أولو الألباب، وهكذا بيَّنه عن طريق العقل؛ حيث أعطى الإنسان فكرًا وعقلًا وذكاءً يعقل به ما أمامه وما بين يديه، وفي كلِّ ذلك ينتج نتيجة، وهي معرفة نفسه، ومعرفة ربِّه، ومعرفة ما خُلق له، وما أُمر به جملةً وتفصيلًا، ونتيجة هذه المعرفة وثمرتها هي العبادة الخالصة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، ومداره كلمة الإخلاص التي هي كلمة: (لا إله إلَّا الله)، فإنَّها أوَّل ما دعت إليه الرُّسل، وهي كلمة التَّوحيد.

هذا هو توحيد الرُّسل، وهو ما جاءت به وما بلَّغته، وهو ما عليه جماهير

الأمَّة، وهو ما تعلَّمه المسلمون قديمًا وحديثًا، ولا عبرة بمن خالف في ذلك من الصُّوفيَّة ونحوهم، الذين جعلوا هذه الكلمةَ توحيدَ العامَّة؛ حيث قسَّموا النَّاس إلى عامَّةٍ وخاصَّةٍ وخاصَّة خاصَّةٍ، وقالوا: إنَّ كلمة: (لا إله إلَّا الله) توحيد العامَّة، وكلمة: (الله الله) توحيد الخاصَّة، وكلمة: (هو هو) توحيد خاصَّة الخاصَّة، يعني: خلاصة الخلاصة!

فعند هؤلاء - قبَّحهم الله - أنَّ الأنبياء والرُّسل والصَّحابة وعلماء الأمَّة كلَّهم من العامَّة الذين لا يعرفون ولا يفقهون، وعندهم أنَّ الصُّوفيَّة - يعني: عوام من دخل فيهم - هُمُ الخاصَّة، وأفرادهم وعلماءهم والواصلين منهم إلى الذُّروة هم خاصَّة الخاصَّة؛ فلأجل ذلك تجدهم في ذكرهم لا يزيدون على كلمة: (هو هو)، ولا شكَّ أنَّ هذا لا يدلُّ على معنى، وأمَّا كلمة الإخلاص فإنَّها دالَّةٌ على معنى فهمه المدعوون، دلَّت على إخلاص العبادة لله والتبرُّؤ ممَّا سواه، ولهذا تشتمل على ولاءٍ وبراءٍ، فإنَّ قوله: (لا إله): براءٌ، و(إلَّا الله): ولاءٌ، وتشتمل على اتِّصالٍ وانفصالٍ: (إلَّا الله) هو اتصالٌ بالإله وحده، و(لَا إله) هو انفصالٌ عن المألوهات، فيقال: فيها نفيٌ وإثباتٌ، وفيها اتِّصالٌ وانفصالٌ، وفيها ولاءٌ وبراءٌ.

فلما كانت كذلك كانت جامعةً لمعنى التَّوحيد، الذي هو توحيد الرُّسل، ولكن لَابُدَّ مِنْ معرفة معناها؛ وذلك لأنَّه وجد من المتأخِّرين من يتكلَّمون بها، ولكن لم يفهموا مدلولها، فاحتاج المسلم إلى أن يفهم ما دلَّت عليه؛ حتَّى يعبدَ الله تعالى بمقتضاها.

قال الشارح:

فَإِنَّ أَكْمَلَ النَّاسِ تَوْحِيدًا الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَالْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ أَكْمَلُ فِي ذَلِكَ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا، وَهُمْ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَأَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا الْخَلِيلَانِ: مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ - فَإِنَّهُمَا قَامَا مِنَ التَّوْحِيدِ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُمَا عِلْمًا، وَمَعْرِفَةً، وَحَالًا، وَدَعْوَةً لِلْخَلْقِ، وَجِهَادًا، فَلَا تَوْحِيدَ أَكْمَلُ مِنَ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَدَعَوْا إِلَيْهِ، وَجَاهَدُوا الْأُمَمَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُنَاظَرَةِ إِبْرَاهِيمَ قَوْمَهُ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَصِحَّةِ التَّوْحِيدِ وَذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فَلَا أَكْمَلَ مِنْ تَوْحِيدِ مَنْ أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ.

وَكَانَ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ إِذَا أَصْبَحُوا أَنْ يَقُولُوا: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[1].

فَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: التَّوْحِيدُ، وَدِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ: مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ: هِيَ شَهَادَةُ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَفِطْرَةُ الْإِسْلَامِ: هِيَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٧)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٥)، والبيهقي في الدعوات الكبير (١/ ١٩) من حديث عبد الرحمن بن أبزى ﷺ.

مَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ عُبُودِيَّةً وَذُلًّا وَانْقِيَادًا وَإِنَابَةً.

قال الشيخ:

إنَّ أكمل التَّوحيدِ هو توحيدُ الأنبياءِ، والأنبياء يتفاوتون وأكملهم الرُّسل، فإنَّ الرُّسل هُمُ الذين قاموا للدَّعوة وللجهاد، وبلَّغوا ودعوا إلى الله وكُلِّفوا بالدَّعوة، وأكمل الرُّسل هم أولوا العزم، وهم خمسةٌ ذكرهُمُ الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣].

هؤلاء هم أولو العزم الذين عناهم الله تعالى في قوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ وذلك لأنَّهم هُمُ الذين صبروا وصابروا، ولهم مكانةٌ ومقامٌ، فهم أفضل الرُّسل.

وأفضل الخمسة الخليلان: إبراهيم ومحمد - صلَّى الله عليهما وسلَّم - وقد أخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ، كما في حديث جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه، حيث قال: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قد اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كما اتَّخَذَ إبراهيم خَلِيلًا»[1]، فالخليلان لهما مقامٌ سامٍ رفيعٌ،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وهما اللَّذان جاهدا في الله، ودعوا إلى التَّوحيد أتمَّ دعوةٍ، ولقيا في ذلك ما لقيا.

ومعلومٌ أنَّ الرُّسل كلَّهم دعوا إلى التوحيد، متقدِّمهم ومتأخِّرهم؛ وقد أمر الله نبيَّه بأن يقتدي بهم كلِّهم، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أي: فاقتدِ بهديهم وبما جاءك عنهم وبما بلغك، ولا شكَّ أنَّ مِنَ هُداهم التَّوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، كلُّ رسولٍ يوحَى إليه بهذا. هذا من جملة هداهم الذي أُمر النَّبيُّ ﷺ بأن يهتدي به، وأمته تبعٌ له.

كذلك هذا الدُّعاء الذي كان النَّبيُّ ﷺ يعلِّمه أصحابهَ، يقول: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ...**» إلى آخره، دعاءٌ جامعٌ؛ لأنَّ فيه ذِكْر ملَّة إبراهيم، يعني: أنَّ من جملة ما تمسَّكنا به: ملَّة أبينا إبراهيم التي أمرنا الله تعالى أن نقتدي بها، وملَّة الأنبياء التي أُمر نبيُّنا أن يقتدي بها، فإذا تمسَّك المسلمون بذلك، فإنَّهم إن شاء الله على طريق النَّجاة.

قال الشارح:

فَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ، الَّذِي مَنْ رَغِبَ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١]. وَكُلُّ مَنْ لَهُ حِسٌّ سَلِيمٌ، وَعَقْلٌ يُمَيِّزُ بِهِ، لا يَحْتَاجُ فِي الاسْتِدْلَالِ إِلَى أَوْضَاعِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالجَدَلِ وَاصْطِلَاحِهِمْ وَطُرُقِهِمْ الْبَتَّةَ، بَلْ رُبَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِهَا فِي شُكُوكٍ وَشُبَهٍ يَحْصُلُ لَهُ بِهَا الحَيْرَةُ بِالضَّلَالِ وَالرِّيبَةِ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذَا سَلِمَ قَلْبُ صَاحِبِهِ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي لَا يُفْلِحُ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّوْعَ الثَّانِيَ وَالثَّالِثَ مِنَ التَّوْحِيدِ، الَّذِي ادَّعَوْا أَنَّهُ تَوْحِيدُ الخَاصَّةِ وَخَاصَّةِ الخَاصَّةِ، يَنْتَهِي إِلَى الْفَنَاءِ الَّذِي يُشَمِّرُ إِلَيْهِ غَالِبُ الصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ دَرْبٌ خَطِرٌ، يُفْضِي إِلَى الاتِّحَادِ، انْظُرْ إِلَى مَا أَنْشَدَه شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الأَنْصَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَيْثُ يَقُولُ[1]:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ ... إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ ... عَارِيَّةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ... وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

---

(١) ذكر هذه الأبيات في منازل السائرين (ص١٣٩)، قال: «وقد أجبت في سالف الزمان سائلًا سألني عن توحيد الصوفية بهذه القوافي الثلاث: ...».

وَإِنْ كَانَ قَائِلُهُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لَمْ يُرِدْ بِهِ الِاتِّحَادَ، لَكِنْ ذَكَرَ لَفْظًا مُجْمَلًا مُحْتَمَلًا، جَذَبَهُ بِهِ الِاتِّحَادِيُّ إِلَيْهِ، وَأَقْسَمَ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِ إِنَّهُ مَعَهُ، لَوْ سَلَكَ الْأَلْفَاظَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي لَا إِجْمَالَ فِيهَا كَانَ أَحَقَّ، مَعَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي حَامَ حَوْلَهُ لَوْ كَانَ مَطْلُوبًا مِنَّا لَنَبَّهَ الشَّارِعُ عَلَيْهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَهُ، فَإِنَّ عَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، فَأَيْنَ قَالَ الرَّسُولُ هَذَا تَوْحِيدُ الْعَامَّةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ الْخَاصَّةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ؟ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى؟ أو أشار إليه.

قال الشيخ:

نعرف أنَّ التَّوحيد الذي دعت إليه الرُّسل حقًّا توحيدٌ واحدٌ ليس فيه فروعٌ، فليس هناك توحيد خاصَّةٍ، وخاصَّة خاصَّةٍ، وعامَّةٍ؛ بَلِ الرَّسول ﷺ دعا النَّاسَ كلَّهم ـ وكذا الأنبياء ـ إلى شيءٍ واحدٍ، وأمرهم بأن يتمسَّكوا به، وهو الإخلاص لله تعالى، بحيث يعبدونه ويتركون عبادة ما سواه بعد المعرفة، فأمَّا هذا التَّقسيم الذي تدَّعيه هذه الطَّوائف، فإنَّه مُبتدَعٌ.

الطَّائفة التي ابتدعَتْ ذلك هم الصُّوفيَّة، قسَّموا التَّوحيد إلى ثلاثة أقسامٍ: فجعلوا العامَّة توحيدهم كلمة: (لا إله إلا الله)، والخاصَّة كلمة: (الله)، وخاصة الخاصة كلمة: (هو هو)، ونسأل مَنْ الذي سبقهم من الرُّسل إلى هذا التَّقسيم؟! لو كان حقًّا لبيَّنته الرُّسل لأممهم، فهذا يدل على أنَّهم لم يُسبقوا إليه ولا دليل عليه، ومع كونه لا دليل عليه فإنَّه يؤول بسالكيه إلى هلاك معنوي لا هلاك حسي، فيؤول بصاحبه إلى أن يضلَّ ويتيه، ويؤدي به إلى الحيرة والرَّيب.

وكثيرٌ من الذين خاضوا في هذا العلم أدّى بهم ذلك الأمر وذلك التَّوسُّع إلى الشَّكِّ والحَيْرة، ويأتينا - إن شاء الله - أمثلةٌ لذلك في هذا الكتاب.

كذلك يؤدي بهم هذا التقسيم إلى طريقةٍ أخطر من ذلك، وهي طريقة الاتِّحاد، وهو مذهبٌ باطلٌ، وقد أشار إليه الشَّارح فيما سبق، وهو مذهب أهل وحدة الوجود، الذين يجعلون الخالق متَّحِدًا بالمخلوق! فيقال لهم: ما الدَّليل على ذلك، ومن الذي سبقكم إلى ذلك؟ فلا يجدون دليلًا ولا سابقًا من أهل العلم.

ويؤدي بهم أيضًا هذا التقسيم إلى طريقةٍ يسمُّونها الفناءَ، والفناءُ عندهم هو: غاية المنازل وأعلى المراتب، متى وصل إليها العارف عندهم وصل إلى حظيرة القدس! وهو الذي - في نظرهم - يفنى بعبادته عن معبوده، ويفنى بوجوده عن موجوده، بحيث يتلاشى عن نفسه، ويفنى في خالقه كما يقولون، ولهم في ذلك عباراتٌ بَشِعَةٌ لا حاجة بنا إلى أن نعرفها، والجهل بها أولى؛ لأنَّ تلك المعارف وتلك الشَّطَحات التي وقعوا فيها سببها هذا الخوض، وهو الحصول على رتبة خاصَّة الخاصَّة.

ذكر الشارح - رحمه الله - أنَّ هذا طريقٌ خطرٌ، وأنَّه لا يجوز سلوك الطَّريق الذي يوصل إلى هذا الأمر.

وهذه الأبيات التي أنشدها أبو إسماعيل الهَرَوي في آخر كتابه الذي سماه «منازل السَّائرين»[1]، والذي شرحه ابن القيم في كتابه الذي سماه «مدارج

---

(١) (ص١٣٩).

السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وذكر هذه الأبيات في أوَّله، وحرص على أن يحملها محملًا حسنًا، ولكن فيها شيءٌ من الإجمال، وفيها شيءٌ من الإيهام؛ لأنَّ ظاهرها أنَّ النَّاس كلّهم لم يوحِّدوا الله، وأنه لا يقدر على توحيد الله إلاَّ الله، وأن الله هو الذي وحَّد نفسه؛ فإنَّ قوله:

مـا وحَّـدَ الواحـدُ مـن واحـدٍ　　　إذْ كُـلُّ مَـنْ وَحَّـدهُ جاحـدُ

ظاهره أنَّ كلَّ النَّاس حتَّى الأنبياء لم يكونوا موحِّدين، وإنَّما الله الذي وحَّد نفسه، ولكن حمله على أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف ذلك إلاَّ بمعرفةٍ من الله وتعريفٍ منه، وحمله الاتحاديُّون على مذهبهم، واجتذبوا أبا إسماعيل - رحمه الله - إليهم، وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم إنَّه لمنهم، وكلامه في الحقيقة موهمٌ؛ ولكنَّ عقيدته سليمةٌ، وله مؤلَّفاتٌ تدلُّ على أنَّه من أهل السُّنَّة، بيَّنها العلماء في ترجمته.

وعلى كلِّ حالٍ، فطريقة الرُّسل وأتباعهم والأئمَّة والعلماء هي معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وذكره بما أمر به، وبما بلَّغته رسله، وبذلك يكون الإنسان من العارفين ومن الموحِّدين، دون أن يحتاج إلى معرفة الاصطلاحات الصُّوفيَّة والشَّطَحات، وتلك الكلمات التي ما أنزل الله بها من سلطانٍ.

قال الشارح:

هَذِهِ النُّقُولِ وَالْعُقُولُ حَاضِرَةٌ، فَهَذَا كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَهَذِهِ سُنَّةُ الرَّسُولِ، وَهَذَا كَلَامُ خَيْرِ الْقُرُونِ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَسَادَاتِ الْعَارِفِينَ مِنَ الْأَئِمَّةِ، هَلْ جَاءَ ذِكْرُ الْفَنَاءِ فِيهَا، وَهَذَا التَّقْسِيمُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ؟! وَإِنَّمَا حَصَلَ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، الْمُشْبِهِ لِغُلُوِّ الْخَوَارِجِ، بَلْ لِغُلُوِّ النَّصَارَى فِي دِينِهِمْ. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ وَنَهَى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]، وَقَالَ ﷺ: «لَا تُشَدِّدُوا فَيُشَدِّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، رَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

قال الشيخ:

أَوَّلًا: ذكر أنَّ هذه الكلمات لم يأتِ بها كتابٌ ولا سُنَّةٌ، يعني: كلماتهم الاصطلاحيَّة التي يتغالون فيها، كتقسيم التَّوحيد إلى ثلاثةٍ، وتقسيم الفناء أيضًا إلى ثلاثةٍ، وما أشبه ذلك، كلُّها ليس عليها دليلٌ، وإنَّما هي اصطلاحاتٌ من عندهم.

ثانيًا: ذكر أنَّ هذا بسبب الغلوِّ، والغلوُّ: هو الزِّيادة على المقصود أو على

---

(١) برقم (٤٩٠٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

المطلوب أو على الوارد، والتشدُّد فيه. وقد حكى الله أنَّ النَّصارى غَلَوْا في عيسى؛ حيث قالوا: هو الله، وأنَّ الله هو المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، أو ابن الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، هذا من الغلوِّ الذي ذمَّهم الله به.

وقد وقع الغلوُّ في هذه الأمة، ووقع في العبادات وفي النصوص؛ كما فعلت الخوارج، فإنَّهم غلوا حتَّى كفَّرُوا بالذُّنوب، ووقع الغلوُّ في بعض الأشخاص، كالرَّافضة؛ حيث غَلَوا في أهل البيت حتَّى اعتقدوا فيهم العصمة، وفضَّلوهم على كثيرٍ من الرُّسل، وأعطوهم شيئًا من حقِّ الله، وهذا من الغُلُوِّ.

وقد ذمَّ الله تعالى الغلوَّ ونهى عنه في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وفي سورة المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٧٧].

وكذلك جاء ذم التشدد في أحاديث النبي ﷺ، ومنها هذا الحديث الذي أورده الشارح في النَّهي عن التشدُّد وذمِّ المتشدِّدين، وأنَّ من المتشدِّدين النَّصارى، فإنَّهم «شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ»، وكذلك نهى عن الغلوِّ بقوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي

الدِّينِ، فَإِنَّه أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ في الدِّينِ»[1]، ذكر أنَّه أهلك من كان قبلنا، ودين الله تعالى وسطٌ بين الغالي والجافي، الغالي هو الزائد، والجافي هو المقصِّر، ولعله يأتينا ما هو أوسع في الغلو في هذا البحث إن شاء الله.

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٣٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الطحاوي:

وَلاَ شَيْءَ مِثْلُهُ.

قال الشارح:

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، وَلكِنَّ لَفْظَ «التَّشْبِيهِ» قَدْ صَارَ فِي كَلَامِ النَّاسِ لَفْظًا مُجْمَلًا يُرَادُ بِهِ المَعْنَى الصَّحِيحُ، وَهُوَ مَا نَفَاهُ الْقُرْآنُ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، مِنْ أَنَّ خَصَائِصَ الرَّبِّ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِهَا شَيْءٌ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنَ المَخْلُوقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، رَدٌّ عَلَى المُمَثِّلَةِ المُشَبِّهَةِ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، رَدٌّ عَلَى النُّفَاةِ المُعَطِّلَةِ، فَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ الخَالِقِ مِثْلَ صِفَاتِ المَخْلُوقِ، فَهُوَ المُشَبِّهُ المُبْطِلُ المَذْمُومُ، وَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ المَخْلُوقِ مِثْلَ صِفَاتِ الخَالِقِ، فَهُوَ نَظِيرُ النَّصَارَى فِي كُفْرِهِمْ. وَيُرَادُ بِهِ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ للهِ شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ، فَلَا يُقَالُ: لَهُ قُدْرَةٌ، وَلَا عِلْمٌ، وَلَا حَيَاةٌ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَوْصُوفٌ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ! وَلَازِمُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ لَا يُقَالُ لَهُ: حَيٌّ، عَلِيمٌ، قَدِيرٌ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ يُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَكَذَا كَلَامُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَإِرَادَتُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

في هذه العبارة ردٌّ على المشبِّهة الذين غلوا في الإثبات؛ حتى شبهوا الخالق

بالمخلوق، فهناك للخالق بالمخلوق، وهناك مشبِّهة لصفات الخالق - سبحانه وتعالى - بصفات المخلوق، وهناك مشبِّهة لأفعال الخالق بأفعال المخلوق، والكل ضالُّون.

الذين شبَّهوا المخلوق بالخالق: كالنصارى الذين شبهوا عيسى بالله، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة:١٧]، أو قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، ومثلهم جميع الذين يعظِّمون المخلوقين ويعطونهم شيئًا من حقِّ الله، فإنَّ هؤلاء شبهوا المخلوق بالرَّبِّ تعالى؛ حيث رفعوا المخلوق وأعطوه ما لا يستحقُّه.

ومن هؤلاء أيضًا القبوريُّون، الذين غَلَوا في المخلوقين ووصفوهم بصفاتٍ لا يستحقُّها إلاَّ الخالق، فشبَّهوا المخلوق بالخالق ورفعوا قدره حتَّى أعطوه شيئًا من خصائص الخالق سبحانه وتعالى.

أمَّا التَّشبيه في الأفعال: فهو أن تُجْعَل أفعالُ الله كأفعال المخلوق، أو تُجْعَل أفعالُ المخلوق كأفعال الخالق، وتفصيل ذلك والتمثيل عليه معروفٌ، ويحتاج إلى توسُّعٍ ليس هذا محلُّه، لكن نعرف أنَّ الله تعالى موصوفٌ ببعض الأفعال التي قد يُوصف بها العبد، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥]، فالله تعالى أخبر أنَّه استوى على العرش، والإنسان موصوفٌ أيضًا بالاستواء، قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣]، وليس الاستواء كالاستواء.

كذلك، وصف الله تعالى نفسه بالمجيء في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا

صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢]، وليس مجيء الله كمجيء الملائكة، بل مجيء الله يليق به، وكذلك وصف نفسه وبعض خلقه بالإتيان، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وليس إتيان الله كإتيان الملائكة، فالملائكة مخلوقون.

فهنا نقول: إنَّها من الأفعال، ولا يجوز التَّشبيه فيها، وكذلك لا يجوز أيضًا التَّشبيه بالصِّفات الذَّاتيَّة التي أثبتها الله لنفسه، فإذا أثبت الله لنفسه اليدين كما في قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤]، نقول: ليس كيدي المخلوقين، وإذا أثبت لنفسه الوجه وأثبته له رسوله ﷺ، كما في قوله: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وفي قوله: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨]، وفي قول الرسول ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[(١)]، وفي قوله ﷺ: «مَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[(٢)] ... وأشباه ذلك.

فنقول: ليس كمثله شيءٌ في ذلك، وأهل السُّنَّة يقولون: إنه وصفٌ حقيقيٌّ، ولكن ليس مثل صفات المخلوقين وخصائصهم، هذا هو معنى التَّشبيه، ولكن هناك من استعمل التَّشبيه وأراد به نفي الصِّفات، وهذه طَّريقة المعتزلة أتباع جهم

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث عبدالله بن قيس ﷺ.

ابن صفوان ونحوه؛ حيث سلكوا طريقة النَّفي، وجعلوا النَّفي مطلقًا، ونفوا كلَّ صفةٍ وُجدت في المخلوق، وزعموا أنَّ إثباتها تشبيهٌ، وأنَّ إثبات الصِّفة التي في المخلوق تشبيهٌ؛ فصاروا يتعلَّقون بهذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولا يتمُّونها، أو لا يعملون بآخرها؛ فإن في آخرها ردٌّ عليهم في نفيهم للصِّفات. وقد رُوي أنَّ كبيرًا من كبرائهم -يُقال له: ابن أبي دؤاد- قال لأحد الخلفاء: أريد أن تكتب على الكعبة قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. هربًا من إثبات السَّمع والبصر.

فلا شكَّ أنَّ هؤلاء غَلَوا في النَّفي، ولازِمُ قولهم أنَّ كلَّ صفةٍ موجودةٍ في أيِّ مخلوقٍ لا يجوز إثباتها للخالق، فنقول لهم: يلزمكم أن تنفوا صفة الحياة، وأن تنفوا صفة الوجود، وصفة الذَّات، وما أشبه ذلك. إذا قلتم: إنَّ لله ذاتًا. قلنا: شبَّهتم؛ إذِ المخلوقُ له ذاتٌ. فإذا قالوا: لا تشبه ذواتنا. قلنا: لماذا لا تقولون: له سمعٌ لا يشبه سمع المخلوقين، وبصرٌ لا يشبه بصر المخلوقين؟

فعلى كلِّ حالٍ الآية دليلٌ لأهل السُّنَّة، ولكن اتَّخذها المعتزلة دليلًا لهم، ولم يعملوا بآخرها؛ لأنَّ في آخرها ردًّا عليهم. يقول العلماء: قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على المشبِّهة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على المعطِّلة، يعني: بعض آية ردَّتْ على الطَّائفتين: طائفةٌ غلت في النَّفي، وطائفةٌ غلت في الإثبات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على الغُلاة في الإثبات، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على الغُلاة في النَّفي.

قال الشارح:

وَهُمْ يُوَافِقُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَوْجُودٌ، عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، حَيٌّ، وَالمَخْلُوقُ يُقَالُ لَهُ: مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، وَلَا يُقَالُ: هَذَا تَشْبِيهٌ يَجِبُ نَفْيُهُ، وَهَذَا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَصَرِيحُ الْعَقْلِ، وَلَا يُخَالِفُ فِيهِ عَاقِلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمَّى نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِهَا، وَكَذَلِكَ سَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّى بِبَعْضِهَا صِفَاتِ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ الْمُسَمَّى كَالْمُسَمِّي، فَسَمَّى نَفْسَهُ: حَيًّا، عَلِيمًا، قَدِيرًا، رؤوفًا، رَحِيمًا، عَزِيزًا، حَكِيمًا، سَمِيعًا، بَصِيرًا، مَلِكًا، مُؤْمِنًا، جَبَّارًا، مُتَكَبِّرًا. وَقَدْ سَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ فَقَالَ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥]، ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨]، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١]، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف:٧٩]، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [السجدة:١٨]، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥]. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُمَاثِلُ الْحَيُّ الْحَيَّ، وَلَا الْعَلِيمُ الْعَلِيمَ، وَلَا الْعَزِيزُ الْعَزِيزَ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَسْمَاءِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر:١١]،

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ. قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١].

وَفِي حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[٢] وَغَيْرُهُ[٣]، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا،

---

(١) برقم (١١٦٢).

(٢) برقم (١٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، وابن حبان (٥/ ٣٠٤،٣٠٥)، والحاكم (١/ ٥٢٤).

وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ وَرَسُولُهُ صِفَاتِ اللهِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَقُوَّةً.

قال الشيخ:

أراد الشارح بهذا الردَّ على هؤلاء الذين كلَّما جاءتهم صفةٌ لله موجودةٌ في المخلوق نفوها عن الله تعالى وجعلوها مجازًا، أو تأوَّلوها بتأويلاتٍ بعيدةٍ، وزعموا أنَّ إثباتها فيه شيءٌ من التَّشبيه.

فيُقال لهم: يلزمكم على هذا أن تفرِّقوا بين صفات المخلوقين وأن تجمعوا بين صفاتهم وصفات الخالق، ويُردُّ عليهم بهذه الآيات.

ويُرد عليهم بهذه الآيات، ففيها أنَّ الله تعالى سمَّى نفسه بعدَّة أسماءٍ، وسمَّى بها بعض خلقه، فمن أسمائه «العزيز»، وسمَّى بعض خلقه بذلك في قوله: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١]، ومن أسمائه «الملِك»، وسمَّى به بعض خلقه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٠]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف:٧٩]، ومن أسمائه «المؤمن»؛ كما في سورة الحشر، وقد سمَّى به بعض خلقه، وكثيرًا ما يذكر المؤمن والمؤمنين والمؤمنات، ومن أسمائه «الجبَّار، المتكبِّر»، وقد سمَّى به أيضًا بعض

خلقه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

ومعلومٌ أنَّه ليس الاسم كالاسم، وليس المَلِك كالمَلِك، وليس العزيز كالعزيز، وليس الجبَّار كالجبَّار، فمُلك الله ليس كمُلك المخلوق، وعزَّة الله ليست كعزَّة المخلوق، فعزَّة المخلوق محدودةٌ، وهكذا يُقال في بقيَّة الأسماء.

فكذلك إذا سمَّى اللهُ نفسه: السَّميع البصير ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وسمَّى الإنسانَ بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، عُرف أنَّه ليس السَّمع كالسَّمع، وليس البصر كالبصر، وإن كان معلومًا اتِّحاد الاسم، فالسَّمع هو إدراك الأصوات، والبصر هو إدراك المبصَرات والمرئيَّات، ولكن بينهما تفاوتٌ، هذا في الأسماء.

وكذلك يُقال في الصِّفات: إذا وصف الله نفسه بالعلم، ووصف به بعض خلقه، عُرف أنَّه ليس العلم كالعلم، بل بينهما فرقٌ، فعِلمُ الله ليس كعلم المخلوق الذي هو حادثٌ، والذي يعتريه النِّسيان والتَّغيُّر؛ فالله وَصَفَ نفسَه بالعلم صفةً ذاتيَّةً، لا يعتريه جهلٌ ولا تتغيَّر معلوماته، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر:١١]، وكما ورد في الأحاديث النبوية، كما في قوله ﷺ: «بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ»(١)،

(١) قطعة من حديث عمار بن ياسر ﷺ الذي تقدم قريبًا.

وفي قوله: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي»[١]، وما أشبهه ذلك.

لا شكَّ أنَّ في هذا إثباتًا لهذه الصِّفات، فإذا أثبتها المسلم، فإنَّ عليه أن يعتقد أنَّه ليس معناها كالمعنى الذي يُثْبَت للمخلوق، بل صفة المخلوق تليق به، وصفة الخالق تليق به، وبهذا - إن شاء الله - يصير المؤمن موحِّدًا، فإذا أثبت الصفات، ولم يعتقد فيها شيئًا من التَّشبيه والتَّشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولم ينفها عن الخالق، واعتقد أنَّها حقيقةٌ لائقة بالخالق سبحانه، وأنَّ صفات المخلوق يعتريها التغيُّر والنَّقص، وليس كذلك صفات الخالق، فلا يكون هذا مشبِّهًا.

بل المشبِّه - كما عرفنا - هو الذي يبالغ، فيقول: يد الله كأيدينا، وسمعه كأسماعنا، وذاته كذوات المخلوق - تعالى الله عن ذلك - وهؤلاء هم الذين ردَّ الله عليهم في عدَّة آيات؛ كما في قوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، وفي قوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النحل:٧٤]، وفي قوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة:٢٢]، وفي قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وأشباه ذلك، فإنَّ هذا ردٌّ على الذين جعلوا المخلوق كالخالقَ أو الخالق كالمخلوق، تعالى الله عن قولهم.

---

(١) قطعة من حديث الاستخارة الذي تقدم قريبًا.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:٥٤]، ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:٦٨]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ الْعِلْمُ كَالْعِلْمِ، وَلَا الْقُوَّةُ كَالْقُوَّةِ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ، وَهَذَا لَازِمٌ لِجَمِيعِ الْعُقَلَاءِ.

فَإِنَّ مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، كَالرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ وَالتَّجْسِيمَ! قِيلَ لَهُ: فَأَنْتَ تُثْبِتُ لَهُ الْإِرَادَةَ وَالْكَلَامَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ، مَعَ أَنَّ مَا تُثْبِتُهُ لَهُ لَيْسَ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، فَقُلْ فِيمَا نَفَيْتَهُ وَأَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِثْلَ قَوْلِكَ فِيمَا أَثْبَتَّهُ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ! قِيلَ لَهُ: فَأَنْتَ تُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، مِثْلَ: حَيٍّ، عَلِيمٍ، قَدِيرٍ، وَالْعَبْدُ يُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَلَيْسَ مَا يَثْبُتُ لِلرَّبِّ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مُمَاثِلًا لِمَا يَثْبُتُ لِلْعَبْدِ، فَقُلْ فِي صِفَاتِهِ نَظِيرَ قَوْلِكَ فِي مُسَمَّى أَسْمَائِهِ.

قال الشيخ:

هنا يرد على بعض النُّفاة، وهم الأشاعرة، فإنَّهم يثبتون أنَّ الله تعالى يسمع ويبصر ويتكلَّم ويقدر ويعلم ويريد، ويثبتون له الحياة، ومع ذلك ينفون الصِّفات الفعليَّة، فينفون أنَّ الله يحبُّ أو يبغض أو يفرح، وكذلك ينفون أنَّ لله سبحانه

وجهًا أو يدًا كما أثبت لنفسه، وهكذا بقيَّة الصِّفات.

فإذا طُلب منهم سبب النَّفي، قالوا: إنَّ هذه موجودةٌ في المخلوق، فالمخلوق يغضب ويرضى، ويحبُّ ويبغض، فلا يكون الرَّبُّ مثله! وإذا قيل لهم: عجبًا لكم! إذًا أنتم تقولون: إنَّ الله يريد ويعلم ويسمع ويتكلَّم ويقدر، والمخلوقون كذلك لهم إرادةٌ وسمعٌ وبصرٌ وعلمٌ وقدرةٌ، فما الفرق بين ما أثبتُّم وبين ما نفيتم؟! لا يجدون سبيلًا إلى الفرق، فتنقطع بذلك حجَّتهم؛ لأنهم فرَّقوا بين ما جمع الله بَيْنَهُ، فأثبتوا الإرادة، ونفوا المحبَّة، ولا فرق بينهما.

قوله: (**فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ! قِيلَ لَهُ: فَأَنْتَ تُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى**)، هذه طائفةٌ أخرى من النُّفاة؛ وهم المعتزلة الذين لا يثبتون شيئًا من الصِّفات، فلا يثبتون أنَّ الله حيٌّ، ولا سميعٌ، ولا بصيرٌ ... إلى آخره - تعالى الله عن قولهم - ولكنَّهم يثبتون الأسماء، فيقولون: إنَّها أسماءٌ ثابتةٌ لله، وإنَّ الله سميعٌ، بصيرٌ، عليمٌ، قديرٌ، حيٌّ، مُريدٌ، متكلِّمٌ، ملكٌ، قدُّوسٌ. يثبتون هذه بوصفها أسماء، ولكنَّهم لا يجعلونها دالَّةً على صفاتٍ.

فيُقال لهم: المخلوق أيضًا يُسمَّى بذلك، يُسمَّى حيًّا، ويُسمَّى قديرًا، ويُسمَّى عليمًا، فقد أثبتُّم أسماءً موجودةً في المخلوق، فإذا أثبتُّم الأسماء لزمكم إثبات الصِّفات، فلا فرق. هذا لازم هؤلاء أيضًا، يُقال لهم فيما نفوا مثل قولهم فيما أثبتوا، فإذا قالوا: إنَّنا نثبتها على أنَّها أسماءٌ يُنادى بها الرَّبُّ تعالى. قُلنا: والمخلوق كذلك يُنادى بها، فإذا كان لا يلزم التَّشبيه مع كونها ثابتةً للمخلوق، فلماذا لا تثبتون الصِّفات وتجعلونها مناسبةً للموصوف؟!

قال الشارح:

فَإِنْ قَالَ: وَأَنَا لَا أُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، بَلْ أَقُولُ: هِيَ مَجَازٌ، وَهِيَ أَسْمَاءٌ لِبَعْضِ مُبْتَدَعَاتِهِ، كَقَوْلِ غُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ!

قِيلَ لَهُ: فَلَا بُدَّ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ حَقٌّ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَالْجِسْمُ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ هُوَ مُمَاثِلًا لَهُ.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا، بَلْ أُنْكِرُ وُجُودَ الْوَاجِبِ.

قِيلَ لَهُ: مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ الْمَوْجُودَ إِمَّا وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ، وَإِمَّا غَيْرُ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ، وَإِمَّا قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ، وَإِمَّا حَادِثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِمَّا مَخْلُوقٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى خَالِقٍ، وَإِمَّا غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَا مُفْتَقِرٍ إِلَى خَالِقٍ، وَإِمَّا فَقِيرٌ إِلَى مَا سِوَاهُ، وَإِمَّا غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ.

وَغَيْرُ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ، وَالْحَادِثُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِقَدِيمٍ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِخَالِقٍ، وَالْفَقِيرُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِغَنِيٍّ عَنْهُ. فَقَدْ لَزِمَ عَلَى تَقْدِيرِ النَّقِيضَيْنِ وُجُودُ مَوْجُودٍ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ خَالِقٍ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ، وَمَا سِوَاهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

قوله: (وَأَنَا لَا أُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، بَلْ أَقُولُ: هِيَ مَجَازٌ)، هذا قول طائفةٍ أخرى أكفر وأشدُّ من المعتزلة ضلالًا، أضلُّ منهم جميعًا، وهم: غُلاة الباطنيَّة، والملاحِدَة، وغُلاة الفلاسفة، يقولون: إنَّنا لا نثبت الأسماء ولا نثبت الصِّفات،

وهذه الأسماء التي يُسمَّى بها الله ليست حقيقيَّةً، وإنَّما هي مجازٌ، وهي أسماءٌ لبعض المخلوقات أو المختَرَعات.

فيقال لهم: لا بدَّ أنكَّم تثبتون أنَّ الله موجودٌ وقائمٌ بنفسه، والمخلوق كذلك موجودٌ وقائمٌ بنفسه، فإذا أثبتُّم هذا الوصف الذي هو موصوفٌ به المخلوق، فقد وقعتم فيما فررتم منه، فررتم من التَّشبيه ووقعتم فيه، فلا محيدَ لكم عن ذلك. هذا يبيِّن تناقض هؤلاء النُّفاة.

قوله: (**فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا، بَلْ أُنْكِرُ وُجُودَ الْوَاجِبِ**)، هؤلاء هم الدَّهريَّة والشُّيوعيَّة ونحوهم، الذين ينكرون واجب الوجود، فيُحتجُّ عليهم بحجَّةٍ عقليةٍ، فيُقال لهم: إنَّ هذه الموجودات حادثةٌ، والحادث لا بدَّ له من محدثٍ، وإذا قلنا: إنَّ المحدث الذي أحدثه يفتقر إلى محدثٍ آخرَ، لَزِمَ التَّسلسل، فيقال: إذًا هناك محدثٌ لها، وهو الله تعالى.

ويُقال أيضًا: إنَّ الموجودات قسمان: واجب الوجود، وممكن الوجود، وواجب الوجود هو الخالق، وممكن الوجود هو المخلوق؛ لأنه يمكن أن يوجد، ولأنَّه يأتي عليه الفناء، وتنقسم أيضًا إلى قسمين: غنيٌّ بنفسه لا يحتاج إلى غيره وهو الخالق، وفقيرٌ بالذَّات مفتقرٌ إلى غيره وهو المخلوق، فالمخلوق وصْفُ الفقر له لازمٌ؛ ولذلك ورد في قصيدةٍ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة قوله[1]:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

(١) انظر: العقود الدرية (ص٣٩١).

يقول: إنَّ الفقر وصفٌ ذاتيٌّ للمخلوقات، وأن الغِنى الذاتيَّ وصفٌ للخالق تعالى، فالخالق غنيٌّ بذاته، والمخلوق فقيرٌ بذاته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وإذا تأمَّل العاقل هذه الأشياء اضطرَّ إلى الاعتراف بأنَّ هناك خالقًا غنيًا بنفسه، قائمًا بنفسه، قديمًا أزليًا، غير مسبوقٍ بعدمٍ، ولا يأتي عليه الفناء؛ وذلك أخذًا بعين الاعتبار من هذه الموجودات التي وُجدت وتفنى، أنَّ الموجود لا بدَّ له من مُوجِدٍ، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

فإذا لم يكونوا خُلقوا من غير شيءٍ تعيَّن أنَّهم مخلوقون من شيءٍ، وإذا لم يكونوا هم الخالقين تعيَّن أنَّ لهم خالقًا خلقهم، فليس الإنسان يخلق نفسه، وإلَّا لحرص على أن يكمل خلقه، وكذلك ليس هو يخلق ولده، وإلَّا لحرص على أن يكون ولده في أحسن ما يُراد، فنحن نشاهد أنَّ الإنسان يُولد له ولدٌ مشلولٌ، ويُولد له أولادٌ ناقصو الخِلْقَة، ويُولد له من هم ناقصو العقل، وكذلك قد يُولد له ذكورٌ أو إناثٌ أو إناثٌ وذكورٌ، وذلك دليلٌ على أنَّه ليس هو الذي يختار، وليس هو الذي يقدِّر لنفسه، بل هناك من يخلق هذا الخلق ويدبِّرهم، وهو الخالق وحده، فعُرف بذلك أنَّ هذا الوجود مفتقرٌ إلى موجدٍ، وأنَّه مفتقرٌ إلى واجب الوجود.

فما دام أنَّ هذا الوجود مفتقرٌ إلى موجدٍ، فيلزم أن يكون ذلك الموجد موصوفًا بصفاتٍ تناسبه لا تشبه صفات المخلوق، وإلَّا لأتى عليه ما يأتي على المخلوق من الفناء، فيتعيَّن أن هناك فرقًا كبيرًا بين الخالق والمخلوق، فالخالق حيٌّ

لا يموت والمخلوق يموت، والخالق قديمٌ غير مسبوقٍ بعدم والمخلوق مسبوقٌ بعدمٍ، مخلوقٌ ثـمَّ يفنى ـ كما هو مشاهد ـ والخالق غنيٌّ بنفسه، فالمخلوق فقيرٌ بالذَّات، وفقيرٌ بنفسه، لا غنى له عن ربِّه طرفة عينٍ.

فهذا يُحتجُّ به على هؤلاء النُّفاة الذين ينكرون أن يكون للوجود مُوجدًا، ويسندون الأشياء إلى الطَّبائع ـ تعالى الله عن قولهم ـ والطَّبائع لابدَّ لها من طابع، فليس هناك معتَمدٌ يعتمدونه ويستندون إليه إلَّا عقولٌ فاسدةٌ، فلا يُلتَفت إلى ترَّهاتهم وأباطيلهم.

قال الشارح:

وَقَدْ عُلِمَ بِالْحِسِّ وَالضَّرُورَةِ وُجُودُ مَوْجُودٍ حَادِثٍ كَائِنٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَالحَادِثُ لَا يَكُونُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ، وَلَا قَدِيمًا أَزَلِيًّا، وَلَا خَالِقًا لِمَا سِوَاهُ، وَلَا غَنِيًّا عَمَّا سِوَاهُ، فَثَبَتَ بِالضَّرُورَةِ وُجُودُ مَوْجُودَيْنِ: أَحَدُهُمَا وَاجِبٌ، وَالْآخَرُ مُمْكِنٌ، أَحَدُهُمَا قَدِيمٌ، وَالْآخَرُ حَادِثٌ، أَحَدُهُمَا غَنِيٌّ، وَالْآخَرُ فَقِيرٌ، أَحَدُهُمَا خَالِقٌ، وَالْآخَرُ مَخْلُوقٌ. وَهُمَا مُتَّفِقَانِ فِي كَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا شَيْئًا مَوْجُودًا ثَابِتًا.

وَمِنَ المَعْلُومِ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا لَيْسَ مُمَاثِلًا لِلْآخَرِ فِي حَقِيقَتِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَتَمَاثَلَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ، وَأَحَدُهُمَا يَجِبُ قِدَمُهُ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ، وَالْآخَرُ لَا يَجِبُ قِدَمُهُ وَلَا هُوَ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ، وَأَحَدُهُمَا خَالِقٌ، وَالْآخَرُ لَيْسَ بِخَالِقٍ، وَأَحَدُهُمَا غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، وَالْآخَرُ فَقِيرٌ.

فَلَوْ تَمَاثَلَا لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهُمَا وَاجِبَ الْقِدَمِ لَيْسَ بِوَاجِبِ الْقِدَمِ، مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ مَوْجُودٍ بِنَفْسِهِ، خَالِقًا لَيْسَ بِخَالِقٍ، غَنِيًّا غَيْرَ غَنِيٍّ، فَيَلْزَمُ اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ عَلَى تَقْدِيرِ تَمَاثُلِهِمَا. فَعُلِمَ أَنَّ تَمَاثُلَهُمَا مُنْتَفٍ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ، كَمَا هُوَ مُنْتَفٍ بِنُصُوصِ الشَّرْعِ.

قال الشيخ:

هذا تكميلٌ لهذه الحجَّة العقليَّة في الردِّ على هؤلاء الشُّيوعيِّين والدَّهريِّين؛ فهو يقول: إنَّنا نشاهد أنَّ على الأرض هذه المخلوقات التي منها: الإنسان، والحيوان، والدَّوابُّ والأشجار، والنَّباتات، ونحوها، ونعرف أنَّها كائنةٌ حيَّةٌ

ونعرف أنَّها موجودةٌ، وأنها أشياءٌ، ونعرف أنَّها حادثةٌ مسبوقةٌ بعدم، ونعرف أنَّها يأتي عليها الفناء والعدم، فتيبس الأشجار، وتنقطع الثمار مثلًا، وتموت الدَّوابُّ والحشرات ونحوها وتتوالد، ويموت الإنسان ويخلفه غيره ... وهكذا. فهذا الدَّليل يبيِّن أنَّها حادثةٌ، والحادث فقيرٌ، فلا بدَّ أنَّ الذي أحدثه غنيٌّ، والحادث عاجزٌ، ولا بدَّ أن يكون الذي أحدثه قادرٌ كامل القدرة، والحادث مستجدٌ، ولا بدَّ أن يكون الذي أحدثه قديمٌ.

فإذا كان كذلك، فالذين ينكرون هذا الدَّليل العقليَّ قد أنكروا المحسوس، وهناك فرقٌ كبيرٌ بين الحادث والمحَدث، بين المخلوق والخالق، بين الغنيِّ والفقير، بين واجب الوجود وممكن الوجود أو جائز الوجود، بين الموجود بنفسه وبين الموجود بغيره، فرقٌ كبيرٌ بين هذا وهذا، فبهذا الدَّليل العقلي يُرَدُّ على هذه الطَّوائف.

وأمَّا الأدلَّة السمعيَّة فإنَّها أشهر وأظهر، وكثيرًا ما يحتجُّ الله تعالى بالآيات الظَّاهرة وهذه الحوادث ونحوها على وجوده وعلى عظمة شأنه ونحو ذلك، وقد تقدَّم لنا شيءٌ من الأدلَّة على ذلك.

قال الشارح:

فَعُلِمَ بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ اتِّفَاقُهُمَا مِنْ وَجْهٍ، وَاخْتِلَافُهُمَا مِنْ وَجْهٍ. فَمَنْ نَفَى مَا اتَّفَقَا فِيهِ كَانَ مُعَطِّلًا قَائِلًا لِلْبَاطِلِ، وَمَنْ جَعَلَهُمَا مُتَمَاثِلَيْنِ كَانَ مُشَبِّهًا قَائِلًا لِلْبَاطِلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُمَا وَإِنِ اتَّفَقَا فِي مُسَمَّى مَا اتَّفَقَا فِيهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى مُخْتَصٌّ بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَالْعَبْدُ لَا يَشْرَكُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَالْعَبْدُ أَيْضًا مُخْتَصٌّ بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ مُشَارَكَةِ الْعَبْدِ فِي خَصَائِصِهِ.

قال الشيخ:

إذا عُرف أنَّ الخالق والمخلوق مشتركان في أسماء، فالخالق شيءٌ والمخلوق شيءٌ، الخالق موجودٌ والمخلوق موجودٌ، الخالق ثابتٌ والمخلوق ثابتٌ، وكذلك في بعض الصِّفات، يُقال مثلًا: الله حيٌّ والإنسان حيٌّ والشجر حيٌّ ... وما أشبه ذلك، فهذا الاتِّفاق لا يلزم منه التَّشابه، بل بينهما فرقٌ كبيرٌ.

إذا عرفنا دلالة العقل على وجود خالقٍ، قديرٍ، قديمٍ، أزليٍّ، قادرٍ على كلِّ شيءٍ، لا يعجزه شيءٌ، ولا يخرج عن قدرته شيءٌ، عُرف بذلك أنَّ المخلوق ينافي هذه الصِّفات، فهو محدثٌ وفقيرٌ ... إلى آخر ما تقدَّم. فيَثْبُت بذلك وجود الخالق واتِّصافه بالصِّفات التي يتَّصف بها المخلوق، ولكن لا يلزم تشابهٌ بين صفة الخالق وصفة المخلوق، كما لا يلزم تشابهٌ بين الذَّاتين.

قال الشارح:

وَإِذَا اتَّفَقَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَهَذَا الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ يُوجَدُ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ، وَالْمَوْجُودُ فِي الْأَعْيَانِ مُخْتَصٌّ لَا اشْتِرَاكَ فِيهِ.

وَهَذَا مَوْضِعٌ اضْطَرَبَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النُّظَّارِ، حَيْثُ تَوَهَّمُوا أَنَّ الِاتِّفَاقَ فِي مُسَمَّى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْوُجُودُ الَّذِي لِلرَّبِّ كَالْوُجُودِ الَّذِي لِلْعَبْدِ.

قال الشيخ:

وهذا خطأٌ، يعني: إذا اتَّفق اثنان في اسمٍ لم يلزم أن يكون هذا كهذا، فإنَّنا نسمِّي الشَّجر حيًّا، ونسمِّي الحيوان حيًّا، ونسمِّي الإنسان حيًّا، ولا يلزم أن يكون هذا كهذا، ويُقال: الجبال موجودةٌ والحيوانات موجودةٌ، اتفق في كلمة (موجودةٍ) شيئان، ولا يلزم أن تكون الجبال كالحيوانات، بل بينهما فرقٌ.

فما دام كذلك فلا يلزم إذا قلنا: (الله حيٌّ والإنسان حيٌّ) أن يكون هناك تشابهٌ بينهما، فليست هذه الحياة كهذه الحياة، ولا العلم كالعلم، ولا القدرة كالقدرة، عُرِف بذلك ضلال هذه الطَّوائف بهذه التَّقديرات.

قال الشارح:

وَطَائِفَةٌ ظَنَّتْ أَنَّ لَفْظَ «الْوُجُودِ» يُقَالُ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ، وَكَابَرُوا عُقُولَهُمْ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ عَامَّةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّقْسِيمِ، كَمَا يُقَالُ: الْمَوْجُودُ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ، وَقَدِيمٍ وَحَادِثٍ. وَمَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْأَقْسَامِ، وَاللَّفْظُ الْمُشْتَرَكُ كَلَفْظِ «الْمُشْتَرِي» الْوَاقِعِ عَلَى الْمُبْتَاعِ وَالْكَوْكَبِ، لَا يَنْقَسِمُ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ يُقَالُ: لَفْظُ «الْمُشْتَرِي» يُقَالُ عَلَى كَذَا أَوْ عَلَى كَذَا، وَمِثَالُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ الَّتِي قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي مَوْضِعِهِ.

قال الشيخ:

وهذه طوائف من المتكلِّمين يبالغون في مثل هذه الأشياء، يُرَدُّ عليهم، فيُقال مثلًا: إنَّ هناك وجودًا في الأعيان ووجودًا في الأذهان، والمعنى الموجود في الأذهان هو ما يتخيَّله الإنسان بعقله، ولكن قد يتخيَّل ويتصوَّر بعقله أشياء غير حقيقيَّةٍ، فعُرف بذلك أنَّ الوجود في الأذهان لا يلزم منه التَّماثل، فإذا مثَّل الإنسان في ذهنه شيئًا أو تخيَّل أشياء، لم يلزم أن تكون واقعيَّةً.

وأمَّا الذين قالوا: إنَّ الوجود لفظٌ مقولٌ بالاشتراك اللَّفظيِّ! فلا شكَّ أنَّ هؤلاء أيضًا أخطؤوا.

معلومٌ أنَّ هناك كلمات تشترك فيها موجوداتٌ، ولكن تختلف المسمَّيات، فعندنا كلمة: (المشتري) تقع على الذي يشتري منك سلعةً، يسمَّى هذا الرَّجل المشتري، وتقع على نجمٍ من النُّجوم مشهورٌ، يُقال: هذا النَّجم اسمه المشتري،

ومعلومٌ أنَّ هذا نجمٌ وهذا إنسانٌ، فلا يقال: إنَّ هذا اشتراكٌ في اللفظ.

كذلك يقولون: كلمة (موجودٍ) مشتركةٌ لفظًا، وهذا خطأٌ، فإن اللِّسان الذي تكلَّمت به العرب على أنَّ كلمة (الموجود) تدل على أن الموجود هو الذي له وجودٌ في الأعيان، ويُدرك بالعين. ولا يقال للموجود في الذهن: إنَّه موجودٌ؛ حيث لا يدرك بالأعيان، فلا بدَّ أن يكون الوجود مدركًا بالأعين لا مقدَرًا بالذِّهن.

فظهر بذلك خطأ الذين يقولون بالاشتراك اللَّفظيِّ، والذين يقولون: إنَّ الوجود وجودٌ ذهنيٌّ.

قال الشارح:

وَأَصْلُ الخَطَأِ وَالْغَلَطِ: تَوَهُّمُهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْعَامَّةَ الْكُلِّيَّةَ يَكُونُ مُسَمَّاهَا الْمُطْلَقُ الْكُلِّيُّ هُوَ بِعَيْنِهِ ثَابِتًا فِي هَذَا الْمُعَيَّنِ وَهَذَا الْمُعَيَّنِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مَا يُوجَدُ فِي الخَارِجِ لَا يُوجَدُ مُطْلَقًا كُلِيًّا، لَا يُوجَدُ إِلَّا مُعَيَّنًا مُخْتَصًّا، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ إِذَا سُمِّيَ اللَّهُ بِهَا كَانَ مُسَمَّاهَا مُعَيَّنًا مُخْتَصًّا بِهِ، فَإِذَا سُمِّيَ بِهَا الْعَبْدُ كَانَ مُسَمَّاهَا مُخْتَصًّا بِهِ، فَوُجُودُ اللهِ وَحَيَاتُهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، بَلْ وُجُودُ هَذَا الْمَوْجُودِ الْمُعَيَّنِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَكَيْفَ بِوُجُودِ الخَالِقِ! أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: هَذَا هُوَ ذَاكَ، فَالْمُشَارُ إِلَيْهِ وَاحِدٌ لَكِنْ بِوَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

قال الشيخ:

يقال: إنَّ الكلام على ما يتعلَّق بالوجود في الذِّهن، والوجود بالعين كلامٌ يتعلَّق بالاحتجاج على هؤلاء الملاحِدَة ونحوهم، فهم يحتاجون إلى بسطٍ في الكلام، وإلى إقناعٍ لهم، ولأجل ذلك نقل الشَّارح هذا الكلام من كتب شيخ الإسلام ابن تيميَّة وغيره؛ ليبيِّن أنَّهم يفرضون وجودًا في الذِّهن مخالفًا للوجود في العين، ثم يعتقدون أنَّه لو كان كلُّه موجودًا في العين لحصل بذلك تشابهٌ؛ فلذلك نفوا الوجود في العين، وقدَّروا وجودًا في الذِّهن، وكلُّ ذلك كلامٌ لا طائل تحته، والمسلم على فطرته يعتقد أنَّ كلَّ صفةٍ ثبتت للخالق فإنَّه لا يشبهه بها خلقه، وأنَّ المخلوق بصفاته ناقصٌ وحادثٌ، وصفاته تناسبه، كما صفات الخالق تناسبه.

قال الشارح:

وَبِهَذَا وَمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْمُشَبِّهَةَ أَخَذُوا هَذَا الْمَعْنَى، وَزَادُوا فِيهِ عَلَى الْحَقِّ فَضَلُّوا، وَأَنَّ الْمُعَطِّلَةَ أَخَذُوا نَفْيَ الْمُمَاثَلَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَزَادُوا فِيهِ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى ضَلُّوا، وَأَنَّ كِتَابَ اللهِ دَلَّ عَلَى الْحَقِّ الْمَحْضِ الَّذِي تَعْقِلُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ الصَّحِيحَةُ، وَهُوَ الْحَقُّ الْمُعْتَدِلُ الَّذِي لَا انْحِرَافَ فِيهِ.

فَالنُّفَاةُ أَحْسَنُوا فِي تَنْزِيهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ عَنِ التَّشْبِيهِ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَكِنْ أَسَاؤُوا فِي نَفْيِ الْمَعَانِي الثَّابِتَةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَالْمُشَبِّهَةُ أَحْسَنُوا فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنْ أَسَاؤُوا بِزِيَادَةِ التَّشْبِيهِ.

قال الشيخ:

وكِلا الطَّائفتيْن مخطئةٌ ضالَّةٌ: الذين غَلَوا في الإثبات حتَّى جعلوا صفات المخلوق كصفات الخالق، وقالوا: لله يدٌ كأيدينا، ووجهٌ كوجوهنا، هؤلاء أحسنوا في أثبات الصِّفات، ولكنَّهم أخطؤوا في التَّشبيه.

وأمَّا النُّفاة الذين غَلَوا في النَّفي، وقالوا: كلُّ صفةٍ موجودةٍ في المخلوق لا يمكن أن تثبت للخالق، فإنَّ إثباتها يؤول إلى التَّشبيه، والله تعالى ليس كمثله شيءٌ! هؤلاء أحسنوا في نفي التَّشبيه، ولكنَّهم أساؤوا حيث نفوا الصِّفات الثَّابتة الموجودة.

والوسط: أن يُقال: صفات الخالق تليق به، وصفات المخلوق تليق به، وليست هذه كهذه، فنثبت ما أثبته الله لنفسه، وننفي ما نفاه عن نفسه.

قال الشارح:

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُخَاطَبَ لَا يَفْهَمُ الْمَعَانِيَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِاللَّفْظِ إِلَّا أَنْ يَعْرِفَ عَيْنَهَا أَوْ مَا يُنَاسِبُ عَيْنَهَا، وَيَكُونُ بَيْنَهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَمُشَابَهَةٌ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى، وَإِلَّا فَلَا يُمْكِنُ تَفْهِيمُ الْمُخَاطَبِينَ بِدُونِ هَذَا قَطُّ، حَتَّى فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِ مَعَانِي الْكَلَامِ بِتَعْلِيمِ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ، مِثْلَ تَرْبِيَةِ الصَّبِيِّ الَّذِي يُعَلَّمُ الْبَيَانَ وَاللُّغَةَ، يُنْطَقُ لَهُ بِاللَّفْظِ الْمُفْرَدِ، وَيُشَارُ لَهُ إِلَى مَعْنَاهُ، إِنْ كَانَ مَشْهُودًا بِالْإِحْسَاسِ الظَّاهِرِ أَوِ الْبَاطِنِ، فَيُقَالُ لَهُ: لَبَنٌ، خُبْزٌ، أُمٌّ، أَبٌ، سَمَاءٌ، أَرْضٌ، شَمْسٌ، قَمَرٌ، مَاءٌ، وَيُشَارُ لَهُ مَعَ الْعِبَارَةِ إِلَى كُلِّ مُسَمًّى مِنْ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ، وَإِلَّا لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَى اللَّفْظِ وَمُرَادَ النَّاطِقِ بِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ يَسْتَغْنِي عَنِ التَّعْلِيمِ السَّمْعِيِّ، كَيْفَ وَآدَمُ أَبُو الْبَشَرِ أَوَّلُ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أُصُولَ الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَهِيَ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا، وَكَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ بِخِطَابِ الْوَحْيِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ.

قال الشيخ:

معلومٌ أنَّ هذه المسمَّيات لا تُفهم إلَّا بعد التَّفهيم، فلو قَدِمَ إنسانٌ أعجمي إلى بلاد العرب، لاحتاج إلى مدة من الزمان حتَّى يعرف المسمَّيات، يسمع كلمة (رجلٍ) ولا يدري ما تدلُّ عليه؛ حتى يُقال له: هذا هو الرَّجل، ويسمع كلمة (كرسيٍّ) ولا يدري ما هي؛ حتَّى يُقال: هذا هو الكرسيُّ، ويسمع كلمة (مسجدٍ) ولا يدري ما هي؛ حتى يُكرَّر عليه: هذا هو المسجد، وهذا هو السَّقف، وهذا هو الفراش، وهذا هو العمود، وهذه هي الألواح، وكذا وكذا، فيأخذها بالتَّدريج؛

كالصَّبيِّ عندما يشبُّ ويسمعُ ويعقل يُلَقَّن كلمةً كلمةً، فيقال له مثلًا: هذا هو الأبُ، وهذه هي الأمُّ، وهذا هو الخبز؛ لأنه إذا سمع كلمة (الخبز) قد لا يفهم حتَّى يُشار إليه، وهذا هو اللبن، وهذا هو اللَّحم، وكذا وكذا.

هذه الأسماء لابدَّ أن تُفهم بالتَّدريج، فالله تعالى علَّم آدم الأسماء كلَّها، علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ: اسم الإنسان، واسم الحيوانات، واسم الدَّوابِّ، واسم الأدوات، واسم الكواكب، واسم الحشرات، واسم النَّباتات، هذا التَّعليم لا شكَّ أنَّه لُقِّنَه تلقينًا، قيل له: هذا كذا، اسمه كذا.

كذلك هذه الكلمات التي نتكلَّم بها في هذه اللُّغة، وكذلك الأعاجم لا نعرف اصطلاحاتهم حتَّى يسمُّوها لنا، فيقولون: نسمِّي هذا كذا، ونسمِّي هذا كذا، فتُؤخذ بالتَّعلُّم وبالتَّدريج.

وهذه المسمَّيات لها معانٍ؛ فكلمة (الحُبِّ) قد لا نستطيع أن نعبِّر عن معناها، ولكن فُهمت باصطلاحنا، والأعاجم لا يدرون ما معناها؛ حتَّى يُشار لهم، وقد أثبت الله تعالى المحبة، فنحن نفهمها ونقول: معناها كذا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، ونحو ذلك.

وكذلك كلمة (العَجَب) أثبتها الله في قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد:٥]، فنحن نفهمها بلغتنا، ونترجمها باللُّغات الأخرى، ونعرف مدلولها ومعناها. وكذا كلمة (الغضب)، وكلمة (الرِّضا)، وكلمة (البُغض)، وكلمة (الرَّحمة)... وما أشبه ذلك.

فهذه كلماتٌ تدلُّ على صفاتٍ، فلا بدَّ أنَّ العرب الذين نزلتْ عليهم يفهمون مدلولها؛ حيث إنَّ مدلولها واضحٌ عندهم، فعُرف بذلك أنَّها مفهومة المعاني، وأنَّها دالَّةٌ على صفاتٍ، وأنَّ الذين قُرئت عليهم فهموا مدلولها. فهؤلاء الذين أنكروا مدلولها يُقال لهم: أنكرتم شيئًا مفهومًا معقولًا في عقولكم وفي عقول من قبلكم، فأنكرتم الحسَّ والعقل والشَّرع.

فيُعرف بذلك أنَّ الألفاظ التي صرَّفوها وتأوَّلوها أو أنكروها، أو قالوا مثلًا: إنَّها ذهنيَّةٌ، أو مشتركةٌ اشتراكًا لفظيًّا، أو أنَّها مجازٌ، أو ما أشبه ذلك؛ كتأويلهم للرَّحمة، والغضب، والرِّضا، واليد، والعلوِّ، والنزُّول، والاستواء، وما أشبه ذلك، مع أنَّها كلماتٌ مفهومةٌ عند الذين نطقوا بها، ومعلومٌ عندهم معناها كما يعرفون اسم الخبز، واللَّبن، واللَّحم، والبُرِّ، والتَّمر، وما أشبه ذلك، يعرفون هذه ويعرفون هذه، لا فرق بينها، فما الذي جعلكم تؤِّلون هذه وتتكلَّفون فيها، ولا تؤِّلون كلمة الخبز وكلمة اللحم وكلمة التمر، وما أشبه ذلك؟! فالذين تكلَّموا بهذا يفهمونه كالذين تكلَّموا بهذا.

فهذا يبيِّن أنَّ تأويلاتهم بعيدةٌ عن العقل والفطرة.

وقد أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ بلسان عربي مبين، فخاطب الناس بلسانهم، وعلمهم بالتدريج، وكان مما خاطبهم به التعريف بالله بأسمائه وصفاته، وذلك بألفاظ يفهمون معانيها، ويفهمون أن المخلوق وإن اتصف بمسمياتها لكن الحقائق تختلف، ولذلك لم يتوهموا تشبيهًا، ولا فروا منه إلى النفي والتعطيل، بل أثبتوا كلمة التوحيد، وثبتوا على ما جاء في التنزيل.

ويعتقد المسلمون أنَّ الله تعالى موصوفٌ بصفات الكمال، ويعتقدون أنَّ توحيد الصِّفات متلقَّى عَنِ الشَّرع، مأخوذٌ عن كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ؛ وذلك لأنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ اختاره الله لحمل الرسالة؛ لما فيه من الأهليَّة، فهو ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ من أفصح الخلق وأنصحهم، يحبُّ الخير لأمَّته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: من جنسكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. فإذا كان حريصًا على هِداية الأمَّة، وإذا كان يحبُّ لهمُ النَّجاة، ورزقه الله وأعطاه الفصاحة والقدرة على البلاغ والبيان، فلا بدَّ أنَّه قد بلَّغ، ولا بدَّ أنَّه قد بيَّن، ومن اعتقد أنَّه كتم ما أُنزل إليه فقد كفر، ومن اعتقد أنَّه لَبَّس على الأمَّة وأوقعهم في الحيرة فقد كفر، بل نعتقد أنَّه بلَّغ ولم يكتم، وأوضح وبيَّن، وإذا رجعنا إلى بيانه وإلى ما بلَّغه وجدناه واضحًا.

والنبي ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ظهر في أُناس يتكلَّمون باللُّغة العربيَّة، ويفهمون كلامه، وإذا كان كذلك، فلا بدَّ أنَّه خاطبهم بما يفهمون، فنرجع إلى لغتهم.

ومعلومٌ أنَّه جاء بشيءٍ لم يكونوا يعرفونه، فسماه بأسماءٍ يفهمونها. فما كانوا يعرفون كلمة (الإسلام) ولا كلمة (الإيمان) على مسمَّاها الشَّرعيِّ، ولا كانوا يعرفون كلمات (الصَّلاة) ولا (الوضوء) ولا (الصوم) على مسمَّاه الشَّرعيِّ، وكذلك لم يكونوا يعرفون مسمَّى (النِّفاق)، ولا مسمَّى (الكفر)، ولا (الشِّرك)،

ولا (الفسوق) بمسمَّاها الشَّرعيِّ، لكن يعرفون الكلمات على معانٍ أخرى، فاستعمل هذه المعاني التي تقارب ما يعرفونه.

وإذا كان هذا في هذه الأمور المعتادة التي هي من العبادات، فإنَّه كذلك تكلَّم معهم في الصفات، فهم يعرفون ماذا يُطلق عليه السَّمع، وكذلك البصر والقدرة والقوَّة والعلم والكلام، فلا بدَّ أنَّه خاطبهم بالأشياء التي يفهمونها، وأنَّهم فهموا ما بلَّغهم به.

فعلى هذا فالذين يتكلَّفون في صرف اللَّفظ عن ظاهره لا شكَّ أنَّهم وقعوا في ضلالٍ، ووقعوا في تخطئة النَّبيِّ ﷺ من حيث يشعرون، أو من حيث لا يشعرون.

قال الشارح:

فَدَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى المَعْنَى هِيَ بِوَاسِطَةِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا عَنَاهُ المُتَكَلِّمُ وَأَرَادَهُ، وَإِرَادَتُهُ وَعِنَايَتُهُ فِي قَلْبِهِ، ولَا يُعْرَفُ بِاللَّفْظِ ابْتِدَاءً، وَلَكِنْ لَا يُعْرَفُ المَعْنَى بِغَيْرِ اللَّفْظِ حَتَّى يُعْلَمَ أَوَّلًا أَنَّ هَذَا المَعْنَى المُرَادَ هُوَ الَّذِي يُرَادُ بِذَلِكَ اللَّفْظِ وَيُعْنَى بِهِ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ ثُمَّ سَمِعَ اللَّفْظَ مَرَّةً ثَانِيَةً، عَرَفَ المَعْنَى المُرَادَ بِلَا إِشَارَةٍ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا يُحَسُّ بِالْبَاطِنِ، مِثْلِ الْجُوعِ وَالشِّبَعِ وَالرِّيِّ وَالْعَطَشِ وَالْحُزْنِ وَالْفَرَحِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ اسْمَ ذَلِكَ حَتَّى يَجِدَهُ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِذَا وَجَدَهُ أُشِيرَ إِلَيْهِ، وَعُرِّفَ أَنَّ اسْمَهُ كَذَا.

وَالْإِشَارَةُ تَارَةً تَكُونُ إِلَى جُوعِ نَفْسِهِ أَوْ عَطَشِ نَفْسِهِ، مِثْلَ أَنْ يَرَاهُ أَنَّهُ قَدْ جَاعَ، فَيَقُولُ لَهُ: جُعْتَ، أَنْتَ جَائِعٌ، فَيَسْمَعُ اللَّفْظَ وَيَعْلَمُ مَا عَيَّنَهُ بِالْإِشَارَةِ، أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهَا مِنَ الْقَرَائِنِ الَّتِي تُعَيِّنُ المُرَادَ، مِثْلَ نَظَرِ أُمِّهِ إِلَيْهِ فِي حَالِ جُوعِهِ، وَإِدْرَاكِهِ بِنَظَرِهَا أَوْ نَحْوِهِ أَنَّهَا تَعْنِي جُوعَهُ، أَوْ يَسْمَعُهُمْ يُعَبِّرُونَ بِذَلِكَ عَنْ جُوعِ غَيْرِهِ.

قال الشيخ:

أورد الشَّارح هذا الكلام ليبيِّن أنَّ الرَّسول ﷺ خاطبهم بكلماتٍ يفهمونها، وإلَّا فلو لم يكونوا فاهمين لما سكتوا حتى يستفهموا، فإنَّ الإنسان الذي لا يفهم الكلمة لابدَّ أن يسأل عنها. فأنت مثلًا لو لقيت رجلًا أعجميًّا، ثم خاطبته بمثل هذه الكلمات ولم يفهم، فإنَّه يضيق صدره حتَّى تُفْهِمَه؛ فتقول له: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، تشير إلى هذه وتقول اسمها شاةٌ، وهذه اسمها بقرةٌ، وهذه

اسمها ناقةٌ مثلًا، وهذا جملٌ، وهذا حصانٌ، فحينئذٍ يَفهم.

وهكذا أيضًا إذا عبَّرت له عن الأشياء العلويَّة، قلت مثلًا: هذه السماء، وهذه الأرض، وهذا اسمه جبلٌ، وهذا اسمه وادٍ، وهذه شجرةٌ، وهذه نخلةٌ، إلى أن يفهم، وهكذا أيضًا تعبِّر له عن المعاني التي قد لا يكون مشارًا إليها، لا يكون لها أشخاصٌ، مثل: الجوع، والعطش، والخوف، والفرح، والحزن، والضَّحك، والبكاء، لا يفهمها إلَّا إذا أحسَّ بها.

فإذا كان كذلك فما من شكٍّ أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عندما تكلَّم بالكلمات كانوا يفهمون معناها، كانوا يفهمون أنَّه إذا أخبر أنَّ الله سميعٌ بصيرٌ معناه: أنه يدرك الأصوات ويبصر المرئيَّات، وكذلك إذا أخبر أنَّه متكلِّم يفهمون من كلامهم وممَّا يعرفونَه أنَّ الكلام ما يُسمع وما يُعبَّر به عن المعاني، ويفهمون من العلم مثلًا ضدَّ الجهل، ويفهمون من المحبة ضدَّ الكراهية أو ضدَّ البُغض ... وهكذا، فإذا كانوا يفهمون ذلك وهو لغتهم، فكيف يُقال: إنَّها غير معلومةٍ، وإنَّ هذه الكلمات بمنزلة الكلمات الأعجميَّة التي يسمعها الإنسان ولا يدري معناها؟!

فأنت ـ مثلًا ـ لو سمعت كلامًا أعجميًّا ولم تفهمه؛ لقلت: فلانٌ ما بيَّن لي، كلَّمني بكلامٍ غير معروفٍ، فلا تشهد له بالبيان.

ونحن نشهد بأنَّ الرَّسول ﷺ بيَّن، وأنَّ القرآن بيانٌ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، فنشهد بأَنَّه بيَّن للناس، وأن النَّاس فهموا عنه، ولو كان كما يقوله النُّفاة والمبتدعة من التَّكلُّف في صرف تلك الكلمات لما كان قد بيَّن، وهم لا يقولون على هذا: إنَّه بيِّنٌ؛ بل يعتقدون أنَّه لَبَّس، وحاشاه - عليه الصَّلاة والسَّلام - من التَّلبيس.

قال الشارح:

إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ، فَالْمُخَاطَبُ الْمُتَكَلِّمُ إِذَا أَرَادَ بَيَانَ مَعَانٍ، فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا أَدْرَكَهَا الْمُخَاطَبُ الْمُسْتَمِعُ بِإِحْسَاسِهِ وَشُهُودِهِ، أَوْ بِمَعْقُولِهِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ، فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْقِسْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لَمْ يَحْتَجْ إِلَّا إِلَى مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ، بِأَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ وَمَعْنَى التَّرْكِيبِ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨، ٩]، أَوْ قِيلَ لَهُ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهِمَ الْمُخَاطَبُ بِمَا أَدْرَكَهُ بِحِسِّهِ.

وَإِنْ كَانَتِ الْمَعَانِي الَّتِي يُرَادُ تَعْرِيفُهُ بِهَا لَيْسَتْ مِمَّا أَحَسَّهُ وَشَهِدَهُ بِعَيْنِهِ، وَلَا بِحَيْثُ صَارَ لَهُ مَعْقُولٌ كُلِّيٌّ يَتَنَاوَلُهَا حَتَّى يَفْهَمَ بِهِ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ، بَلْ هِيَ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَوَاسِّهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَلَا بُدَّ فِي تَعْرِيفِهِ مِنْ طَرِيقِ الْقِيَاسِ وَالتَّمْثِيلِ وَالِاعْتِبَارِ بِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْقُولَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي شَاهَدَهَا مِنَ التَّشَابُهِ وَالتَّنَاسُبِ، وَكُلَّمَا كَانَ التَّمْثِيلُ أَقْوَى، كَانَ الْبَيَانُ أَحْسَنَ، وَالْفَهْمُ أَكْمَلَ.

قال الشيخ:

الرُّسل ـ عليهم السَّلام ـ بيَّنوا للنَّاس أشياءً يشاهدونها، وأشياء لم يشاهدوها، ولكن شاهدوا ما يشهد لها. فمثلًا: العبادات وضَّحوها، فقالوا: هذه صفة الوضوء، وهذا اسمه وضوءٌ، وهذه كيفيَّته، وهذه هي الصَّلاة، وهذه كيفيتها،

وهذه من جملة البيان.

كذلك بيَّنوا أشياء لم نشاهدها، وعبَّروا عنها بعبارةٍ نفهمها، فمثلًا: اليوم الآخر - الذي هو يوم القيامة - لم نشاهده؛ لأنَّه لم يكن بعد، ولكن ذُكرت لنا أوصافه بكلماتٍ مفردةٍ وجُمَلٍ نفهم المعنى منها، فَأُخْبِرنا بأنَّ النَّاس يُبعثون وتُعاد أرواحهم في أجسادهم، وهذا مفهومٌ معناه، وكذلك جَمْعُ النَّاس في يوم القيامة مفهومٌ معناه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]، وكذلك نصب الموازين والوزن للأعمال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، مفهومٌ الوزن، ومعروفٌ نوعه، وكذلك الإخبار بنشر الكتب: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، ما رأيناه، ولكن نفهم معناه.

هذه الأمور التي أُخبرنا بها ونحن لم نرها، فهمنا معناها؛ لأنها وردت بالكلمات التي نعرف جنسها، فالوزن معروفٌ جنسه في الدُّنيا، ولكن ليس الوزن في الدُّنيا كالوزن في الآخرة، بل بينهما فرقٌ، إلَّا أن كلًّا منهما فيه ميزان يرجح ويخف، فمنهم من ثَقُلَتْ موازينُه، ومنهم من خفَّتْ موازينُه.

وكذلك الصِّراط الذي أُخبِرنا بأنَّ النَّاس يمشون عليه، الصِّراط في الدُّنيا معروفٌ، وهو الطَّريق الواسع، ولكن أخبرنا بأنَّ الصِّراط في الآخرة منصوبٌ، وأنه يمشي عليه كل الخلائق ... إلى غير ذلك من أوصافه، فنؤمن بذلك كلِّه، ولكن نعلم أنه ليس كالذي نعرف في الدُّنيا.

وهكذا أيضًا الكتب التي تُنشر في الآخرة، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾، كلٌّ يقرأ كتابه، الأميُّ وغير الأميِّ، معلومٌ أنَّ هذا ليس ككتاب الدُّنيا الذي لا يقرؤه إلاَّ القارئ، فعُرف بذلك أنَّنا أُخبرنا بأشياء من الغيب مفهوم معناها، وإن لم تُفهم كيفيَّتها.

فبذلك يُعرف أنَّ الإيمان بالأمور الغيبيَّة لابدَّ من فهم معناه، لو أنَّ النَّاس ما فهموا كلمة: النَّار، وجهنم، وسَقَر، والسَّعير، ونارٍ تلظَّى، ونارٍ موقدةٍ، ونارٍ حاميةٍ، لو لم يفهموا معناها؛ ما خافوا، ولا بكوا، ولا حَذِروا، ولا ابتعدوا عن المعاصي التي تدخلهم هذه النَّار، ولكنهم فهموا أنَّها نار عذابٍ، وأنَّ عذابها وَبيلٌ، واعتقدوا صحَّة ما جاء فيها من الحميم والغصة والزَّقُّوم، وما أشبه ذلك.

ولو أنَّ النَّاس ما فهموا معنى جنَّات النَّعيم ودار السَّلام وما أشبهها، وما فيها من الحُبور، وما فيها من القصور والأنهار والأشجار والثمار، لو لم يفهموها ولو لم يتصوَّروها، ما عملوا لأجلها، فلا بدَّ أنَّهم فهموا.

إذًا الذين آمنوا بالآخرة وآمنوا بالغيب فهموا معنى ذلك، فيُقاس على ذلك فهمهم لمدلول الصِّفات، وإن لم يكن هناك تماثلٌ حقيقيٌّ.

ولهذا يقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ليس في الدنيا ممَّا في الجنَّة؛ إلَّا الأسماء»[1]، يعني: إنَّها تتشابه في الأسماء، وتتشابه في المعنى العامِّ، فالله تعالى أخبر

(١) أخرجه الطبري (١/ ١٧٢).

أنَّ في الجنَّة أنهارًا، ومع ذلك تجري في غير أُخدودٍ، هل يُتصوَّر أنَّها تجري في الدُّنيا على الأرض بغير أخدودٍ؟ يعني: في غير حُفَرٍ وسواقٍ تجري على وجه الأرض، ومع ذلك لا تسيح في النّهر؟! فهذا من آيات الله.

وكذلك المنازل التي في الآخرة أخبر النبي ﷺ عنها بقوله: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا**»[1]، فهذا دليلٌ على أنَّنا نعرف أنَّها قصورٌ، وأنَّها مبنيَّةٌ، وأنَّها من لؤلؤٍ، ومن زبرجدٍ، ومن كذا وكذا، ولكنها ليست ممَّا ندركه. فهذا دليلٌ على أنَّ أمور الآخرة نفهم معناها ولا نعرف كيفيَّتها، فيقال: مثل ذلك أيضًا في باب الصِّفات.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٣)، وابن خزيمة (٣/ ٣٠٦)، وابن حبان (٢/ ٢٦٢)، والبيهقي (٤/ ٣٠٠) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

قال الشارح:

فَالرَّسُولُ ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ـ لَـمَّا بَيَّنَ لَنا أُمُورًا لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي لُغَتِهِمْ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِعَيْنِهَا، أَتَى بِأَلْفَاظٍ تُنَاسِبُ مَعَانِيهَا تِلْكَ المَعَانِيَ، وَجَعَلَهَا أَسْمَاءً لَهَا، فَيَكُونُ بَيْنَهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ، كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْكُفْرِ.

وَكَذَلِكَ لَـمَّا أَخْبَرَنَا بِأُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ أَلْفَاظٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا بِعَيْنِهَا، أَخَذَ مِنَ اللُّغَةِ الْأَلْفَاظَ الْمُنَاسِبَةَ لِتِلْكَ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ تِلْكَ المَعَانِي الْغَيْبِيَّةِ، وَالمَعَانِي الشُّهُودِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يَعْرِفُونَهَا، وَقَرَنَ بِذَلِكَ مِنَ الْإِشَارَةِ وَنَحْوِهَا مَا يُعْلَمُ بِهِ حَقِيقَةُ الْمُرَادِ، كَتَعْلِيمِ الصَّبِيِّ، كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «النَّاسُ فِي حُجُورِ عُلَمَائِهِمْ كَالصِّبْيَانِ فِي حُجُورِ آبَائِهِمْ»[1].

قال الشيخ:

مر بنا أنَّ الرَّسول ﷺ استعمل معاني لم تكن معروفةً عند العرب، ولكن عَبَّر عنها بما يقاربها من كلماتٍ يفهمون معناها، فما كانوا يعرفون الشِّرك أنَّه عبادة غير الله معه، ولكن يعرفون أنَّ الشِّرك اشتراكُ اثنين في شيءٍ، فهذا تسمية عبادة غير الله مع الله، مثل اشتراك اثنين في شيءٍ، فسمَّاه (شِركًا) لما فيه من الاشتراك. ولـمَّا

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (القسم المتمم) (ص٣٢١).

كانوا يعرفون أنَّ الكفر هو السَّتر والتَّغطية، وكان الكافر قد أنكر الإيمان وأنكر التَّوحيد ونحو ذلك، وجحده وستره، صدّق عليه أنَّه كفرٌ، فسمَّاه الرَّسول ﷺ (كفرًا) بأمر الله، وما كانوا يعرفون أنَّ الإيمان هو الدُّخول في هذه الشَّريعة وتقبُّلها، بل يعرفون أن الإيمان هو تصديق الإنسان بقلبه بشيءٍ، فلما جاء بهذه الكلمة جعلها اسمًا للتصديق الكلِّيِّ بما جاء في هذا الشَّرع، هذا تصديقٌ وهذا تصديقٌ، ولكن هذا بشيءٍ وهذا بشيءٍ، وكذلك كانوا يعرفون أنَّ كلمة الإسلام تعني الإذعان للشَّيء والاستسلام له؛ فاستعمل الإسلام في الإذعان للشَّرع والانقياد له، وما كانوا يعرفون الصَّلاة أنَّها الرُّكوع والسُّجود ... إلى آخره؛ فاستعملها في هذا لأنَّهم يعرفون أنَّ الصَّلاة هي الدُّعاء، وهذه فيها دعاءٌ.

وهكذا يُقال في بقية الأشياء، فلَمَّا علمهم - عليه الصَّلاة والسَّلام - هذه الأشياء، علَّمهم أسماءها ثم علَّمهم كيفيَّتها، فلمَّا سُئل عن الإسلام فسَّره بالأركان، ولَمَّا سُئل عن الإيمان وعن الإحسان فسرهما، فإذا كان هذا تعليمه لأمَّته، واستعمل هذه الكلمات فيما يقاربها من اللُّغة التي يفهمونها، فهو ﷺ بمنزلة المعلِّم الذي يعلِّم تلاميذَه، ويبدؤهم بصِغار العلم قبل كِباره، ويربِّيهم بذلك، والله تعالى أرشد إلى هذه الطَّريقة بقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]. فهكذا ينبغي أن يُعرف ويُعتقد أنَّ الرُّسل بلَّغوا وبيَّنوا للنَّاس الأمور الغيبيَّة والأمور الاصطلاحيَّة الشرعيَّة على حسب ما يفهمون، وأنَّ أمَّتهم فهموا منهم ذلك فهمًا كاملًا.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا يُخْبِرُ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، فَقَدْ يَكُونُ مِمَّا أَدْرَكُوا نَظِيرَهُ بِحِسِّهِمْ وَعَقْلِهِمْ، كَإِخْبَارِهِمْ بِأَنَّ الرِّيحَ أَهْلَكَتْ عَادًا، فَإِنَّ عَادًا مِنْ جِنْسِهِمْ، وَالرِّيحَ مِنْ جِنْسِ رِيحِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ أَشَدَّ، وَكَذَلِكَ غَرَقُ فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ، وَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْإِخْبَارُ بِذَلِكَ فِيهِ عِبْرَةٌ لَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١].

وَقَدْ يَكُونُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ الرَّسُولُ مَا لَمْ يُدْرِكُوا مِثْلَهُ الْمُوَافِقَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَكِنَّ فِي مُفْرَدَاتِهِ مَا يُشْبِهُ مُفْرَدَاتِهِمْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، كَمَا إِذَا أَخْبَرَهُمْ عَنِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمُوا مَعْنًى مُشْتَرَكًا، وَشَبَهًا بَيْنَ مُفْرَدَاتِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَبَيْنَ مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظٍ مما عَلِمُوهُ فِي الدُّنْيَا بِحِسِّهِمْ وَعَقْلِهِمْ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْهَدُوهُ بَعْدُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ يَشْهَدُوهُ مُشَاهَدَةً كَامِلَةً؛ لِيَفْهَمُوا بِهِ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْنَى الْغَائِبِ، أَشْهَدَهُمْ إِيَّاهُ، وَأَشَارَ لَهُمْ إِلَيْهِ، وَفَعَلَ فِعْلًا يَكُونُ حِكَايَةً لَهُ، وَشَبَهًا بِهِ، يَعْلَمُ الْمُسْتَمِعُونَ أَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِالْحَقَائِقِ الْمَشْهُودَةِ هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي يَعْرِفُونَ بِهَا الْأُمُورَ الْغَائِبَةَ.

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ هذا من جملة ما بيَّنه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وأخبرهم عن

أمورٍ لم يشاهدوها، فمن ذلك أمورٌ قد سبقت ولكن يُفهم معناها، أخبر الله بأنَّه أغرق قوم نوحٍ وأنجى نوحًا في السَّفينة، فنعرف أنَّ قوم نوحٍ بشرٌ مثلنا، وأنَّ السَّفينة مركبٌ من المراكب يسبح في البحر، فأخبر بأنَّه أنْجَى نوحًا ومَنْ معه بالسَّفينة بقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥]، وفي قوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، هذا شيءٌ مفهومٌ سمعناه وفهمنا معناه.

وكذلك إخباره بأنَّه أهلك عادًا بالرِّيح؛ فعادٌ بشرٌ مثلنا؛ إلاَّ أنَّهم أشدُّ خلقًا؛ كما في قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، والرِّيحُ من جنس الريحِ التي نعرفها، إلاَّ أنَّها أشدُّ، وهكذا يقال في الإخبار عن الأمم السَّابقة: معناها مفهوم.

أما الأمور الغيبيَّة التي هي من الأمور الأخرويَّة، فقد أخبر الله تعالى على لسان رسوله عن أمورٍ غيبيَّةٍ من الأمور المستقبلية، ولكن نُصدِّق بها، ونفهم مدلولها الإجماليَّ وإن لم نفهم الكيفيَّة، قد خُبِّرْنا مثلًا بالصِّراط والميزان، وكذلك الحوض في الآخرة، وحساب الله تعالى للخلق، وخلقتهم وكيفيتهم، وكذلك الجنَّة والنَّار وما فيهما، هذه مفهومٌ معناها، وإن لم يكن الذي نشاهده في الدُّنيا كالذي يحصل في الآخرة، بل بينهما تفاوتٌ. فعُرِفَ بذلك أنَّ الرُّسُل بيَّنوا للنَّاس، وأنَّ النَّاس فهموا المعنى العموميَّ الذي يحصلُ به إدراكُهم وانتفاعُهم.

قال الشارح:

فَيَنْبَغِي أَنْ تُعْرَف هَذِهِ الدَّرَجَاتُ:

أَوَّلُهَا: إِدْرَاكُ الْإِنْسَانِ المَعَانِيَ الحِسِّيَّةَ المُشَاهَدَةَ.

وَثَانِيهَا: عَقْلُهُ لِمَعَانِيهَا الْكُلِّيَّةِ.

وَثَالِثُهَا: تَعْرِيفُ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى تِلْكَ المَعَانِي الحِسِّيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ.

فَهَذِهِ المَرَاتِبُ الثَّلَاثُ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي كُلِّ خِطَابٍ. فَإِذَا أَخْبَرَنَا عَنِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفِنَا المَعَانِيَ المُشْتَرَكَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الحَقَائِقِ المَشْهُودَةِ وَالِاشْتِبَاه الَّذِي بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ بِتَعْرِيفِنَا الْأُمُورَ المَشْهُودَةَ، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ مِثْلَهَا لَمْ يُحْتَجْ إِلَى ذِكْرِ الْفَارِقِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَصَصِ الْأُمَمِ، وَإِنْ لَمْ تكُنْ مِثْلَهَا، بَيَّنَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْفَارِقِ، بِأَنْ يُقَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ مِثْلَ هَذَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِذَا تَقَرَّرَ انْتِفَاءُ المُمَاثَلَةِ كَانَتِ الْإِضَافَةُ وَحْدَهَا كَافِيَةً فِي بَيَانِ الْفَارِقِ، وَانْتِفَاءُ التَّسَاوِي لَا يَمْنَعُ منه وُجُودُ الْقَدْرِ المُشْتَرَكِ الَّذِي هُوَ مَدْلُولُ اللَّفْظِ المُشْتَرَكِ، وَبِهِ صِرْنَا نَفْهَمُ الْأُمُورَ الْغَائِبَةَ، وَلَوْلَا المَعْنَى المُشْتَرَكِ مَا أَمْكَنَ ذَلِكَ قَطُّ.

قال الشيخ:

لابُدَّ لمعرفة المعاني من معرفة الألفاظ، فلو كنَّا لا نعرف كلمة (سمع)، ما فهمنا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، ولو كنَّا لا نعرف المعنى الذي تُفسَّر به الكلمة ـ أنَّ السَّمع هو إدراك الأصوات ـ ما فهمنا أيضًا المعنى الذي

دلَّت عليه الجملة، ولو كنَّا نسمع كلمة (سمع)، ونفسِّرها ولكن لا ندري ما مدلولها، ما فهمناها ولا انتفعنا بالكلام.

فيُقال: علينا أن نعرف أنَّ المعاني واضحةٌ تُفهم بمجرَّد فَهْم اللُّغة، فيفهم المسلمون - مثلًا - إذا قيل في أوصاف الله - عزَّ وجلَّ - أنَّه المهيمن، وأنَّه رقيبٌ على عباده، فهموا أنَّه يراهم، وإذا قيل: ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٨، ٢١٩]، فهموا أنَّه يراهم، وأنَّه مطَّلعٌ على أعمالهم، وإذا قرؤوا - مثلًا - قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦]، فهموا أنَّ ذلك تخويفٌ؛ حيث إنَّه يراقبهم، ولا يخفى عليه من أمورهم خافيةٌ.

ولو كانوا لم يتصوَّروا - مثلًا - هذا القرب لم يؤمنوا به؛ وذلك لأنَّه من الأمور الغيبيَّة، إنَّما القصد منه التَّخويف حتَّى يحذر الإنسان إذا عرف أنَّ عليه رقيبًا.

فإذا عرفنا مدلول الكلمة، وعرفنا كيف تُفَسَّر، قلنا - مثلًا -: السَّمع يفسَّر بأنَّه إدراكُ الأصوات، وفهمنا معناها، والبصر يُفسَّر بأنه إدراك الأشخاص، ورؤية الأعيان المبصرة، وفهمنا أنَّ الرَّبَّ تعالى موصوفٌ بالعلوِّ، وعرفنا أنَّ العلوَّ هو الارتفاع فوق كلِّ شيءٍ، وفهمنا هذه اللَّفظة وأدركنا معناها، فعلى ذلك ندرك ثبوت الصِّفة، ولكن هل نفهم التَّشبيه؟

لا نفهم التَّشبيه - يعني: لا نفهم أنَّ صفة المخلوق كصفة الخالق - فلا نقول - مثلًا -: إنَّ الله يسمع كسمعنا، ويبصر كبصرنا، وله يدٌ كأيدينا.

والـذي سبَّب معرفتَنا لهذا الفرق: أنَّ صفات المخلوق إذا أُضيفت إليه تناسبه، وصفات الخالق إذا أُضيفت إليه تناسبه، فالإضافة كافيةٌ في إثبات الفرق، فيكتفىٰ بها، ويقال: إذا كانت ذات الرَّبِّ تعالى ليست كذوات المخلوقين، فكذلك صفاته ليست كصفاتهم، سواءٌ الصِّفات الفعليَّة أو الصِّفات الذاتيَّة، فيعتقد المسلمون أنَّ هذا كافٍ في إثبات الفرق بين صفةٍ وصفةٍ.

قال الطحاوي:

وَلَا شَيءَ يُعْجِزُهُ.

قال الشارح:

لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿لَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ وَلَا يُعْجِزُهُ، فَهَذَا النَّفْيُ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ نَفْيٍ يَأْتِي فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لِكَمَالِ عَدْلِهِ، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، لِكَمَالِ عِلْمِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، لِكَمَالِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَإِلَّا فَالنَّفْيُ الصِّرْفُ لَا مَدْحَ فِيهِ.

قال الشيخ:

هذه من صفات النَّفي، وصفات الله تعالى تدور بين النَّفي والإثبات، فمن

الصِّفات السَّلبيَّة أو صفات النَّفي هذا الوصف: كونه لا يُعجِزُه شيءٌ، وقد دلَّت عليه هذه الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: لا يكلِّفه ولا يشقُّ عليه حفظهما، فكذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ [فاطر:٤٤]، يعني: ما كان ليعجز ويتكلَّف من شيءٍ أيًا كان، وهذا من صفات النَّفي، يقصد منه كمال القدرة، فإنَّ كونه لا يُعجزه شيءٌ دليلٌ على أنَّه كامل القدرة، ففيه إثبات صفة القدرة، وإثبات أنَّ تلك القدرة فوق كلِّ قدرةٍ.

فالإنسان قد يوصَف بأنَّ معه قدرةً واستطاعةً، ولكنَّها محدودةٌ، قد يُقال: هذا لا يستطيع أن يحمل مئتي كيلو، وقد يُقال: فلانٌ لا يستطيع أن يخرق هذا الجبل، يعجزه مثل ذلك، أو: لا يستطيع أن يتسلَّق هذا الحائط دون سلَّمٍ مثلًا، فالمخلوق تعجزه أشياء؛ لأنَّ قدرته محدودةٌ، أما الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يعجزه شيءٌ، فإذا كان لا يعجزه شيءٌ كان من آثار ذلك أنَّه يَثيب، ويُعاقب، ويَنتقم، ويبطش بمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ولا يكلِّفه شيءٌ ولا يشقُّ عليه.

ونتيجة الإيمان بذلك إيجاد الخوف والرجاء في النفس، فإنَّ الإنسان إذا عَلِمَ أنَّ الله تعالى لا يُعْجِزُه شيءٌ، فلا يعجزه أن يعاقبه إذا عصاه، خافه ولم يعصه، ولا يعجزه بأن يثيبه بأنواع الثواب إذا أطاعه، رجاه وأطاعه.

إذا عرف المسلم أنَّ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ، قال: الله لا يعجزه شيءٌ، لا يعجزه أن يدخل الخلق وأضعافهم في الجنة، ويجعل

لهم منازل واسعة، ويعطيهم من أنواع النَّعيم على عددهم، ولو كثر وكانوا ألوفًا وألوف الألوف، لا يعجزه أن يعطيهم وأن يثيبهم، كذلك أيضًا إذا استكثر عدد الكفَّار، فلا يُقال: كيف أن هؤلاء الكفَّار - الذين لا يحصيهم أحدٌ إلا الله - تسعهم النَّار؟ يُقال: الله لا يعجزه شيءٌ، والفضاء واسعٌ، والنَّار واسعةٌ، فهو سبحانه يقدر على أن يجعل لهم أماكن في النَّار واسعةً، وأن يجعلهم على هذه الخِلْقة، وأن يجعل لكلٍّ منهم مكانًا.

فإذا قيل: العاصي آمنٌ، كأنَّه يقول: إنَّه في مأمن لا يخاف.

قيل: عليك أن تخاف أيُّها العاصي من نقمة الله في الدُّنيا وعقوبته، فإنَّه لا يعجزه شيءٌ.

فالحاصل أنَّ نتيجة قولنا: (لا يعجزه شيء): أن نرجوه، فنعمل للثَّواب العظيم الذي لا يُعجز اللهَ، ونَحْذَر من العقاب العظيم الذي لا يعجز اللهَ، ونَحْذَر في الدُّنيا التي لا تُعجز الله، هذا من حيث إثبات هذه الصِّفة بخصوصها.

وقد بيَّن الشَّارح صفات السَّلب، وذكر أنَّ الصِّفات السَّلبيَّة يبيِّنها ما يأتي بضدها، فإذا قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:٣]، فهمنا منه كمال العلم، وإذا قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، فهمنا منه إثبات الوحدانيَّة، وإذا قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، نفي اللُّغوب يثبت كمال القوَّة وكمال القدرة.

وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فيه إثباتٌ للعظمة،

يعني: أنَّ الأبصار وإن نظرت إليه فإنَّها لا تدركه كما هو؛ لكمال عظمته، وقد ورد عن عكرمة ـ رحمه الله ـ أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فسَّر قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣]، فقال: إن النبي ﷺ رأى ربه عز وجل، فقال له رجل: أليس قد قال: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فقال له عكرمة: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلّها ترى؟[1]. فهو سبحانه لكمال عظمته لا تدركه الأبصار.

وهكذا كلُّ صفةٍ فيها نفي إثباتٍ لضدِّ تلك الصِّفة، يعني: إثباتٌ لكمال الصِّفة التي أثبتها الله، ونفي ضدِّها.

فإنَّ من عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في بعض الصِّفات أنَّهم يصفون الله تعالى بما وَصَفَ به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، وينفون عنه ما نفى عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ؛ من النقائص والعيوب، ومن ذلك أنَّ الله تعالى نفى عن نفسه أشياء فيها نقص؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾، وكقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، نفى أن يعجزه شيءٌ، وذلك دليل القدرة ودليل كمال القوَّة، وهكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: لا يكلِّفه ولا يشقُّ عليه، وذلك دليل كمال العلم، وكمال القوَّة، وكمال القدرة.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٥٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٩)، والدارقطني في رؤية الله (ص١٨٧).

وبذلك يُعرف أنَّ كلَّ صفةٍ نفاها الله عن نفسه، فإنَّ ذلك لإثبات ما هو كمال، فنفي العجز لإثبات القدرة، ونفي اللُّغوب لإثبات القوَّة، كما أنَّ نفي العزوب: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]؛ لإثبات كمال العلم، ونفي المِثْل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ونفي النِّدِّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، ونفي الكفؤ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، ونفي الشَّريك والمثيل والولد: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، ونحوها؛ لإثبات كمال الوحدانيَّة.

هذه طريقة أهل السُّنَّة: أنَّهم ينفون ما نفى الله عن نفسه، ويعرفون أنَّ هذا النَّفي دليلٌ على إثبات صفات الكمال، فمن ذلك ما تقدم من قول الماتن: (وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ)، يدخل في ذلك أنَّه لا يعجزه شيءٌ في الكائنات، أي: لا يعجز عن شيءٍ، ولا يخرج عن قدرته شيءٌ، بل هو كامل القدرة، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. فهذا مراده بهذه الكلمة، ويدخل فيها أشياء تمرُّ بنا إن شاء الله تعالى.

قال الشارح:

أَلا يُرَىٰ أَنَّ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

لَـمَّا اقْتَرَنَ بِنَفْيِ الْغَدْرِ وَالظُّلْمِ عَنْهُمْ مَا ذَكَرَهُ قَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ وَبَعْدَهُ، وَتَصْغِيرُهُمْ بِقَوْلِهِ: (قُبَيِّلَةٌ)، عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ عَجْزُهُمْ وَضَعْفُهُمْ، لَا كَمَالُ قُدْرَتِهِمْ.

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

لَـمَّا اقْتَرَنَ بِنَفْيِ الشَّرِّ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَمِّهِمْ، عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ عَجْزُهُمْ وَضَعْفُهُمْ أَيْضًا.

قال الشيخ:

مرَّ بنا معناهما، وفيهما نفيٌ.

البيت الأوَّل يقول في قبيلة:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

وظاهر البيت فيه مدحٌ لهم، وأنهم لا يغدرون ولا يظلمون، ولكن الشاعر لم يقصد المدح، وإنَّما قصد ضعفهم وعجزهم عن الانتقام، وذلك يؤخذ من قرائن الحال، وما اقترن بالبيت من قرائن الأحوال.

وكذلك البيت الثَّاني يذكر به قومه، فيقول:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

فظاهر البيت أن الشاعر يمدح قومه بأنَّهم ليسوا أهلًا للشَّرِّ، ولكن هو في الحقيقة يذمُّهم، يقول: إنَّهم ليسوا ممَّن يقدر على الانتقام، ولا يأخذ بالثَّأر، ولا ينتقم لنفسه، ولهذا يقول بعد هذا البيت:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا   شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

فهو يتمنَّى أن يكون له قومٌ أقوياء.

فالحاصل: أنَّ بعض النَّفي قد يكون ذمًّا مثل هذه الأبيات، وأما إذا تجرَّد من القرائن، فإنَّه يكون مدحًا؛ كالآيات التي سبقت.

قال الشارح:

وَلِهَذَا يَأْتِي الْإِثْبَاتُ لِلصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مُفَصَّلًا، وَالنَّفْيُ مُجْمَلًا، عَكْسَ طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِالنَّفْيِ الْمُفَصَّلِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُجْمَلِ، يَقُولُونَ: لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَا شَبَحٍ، وَلَا جُثَّةٍ، وَلَا صُورَةٍ، وَلَا دَمٍ، وَلَا لَحْمٍ، وَلَا شَخْصٍ، وَلَا جَوْهَرٍ، وَلَا عَرَضٍ، وَلَا بِذِي لَوْنٍ، وَلَا رَائِحَةٍ، وَلَا طَعْمٍ، وَلَا مَجَسَّةٍ، وَلَا بِذِي حَرَارَةٍ، وَلَا بُرُودَةٍ، وَلَا رُطُوبَةٍ، وَلَا يُبُوسَةٍ، وَلَا طُولٍ، وَلَا عَرْضٍ، وَلَا عُمْقٍ، وَلَا اجْتِمَاعٍ، وَلَا افْتِرَاقٍ، وَلَا يَتَحَرَّكُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَتَبَعَّضُ، وَلَيْسَ بِذِي أَبْعَاضٍ وَأَجْزَاءٍ وَجَوَارِحَ وَأَعْضَاءٍ، وَلَيْسَ بِذِي جِهَاتٍ، وَلَا بِذِي يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ وَأَمَامٍ وَخَلْفٍ وَفَوْقٍ وَتَحْتٍ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ مَكَانٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمُمَاسَّةُ، وَلَا الْعُزْلَةُ، وَلَا الْحُلُولُ فِي الْأَمَاكِنِ، وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ الدَّالَّةِ عَلَى حُدُوثِهِمْ، وَلَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُتَنَاهٍ، وَلَا يُوصَفُ بِمِسَاحَةٍ، وَلَا ذَهَابٍ فِي الْجِهَاتِ، وَلَيْسَ بِمَحْدُودٍ، وَلَا وَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْدَارُ، وَلَا تَحْجُبُهُ الْأَسْتَارُ. إِلَى آخِرِ مَا نَقَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ.

وَهَذَا النَّفْيُ الْمُجَرَّدُ مَعَ كَوْنِهِ لَا مَدْحَ فِيهِ، فِيهِ إِسَاءَةُ أَدَبٍ، فَإِنَّكَ لَوْ قُلْتَ لِلسُّلْطَانِ: أَنْتَ لَسْتَ بِزَبَّالٍ، وَلَا كَسَّاحٍ، وَلَا حَجَّامٍ، وَلَا حَائِكٍ! لَأَدَّبَكَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَادِحًا إِذَا أَجْمَلْتَ النَّفْيَ، فَقُلْتَ: أَنْتَ لَسْتَ مِثْلَ أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَنْتَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَأَشْرَفُ وَأَجَلُّ، فَإِذَا أَجْمَلْتَ فِي النَّفْيِ أَجْمَلْتَ فِي الْأَدَبِ.

وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الحَقِّ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ سَبِيلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ. وَالمُعَطِّلَةُ يُعْرِضُونَ عَمَّا قَالَهُ الشَّارِعُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ مَعَانِيَهَا، وَيَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ المَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ هُوَ المُحْكَمَ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ.

وَأَمَّا أَهْلُ الحَقِّ وَالسُّنَّةِ وَالْإِيمَانِ، فَيَجْعَلُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الحَقَّ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ، وَالَّذِي قَالَهُ هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا جمليًا، أَوْ يُبَيِّنُوا حَالَهُ تَفْصِيلًا، وَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا يُحْكَمُ بِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

قال الشيخ:

هكذا ذكر العلماء ـ كشيخ الإسلام ابن تيميَّة وغيره من علماء أهل السُّنَّة ـ أنَّ طريقة الرُّسل وما بُعثوا به في بعض الصِّفات أنَّهمْ يصفون الله تعالى بالنَّفي والإثبات، ولكنَّ طريقتهم في الإثبات التَّفصيل، وطريقتهم في النَّفي الإجمال؛ لأن التَّفصيل في الصِّفات الثبوتيَّة مدحٌ، والإجمال في الصِّفات السَّلبيَّة مدحٌ.

فعندنا في الصِّفات السَّلبيَّة التي فيها نفيٌ مجملٌ، يُنزه به الله عن جميع النَّقائص؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مريم:٦٥]، أي: لا سميَّ له، فهذا نفيٌ مجملٌ. وكقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فهذا نفيٌ مجملٌ. وكقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ

أَندَادًا ﴾[البقرة:٢٢]، وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤]، هذا نفيٌ مجملٌ، وكذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ [سبأ:٣]، نفيٌ مجملٌ، فلم يقل: لا يعزب عنه سمع كلمةٍ ولا سمع حركةٍ ولا سمع صوتٍ، بل أجمل. هذه طريقة أهل السُّنَّة في النَّفي.

وأمَّا في الإثبات، فإنَّ الرُّسل جاؤوا بالتَّفصيل، ففي الكتاب والسُّنَّة من التَّفصيل الشيء الكثير، ففي بعض الصِّفات الثُّبوتيَّة أثبت الله لنفسه أنَّه العزيز الحكيم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:١٣٤]، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٠]، ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٩٧]، وأثبت لنفسه أنَّه الذي خلق، والذي يرزق، والذي يحيي ويميت، والذي يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، وأثبت لنفسه أنَّ له قدرةً وعلمًا ووجهًا ويدًا، وأنَّه ينزل كما يشاء، ويجيء كما يشاء، وأنَّه فوق عباده، وأنَّه على العرش استوى، وما أشبه ذلك، هذه صفاتٌ ثبوتيَّةٌ أثبتها الله؛ لأنَّه يُمدح بها.

وهذه طريقة أهل السُّنَّة: التَّفصيل في الصِّفات الثُّبوتيَّة والإجمال في صفات النَّفي، وسبب ذلك: أنَّ النَّفي ليس بمدحٍ، إلَّا إذا تضمَّن إثباتًا، وكلّ النَّفي الذي في القرآن فإنه يتضمَّن إثباتًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، نفى الله السِّنَة؛ لأنَّ ذلك يتضمَّن كمال الحياة، ونفي النَّوم؛ لأنَّ نفي النَّوم يستلزم كمال القيُّوميَّة. ومعلومٌ أنَّ النَّوم وأنَّ السِّنَة ـ التي هي

النُّعاس ـ نقصٌ، فإذا نفاها الله؛ دلَّ على كمال الحياة وكمال القيُّوميَّة.

وقد بين ذلك النَّبيُّ ﷺ فقال: «**إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قبل عَمَلِ اللَّيْلِ**»(١).

فالحاصل أنَّنا إذا تأمَّلنا الصِّفات السَّلبيَّة وجدناها تتضمَّن إثبات كمالٍ، وإذا تأمَّلنا الصِّفات الثُّبوتيَّة ـ كإثبات العزَّة والحكمة والحياة والقيُّوميَّة ونحوها ـ وجدناها صفات كمالٍ، وهذه طريقة الرُّسل.

وأمَّا طريقة المعتزلة والجهميَّة والنُّفاة، فقد عكسوا الأمر، فتوسَّعوا في السَّلب والنَّفي، وأجملوا في الإثبات، فهم لا يثبتون إلَّا صفاتٍ قليلةً؛ لا يثبتون إلاَّ كلمة (موجودٍ) مثلًا، أو (علَّة الوجود)، أو (الخالق)، ولكن يتوسَّعون في النَّفي؛ كما جاء في هذه العبارة التي نقلها الأشعريُّ عن المعتزلة، يقشعرُّ الجلد منها، فلا حاجة بنا إلى تفصيلها، ونعوذ بالله أن نعتقدها، ونبرأ إلى الله مِمَّن يعتقد هذا في ربِّه سبحانه وتعالى.

ولكن لَـمَّا كان المعتزلة اعتمدوا على الفلاسفة الذين يسمَّون أنفسهم إلهيِّين، لم يجدوا بُدًّا من أن يتَّبعوهم فيما قالوه، فوصفوا الله بهذه الصِّفات السَّلبيَّة، وهي تصل إلى أكثر من أربعين صفةً أو خمسين، وإن كان فيها شيءٌ صحيحٌ، مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ﴾[فاطر:٤٤]،

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وما أشبه ذلك، هذه صفات صحيحة، ولكنَّ أغلب ما جاء فيها تلقُّوه عن الفلاسفة، وأمْلَتْه عليهم خيالاتهم الباطلة، فعكسوا طريقة الرُّسل، يعني: توسَّعوا في السَّلب والنَّفي الذي ما يُمدح به، وقلَّلوا في الإثبات الذي يُمدح به واختصروه.

وقد مرَّ بنا أنَّ من جملة ما نفى الله عن نفسه قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾، هذا سلبٌ، ولكن أثبت بعده بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وبيَّن العلماء أنَّ هذا ورد على التَّمدُّح، وقالوا: الذي لا يُرىٰ لا يُمدح، فلا يُمدح الشَّيء بكونه لا يُرى، وإنَّما يُمدح إذا كان يُرىٰ ولكن تعجز الأبصار عن أن تحيط به. فدلَّ على أنَّه يُرىٰ، وعندما تراه الأبصار لا تدركه، يعني: لا تحيط به، فأفاد أنَّ هذا مدحٌ، يدل على القدرة والعظمة.

فكلُّ نفيٍ في القرآن فإنَّه دالٌّ على كمالٍ.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ غَالِبَ عَقَائِدِهِمُ السُّلُوبُ: لَيْسَ بِكَذَا، ولَيْسَ بِكَذَا. وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ فَهُوَ قَلِيلٌ، وَهُوَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ حَيٌّ، وَأَكْثَرُ النَّفْيِ المَذْكُورِ لَيْسَ مُتَلَقًّى عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا عَنِ الطُّرُقِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي سَلَكَهَا غَيْرُهُمْ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَفِي هَذَا الْإِثْبَاتِ مَا يُقَرِّرُ مَعْنَى النَّفْيِ، فَفُهِمَ أَنَّ المُرَادَ انْفِرَادُهُ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، مِمَّا أَخْبَرَنَا بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَهُ صِفَاتٌ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُهُ الصَّادِقُ ﷺ فِي دُعَاءِ الْكَرْبِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي»[1].

وَسَيَأْتِي التَّنْبِيهُ عَلَى فَسَادِ طَرِيقَتِهِمْ فِي الصِّفَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

يُعرف أنَّ هؤلاء النُّفاة ليس لهم دليلٌ على هذا السَّلب: أنَّ الله ليس بكذا، وليس بفوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا متحرك، ولا ساكن ... إلخ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد ذكرنا أنَّهم اعتمدوا على طرق الفلاسفة، وأنَّ الفلاسفة اعتمدوا في ذلك على طرقٍ عقليَّةٍ، ولكنَّها في الحقيقة خيالات تخيَّلوها، فهذه طريقتهم في النفي، وأمَّا في الإثبات، فلم يثبتوا إلَّا قليلًا، فالأشعريَّة ـ مثلًا ـ أثبتوا سبع صفاتٍ وأثبتوا الأسماء، والمعتزلة أثبتوا الأسماء، ولكن نفوا دلالتها على الصِّفات، فقالوا: إنَّ الله سميعٌ بلا سمعٍ، وبصيرٌ بلا بصرٍ، وعليمٌ بلا علمٍ، وقديرٌ بلا قدرةٍ ـ تعالى الله عن قولهم ـ وجعلوها أسماءً مجرَّدةً عن الصِّفات.

ويُردُّ عليهم بطريقة القرآن، فإنَّ القرآن إذا نفى أتبع النفي بالإثبات، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢]، إثباتٌ لكمال القدرة، وإثباتٌ للإحاطة؛ إحاطة بالعلم بكلِّ شيءٍ، مع أنَّه قد نفى أن يحيط النَّاس به في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فدلَّ على أنَّه لكماله لا يستطيعون أن يطَّلعوا إلاَّ على ما أطلعهم عليه. وكذلك جمع بين النَّفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وهذا ردٌّ على الممثِّلة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وهذا ردٌّ على المعطِّلة، فجمع بين النَّفي والإثبات في بعض آية، وردَّ على الفئتين: الفئة التي غَلَت في الإثبات حتَّى شبَّهت صفاته بالمخلوقات، والفئة التي غَلَت في النَّفي حتَّى نفت عنه صفات الإثبات الكماليَّة، وهذه هي طريقة الرُّسل وطريقة الكتاب والسُّنَّة، التي تروي الغليل وتشفي العليل، فمن سار على نهج أهل السُّنَّة في النَّفي والإثبات، وعلى طريقة الرُّسل، فلا يخشى من الملام، ولا يَرِدُ عليه كلامٌ.

قال الشارح:

وَلَيْسَ قَوْلُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ)، مِنَ النَّفْيِ الْمَذْمُومِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

فَنَبَّهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ فِي آخِرِ الْآيَةِ عَلَى دَلِيلِ انْتِفَاءِ الْعَجْزِ، وَهُوَ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَإِنَّ الْعَجْزَ إِنَّمَا يَنْشَأُ إِمَّا مِنَ الضَّعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ، وَإِمَّا مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:٣]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، وَقَدْ عُلِمَ بِبَدَائِهِ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَانْتَفَى الْعَجْزُ؛ لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ مِنَ التَّضَادِّ، وَلِأَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قال الشيخ:

يعني: أن قول الماتن: (وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ)، نفيٌ، ولكن هذا النَّفي دليلٌ على إثباتٍ، وهو إثبات كمال القدرة، فنفى العجز ليدلَّ على أنَّه كامل القدرة وكامل القوة، ولهذا جمع الله بين النَّفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فهذا نفي، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، فأثبت العلم والقدرة ليدلَّ على أنَّه قديرٌ، ولا يعجزه شيءٌ، فعرُف أنَّ هذا نفيٌ موافقٌ للنَّفي الذي في القرآن، وهو النَّفي الذي يتضمَّن إثباتًا،

وعلَّل بأنَّ العاجز لا يصلح بأن يكون إلهًا، وأنَّه يدخل في القدرة كلُّ شيءٍ.

إذا وصفنا الله تعالى بكمال القدرة، فهو قادرٌ على كلِّ شيءٍ، لا يخرج عن قدرته شيءٌ؛ لا من الأفعال، ولا من الذوات، فيقدر على أن يجعل المؤمن كافرًا والكافر مؤمنًا، يقلِّب القلوب، ويحول بين المرء وقلبه، وقد ورد في الحديث في قول النَّبيِّ ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ**»[1]؛ فدلَّ على أنَّ من جملة ما يملكه ويستطيعه ويقدر عليه الحيلولة بين الإنسان وبين قلبه، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فهذه صفةٌ من صفات الكمال، وهي إثبات كمال القدرة، وصفات الله وأسماؤه تعالى لا يحيط بها إلَّا هو، كما دلَّ على ذلك الحديث الذي أورد الشارح، وهو أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّم أصحابه هذا الدُّعاء، وفيه قوله: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»[2]، فدلَّ على أنَّه استأثر بأسماءٍ وبصفاتٍ لم يُطْلع عليها أحدًا، فالرسول ﷺ يقول: أسألك بكلِّ هذه الأسماء، والسُّؤال بالأسماء توسُّلٌ إلى الله تعالى بها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والحاصل: أنَّ صفات الله تعالى كلَّها صفات كمالٍ، إذا أثبتناها فإنَّنا نعتقد أنَّها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٦٥).

صفات كمالٍ، ومعلومٌ أنَّ الذي يثبت هذه الصِّفات يعظِّم قدر ربِّه في قلبه، ومن عظَّم قدر ربِّه في قلبه لم يقدم على معصيته، هذه فائدة قراءتنا لباب الصِّفات؛ حتَّى يكون قدر الرَّبِّ عظيمًا.

إذا عَرف العبد أنَّ الله مطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ لم يقدم على معصيته، وإذا عرف أنَّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه من أمره خافيةٌ، ويعلم ما توسوس به النَّفس وما يجول في القلب، وإذا عَرف كمال قدرته على أن يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، وإذا عرف قدرته على أنَّه واسع الرَّحمةِ، وواسع الثَّوابِ، وشديد العقابِ، كل ذلك يحمله على الاستكثار من الطَّاعات، والابتعاد عن المحرَّمات.

قال الطحاوي:

وَلاَ إِلهَ غَيْرُهُ.

قال الشارح:

هَذِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي دَعَتْ إِلَيْهَا الرُّسُلُ كُلُّهُمْ - كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ - وَإِثْبَاتُ التَّوْحِيدِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بِاعْتِبَارِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُقْتَضِي لِلْحَصْرِ، فَإِنَّ الْإِثْبَاتَ الْمُجَرَّدَ قَدْ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الِاحْتِمَالُ. وَلِهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، فَإِنَّهُ قَدْ يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ خَاطِرٌ شَيْطَانِيٌّ: هَبْ أَنَّ إِلَهَنَا وَاحِدٌ، فَلِغَيْرِنَا إِلَهٌ غَيْرُهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

وَقَدِ اعْتَرَضَ صَاحِبُ «الْمُنْتَخَبِ» عَلَى النَّحْوِيِّينَ فِي تَقْدِيرِ الْخَبَرِ فِي ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فَقَالُوا: تَقْدِيرُهُ: لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: يَكُونُ ذَلِكَ نَفْيًا لِوُجُودِ الْإِلَهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَفْيَ الْمَاهِيَّةِ أَقْوَى فِي التَّوْحِيدِ الصِّرْفِ مِنْ نَفْيِ الْوُجُودِ، فَكَانَ إِجْرَاءُ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ هَذَا الْإِضْمَارِ أَوْلَى.

وَأَجَابَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ الْمُرْسِيُّ فِي «رِيِّ الظَّمْآنِ»، فَقَالَ: هَذَا كَلَامُ مَنْ لَا يَعْرِفُ لِسَانَ الْعَرَبِ، فَإِنَّ «إِلَهَ» فِي مَوْضِعِ الْمُبْتَدَأِ عَلَى قَوْلِ سِيبَوَيْهِ، وَعِنْدَ غَيْرِهِ اسْمُ «لَا»، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا بُدَّ مِنْ خَبَرٍ لِلْمُبْتَدَأِ، وَإِلَّا فَمَا قَالَهُ مِنَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْإِضْمَارِ فَاسِدٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِذَا لَمْ يُضْمَرْ يَكُونُ نَفْيًا لِلْمَاهِيَّةِ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْمَاهِيَّةِ هُوَ نَفْيُ الْوُجُودِ، لَا تُتَصَوَّرُ الْمَاهِيَّةُ إِلَّا مَعَ الْوُجُودِ، ولَا فَرْقَ بَيْنَ «لَا مَاهِيَّةَ»، و«لَا وُجُودَ». وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ مَاهِيَّةً عَارِيَةً عَنِ الْوُجُودِ. و«إِلَّا اللَّهُ» مَرْفُوعٌ، بَدَلًا مِنْ «لَا إِلَهَ»، لَا يَكُونُ خَبَرًا لِـ «لَا»، وَلَا لِلْمُبْتَدَأِ. وَذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا ذِكْرَ الْإِعْرَابِ، بَلِ الْمُرَادُ دَفْعُ الْإِشْكَالِ الْوَارِدِ عَلَى النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ، وَبَيَانُ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَهُوَ فَاسِدٌ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُمْ: «نَفْيَ الْوُجُودِ» لَيْسَ تَقْيِيدًا؛ لِأَنَّ الْعَدَمَ لَيْسَ بِشَيْءٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٩].

وَلَا يُقَالُ: لَيْسَ قَوْلُهُ: «غَيْرُهُ» كَقَوْلِهِ: «إِلَّا اللَّهُ»؛ لِأَنَّ «غَيْرُ» مُعْرَبٌ بِإِعْرَابِ الِاسْمِ الْوَاقِعِ بَعْدَ «إِلَّا»، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ لِلْخَبَرِ فِيهِمَا وَاحِدًا. فَلِهَذَا ذَكَرْتُ هَذَا الْإِشْكَالَ وَجَوَابَهُ هُنَا.

قال الشيخ:

قوله: (وَلاَ إِلَهَ غَيْرُهُ)، هذه كلمة الإخلاص، وهي كلمة: (لا إله إلاَّ الله)، ففي دعاء الاستفتاح يقول ﷺ: «سُبْحَانَكَ اللهم وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، ولا إِلَهَ غَيْرُكَ»[1]، وهو معنى: لا إله إلَّا أنت، فقوله: «غَيْرُكَ»

---

(١) أخرجه أبوداود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٨٩٩)، وابن ماجه (٨٠٤)، وأحمد =

يعني: لا إله سواك، أي: ليس هنا إلهٌ يصلُح للإلهيَّة غيرك، وهو معنى الاستثناء في قوله: (إلَّا اللَّهُ).

وقد تكرَّرت هذه الكلمة في القرآن الكريم:

فوردت بلفظ: (لا إله إلاَّ الله)، في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩].

وبلفظ: (لا إله إلَّا هو)؛ كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ [الحشر:٢٣].

وبلفظ: (لا إله إلاَّ أنت)، في دعاء ذي النُّون في قوله: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

ووردت من كلام الله في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه:١٣، ١٤]، وكله معناه واحد، وهو نفي الإلهيَّة عن غير الله.

وأما الإعراب الذي ذُكر عن النَّحويِّين أنَّهم قالوا: تقديره: لا إله في

=

(٣/ ٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه مسلم (٣٩٩) موقوفًا من قول عمر بن الخطاب ﷺ. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٩٦): «وقد ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يجهر بسبحانك اللهم وبحمدك، يعلمه الناس، فلولا أن هذا من السنة المشروعة لم يفعل هذا عمر، ويقره المسلمون عليه».

الوجود إلاَّ الله. فقد تعقَّبه العلماء وقالوا: إنَّ هناك في الوجود من يسمَّى إلهًا، ولكن لا يصلح أن يكون إلهًا، فالصَّواب أن يُقال: لا إله حقٌّ إلَّا الله، أو: لا إله بحقٍ إلَّا الله، أي: لا أحد يستحقُّ الإلهيَّة إلَّا الله، فالتَّقدير بحقٍّ أولى، وذلك لكثرة من يُسمَّى إلهًا ممَّا تألَه القلوب ويتَّخذه المشركون إلهًا؛ لأنَّ كلمة (الإله): اسم لما تألَه القلوب وتحبُّه، ومعلومٌ أنَّ المشركين يؤلِّهون معبوداتهم، سواءٌ المعبودات القديمة؛ كالأصنام المنحوتة على صور المخلوقات؛ كودٍّ وسواعٍ ... إلخ، أو الخياليات؛ كالذين يؤلِّهون بعض السَّادة، أو بعض الأولياء، وكالذين يؤلِّهون عبدالقادر الجيلانيّ، أو أحمد البدوي، أو الحسين، أو عليًّا، أو ابن العيدروس، أو تاجًا، أو ابن علوان ... أو نحوهم؛ فإنَّهم يُؤلِّهونهم، بمعنى أنَّ قلوبهم تحبُّهم وتقدِّسهم وتعظِّمهم وتوقِّرهم، ويكون في قلوبهم لهم قدرٌ ومكانةٌ، وهذا هو حقيقة التألُّه.

أمَّا المسلمون الموحِّدون، فإنَّهم يُؤلِّهون الله وحده، لا تألَه قلوبهم غيره، فلا تحبُّ سواه محبة العبادة، ولا تخاف من غيره، ولا تعظم إلَّا هو، ولا تخضع وتتواضع إلا له، وهكذا . هذه صفة أولياء الله الذين هُمُ الموحِّدون، الذين اتَّخذوه إلهًا وصدُّوا بقلوبهم عمَّا سواه.

ولما كانت هذه الكلمة تتضمَّن الإخلاص، كانت أوَّل دعوة الرُّسل، وتقدم في أوَّل الكتاب أنَّ أوَّل ما دعت إليه الرُّسل هذه الكلمة، وأن نوحًا ـ عليه السلام ـ كان يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، أي:

لا يستحقُّ أن يكون غيره إلهًا، وكذلك قالها هود، وصالح، وشعيب، وبقيّة الأنبياء الذين ذكر الله أنَّه أوحى إليهم بذلك.

وإذا عرف المسلم معنى هذه الكلمة، عرف حقيقة التَّوحيد الذي دعت إليه الرُّسل، والمصيبة أنَّ أولئك الذين يعبدون هؤلاء الأموات يقولون: لا إله إلَّا الله ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجِهارًا، لكن لا يعملون بمعناها، ولا يعرفون مضمونها، يقولونها ويخالفونها؛ لأنَّهم لم يفهموا معنى الإله، ولو عرفوا أنَّ الإله هو الذي تألَهه القلوب ـ يعني: تحبُّه وتعظِّمه ـ؛ لعلموا أنَّهم قد ألَّهوا هؤلاء الأموات، ولكنهم لا يعرفون معنى العبادة.

إذا قلنا: معنى (لا إله إلَّا الله): لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، قلنا لهم: وما معنى المعبود؟ أنتم الآن قد عبدتم غير الله من هؤلاء الأموات، فالعبادة هي: التَّذلُّل والخضوع، وقد تذلَّلتم وخضعتم لهؤلاء الأموات، فأصبحتم قد دعوتم غير الله، فلا ينفعكم التَّهليل.

فالحاصل أنَّ كلمة التَّوحيد: (لا إله إلَّا الله)، أو (لا إله إلَّا هو)، أو (لا إله غيره)، هي التي يجب أن ندعو إليها، وهي التي دعت إليها الرُّسل، ومنهم نبيُّنا ﷺ، حيث أقام عشر سنين في مكَّة لم يدعُ إلَّا إلى هذه الكلمة؛ يقول للناس: «**قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله تُفْلِحُوا**»[1]، وكانوا يعرفون معناها، ولَـمَّا قال لعمه

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢)، والطبراني في الكبير (٤٥٨٢)، والحاكم (١/ ١٥) من حديث ربيعة بن عباد الديلي ﷺ.

أبي طالب: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بها عِنْدَ اللَّهِ»[1]، يعني: أحتجُّ بها عند الله أنَّك متَّ على التَّوحيد، فَهِم أبو طالب والحاضرون أنَّها تتضمَّن البراءة من كلِّ المألوهات، فذكَّروه الحجَّة الشيطانيَّة، وهي ملَّة أبيه عبد المطلب، فمات على قوله: «هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب».

ولما أتى عمَّهُ أبا طَالِبٍ يَعُودُهُ، وَأَتَتْهُ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: إنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَقَعُ في آلِهَتِنَا، قال: ما شَأْنُ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ؟ قال: «يَا عَمِّ أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي الْعَجَمُ إِلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ»، قال: مَا هِيَ؟ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَقَامُوا فَقَالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص:٥]؟![2]، فهذا دليلٌ على أنَّ كلَّ ما يُؤلِّهونه ويحبُّونه محبَّة تعظيمٍ وتوقيرٍ واحترامٍ، فإنَّه إلهٌ عندهم.

وقد خَفِيَ هذا المعنى على القبوريِّين الذين عظَّموا القبور، فيُقال لهم: تعظيمكم هذا هو التألُّه شئتم أم أبيتم، قدِ اتخذتموها آلهةً، وكذلك أفعالكم، فَحَلفكم بالأموات - مثلًا - أو دعاؤكم لهؤلاء من الأموات - كقولكم: يا عيدروس! يا تاج! يا يوسف! - وتعلق قلوبكم بهم هو تألُّهٌ، قد اتَّخذتموهم بذلك آلهةً شئتم أم أبيتم، عبدتموهم وإن لم تسمُّوا ذلك عبادةً، فالعبرة بالحقائق لا بالمسمَّيات، سمُّوها ما شئتم، سمَّوا أفعالكم توسُّلًا أو تودُّدًا أو تبرُّكًا أو تحيُّيًا أو استشفاعًا أو تقرُّبًا، فالحقائق لا تتغيَّر بالمسمَّيات.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣٦).

ولذلك نحثُّ كلَّ مسلمٍ على أن يعرف أن كلمة التوحيد (لا إله إلَّا الله)، تدعو إلى أن يكون الله هو الإلهَ الحق ـ يعني: المعبود بحقٍ ـ وأن يَعبده حقَّ عبادته، وأن يصدَّ بقلبه عن عبادة وتعظيم كلِّ ما سواه، فبذلك يكون محقِّقًا لهذا التَّوحيد، الذي دعت إليه الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم.

قال الطحاوي:

قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ.

قال الشارح:

قَالَ اللَّـهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، وَقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[1]. فَقَوْلُ الشَّيْخِ: قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ، هُوَ مَعْنَى اسْمِهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ.

وَالْعِلْمُ بِثُبُوتِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطْرَةِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَاجِبِ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ، قَطْعًا لِلتَّسَلْسُلِ، فَأَنْت تُشَاهِدُ حُدُوثَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ، وَحَوَادِثِ الْجَوِّ كَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْحَوَادِثُ وَغَيْرُهَا لَيْسَتْ مُمْتَنِعَةً، فَإِنَّ الْمُمْتَنِعَ لَا يُوجَدُ، وَلَا وَاجِبَةَ الْوُجُودِ بِنَفْسِهَا، فَإِنَّ وَاجِبَ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ، وَهَذِهِ كَانَتْ مَعْدُومَةً ثُمَّ وُجِدَتْ، فَعَدَمُهَا يَنْفِي وُجُودَهَا، وَوُجُودُهَا يَنْفِي امْتِنَاعَهَا، وَمَا كَانَ قَابِلًا لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ لَمْ يَكُنْ وُجُودُهُ بِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]. يَقُولُ سُبْحَانَهُ: أَحَدَثُوا مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ أَمْ هُمْ أَحْدَثُوا أَنْفُسَهُمْ؟! وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّيْءَ الْمُحْدَثَ لَا يُوجِدُ نَفْسَهُ، فَالْمُمْكِنُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا عَدَمٌ لَا يَكُونُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ، بَلْ إِنْ حَصَلَ مَا يُوجِدُهُ، وَإِلَّا كَانَ مَعْدُومًا، وَكُلُّ مَا أَمْكَنَ وُجُودُهُ بَدَلًا عَنْ عَدَمِهِ، وَعَدَمُهُ بَدَلًا عَنْ وُجُودِهِ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا عَدَمٌ لَازِمٌ لَهُ.

وَإِذَا تَأَمَّلَ الْفَاضِلُ غَايَةَ مَا يَذْكُرُهُ الْمُتَكَلِّمُونَ وَالْفَلَاسِفَةُ مِنَ الطُّرُقِ الْعَقْلِيَّةِ، وَجَدَ الصَّوَابَ مِنْهَا ما يَعُودُ إِلَى بَعْضِ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الطُّرُقِ الْعَقْلِيَّةِ بِأَوْضَحِ عِبَارَةٍ وَأَوْجَزِهَا، وَفِي طُرُقِ الْقُرْآنِ مِنْ تَمَامِ الْبَيَانِ وَالتَّحْقِيقِ مَا لَا يُوجَدُ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

وَلَا نَقُولُ: لَا يَنْفَعُ الِاسْتِدْلَالُ بِالْمُقَدِّمَاتِ الْخَفِيَّةِ وَالْأَدِلَّةِ النَّظَرِيَّةِ: فَإِنَّ الْخَفَاءَ وَالظُّهُورَ مِنَ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ، فَرُبَّمَا ظَهَرَ لِبَعْضِ النَّاسِ مَا خَفِيَ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَظْهَرُ لِلْإِنْسَانِ الْوَاحِدِ فِي حَالٍ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ فِي حَالٍ أُخْرَى.

وَأَيْضًا فَالْمُقَدِّمَاتُ وَإِنْ كَانَتْ خَفِيَّةً فَقَدْ يُسَلِّمُهَا بَعْضُ النَّاسِ وَيُنَازِعُ فِيمَا هُوَ أَجْلَى مِنْهَا، وَقَدْ تَفْرَحُ النَّفْسُ بِمَا عَلِمَتْهُ بِالْبَحْثِ وَالنَّظَرِ مَا لَا تَفْرَحُ بِمَا عَلِمَتْهُ مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعِلْمَ بِإِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَوُجُوبِ وُجُودِهِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ فِطْرِيٌّ، وَإِنْ كَانَ يَحْصُلُ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنَ الشُّبَهِ مَا يُخْرِجُهُ إِلَى الطُّرُقِ النَّظَرِيَّةِ.

قال الشيخ:

نعرف أنَّ هذا الوصف ـ وهو قوله: (قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ) ـ أنَّه وصفٌ ثابتٌ للإله، ولكنَّ العبارة التي في القرآن والسُّنَّة أوضح، وهي قول الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، فسَّره النَّبيُّ ﷺ بقوله: «أَنْتَ الْأَوَّلُ

فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[1]، وفسَّره أيضًا في حديث عمران بن حصين ﷺ بقوله: «كَانَ اللَّـهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»[2]، وهذا دليلٌ على أنَّ الله تعالى قديمٌ ولم يُسبقْ بعدمٍ، وأنه دائمٌ ولا يلحقه فناءٌ، وأنَّ المخلوقات حادثةٌ معدومةٌ، ثم وُجدت، ثم يأتي عليها العدم.

ويُستدلُّ على هذا بحدوث الحوادث، فيقال: هذه الحوادث لا بدَّ لها من محدثٍ، وهذا قد يُعَدُّ دليلًا عقليًّا، ولكن أيدَّته الآيات كما في قوله تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥]، فإذا تحقَّق أنَّهم لم يخلقوا أنفسهم، وتحقَّق أنَّهم لم يُخلَقوا من غير شيءٍ؛ تعين أنَّهم خُلِقوا من شيءٍ، وأنَّ لهم خالقًا خلقهم.

وهذا مما يُرد به على النُّفاة الطَّبائعيِّين الدهريِّين، والذين يسمُّون في هذه الأزمنة بالشيوعيِّين، الذين ينكرون الخالق، وقديمًا كانوا يسمَّوْن بالطَّبائعيِّين، ومنهم الفلاسفة الطَّبائعيُّون، وهناك فلاسفةٌ يقرُّون بالخالق، ويسمّون الفلاسفة الإلهيِّين.

هؤلاء جميعًا يُحتجُّ عليهم بالعقل، فيقال: هذه الموجودات نشاهد أنَّها كانت معدومةٌ ثم وُجدت، فلا بدَّ لها من موجدٍ، نشاهد أنَّ السَّماء صافيةٌ، ثمَّ يتراكم فيها السَّحاب، فلا بدَّ له من موجدٍ، ونشاهد أنَّ الأرض تكون يابسةً ثمَّ نشاهدها

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٨).

بعد ذلك تهتزُّ خضراء، فيها أشجارٌ وفيها ثمارٌ، فلا بدَّ لها من موجدٍ، ونشاهد أنَّ الإنسان يكون صغيرًا ثم نشاهده بعد ذلك قد وُلد له أولادٌ إلى جانبه، كانوا من قبل معدومين ثم وُجدوا، فلا بدَّ لهم من موجدٍ، وهكذا توالد الحيوانات والدَّوابِّ ونحوها لا بدَّ لها من موجدٍ، فإنَّ الإنسان ليس هو الذي يُوجِد نفسَه، وليس هو الذي يَخلق أولاده، ولو كان هو الذي يتصرَّف بنفسه؛ لحرص على أن يكون خَلْقُه أحسنَ من خلق غيره، ولو كان هو الذي يُوجد ولده؛ لحرص على أن يكون ولده مثلًا ذكورًا أو نحو ذلك.

فتعيَّن بذلك أنَّ هناك خالقًا يتصرَّف في هذا الكون، فهو الذي يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، ويُسعِد ويشقي، ويُفقِر ويُغني، فلابدَّ أن تنتهي هذه الموجودات إلى موجدٍ، وذلك الموجد لابدَّ أن يكون غنيًّا بنفسه، وأنَّ ما سواه فقيرٌ إليه، وهذا الوصف هو وصف الخالق جل شأنه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧]، أي: ليس ذلك صعبًا ولا شاقًّا على الله، بل هو سهلٌ يسيرٌ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فإذًا يعتقد أهل السُّنَّة أنَّ ربَّ هذا الكون واحدٌ، وأنَّه هو الذي يتصرَّف في الكون، وأنَّه قديمٌ بلا ابتداءٍ، ليس له بدايةٌ ولا نهايةٌ، وقد ذكر الله تعالى أنَّ كلامه لا ينفد فقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، وما ذاك إلَّا أنَّ كلام الله ليس له بداية

ولا نهاية، فالبحر ولو مُدَّ معه سبعة أبحرٍ أو ما لا نهاية لها، والأشجار من أوَّل الدُّنيا إلى آخرها لو كانت أقلامًا، فكُتب بتلك الأقلام وكُتب بمداد هذه البحار، لنفدَتِ البحار، ولتكسَّرتِ الأقلام، ولم ينفد كلام الله، وذلك لأنَّه لا بداية له ولا نهاية. ولا شكَّ أنَّ هذه من الحجج العقليَّة التي تقطع مخاصمة أولئك.

وإذا عرف المسلمون أنَّ لهم خالقًا خلقهم وخلق هذا الكون، عرفوا أنَّهم ما خُلقوا عبثًا، فلا بدَّ أنَّ للخالق الذي خلقهم وأنعم عليهم حقًّا عليهم، فيعرفون حقَّ الله على العبيد، وهو عبادته وحده لا شريك له، فيكون هذا دافعًا لهم إلى أن يقوموا بهذا الحقِّ، ثمَّ بعد ذلك يعلِّقوا آمالهم راجين الثَّواب الذي رتّب لهم على تلك العبادة.

والحاصل: أنَّ كلَّ مسلمٍ وكلَّ عاقلٍ إذا فكَّر في هذا الكون، ورأى وجودَه، ورأى أنَّه يحدث بعد أن كان معدومًا، عَرف أنَّه لا بدَّ له من محدثٍ، وذلك المحدث لو كان مفتقرًا إلى محدث آخر؛ لكان فقيرًا.

ثمَّ قد يُقال أيضًا: من الذي أحدث المحدِثَ الأوَّل؟ وإذا كان له محدِثٌ: من الذي أحدث الذي قبله؟ فيلزم بذلك التَّسلسل؛ فإذا قيل: إن المحدث واحدٌ، وإنَّه غير مسبوقٍ بعدمٍ، وإنَّه الأوَّل بلا بدايةٍ، انقطع التَّسلسل، فلم يكن هناك تسلسلٌ في الماضي ولا في المستقبل. هذا تقرير هذه الحجَّة العقليَّة، ولكن تكفي عنها هذه الآية النَّقليَّة وما يشابهها من الآيات التي يحتجُّ الله بها على عباده في قدرته وكمال تصرُّفه في هذا الكون وما فيه من الآيات والعبر، إنَّ في ذلك لعبرة وعظة، ولكن تلك العبرة والعظة إنَّما ينتفع بها أهل العقول.

قال الشارح:

وَقَدْ أَدْخَلَ المُتَكَلِّمُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى «الْقَدِيمَ»، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تعالى الحُسْنَى، فَإِنَّ «الْقَدِيمَ» فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ: هُوَ المُتَقَدِّمُ عَلَى غَيْرِهِ، فَيُقَالُ: هَذَا قَدِيمٌ لِلْعَتِيقِ، وَهَذَا حَدِيثٌ لِلْجَدِيدِ. وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ هَذَا الاسْمَ إِلَّا فِي المُتَقَدِّمِ عَلَى غَيْرِهِ، لَا فِيمَا لَمْ يَسْبِقْهُ عَدَمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، وَالْعُرْجُونُ الْقَدِيمُ: الَّذِي يَبْقَى إِلَى حِينِ وُجُودِ الْعُرْجُونِ الثَّانِي، فَإِذَا وُجِدَ الحَدِيثُ، قِيلَ لِلْأَوَّلِ: قَدِيمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١]، أَيْ: مُتَقَدِّمٌ فِي الزَّمَانِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:٧٥، ٧٦]، فَالْأَقْدَمُ مُبَالَغَةٌ فِي الْقَدِيمِ، وَمِنْهُ: الْقَوْلُ الْقَدِيمُ وَالجَدِيدُ لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨]، أَيْ: يَتَقَدَّمُهُمْ، وَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ الْفِعْلُ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا، كَمَا يُقَالُ: أَخذني مَا قَدُمَ وَمَا حَدُثَ، وَيُقَالُ: هَذَا قَدَمَ هَذَا وَهُوَ يَقْدُمُهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْقَدَمُ قَدَمًا؛ لِأَنَّهَا تَقْدُمُ بَقِيَّةَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ.

وَأَمَّا إِدْخَالُ «الْقَدِيمِ» فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ، مِنْهُمُ ابْنُ حَزْمٍ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَعْمَلًا فِي نَفْسِ التَّقَدُّمِ، فَإِنَّ مَا يُقَدَّمُ عَلَى الحَوَادِثِ كُلِّهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِالتَّقَدُّمِ مِنْ غَيْرِهِ، لَكِنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْأَسْمَاءُ الحُسْنَى الَّتِي

تَدُلُّ عَلَى خُصُوصٍ مَا يُمْدَحُ بِهِ، وَالتَّقَدُّمُ فِي اللُّغَةِ مُطْلَقٌ لَا يَخْتَصُّ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى الحَوَادِثِ كُلِّهَا، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الحُسْنَى.

وَجَاءَ الشَّرْعُ بِاسْمِهِ «الْأَوَّلِ»، وَهُوَ أَحْسَنُ مِنَ «الْقَدِيمِ»؛ لِأَنَّهُ يُشْعِرُ بِأَنَّ مَا بَعْدَهُ آيِلٌ إِلَيْهِ وَتَابِعٌ لَهُ، بِخِلَافِ «الْقَدِيمِ»، وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْأَسْمَاءُ الحُسْنَى، لَا الحَسَنَةُ.

قال الشيخ:

مشهورٌ في كتب أهل الكلام وَصْف الله بأنَّه القديم، بل عندهم أنَّ القديم أخصُّ أوصاف الله، ويعنون أنَّه الذي لم يتقدَّمه شيءٌ، ولذلك ينفون الصِّفات ـ تعالى الله عن قولهم ـ ويقولون: إنَّ تعدُّد الصِّفات يلزم منه تعدُّد القدماء، يعني أنَّ القديم واحدٌ، وهو الله، فلا يكون هناك قديمون غيره.

فلو قيل: إنَّ لله صفات؛ لكانت أيضًا موصوفةً بالقدم، أي: فيقال: الله قديمٌ، وسمعه قديمٌ، وبصره قديمٌ، ونحو ذلك.

وقد أجاب أهل السُّنَّة عليهم بأجوبة، منها:

أوَّلًا: أن لفظة «القديم» لا تدلُّ على الأوليَّة.

ثانيًا: أنَّ نفي الصِّفات لاستلزامها تعدُّد الأقدمين لا يلزم هذا الاستلزام؛ وذلك لأنَّ القديم ليس بلفظٍ شرعيٍّ ولا لغويٍّ، ولأنَّ الله تعالى واحدٌ بذاته وبصفاته، وأنَّ الصِّفات من جملة الذَّات، فلا يكون في إثباتها تعدُّد.

وها هو الشَّارح ينكر على هؤلاء الذين يقولون: إن القديم من أسماء الله،

ويذكر أن الاسم الصحيح الذي سمَّى الله به نفسه هو الأوَّل والآخر، أمَّا القديم، أو الأزليُّ، فهي أسماءٌ اصطلاحيَّةٌ، لا يلزم من الاصطلاح عليها ثبوتها.

ويقصدون بالقديم: عدم تقدُّم شيءٍ عليه، ويقصدون بالأزليِّ أو بالدَّائم: عدم إتيان الفناء عليه، ولو أتوا على هذين الاسمين في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، وقول النَّبيِّ ﷺ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[1]، لكان ذلك كافيًا، ولكان التَّفسير واضحًا، ولكانت الأسماء واقعةً موقعها.

وكلمة القديم عند العرب لا تدلُّ على تقدُّم الإنسان على غيره كلّه، وإنَّما تدلُّ على تقدُّمه على جنسه، فإذا وُجد له جنسٌ جديدٌ؛ سمِّي الأوَّل قديمًا، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، فإنَّ العراجين هي قمم النَّخل - يعني: العروق التي يكون فيها التَّمر - ويكون قديمًا إذا حمل النَّخل مرَّةً ثانيةً، فيقال للعراجين التي كانت في العام الماضي: هذه عراجين قديمةٌ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:٧٦]، يعني: إنَّ آباءكم قد تقدَّموا عليكم، ومعلومٌ أنَّ الآباء قبلهم أجداد، وقبل الأجداد أجدادٌ وهلُمَّ جرًّا، فسمِّي الآباء القريبون أقدمين، فدلَّ على أنَّ القديم لا يدُّل على التقدُّم، ولا يدلُّ على السَّبق، وإنَّما يدلُّ على سبق بعض الجنس.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٧).

فوصف الله تعالى بأنَّه الأوَّل أبلغ من وصفه بأنَّه القديم، وتعطي كلمة (الأول) معنى الأوَّليَّة، وتعطي كلمة (الآخر) معنى الأزليَّة، يعني الأبديَّة والديمومة؛ لأنَّ الله موصوفٌ بأنَّه دائمٌ وأبديٌّ وأزليٌّ، لا يأتي عليه الفناء ولا التَّغيُّر، وأنَّه هو كما وصف نفسه حيٌّ لا يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[1]؛ فبعد موت النَّاس والمخلوقات في هذه الحياة يبقى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

فإذا كان هو الباقي، فإنَّه يبعث العباد، ثمَّ بعد ذلك لا يأتي عليه فناءٌ أبدًا، وذلك هو الأصل في الدَّوام والبقاء، الذي هو وصفٌ لله وحده، فيعتقد المسلمون هذا الاعتقاد، وهو أنَّ ربَّهم سبحانه الذي خلق هذا الكون وهذا الخَلْق لم يُسبقْ بعدمٍ، بل هو قديمٌ، وأنَّه لا يأتي عليه الفناء، بل هو دائمٌ، ولكن يعبِّرون بالأوَّل والآخر؛ لأنهما أوضح من القديم والدَّائم، أو الأزليِّ، أو نحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الطحاوي:

لاَ يَفْنَى وَلاَ يَبِيدُ.

قال الشارح:

إِقْرَارٌ بِدَوَامِ بَقَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وَالْفَنَاءُ وَالْبَيْدُ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا فِي الذِّكْرِ لِلتَّأْكِيدِ، وَهُوَ أَيْضًا مُقَرِّرٌ وَمُؤَكِّدٌ لِقَوْلِهِ: (دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ).

قال الشيخ:

قوله: (لاَ يَفْنَى وَلاَ يَبِيدُ)، مؤكدٌ لقوله: (دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ)، ودليله من القرآن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقول النبي ﷺ: «أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»[1]، مثَّل بالجنِّ والإنس؛ لأنَّهم الثَّقلان المكلَّفان بكلِّ شيءٍ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٥).

كلُّ المخلوقات تموت وتفنى، ولا يبقى إلَّا وجه الله تعالى؛ وذلك دليلٌ على الكمال، والذي يكون له الكمال يستحقُّ أن يُقدَّس، وأن يُعبد وحده، وأن يقوم عبادُه الذين هم خلقُه وملكه بالواجب عليهم نحوه، وذلك هو العبادة المستمَّرة.

قال الطحاوي:

وَلاَ يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ.

قال الشارح:

هَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ الْإِيمَانَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَالْكَافِرُ أَرَادَ الْكُفْرَ، وَقَوْلُهُمْ فَاسِدٌ مَرْدُودٌ، لِمُخَالَفَتِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَالْمَعْقُولَ الصَّحِيحَ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْقَدَرِ الْمَشْهُورَةُ، وَسَيَأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَسُمُّوا «قَدَرِيَّةً» لِإِنْكَارِهِمُ الْقَدَرَ، وَكَذَلِكَ تُسَمَّى الْجَبْرِيَّةُ الْمُحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ قَدَرِيَّةً أَيْضًا، وَالتَّسْمِيَةُ عَلَى الطَّائِفَةِ الْأُولَى أَغْلَبُ.

وأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَعَاصِيَ قَدَرًا، فَهُوَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا يَرْضَاهَا وَلَا يَأْمُرُ بِهَا، بَلْ يُبْغِضُهَا وَيَسْخَطُهَا وَيَكْرَهُهَا وَيَنْهَى عَنْهَا، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ قَاطِبَةً، فَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَالِفَ لَوْ قَالَ: وَاللهِ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَحْنَثْ إِذَا لَمْ يَفْعَلْهُ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا، وَلَوْ قَالَ: إِنْ أَحَبَّ اللَّهُ، حَنِثَ إِذَا كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا.

قال الشيخ:

قوله: (وَلاَ يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ)، هذا مثل قول السلف: (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)، وقوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧]، يعني: أَنَّ ما أراده

تعالى فإنَّه ولا بدَّ سيحصل، وما لم يرده فإنَّه لا يكون، والمراد هنا الإرادة الكونيَّة، وذلك لأنَّ الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونيَّة، وإرادة شرعيَّة.

فالله تعالى قدَّر الكائنات، فلا يحدث في الوجود شيءٌ إلاَّ بإرادته، وهذا أكثر ما يحصل أو تطلق الإرادة عليه، أي: الإرادة الكونيَّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٥]، والآيات في هذه الإرادة كثيرة.

فيعتقد أهل السُّنَّة أنَّه سبحانه لا يكون شيءٌ في الوجود إلَّا بإرادته، ﴿ لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ [الرعد:٣١]، ولكن لا يُتَّخذ ذلك حُجَّةً في المعصية كما تفعله طائفة الجبريَّة، الذين يزعمون أنَّهم لا اختيار لهم، وأنَّ العباد مجبورون على المعاصي وعلى الكفر، وليس لهم أيُّ اختيارٍ، بل الإرادة الكاملة لله سبحانه، فلا يُعصى قسرًا ولا قهرًا، ولا تكون إرادة الخلق أقوى من إرادة الله، ولكن قد منحهم إرادةً وقدرةً تناسبهم، وهي مغلوبةٌ بقدرة الله، فللعباد قدرةٌ على أفعالهم، ولهم إرادةٌ، ولكنَّ إرادتهم وقدرتهم مسبوقةٌ بإرادة الله تعالى وبقدرته.

والقدريَّة ينقسمون إلى قسمين:

قدريَّةٌ نفاةٌ: الذين نفوا قدرة الله، وقالوا: إنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد!

وقدريَّةٌ مجبِّرةٌ: الذين يقولون: إنَّ الله أجبر العباد على المعاصي وعلى الطَّاعات وقصَرَهم عليها، تعالى الله عن ذلك.

وكلاهما ضُلَّال، وهدى اللهُ أهلَ السُّنَّة، فقالوا: إنَّ الله قديرٌ على كلِّ شيءٍ، ولكن منح العبد قدرةً يُكلَّف بها، فإذا اعتقدنا ذلك سلمنا من الاعتراضات.

قال الشارح:

وَالْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ يَقُولُونَ: الْإِرَادَةُ فِي كِتَابِ اللهِ نَوْعَانِ: إِرَادَةٌ قَدَرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ خَلْقِيَّةٌ، وَإِرَادَةٌ دِينِيَّةٌ أَمْرِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ.

فَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ: هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا.

وَالْكَوْنِيَّةُ: هِيَ الْمَشِيئَةُ الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ الْحَوادث.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود:٣٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ الْأَمْرِيَّةُ، فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦]،

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي مِثْلِ قَوْلِ النَّاسِ لِمَنْ يَفْعَلُ الْقَبَائِحَ: هَذَا يَفْعَلُ مَا لَا يُرِيدُهُ اللَّهُ، أَيْ: لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يَأْمُرُ بِهِ.

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ فَهِيَ الْإِرَادَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَالْفَرْقُ ثَابِتٌ بَيْنَ إِرَادَةِ الْمُرِيدِ أَنْ يَفْعَلَ، وَبَيْنَ إِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ، فَإِذَا أَرَادَ الْفَاعِلُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا، فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ مُعَلَّقَةٌ بِفِعْلِهِ، وَإِذَا أَرَادَ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا، فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ لِفِعْلِ الْغَيْرِ، وَكِلَا النَّوْعَيْنِ مَعْقُولٌ لِلنَّاسِ، وَالْأَمْرُ يَسْتَلْزِمُ الْإِرَادَةَ الثَّانِيَةَ دُونَ الْأُولَى، فَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَمَرَ الْعِبَادَ بِأَمْرٍ فَقَدْ يُرِيدُ إِعَانَةَ الْمَأْمُورِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ، وَقَدْ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُرِيدًا مِنْهُ فِعْلَهُ.

وَتَحْقِيقُ هَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ فَصْلَ النِّزَاعِ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى: هَلْ هُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِإِرَادَتِهِ أَمْ لَا؟ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ الْخَلْقَ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ، فَأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ الْفِعْلَ، وَيَجْعَلَهُ فَاعِلًا لَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ، فَجِهَةُ خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، غَيْرُ جِهَةِ أَمْرِهِ لِلْعَبْدِ عَلَى وَجْهِ الْبَيَانِ لِمَا هُوَ مَصْلَحَةٌ لِلْعَبْدِ أَوْ مَفْسَدَةٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ وَأَبَا لَهَبٍ وَغَيْرَهُمَا بِالْإِيمَانِ، كَانَ قَدْ بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وما يُصْلِحُهُمْ إِذَا فَعَلُوهُ، وَلَا يَلْزَمُ إِذَا أَمَرَهُمْ أَنْ يُعِينَهُمْ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِي

خَلْقِهِ لَهُمْ ذَلِكَ الْفِعْلَ وَإِعَانَتِهِمْ عَلَيْهِ وَجْهُ مَفْسَدَةٍ مِنْ حَيْثُ هُوَ فِعْلٌ لَهُ، فَإِنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَخْلُقُ لِحِكْمَةٍ، وَلَا يَلْزَمُ إِذَا كَانَ الْفِعْلُ الْمَأْمُورُ بِهِ مَصْلَحَةً لِلْمَأْمُورِ إِذَا فَعَلَهُ أَنْ يَكُونَ مَصْلَحَةً لِلْآمِرِ إِذَا فَعَلَهُ هُوَ، أَوْ جَعَلَ الْمَأْمُورَ فَاعِلًا لَهُ، فَأَيْنَ جِهَةُ الْخَلْقِ مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ؟ فَالْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ يَأْمُرُ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ مُرِيدًا النَّصِيحَةَ وَمُبَيِّنًا لِمَا يَنْفَعُهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ مَصْلَحَتِي فِي أَنْ آمُرَ بِهِ غَيْرِي وَأَنْصَحَهُ يَكُونُ مَصْلَحَتِي فِي أَنْ أُعَاوِنَهُ أَنَا عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ تَكُونُ مَصْلَحَتِي إِرَادَةَ مَا يُضَادُّهُ، فَجِهَةُ أَمْرِهِ لِغَيْرِهِ نُصْحًا غَيْرُ جِهَةِ فِعْلِهِ لِنَفْسِهِ، وَإِذَا أَمْكَنَ الْفَرْقُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ، فَهُوَ فِي حَقِّ اللهِ أَوْلَى بِالْإِمْكَانِ.

قال الشيخ:

هذا الكلام يوضح ما قلنا من أنَّ الإرادة قسمان:

١ - إرادةٌ دينيَّةٌ شرعيَّةٌ أمريَّةٌ.

٢ - وإرادةٌ كونيَّةٌ قدريَّةٌ خلقيَّةٌ.

والفرق بينهما أن الإرادة الكونيَّة لا بدَّ من وجود المراد فيها، فكلُّ شيءٍ أراده الله كونًا وقدرًا فلا بدَّ من وجوده، ولكن قد يحبُّه وقد لا يحبُّه، والذي يريده شرعًا ودينًا قد لا يوجد ولكنه يحبُّه، فالطَّاعات والأعمال الصَّالحة هذه أرادها الله دينًا وشرعًا من جميع الخلق، وأحبَّها منهم، ولكن قد تحصل من بعضهم وقد لا تحصل من البعض، فيقول: إنَّ الله أراد من فرعون وأبي لهبٍ أن يؤمنا، أراد ذلك دينًا وشرعًا وأمرًا، ولكن ما أراد ذلك كونًا ولا قدرًا ولا خلقًا، فلذلك لم

يُوجِدِ الإيمان منهما والأعمال الصالحة، وأراد من الأنبياء وأصحابهم الإيمان دينًا وشرعًا، وأراده منهم كونًا وقدرًا فوجد، فكلُّ الأعمال الصَّالحة محبوبةٌ عند الله، وإذا وقعت فإنَّها مرادةٌ دينًا وشرعًا، ومرادةٌ كونًا وقدرًا، وكلُّ الحوادث - حتَّى المعاصي والكفر والمخالفات - فهي واقعةٌ بإرادة الله الكونيَّة القدريَّة الخلقيَّة، ولكنَّها ليست محبوبةً ولا مرضيَّةً، ولو كان الله قد أرادها؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، فأخبر بأنَّه لا يرضى الكفر، ولكن يرضى الشُّكر.

وقد ذكر الشارح الأدلة من الآيات على الفرق بين الإرادتين؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾، هذه إرادةٌ كونيَّةٌ، يعني: من قدَّر الله وكوَّن أنَّه يهديه، فإنَّه ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾، أي: من قدّر أنه يضل ولا يهتدي؛ فإنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، إرادةٌ كونيَّةٌ قدريَّةٌ. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقوله: ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، وما أشبهها، فهذه إرادةٌ كونيَّةٌ، يعني: إذا كان الله يريد كونًا وقدرًا أن يغويكم فلا رادَّ لما أراده، وهذا معنى قول المسلمين: (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ).

لكن إذا احتجَّ بعض العصاة، وقال: إن الله لم يُرِدْ هدايتي، فكيف أهتدي والله ما أراد هدايتي؟

نقول له: اسأل اللهَ الهدايةَ حتَّى يستجيب لك، وافعلِ السَّبب، فإنَّ الله أعطاك قدرةً، وأعطاك استطاعةً على الأسباب، وأقدَرَكَ على الأسباب المحسوسة، فافعلها حتَّى تكون أسبابًا في حصول الإرادة ووجودها.

وإذا قال بعض العصاة مثلًا: هكذا أراد اللهُ منِّي هذه المعصية.

نقول: أرادها كونًا، ولم يردها شرعًا، الله تعالى أراد منك الإيمان شرعًا وأمرك به، أمر النَّاس كلَّهم بأن يتَّقوه وأن يؤمنوا به، وأحبَّ ذلك منهم، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، وبلا شكٍّ أنَّ الخير دائمًا يُنسب إلى الله تعالى، وأما الشُّرور فلا يجوز نسبتها إليه؛ كما حكى الله عن مؤمني الجنِّ أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فالإرادة هنا إرادةٌ شرعيَّةٌ، يعني: أراد الله بهم الخير إرادةً شرعيَّةً، والإرادة في قوله تعالى: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، إرادةٌ كونيَّةٌ.

وعلى هذا يحصل للمؤمن معرفة الفرق بين الإرادتين بأن يقول: كلُّ ما في الوجود من الحوادث فهو مرادٌ كونًا وقدرًا، ولكن قد يكون محبوبًا كالطَّاعات، وقد يكون مكروهًا كالمعاصي، وكلُّ الطَّاعات التي تحدث من أهلها فهي مرادةٌ ومحبوبةٌ دينًا وشرعًا؛ لأن الله تعالى أراد الإيمان من النَّاس كلِّهم دينًا وشرعًا، ولكن تحقَّق ذلك في المؤمنين بإيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، واجتمعت فيهم الإرادتان: الشرعيَّة، والقدريَّة، فإيمان المؤمنين وصلاتهم وعباداتهم مرادٌ كونًا وقَدَرًا لوجودها، ومرادةٌ دينًا وشرعًا للأمر بها ولمحبتها.

ومع ذلك فإنَّ على المسلم أن يسأل ربَّه الهداية؛ حتَّى ييسِّر له هـذه الأسباب ويجعله من أهلها، فإذا قام بالأسباب وفعلها، رُجي بذلك أن يكون ممَّن أراد الله تعالى هدايتَه كونًا وقدرًا، ووفَّقه لذلك دينًا وشرعًا، ولا يعتمد على الواقع، ولا يعتمد على حاله التي هو عليها، ويقول: لم يُرِدْ الله هدايتي، ويستمر على الضلال - والعياذ بالله - فإنَّ الذين يحتجُّون بالقدر يحتجُّون به حينًا دون حين؛ لأنَّهم لا يسلمون ذلك في أمورهم الدنيويَّة، بل تراهم مجدِّين ومجتهدين، بخلاف أمورهم الدينيَّة، فإنَّك تراهم في أمورهم وفي معاشهم مشمِّرين، وأمورهم الدينيَّة يحتجُّون بالقضاء وبالقدر، ويحتجُّون بأنَّ الله ما أراد منهم كذا وكذا.

فيُقال لهم: الباب واحدٌ، فإذا اجتهدتم في أمور الدنيا، فاجتهدوا في أمور الدِّين، والله تعالى هو الموفِّق، فمن أراد الخير والعمل الصالح أعانه الله على فِعْل ما أراد.

قال الشارح:

وَالْقَدَرِيَّةُ تَضْرِبُ مَثَلًا بِمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَكُونُ الْمَأْمُورُ أَقْرَبَ إِلَى فِعْلِهِ، كَالْبِشْرِ وَالطَّلَاقَةِ، وَتَهْيِئَةِ الْمَسَانِدِ وَالْمَقَاعِدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ مَصْلَحَةُ الْآمِرِ تَعُودُ إِلَى الْأَمْرِ، كَأَمْرِ الْمَلِكِ جُنْدَهُ بِمَا يُؤَيِّدُ مُلْكَهُ، وَأَمْرِ السَّيِّدِ عَبْدَهُ بِمَا يُصْلِحُ مُلْكَهُ، وَأَمْرِ الْإِنْسَانِ شَرِيكَهُ بِمَا يُصْلِحُ الْأَمْرَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهُمَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْآمِرُ يَرَى الْإِعَانَةَ لِلْمَأْمُورِ مَصْلَحَةً لَهُ، كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِذَا أَعَانَ الْمَأْمُورَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يُثِيبُهُ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَأَنَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، فَأَمَّا إِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْآمِرَ إِنَّمَا أَمَرَ الْمَأْمُورَ لِمَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ، لَا لِنَفْعٍ يَعُودُ عَلَى الْآمِرِ مِنْ فِعْلِ الْمَأْمُورِ، كَالنَّاصِحِ الْمُشِيرِ وقد رأى أَنَّهُ إِذَا أَعَانَهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْآمِرِ، وَأَنَّ فِي حُصُولِ مَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ مَضَرَّةً عَلَى الْآمِرِ، مِثْلَ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، وَقَالَ لِمُوسَى: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]. فَهَذَا مَصْلَحَتُهُ فِي أَنْ يَأْمُرَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْخُرُوجِ، لَا فِي أَنْ يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ لَوْ أَعَانَهُ لَضَرَّهُ قَوْمُهُ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْعِبَادَ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، لَا سِيَّمَا وَعِنْدَ الْقَدَرِيَّةِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ أَحَدًا عَلَى مَا بِهِ يَصِيرُ فَاعِلًا، وَإِذَا

عُلِّلَتْ أَفْعَالُهُ بِالْحِكْمَةِ، فَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا، فَلَا يَلْزَمُ إِذَا كَانَ فِي نَفْسِ الْآمِرِ لَهُ حِكْمَةٌ فِي الْأَمْرِ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِعَانَةِ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ حِكْمَةٌ، بَلْ قَدْ تَكُونُ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ لَا يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا أَمْكَنَ فِي الْمَخْلُوقِ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ أَنْ يَأْمُرَ بِأَمْرٍ لِمَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ، وَأَنْ تَكُونَ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ لِلْآمِرِ أَنْ لَا يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِمْكَانُ ذَلِكَ فِي حَقِّ الرَّبِّ أَوْلَى وَأَحْرَى.

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ المعتزلة يخالفون في أصل القاعدة، وينكرون قدرة الله على أفعال العباد مع عموم قدرة الله، فيقولون: إنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد، ومعنى خلقه لأفعال العباد ـ عندهم ـ: تهيئة الأسباب، لا أنَّه يحرِّك جوارحهم، أو أنَّه يبعث فيهم البواعث التي تباشر الأفعال.

وعقيدة المسلمين أنَّ الله تعالى هو الخالق للعبد ولما يعمل، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]، ولكنَّ قدرة الله عامَّةٌ لكلِّ شيءٍ، وتدخل فيها أفعال العباد، ومع ذلك فلا نجعل العبد آلةً ليس له أيُّ اختيارٍ، بل له قدرةٌ وإرادةٌ، وقدرة الله وإرادته غالبةٌ على قدرة العبد وإرادته.

وبحسب تلك القدرة التي مكَّنه الله بها وجعله فاعلًا بسببها يُثاب ويُعاقب؛ حيث بها يباشر العبادُ الأفعالَ خيرًا وشرًّا، فيعصي العاصي، ويطيع المطيع، فالعبد هو المؤمن، والكافر، والبرُّ، والفاجر، والمصلي، والصائم، أي: تُنسب إليه أفعاله؛

لأنَّه الذي باشرها، وإن كانت خلقًا لله تعالى أزليًّا.

ويبيِّن الشارح أن الآمر قد يعين المأمور وقد لا يعينه، فذكر ـ مثلًا ـ: إذا أمر الملك أحد وزرائه، فإنَّه يهيِّئ الأسباب؛ لأنَّ له مصلحةً في هذا الأمر، وهكذا أيضًا إذا أمر الملكُ أحدَ خدمه، فإنَّه يعينه ويساعده، وإذا أمر الشَّريكُ شريكَهُ بأمرٍ فيه مصلحةٌ لهما، فإنَّه يساعده، وإذا أمر السَّيِّدُ عبدَه بأمرٍ، فإنَّ ذلك الفِعْل فيه مصلحةٌ له، وفي مثل هذا يساعد الآمر المأمور.

وضرب أيضًا مثلًا لمن لا يحتاج أن يساعد، وهو إذا لم يكن فيه مصلحةٌ، ومَثَّل بذلك الرَّجل الذي نصح موسى بقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، أمره بالخروج، وليس من مصلحته أن يساعده وأن يرحِّله ويركبه؛ لأن في ذلك مضرَّة على الآمر؛ لأنَّه من قوم فرعون، لكنه أراد أن يحذِّر موسى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠].

فيُقال: الله سبحانه وتعالى قد تقتضي حكمته أن يعين المؤمن على الأوامر، ويهيِّئ له الأسباب، ويمكِّنها له، ويعمل الأعمال الصَّالحة، وييسِّرها الله له، ويكون ذلك فضلًا منه ومنَّةً، وقد تقتضي حكمته أن يخذل بعض العباد، ويخلي بينهم وبين أهوائهم وبين أعدائهم، ولا يعينهم ولا يحميهم، فيعصون ويقعون في الكفر أو في مقدِّمات الكفر، وذلك حكمة منه وعدلٌ، ليس بظالمٍ لهذا ولا بجائرٍ مع هذا، هكذا تقتضي حكمة الله، فلا اعتراض للمعتزلة والقدريَّة على أفعال الله، فإنَّه يفعل ما يشاء، ويضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، حكمةً وعدلًا ونعمةً وفضلًا.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ يُمْكِنُ فِي حَقِّ المَخْلُوقِ الحَكِيمِ أَنْ يَأْمُرَ غَيْرَهُ بِأَمْرٍ وَلَا يُعِينَهُ عَلَيْهِ، فَالخَالِقُ أَوْلَى بِإِمْكَانِ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مَعَ حِكْمَتِهِ، فَمَنْ أَمَرَهُ وَأَعَانَهُ عَلَى فِعْلِ المَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ المَأْمُورُ بِهِ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ خَلْقُهُ وَأَمْرُهُ إِنْشَاءً وَخَلْقًا وَمَحَبَّةً، فَكَانَ مُرَادًا بِجِهَةِ الخَلْقِ وَمُرَادًا بِجِهَةِ الْأَمْرِ. وَمَنْ لَمْ يُعِنْهُ عَلَى فِعْلِ المَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ المَأْمُورُ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ أَمْرُهُ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ خَلْقُهُ؛ لِعَدَمِ الْحِكْمَةِ المُقْتَضِيَةِ لِتَعَلُّقِ الخَلْقِ بِهِ، وَلِحُصُولِ الْحِكْمَةِ المُقْتَضِيَةِ لِخَلْقِ ضِدِّهِ. وَخَلْقُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يُنَافِي خَلْقَ الضِّدِّ الْآخَرِ، فَإِنَّ خَلْقَ المَرَضِ - الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ ذُلُّ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَدُعَاؤُهُ، وَتَوْبَتُهُ، وَتَكْفِيرُ خَطَايَاهُ، وَيَرِقُّ بِهِ قَلْبُهُ، وَيُذْهِبُ عَنْهُ الْكِبْرِيَاءَ وَالْعَظَمَةَ وَالْعُدْوَانَ - يُضَادُّ خَلْقَ الصِّحَّةِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ مَعَهَا هَذِهِ المَصَالِحُ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ خَلْقُ ظُلْمِ الظَّالِمِ - الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ لِلْمَظْلُومِ مِنْ جِنْسِ مَا يَحْصُلُ بِالمَرَضِ - يُضَادُّ خَلْقَ عَدْلِهِ الَّذِي لَا يَحْصُلُ بِهِ هَذِهِ المَصَالِحُ، وَإِنْ كَانَتْ مَصْلَحَتُهُ هُوَ فِي أَنْ يَعْدِلَ.

وَتَفْصِيلُ حِكْمَةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، تَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا عُقُولُ الْبَشَرِ.

وَالْقَدَرِيَّةُ دَخَلُوا فِي التَّعطِيلِ عَلَى طَرِيقَةٍ فَاسِدَةٍ: مَثَّلُوا اللَّهَ فِيهَا بِخَلْقِهِ، وَلَمْ يُثْبِتُوا حِكْمَةً تَعُودُ إِلَيْهِ.

قال الشيخ:

يمثل بهذا أنَّ حكمة الله تعالى قد تقتضي إعانة المأمور، وقد تقتضي عدم

إعانته، فالله تعالى أمر جميع البشر ـ مؤمنهم وكافرهم ـ بالتقوى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]، هذا الخطاب لجميع أجناس العالم، ولكن منهم من اتَّقى، ومنهم من لم يتَّقِ الله؛ فالذين اتَّقوا الله أراد الله بهم الخير، ومكَّنه لهم، وهداهم وأعانهم، فله عليهم نعمةُ الإعانة ونعمةُ الفضل، والذين لم يَّتقوه هؤلاء قد خذلهم، وخلَّى بينهم وبين أهوائهم، ولم يُعِنْهم؛ حكمةً منه وعدلًا، فهذا خَلَقَ فيه الإيمان، وهذا خَلَقَ فيه الكفر، بمعنى مكَّنه منه وأقدره عليه، وله الحكمة في هذا وهذا؛ لأنَّه سبحانه خلق ضدَّين: مؤمنًا وكافرًا، وخلق دارين: جنةً ونارًا، ولا بد لكلٍّ من الدَّارين من أهل يؤهَّلون لها، ولهذا يخبر تعالى بأنَّه لو شاء لهدى النَّاس جميعًا، ولو شاء لضلُّوا كلُّهم؛ فيقول تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣]، يعني: لولا أن يكونوا كلُّهم على الكفر، لجعلنا للكفَّار هذه الأشياء، فينخدع النَّاس بهم، ويعتقدون أنَّهم خُصُّوا بذلك لشرفهم ولأهليَّتهم، فيكفرون مثلهم، وهو واقعٌ كثيرًا.

وخلق تعالى المرض والصحة، وله الحكمة في ذلك، ففي خلقه للمرض مصلحةٌ تكمُن في أنَّ المريض يشعر بالذُّلِّ والضَّعف، ويتذكر فاقته وحاجته ومسكنته وتعلَّق قلبُه بربِّه، فيدعوه ويستكين إليه، وإذا كان دائمًا في صحَّةٍ وفي نعمةٍ ورفاهيةٍ ونشاطٍ وثروةٍ وشهراتٍ متتابعة، فإنَّه لا يأمن أن يأخذه الأَشَرُ والبَطَرُ والكبرياء والإعجاب بالنَّفس، ويكون منطلقًا إلى الكفر والمعاصي؛ كما هو

الواقع، ولهذا يخبر تعالى بأنَّه لو وَسَّعَ على النَّاس لتجبَّروا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾، يعني: لو وسَّع لهم الرزق وأتمه عليهم؛ ﴿لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٢٧]، يعني: لتكبَّروا وتجبَّروا.

فبذلك نعرف أنَّه كما خلق هؤلاء واختارهم مؤمنين، خلق هؤلاء وجعلهم كافرين، فله الحكمة في خلق هذين الضِّدَّين، كما خلق المرض وخلق الصِّحَّة.

قال الطحاوي:

لَا تَبْلُغُه الأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ.

قال الشارح:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]. قَالَ فِي «الصِّحَاحِ»: تَوَهَّمْتُ الشَّيْءَ: ظَنَنْتُهُ، وَفَهِمْتُ الشَّيْءَ: عَلِمْتُهُ. فَمُرَادُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أَنَّهُ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَهْمٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمٌ. قِيلَ: الْوَهْمُ مَا يُرْجَى كَوْنُهُ، أَيْ: يُظَنُّ أَنَّهُ عَلَى صيغةِ كَذَا، وَالْفَهْمُ: هُوَ مَا يُحَصِّلُهُ الْعَقْلُ وَيُحِيطُ بِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا نَعْرِفُهُ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ أَحَدٌ، صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٣، ٢٤].

قال الشيخ:

يعتقد المسلمون أنَّ ربَّهم سبحانه وتعالى موصوفٌ بصفات الكمال، منزَّه عن صفات النَّقص، ويعتقدون أنَّه ليس كمثله شيءٌ وهو السَّميع البصير، وأنَّهم

لا يستطيعون معرفة كيفيَّة صفاته ولا كُنهها، ولا كُنه ذاته، ويقولون: الله أعلم بكيفيَّة صفاته وبكيفيَّة أفعاله، فلا يجوز أن يُسأل عنه بكيف؛ كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ لـمَّا سُئل عن الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»[1]. يعني: الكيفيَّة التي هو عليها، وكيفية الاستواء، ونحو ذلك.

وهذا أيضًا يُقال في سائر الصِّفات؛ كصفة النُّزول، والمجيء، والعلوِّ، والغضب، والرَّحمة، والمحبَّة ... وما أشبهها، يعتقد المسلمون أنَّها ثابتةٌ، ولكن يعجزون عن إدراك كيفيَّتها، فكيفيَّة ذات الله وكيفيَّة صفاته لا يستطيع أن يدركها فَهْمٌ، ولا يتخيَّلها وَهْمٌ، لو فكر الإنسان بفكره لما استطاع أن يصل إلى كيفيَّة الخالق، فقد عجز العباد عن إدراك أقرب شيءٍ إليهم، وهي الأرواح التي تحيا بها الأجساد، فلم يستطيعوا أن يدروا ما كيفيَّتها، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

وقد أخبر الله تعالى أن الملائكةَ من خلقه، ونحن نؤمن بهم وإن لم نرهم، ولا ندري ممَّا خُلقوا، ولا ندري كيفيَّة خَلْقِهم، خَلَقَهم الله تعالى لعبادته، ولكن ما ترتيبهم وما أعضاؤهم وما أجسادهم؟ الله أعلم بذلك.

وهكذا إذا أخبرنا الله تعالى بوجود الشياطين، وأخبر النَّبيُّ ﷺ بأنَّ الشَّيْطَانَ

(١) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، وذكره الذهبي في العلو (ص١٣٩).

يَجْرِي من الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»(١)، ولكن لا ندري ما كيفيَّة هذا الشَّيطان، ولا مثاله، ولا وزنه، ولا غير ذلك، وأخبرنا الله تعالى بوجود الجن، وأنهم ينفذون في الإنسان، وأنَّهم يدخلون في الأرض، وحُكيت عنهم الأقوال، وسُمعوا وشُوهدوا، ومع ذلك لا ندري ما هيئتهم، ولا كيفيَّة خلقهم.

وإذا عجزنا عن هؤلاء، فعَجْز الإنسان عن كيفيَّة وماهيَّة الرَّبِّ تعالى بطريق الأولى، فما عليه إلَّا أن يستسلم لهذا الكون، يعرف أنَّ هذا الكون الذي هو هذا الوجود لا بدَّ له من مكوِّنٍ، وأن ذلك المكوِّن الذي كونَّ هذه الكائنات ـ أجرامها وأعلامها، وعلويِّها وسفليها ـ هو الواحد الأحد، وحده لا شريك له، وهو الذي لا تبلغه الأفهام، ولا تتوهمه الأوهام، ولا تدركه العقول، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولا يوُصف إلاَّ بما وصف به نفسه على وجه الكمال؛ كما في الآيات التي ذُكرت، فإنَّ الله وصف نفسه بهذه الصِّفات؛ ليُعْتَقَد أنَّه الإله الحقُّ، وأنَّه ربُّ الأرباب، وأنَّه الخالق البارئ المصوِّر، وأنَّه الملك القدُّوس السَّلام، وأنَّه الحيُّ القَيُّوم، الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ ... إلى آخر معنى الآيات وغيرها.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها.

قال الطحاوي:

وَلَا يُشْبِهُ الأَنَام.

قال الشارح:

هَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ المُشَبِّهَةِ، الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ الخَالِقَ بِالمَخْلُوقِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وَلَيْسَ المُرَادُ نَفْيَ الصِّفَاتِ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْبِدَعِ، فَمِنْ كَلَامِ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي «الْفِقْهِ الأَكْبَرِ»: لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا خِلَافُ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا. انْتَهَى[١].

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ[٢].

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ: مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِشَيْءٍ فَشَبَّهَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ[٣].

---

(١) انظر: الفقه الأكبر، بشرح د. محمد الخميس (ص١٤، ٢٤).

(٢) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٣٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ١٦٣).

(٣) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٣٢).

وَقَالَ: علامَةُ جَهْمٍ وَأَصْحَابِهِ دَعْوَاهُمْ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ مَا أُولِعُوا بِهِ مِنَ الْكَذِبِ: أَنَّهُمْ مُشَبِّهَةٌ، بَلْ هُمُ المُعَطِّلَةُ[1].

وَكَذَلِكَ قَالَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ: عَلَامَةُ الجَهْمِيَّةِ تَسْمِيَتُهُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ مُشَبِّهَةً[2]. فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُفَاةِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِلَّا يُسَمِّي المُثْبِتَ لَهَا مُشَبِّهًا، فَمَنْ أَنْكَرَ أَسْمَاءَ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَالِيَةِ الزَّنَادِقَةِ: الْقَرَامِطَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُقَالُ لَهُ: عَالِمٌ وَلَا قَادِرٌ، يَزْعُمُ أَنَّ مَنْ سَمَّاهُ بِذَلِكَ فَهُوَ مُشَبِّهٌ؛ لِأَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الِاسْمِ يُوجِبُ الِاشْتِبَاهَ فِي مَعْنَاهُ، وَمَنْ أَثْبَتَ الِاسْمَ وَقَالَ: هُوَ مَجَازٌ، كَغَالِيَةِ الجَهْمِيَّةِ، يَزْعُمُ أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ حَقِيقَةً، قَادِرٌ حَقِيقَةً، فَهُوَ مُشَبِّهٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ الصِّفَاتِ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ، وَلَا قُدْرَةٌ، وَلَا كَلَامٌ، وَلَا مَحَبَّةٌ، وَلَا إِرَادَةٌ، قَالَ لِمَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ: إِنَّهُ مُشَبِّهٌ، وَإِنَّهُ مُجَسِّمٌ.

وَلِهَذَا كُتُبُ نُفَاةِ الصِّفَاتِ - مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ - كُلُّهَا

---

(١) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٣٢).

(٢) أخرج الإمام الحافظ أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن الإمام أبي عبد الله ابن منده، بسنده عن وكيع بن الجراح - رحمه الله - أنه قال: «من علامة الجهمية أن يسموا أصحاب الحديث مشبهة». وقال الإمام أبو زكريا: «وكذلك قال عبد الله بن المبارك، ووهب بن جرير، وعاصم النبيل، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وقتيبة بن سعيد، وعتبة بن وهب، وحرب بن إسماعيل، وأبو مسعود الرازي، وأبو حاتم الرازي، وأبو زرعة الرازي، وبشر بن الوليد، وعبدالله بن محمد بن النعمان، وغيرهم من أئمة الدين رحمة الله عليهم أجمعين». انظر: جزء فيه ذكر أبي القاسم الطبراني (ص٣٥٦).

مَشْحُونَةٌ بِتَسْمِيَةِ مُثْبِتِي الصِّفَاتِ مُشَبِّهَةً وَمُجَسِّمَةً، وَيَقُولُونَ فِي كُتُبِهِمْ: إِنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْمُجَسِّمَةِ قَوْمًا يُقَالُ لَهُمُ: الْمَالِكِيَّةُ، يُنْسَبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَوْمًا يُقَالُ لَهُمُ الشَّافِعِيَّةُ، يُنْسَبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ!! حَتَّى الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ الْجَبَّارِ، وَالزَّمَخْشَرِيِّ، وَغَيْرِهِمَا، يُسَمُّونَ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ وَقَالَ بِالرُّؤْيَةِ مُشَبِّهًا. وَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ قَدْ غَلَبَ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ غَالِبِ الطَّوَائِفِ.

قال الشيخ:

من عقيدة أهل السُّنَّة أنَّهم إذا أثبتوا الصِّفات نفوا التَّشبيه، فيقولون: نثبت لله الصِّفات، ولكن صفاته لا تشبه صفات المخلوق. كما أنَّهم يثبتون لله أفعالًا، ويقولون: لا تشبه أفعال العباد. فيثبتون ـ مثلًا ـ صفة اليد والوجه كما أثبتها الله لنفسه، ويقولون: لله يدٌ لا كأيدي المخلوقين، ولله وجهٌ لا كوجوه المخلوقين، وما أشبه ذلك.

وكذلك في صفات الأفعال يثبتون أنَّ الله تعالى يحبُّ، ويكره، ويَسْخَط، ويغضب، ويرضى، وما أشبه ذلك، ويقولون: إنَّ هذه أفعالٌ حقيقيَّةٌ، ولكن ليس كغضب المخلوق، ولا كرضا المخلوق، وما أشبه ذلك، ويثبتون أنَّ الله يسمع ويبصر، ويقولون: ليس كسمع المخلوق ولا كبصره؛ وذلك لأنَّه فرقٌ كبيرٌ بين ما يُثْبَت للخالق وما يُثْبَت للمخلوق، فسمع المخلوق مثلًا لا يُدرِك إلَّا الأصوات القريبة، وسمع الخالق يدرك القريب والبعيد، وسمع المخلوق تشتبه عليه

الأصوات، فلو تكلَّم عنده خمسة في حينٍ واحدٍ لما فهم ما يقوله واحدٌ منهم، أما الخالق - عز وجل - فلا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، بل يسمع الكل، ولا تغلِّطه كثرة السؤَّال مع اختلاف اللُّغات وتفنُّن المسائل.

كذلك البصر، فالمخلوق لا يخرق بصره الحيطان ونحوها، ولا يبصر في الظُّلمات، أما الخالق - سبحانه وتعالى - فيبصر كلَّ شيءٍ ولا يخفى عليه شيءٌ؛ فيبصر النَّملة الصغيرة في حنادسِ[1] الظُّلَم؛ أين هذا من هذا ؟!

وذكر الشارح أنَّ كثيرًا من نفاة الصِّفات يسمُّون من أثبتها: مشبِّهةً، مع أنَّنا نصرِّح بنفي التَّشبيه، فيقولون: إنَّكم إذا قلتم: إنَّ الله على العرش، فإنَّكم مشبِّهةٌ، وإذا قُلتم: إنَّ الله ينزل كما يشاء، فإنَّكم مشبِّهةٌ، وإذا أثبتم أنَّ الله له سمعٌ وله بصرٌ، فأنتم مشبِّهةٌ ... وما أشبه ذلك.

وهذا خطأ من الفعل والقول، كيف يصير أهل السُّنَّة مشبِّهةً مع نفيهم للتَّشبيه ؟!.

لكنَّ أولئك النُّفاة يظنُّون أنَّ مجرَّد الإثبات تشبيهٌ، يقولون: مجرَّد إثبات فعلٍ يوجد للخالق والمخلوق تشبيهٌ، فإذا قلت: إنَّ الخالق يسمع والمخلوق يسمع، فقد شبَّهت. وليس الأمر كذلك! فهناك فرق بين السَّمعَيْن.

ويقولون: إذا قُلت: إنَّ لله يدًا وللمخلوق يدًا؛ فقد شبَّهت.

---

(١) حَنادِس: جمع حِنْدِس: وهو الليلُ الشديدُ الظُّلْمَة، ومنه حديث: «في لَيْلَةٍ ظَلْماءَ حِنْدِسٍ»، أي: شديدةِ الظُّلمَة. انظر: لسان العرب (٦/ ٥٨). والحديث أخرجه أحمد (٣/ ١٩٠).

نقول: كلَّا، ليس كذلك، فرقٌ بين اليدين، فكلٌّ تناسبه صفته، كما إذا قلتم أنتم يا معتزلة مثلًا: للخالق ذاتٌ وللمخلوق ذاتٌ، إذًا يلزمكم - على قولكم - أن تصيروا مشبِّهين؛ وإذا قلتم: إنَّ الخالق موجودٌ والمخلوق موجودٌ، يلزمكم أن تصيروا مشبِّهين، فكيف ترموننا بالتَّشبيه مع نفينا له؟! .

وذكر الشارح أيضًا أن كل من نفى شيئًا سمَّى المثبت له مشبِّهًا، فالباطنيَّة وغلاة القرامطة ينفون الأسماء والصِّفات كُلَّها، ولا يثبتون أسماءً ولا صفات لله تعالى، فمن أثبتها عندهم يُسمَّى مشبِّهًا.

وهناك فرقةٌ يثبتون الأسماء وينفون الصِّفات، ولا يجعلون لله صفاتٍ تؤخذ من تلك الأسماء، فيقولون: سميعٌ بلا سمعٍ، بصيرٌ بلا بَصَرٍ، عليمٌ بلا علمٍ، قديرٌ بلا قدرةٍ - تعالى الله عن قولهم - فيسمُّون مشبهًا كل من أثبت أنَّ الله يسمع ويبصر ... إلخ، مع أنَّ الذين يثبتونها يقولون: لا تشبه صفات المخلوق.

وهناك من المعتزلة من ينفي الصِّفات، فينفون القدرة والعلم والكلام وما أشبهها، وينفون أنَّ الله تعالى يُرى، ويزعمون أنَّ مَن أثبت شيئًا من ذلك؛ فإنَّه مشبِّهٌ، ومنهم من المفسِّرين الزَّمخشريّ صاحب تفسير «الكشاف»، فإنَّه معتزليٌّ، وهو مِمَّن يقول بخلق القرآن، وبأنَّ الله لا يُرى في الآخرة.

ولـمَّا كان أهل السُّنَّة يقولون: إنَّ الله تعالى يُرى بلا كيفٍ، أو أنَّه ينزل بلا كيفٍ، أو أنَّه استوى على العرش بلا كيفٍ، لم يوافقهم على ذلك، وادَّعى أنَّهم

مشبِّهةٌ بهذا الفعل، ونقل في ذلك عن بعض العدلية قوله[1]:

لَجَمَاعَةٌ سَمُّوْا هَوَاهُمْ سُنَّة وَجَمَاعَةٌ حُمْرٌ لَعَمْرِي مُوكَفَه
قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا شَنْعَ الْوَرَىٰ فَتَسَتَّرُوا بالبَلْكَفَه

يعني: تستَّروا بقولهم: بلا كيف، وإلَّا فقد شبَّهوه ـ تعالى الله عن قوله ـ وهكذا أيضًا إنكارهم لجميع الصِّفات.

وأمَّا عبدالجبَّار، فهو من المعتزلة المتقدمين.

وبلا شكٍّ أنَّ مثل هؤلاء لا يُلتفت إليهم، ولو انتشرت ـ مع الأسف ـ كتبهم، ولو حققّت، ولو قدِّستْ، ولو وُجدت تُباع في المكتبات الكبيرة والصغيرة، فلا يُغترُّ بها. فمثلًا الكتاب الكبير المسمى بـ «المغني» الذي هو أكبر مؤلَّف للمعتزلة ـ وهو من تأليف القاضي عبدالجبَّار ـ مطبوع في عدَّة مجلَّداتٍ، ومحققٌّ ومعتنىً به، وهو مع ذلك في نصر هذا المذهب الباطل، وله كتاب في مجلَّدين أيضًا مطبوع اسمه «متشابه القرآن»، تَتَبَّعَ فيه آيات الصِّفات، وحرَّفها وصرفها عن ظاهرها، ومع ذلك زعم أنَّه أجاب عمَّا هو متشابه، وهو في الحقيقة خلَّط في هذا الكتاب، فلا يُغتَرُّ بكتبه، وله أيضًا كتاب في أصول المعتزلة التي هي الأصول الخمسة، وأشباه ذلك في كتبهم الموجودة المطبوعة، فلا يُغترُّ بهم، وفي كتب أهل السُّنَّة غنيةٌ وكفايةٌ.

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ١٤٨).

قال الشارح:

وَلَكِنَّ المَشْهُورَ مِنِ اسْتِعْمَالِ هَذَا اللَّفْظِ عِنْدَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ المَشْهُورِينَ: أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِنَفْيِ التَّشْبِيهِ نَفْيَ الصِّفَاتِ، وَلَا يَصِفُونَ بِهِ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ، بَلْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ المَخْلُوقَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فَنَفَى المِثْلَ وَأَثْبَتَ الوصف.

وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ نَفْيُ التَّشْبِيهِ مُسْتَلْزِمًا لِنَفْيِ الصِّفَاتِ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا: أَنَّ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ فِيهِ بِقِيَاسٍ تَمْثِيلِيٍّ يَسْتَوِي فِيهِ الْأَصْلُ وَالْفَرْعُ، وَلَا بِقِيَاسٍ شُمُولِيٍّ يَسْتَوِي أَفْرَادُهُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُمَثَّلَ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ هُوَ وَغَيْرُهُ تَحْتَ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ يَسْتَوِي أَفْرَادُهَا. وَلِهَذَا لَمَّا سَلَكَتْ طَوَائِفُ المُتَفَلْسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمَةِ مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْيِسَةِ فِي المَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ، لَمْ يَصِلُوا بِهَا إِلَى الْيَقِينِ، بَلْ تَنَاقَضَتْ أَدِلَّتُهُمْ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ التَّنَاهِي الحَيْرَةُ وَالِاضْطِرَابُ، لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ فَسَادِ أَدِلَّتِهِمْ أَوْ تَكَافُئِهَا.

وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ قِيَاسُ الْأَوْلَى، سَوَاءٌ كَانَ تَمْثِيلًا أَوْ شُمُولًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾ [النحل:٦٠]، مِثْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثبت لِلْمُمْكِنِ أَوْ لِلْمُحْدَثِ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ - وَهُوَ مَا كَانَ كَمَالًا لِلْوُجُودِ

غَيْرَ مُسْتَلْزِمٍ لِلْعَدَمِ بِوَجْهٍ. فَالْوَاجِبُ الْقَدِيمُ أَوْلَى بِهِ.

وَكُلُّ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ثَبَتَ نَوْعُهُ لِلْمَخْلُوقِ وَالْمَرْبُوبِ الْمُدَبَّرِ، فَإِنَّمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ خَالِقِهِ وَرَبِّهِ وَمُدَبِّرِهِ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ.

وَأَنَّ كُلَّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ فِي نَفْسِهِ. وَهُوَ مَا تَضَمَّنَ سَلْبَ هَذَا الْكَمَالِ. إِذَا وَجَبَ نَفْيُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ وَالْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ نَفْيُهُ عَنِ الرَّبِّ تَعَالَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى.

وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ: أَنَّ مِنْ غُلَاةِ نُفَاةِ الصِّفَاتِ الَّذِينَ يَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ أَوِ الْأَسْمَاءِ، وَيَقُولُونَ: وَاجِبُ الْوُجُودِ لَا يَكُونُ كَذَا وَلَا يَكُونُ كَذَا، ثُمَّ يَقُولُونَ: أَصْلُ الْفَلْسَفَةِ هِيَ التَّشَبُّهُ بِالْإِلَهِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ، وَيَجْعَلُونَ هَذَا غَايَةَ الْحِكْمَةِ، وَنِهَايَةَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، وَيُوَافِقُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ يُطْلِقُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ، وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ»[1]، فَإِذَا كَانُوا يَنْفُونَ الصِّفَاتِ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَتَخَلَّقُ الْعَبْدُ عَلَى زَعْمِهِمْ؟! وَكَمَا أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَعَالَى، لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، لَكِنَّ الْمُخَالِفَ فِي هَذَا النَّصَارَى وَالْحُلُولِيَّةُ وَالِاتِّحَادِيَّةُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ.

وَنَفْيُ مُشَابَهَةِ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لَهُ، مُسْتَلْزِمٌ لِنَفْيِ مُشَابَهَتِهِ لِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ؛

---

(١) لم أقف عليه من قول النبي ﷺ فيما اطلعت عليه من كتب السنة، وروى نحوه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٥١) عن ذي النون المصري، وذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٢٤١) وقال: «أثرٌ باطلٌ».

فَلِذَلِكَ اكْتَفَى الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (وَلَا يُشْبِهُ الْأَنَامَ)، وَالْأَنَامُ: النَّاسُ، وَقِيلَ: كُلُّ ذِي رُوحٍ، وَقِيلَ: الثَّقَلَانِ. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، يَشْهَدُ لِلْأَوَّلِ أَكْثَرَ مِنَ الْبَاقِي. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

مؤلِّف المتن الإمام أبو جعفر الطحاوي - رحمه الله - ممَّن يقول بإثبات الصِّفات، ومن المعلوم أنَّ مَن أثبت الصِّفة لا يقول بنفيها مع كونه يصرِّح بنفي التَّشبيه، فالطَّحاويُّ يُثبت صفات الأفعال؛ كالكلام، والعلم، والقدرة ... وما أشبهها، وإذا كان يثبتها فقد صرَّح هنا بأنَّه ينفي عنها مشابهة المخلوقات، وبذلك يُعلم أنَّه لا تناقض بين إثبات الصِّفات ونفي التَّشبيه، ونحن - أهل السُّنَّة - نثبت أنَّ الله تعالى موصوفٌ بصفات الكمال، وأنَّ مرجعها إلى خبره عن نفسه وخبر رسله عنه، ونعتقد - مع ذلك - أنَّها تختصُّ به، وأنَّ صفات الخالق لا تشبه غيرها، كما أنَّ صفات المخلوق تختصُّ به ولا تشبه صفات الخالق، ويعتقد أيضًا المسلمون أنَّ الله تعالى موصوفٌ بكلِّ كمالٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وهذا يسمُّونه قياس الأولى، وهو أنَّ كلَّ كمالٍ ثبت للمخلوق فالخالق أولى به؛ وذلك لأنَّ المخلوق لم يكتسبْه إلَّا من الخالق سبحانه.

فصفات الكمال التي لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه كيف تُوجد في المخلوق ويخلو عنها الخالق جل شأنه؟!

هذا هو قياس الأولى، وأمَّا قياس التَّمثيل وقياس الشُّمول، الذي يستعمله القياسيُّون من أهل الكلام، فلا يجوز استعماله؛ فلا يجوز مثلًا أن يُقال: كلُّ موصوفٍ فإنَّه حادثٌ؛ لأن صفات الخالق غير حادثةٍ، بل الخالق بصفاته ليس بحادثٍ، بل هو الأوَّل بصفاته، سواءٌ كانت فعليَّةً أو قوليَّةً أو ذاتيَّةً، وسيأتي قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ في وصف الرَّبِّ سبحانه وتعالى: (لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الخَلْقِ اسْتَفَادَ اسم الخَالِق، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم الْبَارِي)، أي: هو موصوفٌ بأنَّه الخالق قبل أن ينشئ الخلق، وموصوفٌ بأنَّه الباري قبل أن يُوجد الخلق.

وهكذا أيضًا الصِّفات التي لها أثرٌ في العباد، نحو التوَّاب: هو موصوفٌ بأنَّه التَّوَّاب وإن لم يكن هناك من يتوب عليهم، وموصوف بأنَّه الرَّحمن قبل أن يوجد من يرحمهم ... وهكذا؛ فصفات الله تعالى أوَّليَّة أزليَّة، ليست مسبوقةً بعدمٍ، وليست كصفات أيِّ مخلوقٍ، وكلُّ كمالٍ في المخلوق فإنَّما اكتسبه واستفاده من الخالق، فالله تعالى هو الذي أعطاه، وهو الذي أيَّده، وهو الذي سدَّده.

وبالجملة لا يُفهم ـ كما تقوله المتكلمة ـ أنَّ إثبات الصِّفات تشبيهٌ، بل يجتمع أنَّ المسلم يصف الله بصفات الكمال، وأنَّه لم يكن مشبِّهًا، ولأجل ذلك جمع الله في الردِّ بين الطَّائفتين، في بعض آية في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فإن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ ردٌّ على المشبِّهة الذين غلوا في إثبات الصِّفات؛ حتى شبهوا الله بخلقه، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على المعطِّلة الذين غلوا في النَّفي؛ حتَّى عطَّلوا الخالق عن صفاته، وهاتان

الطَّائفتان قد كفَّرهم كثيرٌ من العلماء؛ ولهذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

ولهذا قال بعض السلف: «المشبِّه يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموحِّد المثبت يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا»[1].

وهذا معنى قول نُعيم بن حمّاد: (مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ)[2].

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٢٦)، والصواعق المرسلة (١/ ١٤٨)، ومقدمة القصيدة النونية لابن القيم.

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٠٥).

قال الطحاوي:

حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فَنَفْيُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران:١ - ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه:١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر:٦٥]. وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»[1]. الحَدِيثَ.

لَـمَّا نَفَى الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - التَّشْبِيهَ أَشَارَ إِلَى مَا تَقَعُ بِهِ التَّفْرِقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، بِمَا يَتَّصِفُ بِهِ تَعَالَى دُونَ خَلْقِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ؛ لِأَنَّ صِفَةَ الحَيَاةِ البَاقِيَةِ مُخْتَصَّةٌ بِهِ تَعَالَى دُونَ خَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ يَمُوتُونَ.

وَمِنْهُ: أَنَّهُ قَيُّومٌ لَا يَنَامُ؛ إِذْ هُوَ مُخْتَصٌّ بِعَدَمِ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ دُونَ خَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ يَنَامُونَ. وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ نَفْيَ التَّشْبِيهِ لَيْسَ المُرَادُ مِنْهُ نَفْيَ الصِّفَاتِ، بَلْ هُوَ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦٣).

سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، لِكَمَالِ ذَاتِهِ.

فَالحَيُّ بِحَيَاةٍ بَاقِيَةٍ لَا يُشْبِهُ الحَيَّ بِحَيَاةٍ زَائِلَةٍ، وَلِهَذَا كَانَتِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعًا وَلَهْوًا وَلَعِبًا ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فَالحَيَاةُ الدُّنْيَا كَالمَنَامِ، وَالحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَالْيَقَظَةِ، وَلَا يُقَالُ: فَهَذِهِ الحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَامِلَةٌ، وَهِيَ لِلْمَخْلُوقِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: الحَيُّ الَّذِي الحَيَاةُ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ اللَّازِمَةِ لَهَا، هُوَ الَّذِي وَهَبَ المَخْلُوقَ تِلْكَ الحَيَاةَ الدَّائِمَةَ، فَهِيَ دَائِمَةٌ بِإِدَامَةِ اللَّهِ لَهَا، لَا أَنَّ الدَّوَامَ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهَا لِذَاتِهَا، بِخِلَافِ حَيَاةِ الرَّبِّ تَعَالَى. وَكَذَلِكَ سَائِرُ صِفَاتِهِ، فَصِفَاتُ الخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ المَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

قال الشيخ:

هذه من الصِّفات الثُّبوتية، يعني: أنَّا نثبت لله تعالى من الصِّفات صفةَ الحياة وصفة القيُّوميَّة، وننفي ضدَّهما من الصِّفات السَّلبيَّة، وهي صفة النَّوم، وصفة الموت، وصفة السِّنَة - التي هي النُّعاس أو مقدِّمات النَّوم - فهذه صفات نقصٍ، فالرَّبُّ سبحانه أثبت الصِّفات الكماليَّة بقوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، ونفى صفات النَّقص بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾، يعني: نعاسٌ ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾، وهو النوم المعروف، ونفى الموت بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]؛ فنفى الموت، ونفى السِّنة، ونفى النَّوم؛ لأنَّ النَّوم نقصٌ، فالإنسان يحتاجه والدَّوابُّ؛ لأنَّ فيه شيئًا من إراحة البدن بعد التَّعب، والرَّبُّ - سبحانه وتعالى -

منزَّهٌ عن التَّعب، ومنزَّهٌ عن اللُّغوب.

ورُوي أنَّ اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السَّمٰوات والأرض، فقال: «خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَمَا فِيهِنَّ مِنْ مَنَافِعِ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ الشَّجَرَ وَالْمَاءَ وَالْمَدَائِنَ وَالْعُمْرَانَ وَالْخَرَابَ، فَهَذِهِ أَرْبَعَة، وَخَلَقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْجُمْعَةِ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْمَلَائِكَةَ إِلَى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِيَتْ مِنْهُ، فَخَلَقَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْآجَالِ حِينَ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَلْقَىٰ الْآفَةَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَفِي الثَّالِثَةِ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ». قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ»، قالوا: قد أصبت لو أتممت؟ فغضب النبي ﷺ، وعَلِمَ أنَّهم يريدون بذلك ما هم يعتقدونه من أنَّ الله أكمل المخلوقات يوم الجمعة واستراح يوم السَّبت، هكذا عندهم: أنَّ الله استراح يوم السَّبت، وكذبوا، فإنَّ الله تعالى لا يحتاج إلى راحةٍ، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨][١]، يعني: من تعبٍ، فنفى عن نفسه هذا اللُّغوب الذي هو

(١) أخرجه الطبري (٢٤/ ٩٤)، والحاكم (٢/ ٥٤٣) من طريق أبي سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقال: صحيح الإسناد، وأورده الذهبي في العلو (ص٩٥) وقال: «صححه الحاكم وأنى ذلك، والبقال قد ضعفه ابن معين والنسائي». وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٥): «هذا الحديث فيه غرابة».

نقصٌ وعيبٌ؛ ليدلَّ على أنَّ الله موصوفٌ بكلِّ كمالٍ .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ قائمٌ على هذه المخلوقات؛ ولذلك سمَّى نفسه بالقيُّوم، يعني: القائم على خلقه، ومعلومٌ أنَّ القائم على خلقه هو الذي يراقبهم ويرعاهم ويكلؤهم وهم نائمون، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء:٤٢]، أي: الرحمن هو الذي يكلؤكم، يعني: يحفظكم ويراقبكم، فإذا كان كذلك، فإنَّه الذي يراعي عباده، ومثله لا يعتريه نومٌ ولا نقصٌ ولا سِنَةٌ ولا غير ذلك؛ لأنَّه الذي يمسك هذه المخلوقات.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج:٦٥]، أي: هو الذي يمسكها بقوَّته وبخلقه وبتمكينه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر:٤١]، أي: هو الذي يمسكهما حتَّى لا تضطربا ولا تزولا .

فإذا كان كذلك، فإنَّه الحيُّ الذي لا يموت، والجنُّ والإنس يموتون، وقد حكم الله بالفناء على كلِّ من سواه، قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، فهذا دليل الحياة التي لا يعتريها نقصٌ ولا تغييرٌ، ولا شكَّ أنَّ النَّوم نقصٌ، ولذلك يسمَّى أخا الموت، والنَّوم موتةٌ

صغرى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، فذكر أنَّه يتوفَّاها في منامها، فالنَّوم شبه الموت، ولذلك نفاه ـ جل وعلا ـ عن نفسه، ونفى أيضًا مقدِّماته في قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والسِّنَة: هي النُّعاس أو النَّوم الخفيف، فيعتقد المسلمون أنَّ الله موصوفٌ بصفات الكمال؛ كالحياة الكاملة، والقيوُّميَّة الكاملة.

وقد وافقت الأشاعرةُ على وصف الله تعالى بالحياة، ولكنهم رجعوا في إثباتها إلى العقل، يقولون: إنَّما أثبتناها لدلالة العقل عليها، وكأنَّهم لم يعتبروا دلالة الشَّرع مع الأدلَّة الواضحة الدلالة من الآيات والأحاديث ونحوها، والحديث الذي مرَّ بنا ـ وهو حديثٌ مشهورٌ ـ وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قبل عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ**»[1]، فابتدأ هذا الحديث بنفي هذا النَّقص ـ وهو النَّوم ـ وأنَّه لا ينبغي أن ينام.

هذه هي عقيدة المسلمين، وبلا شكٍّ أنَّ الذي يعتقد أنَّ ربَّه حيٌّ لا يموت، وأنَّه قيُّومٌ لا ينام، وأنَّه لا يعتريه تغيُّرٌ، هو الذي يكون قَدْرُ ربِّه في قلبه أعظم من قَدْرِ كلِّ شيءٍ، فيعبده حقَّ العبادة.

---

(١) تقدم تخريجه (٣٦٣).

قال الشارح:

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ - أَعْنِي: «الحَيَّ»، «الْقَيُّومَ» - مَذْكُورَانِ فِي الْقُرْآنِ مَعًا فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ كَمَا تَقَدَّمَ، وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الحُسْنَى، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُمَا الِاسْمُ الْأَعْظَمُ[1]، فَإِنَّهُمَا يَتَضَمَّنَانِ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَكْمَلَ تَضَمُّنٍ وَأَصْدَقَهُ، وَيَدُلُّ «الْقَيُّومُ» عَلَى مَعْنَى الْأَزَلِيَّةِ وَالْأَبَدِيَّةِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ «الْقَدِيمِ». وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى كَوْنِهِ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ، وَهُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ، وَ«الْقَيُّومُ» أَبْلَغُ مِنَ «الْقَيَّامِ»؛ لِأَنَّ الْوَاوَ أَقْوَى مِنَ الْأَلِفِ، وَيُفِيدُ قِيَامَهُ بِنَفْسِهِ، بِاتِّفَاقِ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ اللُّغَةِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ. وَهَلْ تُفِيدُ إِقَامَتَهُ لِغَيْرِهِ وَقِيَامَهُ عَلَيْهِ؟ فِيهِ قَوْلَانِ، أَصَحُّهُمَا: أَنَّهُ يُفِيدُ ذَلِكَ. وَهُوَ يُفِيدُ دَوَامَ قِيَامِهِ وَكل قِيَامِهِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَزُولُ وَلَا يَأْفُلُ، فَإِنَّ الْآفِلَ قَدْ زَالَ قَطْعًا، أَيْ: لَا يَغِيبُ وَلَا يَنْقُصُ وَلَا يَفْنَى وَلَا يُعْدَمُ، بَلْ هُوَ الدَّائِمُ الْبَاقِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ.

وَاقْتِرَانُهُ بِالحَيِّ يَسْتَلْزِمُ سَائِرَ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَيَدُلُّ عَلَى بَقَائِهَا وَدَوَامِهَا، وَانْتِفَاءِ النَّقْصِ وَالْعَدَمِ عَنْهَا أَزَلًا وَأَبَدًا؛ وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ

---

(١) كما في حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وأحمد (٦/ ٤٦١).

النَّبيُّ ﷺ(١).

فَعَلَى هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ مَدَارُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى كُلِّهَا، وَإِلَيْهِمَا تَرْجِعُ مَعَانِيهَا، فَإِنَّ الْحَيَاةَ مُسْتَلْزِمَةٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا صِفَةٌ مِنْهَا إِلَّا لِضَعْفِ الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ تَعَالَى أَكْمَلَ حَيَاةٍ وَأَتَمَّهَا، اسْتَلْزَمَ إِثْبَاتُهَا إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ يُضَادُّ نَفْيُهُ كَمَالَ الْحَيَاةِ.

وَأَمَّا «الْقَيُّومُ»، فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ كَمَالَ غِنَاهُ وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ، فَإِنَّهُ الْقَوِيمُ بِنَفْسِهِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، الْمُقِيمُ لِغَيْرِهِ، فَلَا قِيَامَ لِغَيْرِهِ إِلَّا بِإِقَامَتِهِ.

فَانْتَظَمَ هَذَانِ الِاسْمَانِ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَتَمَّ انْتِظَامٍ.

قال الشيخ:

الماتن يقول: (حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ)، والشَّارح ابتدأ شرحه بأوَّل آية الكرسيِّ، وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، واستدلَّ أيضًا بأوَّل سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران:١ـ٣]، وبالآية الثالثة في

---

(١) كما في حَدِيثِ أُبَيِّ بن كَعْبٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «يا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، قال: قلت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «يا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، قال: فَضَرَبَ في صَدْرِي، وقال: «واللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». أخرجه مسلم (٨١٠).

سورة طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، [طه: ١١١].

قُرِنَ هذان الاسمان في ثلاثة مواضع: في سورة البقرة في آية الكرسيِّ، وفي أوَّل سورة آل عمران، وفي هذه الآية من سورة طه، ولَـمَّا كان هذا شأنهما، قال بعض العلماء: إنَّهما يتضمَّنان اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى؛ ولأجل ذلك يُنْدَبُ أن يُكثر العبد من التَّوسُّل بأسماء الله إذا دعاه، وأن يُكثر من التَّوسُّل بهذين الاسمين، وكان من دعاء النبي ﷺ الذي علَّمه لابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ: «يَا حَيُّ يَا قيُّوم بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»[1]، فأفاد بأنَّ هذين الاسمين يُدعى الرَّبُّ تعالى بهما، كما يُدعى ببقيَّة الأسماء الحسنى التي قال الله فيها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: توسَّلوا بها في دعائه.

إذًا فالعبد عند الدُّعاء يتوسل بأسماء الله الحسنى، ومن جملتها: الحيُّ القيُّوم، وبلا شكٍّ فإنَّ هذين الاسمين يتضَّمنان صفاتِ الكمالِ، فإنَّ الحيَّ يتضمَّن إثباتَ الحياة، والحياةُ التي تثبتها لله تعالى هي أتمُّ حياةٍ وأكملها، وذلك لوصفها بأنَّها حياةٌ مستقرَّةٌ، وبأنَّها لا يعتريها نقصٌ؛ مثل النَّوم الذي هو أخو الموت، ولا يعتريها الموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ومن هذا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٣)، والحاكم (١/ ٥٤٥) وصححه، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وحسنه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٦/ ٣٠٠). وأخرجه الترمذي مختصرًا (٣٥٢٤).

الوصف يستحقُّ الرَّبُّ تعالى أن يكون هو الإله؛ ولأجل ذلك بدأ الآية بإثبات الإلهيَّة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، في آية الكرسيِّ، وفي أوَّل سورة آل عمران، فكأنَّه يقول: الإلهيَّة الحقَّة لا تصلح إلاَّ لمن هو حيٌّ قيُّومٌ، الحياة والقيُّوميَّة الكاملة هي التي استحقَّها الرَّبُّ، واستلزمت جميعَ صفاتِ الكمالِ، ومعنى كونها تستلزم صفاتِ الكمالِ: أنّ مَنْ أثبتها لزمه أن يثبت بقيَّة الصِّفات التي هي صفاتُ كمالٍ، فإنَّ الحياة كلَّما كانت كاملةً؛ لزم أن يكون غيرها من الصِّفات تابعًا لها.

وأمَّا من نفى شيئًا من الصِّفات، فإنَّه إنَّما أثبت حياةً ناقصةً، وقد وُصف الله عزَّ وجلَّ بالسَّمع، والحياةُ تستلزم أن يكون سميعًا، وبالبصر الذي يستلزم أن يكون مِنْ حيٍّ، وبالكلام الذي لا بدَّ أن يكون من حيٍّ، وكذلك بالقدرة والعلم والمشيئة والإرادة ... وما أشبه ذلك من الصفات، التي يأتينا تفصيلها إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا فالمسلم عليه أن يُلحَّ في دعاء الله تعالى، ويتوسَّل إليه بأسمائه، بعد أن يعتقد دلالَةَ تلك الأسماء، فدِلالةُ الحيِّ على إثبات الحياة، ودلالَةُ القيُّوم إثبات القيُّوميَّة، التي هي القيام على خلقه، فهو سبحانه القائم على خلقه المدبِّر لشؤونهم.

قال الطحاوي:

خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مَؤُونَةٍ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

وَقَالَ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﵁: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ». الحَدِيثَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وَقَوْلُهُ: (بِلَا مَؤُونَةٍ): بِلَا ثِقَلٍ وَلَا كُلْفَةٍ.

---

(١) برقم (٢٥٧٧).

قال الشيخ:

هذا من جملة ما وصف الله به نفسه، وأخبر عن نفسه أنَّه الذي خلق الخلق ورزقهم، أي: هو المنفرد بذلك وحده، فأمَّا الخلق فليس فيه منازعٌ، وأما الرزق فظاهرٌ أنَّه الذي يسَّر أسبابَ الرِّزق، وأخبر بذلك ليعرفه العبادُ فيعبدونه وحده، فإذا عرفوا أنَّهم مخلوقون اعترفوا بأنَّ لهم خالقًا، هو الله وحده، ما خلقهم لحاجته إليهم، أو ليتكثَّر بهم من قلَّةٍ، أو ليتعزَّز بهم من ذلة، ولا ليستغني بهم من عيلةٍ، بل هو الغنيُّ عنهم وهم الفقراء إليه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

وقد أخبر الله بالحكمة في خلقه لهذا الخلق، وهو أنَّه خلقهم لعبادته وأمرهم بطاعته، خلقهم ليعرفوه ويعبدوه، وأمرهم بأن يوحِّدوه ويطيعوه، وهو الغنيُّ عنهم؛ ولهذا قال -عز وجل-: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧]، وقال تعالى: في آية أخرى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، فهو الغنيُّ وهم الفقراء.

إذا عرف العباد بأنَّهم مخلوقون، وأنَّ لهم خالقًا، عرفوا بأنَّ ذلك الخالق غنيٌّ عنهم، وأنَّهم فقراءُ إليه، عرفوا بأنَّهم مملوكون، وأنَّ لهم مالكًا، عرفوا بأنَّهم مدَّبرون، وأنَّ هناك مَنْ يدبِّرهم ويسخِّرهم ويتصرَّف بهم كما يشاء، ذلك الخالق

والمالك والرَّبُّ والمتصرِّف، هو المستحقُّ لأن يعبدوه، ولأجل ذلك خاطبهم بذلك وذكَّرهم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ [البقرة:٢١]، فابتدأ بنعمة الخلق، بعد ما أمرنا بالعبادة ذكرنا بأسباب هذه العبادة:

أولًا: أنه خلقكم.

ثانيًا: أنه خلق من قبلكم.

ثالثًا: أنه أنزل لهم من السَّماء ماءً.

رابعًا: أنه جعل لكم الأرض فراشًا، والسَّماء بناءً.

خامسًا: أنه أنبت لكم النبات.

كلُّ ذلك من الأسباب التي هي منَّةٌ ونعمةٌ منه سبحانه وتعالى.

أمَّا قوله: (رَازِقٌ)، فمعلومٌ أنَّه الذي تفرَّد بالرِّزق وحده، وقد يقول قائلٌ: بل العبد هو الذي يتكسَّب، والدَّوابُّ هي التي تتقلَّب في طلب الرِّزق، فكيف يكون ذلك رزقًا ونحن نشاهد أنَّ الإنسان هو الذي يكتسب الرِّزق؟!

يقول هذا الكثير، وأكثر من قاله هم الملاحدةُ؛ حتَّى ذُكِرَ عن بعض الملاحدة أنَّه لما قيل له: تذكَّر أنَّ الله هو الذي يرزقك. فقال: كلا، إنَّما ترزُقني يميني - أو بهذا المعنى والعياذ بالله! - نَسِيَ أنَّ الله حنَّن عليه أبويه في الطُّفولة، ونسي أنَّ الله يسَّر له الرِّزق وهو في رحم أمِّه حتَّى يأتيه الرِّزقُ مِنَ حيث لا يشعر، فكان له - وهو في بطن أمِّه - بابٌ واحدٌ يأتيه الرِّزق منه، وهو مِنْ سُرَّته يتغذَّى من ذلك الدَّم، مَنِ الذي يسَّر له ذلك؟! هل الأبوان لهما تصرُّفٌ في هذا الجنين حتَّى يتمَّ خلقه؟!

فالذي دبَّره على هذه الهيئة هو الذي يرزقه لَـمَّا خرج إلى هذه الدُّنيا.

ومَن الذي فجَّر له هذين الثديين في صدر والدته بهذا اللَّبن اللَّذيذ الذي يحصل له بالتَّغذِّي؟! ومن الذي ألهم هذا الطِّفل أن يمتصَّ حتَّى يحصل على هذا اللَّبن الذي يتقوَّت به؟! الله هو الذي أخرجه إلى الدنيا، وفتح له بابين، وهما هذان الثديان، يكون منهما رزقه وغذاؤه، لا يستطيع أن يُحصِّل لنفسه هذا الرِّزق، إلاَّ أنَّ الله يسَّره له.

ومن الذي حنَّن قلب أبويه عليه، وجعل في قلوبهما الشَّفقة التامَّة إلى أنْ يَحْنُوا عليه ويحدبا عليه ويحبا بقاءه، ويسهرا ويتعبا في تحصيل راحته؟! لولا أنَّ الله جعل ذلك في قلوبهما لما التفتا إليه، ولما بقي على هذه الحياة مدَّةً، بعدما شبَّ وترعرع ومُنِعَ من ذينك الثَّديين فتح الله له أربعة أبوابٍ من الرِّزق، وهما: شرابان وطعامان، الشَّرابان: لبنٌ مأخوذٌ من الحيوان، وأشربة من الماء ومن مركَّبات الماء، والطعامان: أطعمة اللَّحم من الحيوانات التي سخَّرها الله وجعلها مسخَّرةً ليأكل من لحومها، وسائر الأطعمة مِمَّا تنبته الأرض.

فالذي يسَّر أسباب الرزق هو الذي أنبت هذا النَّبات حتَّى أينع، وأصبح صالحًا للرِّزق وللقوت، ولو شاء الله تعالى لجعل الأرض حَجَرًا لا تُنْبِت، ولو جعل الأرض كلَّها ماءً لم يحصل فيها هذا النَّبات وهذا الاستقرار، ولو شاء الله لجعلها سبخةً لا يحصل أن يكون فيها أيُّ نباتٍ أصلًا، حتَّى لو جعلها الله تعالى كلَّها ذهبًا أو كلَّها فضَّةً هل يحصل الانتفاع بها وتنبت ويأكل النَّاس ودوابهم ويتقوتون بها؟! ما تنفعهم، لَـمَّا أنَّ الله جعلها رخاءً وصالحةً للإنبات، وكان ذلك

من الرِّزق؛ ولهذا يمتنُّ على عباده بأنَّه الذي رزقنا، ولسنا نحن الذين نرزق أنفسَنا.

ثمَّ إذا كان الإنسان قد أُعطي قوَّةً حتَّى يتكسَّب ويجمع المال من هنا ومن هنا، فمن الذي أعطاه هذا العقل وهذا الفكر حتى يتسبب؟

ومن الذي أعطاه هذه الأدوات وهذه الآلات حتَّى يسيرَ على قدميه، ويبطش بيديه ويكتسب بهما؟ أليس هو الذي خلقه؟

إذًا فالله تعالى هو الخالقُ، وإذا كان هو الخالقَ، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبَدَ.

قال الطحاوي:

مُمِيتٌ بِلَا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ.

قال الشارح:

المَوْتُ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ، خِلَافًا لِلْفَلَاسِفَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]. وَالْعَدَمُ لَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا، وَفِي الحَدِيثِ: «إِنَّهُ يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ»[(١)]. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عَرَضًا فَاللَّهُ تَعَالَى يَقْلِبُهُ عَيْنًا، كَمَا وَرَدَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ: «أَنَّهُ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةِ الشَّابِّ الحَسَنِ، وَالْعَمَلُ الْقَبِيحُ عَلَى أَقْبَحِ صُورَةٍ»[(٢)]، وَوَرَدَ فِي القرآن: «أَنَّهُ يَأْتِي عَلَى صُورَةِ الشَّابِّ الشَّاحِبِ اللَّوْنِ»، الحَدِيثَ[(٣)]. أَيْ: قِرَاءَةَ الْقَارِئِ. وَوَرَدَ فِي الْأَعْمَالِ: «أَنَّهَا تُوضَعُ فِي المِيزَانِ»[(٤)]،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) هذا معنى حديث البراء بن عازب ﷺ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٥٤)، والحاكم (١/ ٣٧، ٤٠) وصححه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١)، وأحمد (٥/ ٣٤٨)، والدارمي (٢/ ٥٤٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٩) من حديث بريدة ﷺ.

(٤) كما في حديث عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «تُوضَعُ المَوَازِينُ يوم الْقِيَامَةِ، فيؤتي بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ في كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ ما أُحْصِيَ عليه، فَتَمَايَلَ بِهِ المِيزَانُ؛ قال: فَيُبْعَثُ بِهِ إلى النَّارِ، قال: فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إذا صَائِحٌ يَصِيحُ من عِنْدِ الرحمن، يقول: =

وَالْأَعْيَانُ هِيَ الَّتِي تَقْبَلُ الْوَزْنَ دُونَ الْأَعْرَاضِ. وَوَرَدَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ: أَنَّهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ «يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ»[1]. وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ»[2]. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

يتكلَّم الشَّارح هنا على الموت أنَّه مخلوقٌ، ردًّا على الفلاسفة الذين يقولون: الموت أمرٌ عدميٌّ، ليس له جرمٌ، ليس هناك شيءٌ مخلوقٌ اسمه الموت! وكذَّبوا قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ [الملك:٢]، فدلَّ على أنَّ هناك شيءٌ اسمه الموت، وأنَّه شيءٍ حسِّيٌّ ـ محسوس ـ وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ بما يدلُّ على أنَّ هذا الموت شيءٌ محسوسٌ، فقال: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَقُولُونَ: نعم هذا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ

=

لاَ تَعْجَلُوا لاَ تَعْجَلُوا، فإنه قد بَقِيَ له، فَيُؤْتِي بِبِطَاقَةٍ فيها لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، فَتُوضَعُ مع الرَّجُلِ في كَفَّةٍ حتى يَمِيلَ بِهِ المِيزَانُ». أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١) واللفظ له، وأخرجه بنحو هذا اللفظ: الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبان (١/ ٤٦١).

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ.

(٢) كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: «... يُرْفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيْلِ قبل عَمَلِ النَّهارِ، وَعَمَلُ النَّهارِ قبل عَمَلِ اللَّيْلِ» تقدم تخريجه (ص٢٣٢).

قد رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَقُولُونَ: نعم هذا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قد رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يقول: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا . ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم:٣٩]»[١].

فيزداد أهل الجنة فرحًا، ويزداد أهل النار حزنًا؛ وذلك لأنَّ أهل الجنَّة أيقنوا أنَّهم سيبقون في حياةٍ مستقرَّةٍ ليس بعدها موتٌ، وأنَّ أهل النَّارِ كانوا يأملون الموت ويرجونه، ويقولون: العَدَم خيرٌ من هذا الوجود؛ فيقولون لخازن النار: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، يعني: لِيُمتنا، والله -عز وجل- يقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

والشَّاهد: أنَّه أخبر في هذا الحديث بأنَّ الموت شيءٌ محسوسٌ يُرى ويُعرف، يعرفون أنَّه هو الموت، ولو كان عرضًا، فالله تعالى قادرٌ أن يجعله جسمًا، ويجعل له جثَّةً أو صورةً؛ كما في الأعمال التي هي أعراضٌ؛ حيث أخبر أنَّ الله -جل وعلا- يجعلها أجسامًا وأجرامًا، وأنَّها توزن مع كونها أعراضًا، فالصلاة تصبح جسمًا كما ورد في الحديث: «مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَأَسْبَغَ لَهَا وضُوءَهَا، وَأَتَمَّ لَهَا قِيَامَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، خَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَة، تَقُولُ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَمَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لِغَيْرِ وَقْتِهَا، فَلَمْ يُسْبِغْ لَهَا وضُوءَهَا، وَلَمْ يُتِمّ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

لَهَا خُشُوعَهَا وَلَا رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا، خَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي؛ حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقِ، ثُمَّ ضُرِبَ بِهَا وَجْهَهُ»[1]. أراد بذلك أنَّ الأعراض يجعلها الله تعالى أجسامًا.

فقد يجعل الله تعالى للكلام أجرامًا؛ ولهذا جاء في الحديث في قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أو تَمْلَأُ ما بين السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»[2].

ومعلومٌ أنَّ كلمة (الحمد لله) ليس لها جرمٌ، ولكن يجعل الله لها جرمًا وجُثَّةً حتَّى تملأ الميزان، وكذلك التَّحميد والتَّكبير ونحو ذلك، وهذا معنى ما روي: أنَّ الأعمال تُوزن ولو كانت أعراضًا، فكذلك الموت ـ ولو كان عَرَضًا ـ يجعل الله له جرمًا حتى يُرى، فهو سبحانه الذي خلق الموت وخلق الحياة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٢٦٣) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه بنحوه: البزار (٧/ ١٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٤٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

قال الطحاوي:

مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ، لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُم مِنْ صِفَتِهِ، وكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أزليًّا، كَذلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيًّا.

قال الشارح:

أَيْ: أَنَّ اللَّـهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ: صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ اللَّـهَ وُصِفَ بِصِفَةٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا؛ لِأَنَّ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ صِفَاتُ كَمَالٍ، وَفَقْدَهَا صِفَةُ نَقْصٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْكَمَالُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِضِدِّهِ، وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا صِفَاتُ الْفِعْلِ وَالصِّفَاتُ الِاخْتِيَارِيَّةُ وَنَحْوُهَا، كَالْخَلْقِ وَالتَّصْوِيرِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالطَّيِّ، وَالِاسْتِوَاءِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ وَالنُّزُولِ، وَالْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، وَإِنْ كُنَّا لَا نُدْرِكُ كُنْهَهُ وَحَقِيقَتَهُ الَّتِي هِيَ تَأْوِيلُهُ، وَلَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، وَلَكِنَّ أَصْلَ مَعْنَاهُ مَعْلُومٌ لَنَا، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَقَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ»[١]. وَإِن كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ تَحْدُثُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٠٣).

الشَّفَاعَةِ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[1]؛ لِأَنَّ هَذَا الْحُدُوثَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ تَكَلَّمَ الْيَوْمَ وَكَانَ مُتَكَلِّمًا بِالْأَمْسِ لَا يُقَالُ: أَنَّهُ حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ لِآفَةٍ كَالصِّغَرِ وَالْخَرَسِ، ثُمَّ تَكَلَّمَ يُقَالُ: حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ، فَالسَّاكِتُ لِغَيْرِ آفَةٍ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا بِالْقُوَّةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَفِي حَالِ تَكَلُّمِهِ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا بِالْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ فِي حَالِ الْكِتَابَةِ هُوَ كَاتِبٌ بِالْفِعْلِ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ كَاتِبًا فِي حَالِ عَدَمِ مُبَاشَرَتِهِ لِلْكِتَابَةِ.

وَحُلُولُ الْحَوَادِثِ بِالرَّبِّ تَعَالَى، الْمَنْفِيُّ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، لَمْ يَرِدْ نَفْيُهُ وَلَا إِثْبَاتُهُ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَفِيهِ إِجْمَالٌ: فَإِنْ أُرِيدَ بِالنَّفْيِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَحِلُّ فِي ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْمُحْدَثَةِ، وَلَا يَحْدُثُ لَهُ وَصْفٌ مُتَجَدِّدٌ لَمْ يَكُنْ، فَهَذَا نَفْيٌ صَحِيحٌ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ، مِنْ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَلَا أَنَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى، وَلَا يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ النُّزُولِ وَالِاسْتِوَاءِ وَالْإِتْيَانِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَهَذَا نَفْيٌ بَاطِلٌ.

قال الشيخ:

في الكلام الأوَّل ذكَرَ الماتنُ ـ رحمه الله ـ أنَّ صفات الرَّبِّ تعالى أزليَّةٌ، وأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

موصوفٌ بها في الأزل قبل أن تحدث الأفعال التي ظهرت بها. فيعتقد المسلمون أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قديم بصفاته، ويردون بذلك على النُّفاة الذين ينفون الصِّفات، ويقولون: إنَّا إذا أثبتناها لزمنا تعدد القدم! وهذا اللازم باطلٌ، فالله تعالى قديمٌ بصفاته، سواء الصِّفات الذاتيَّة أو الصِّفات الفعليَّة، ليس منها شيءٌ متجدِّدٌ بعد أن لم يكن، فصفاته الذاتيَّة التي أخبر عنها؛ كالوجه، واليد، والعين، وما أشبه ذلك، هذه قديمةٌ لم يحدث منها شيءٌ، وصفات الفعل؛ كالعلم، والكلام، والقدرة، والإرادة، والمحبَّة، والبُغض، والكراهة، وما أشبه ذلك، موصوفٌ بها أزلًا وإن لم تحدُثْ أسبابها، يعني: وإن لم يحدث من يغضب عليه، فهو موصوفٌ بأنَّه يغضب، وبأنَّه يرضى قبل أن يوجد خلقٌ يرضى منهم أو يغضب، وموصوفٌ بأنَّه يحبُّ ويكره قبل أن يحدث الخلق الذين يحبُّ منهم الصَّالحين ويكره غيرهم، فالله سبحانه موصوف بهذه الصفات قبل أن يوجد الخلق، فمثلًا هو سبحانه موصوفٌ بأنَّه يعجب، وبأنَّه يفرح، وبأنَّه يضحك، وبأنَّه يجيء وينزل، وبأنَّه استوى على العرش، إلى غير ذلك من الصفات، فهو موصوف بذلك أزلًا قبل أن تحدث الفروع لذلك، هذه عقيدة أهل السُّنَّة.

ومعلومٌ أنَّ هذه الأفعال صفاتٌ فعليَّةٌ وأنَّها تتجدَّد؛ لأجل ذلك كانت عقيدة أهل السُّنَّة أنَّ كلام الله قديمُ النَّوع متجدِّد الآحاد، يعني أنَّه متكلِّمٌ، وأنَّه يتكلَّم، بخلاف من يقول من المعتزلة ونحوهم: إنَّ كلام الله قديمٌ؛ معناه أنَّه لا يتكلَّم الآن ـ تعالى الله عن ذلك ـ وهكذا بقيَّة الصِّفات.

فيقال: إن الله موصوفٌ في الأزل بأنَّه يغضب ويرضى، ولا يزال على ذلك

حتَّى يوم القيامة، وقد أخبر الأنبياء بأنَّه يغضب؛ كما ورد في حديث الشَّفاعة: «فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[1]، وكذلك يقول نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، كلٌّ منهم إذا طُلِبَ منه الشَّفاعة، يخبر بأنَّ ربَّه قد غضب غضبًا، فيدل على أنَّ الله موصوفٌ بالغضب أزلًا، وأنَّه يغضب إذا شاء، ومعلوم أنَّ المعاصي التي رُتِّبت عليها العقوبات تحدُثُ فتحدُثُ آثارُها، فإذا كان الله تعالى يرضى عن المؤمن، فإذا وُجد المؤمن وآمن وعمل صالحًا رضي عنه، وإذا كان يغضب على العاصي، فإذا وُجد ذلك العاصي ووجدت منه معصية غضب عليه، فرضي الله عن هذا وغضب على هذا، فإذًا هذه الأفعال تتجدَّد، لا أنَّها وُجدت مرَّةً ثم انقطعت، هكذا صفات الله الفعليَّة .

وكذلك صفة النُّزول لم تكن مرَّةً ثم انقطعت، وصفة المجيء: أخبر الله بأنَّه يجيء يوم القيامة في قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢]، وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام:١٥٨]، يعني: في يوم القيامة، فدل ذلك على أنَّ صفات الله الفعلية أزليَّةٌ وأبديَّةٌ، وأنَّها أفعالٌ لا يزال متَّصفًا بها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣٥).

قال الشارح:

وَأَهْلُ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ يُطْلِقُونَ نَفْيَ حُلُولِ الْحَوَادِثِ، فَيُسَلِّمُ السُّنِّيُّ لِلْمُتَكَلِّمِ ذَلِكَ، عَلَى ظَنٍّ أَنَّهُ نَفَى عَنْهُ سُبْحَانَهُ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، فَإِذَا سَلَّمَ لَهُ هَذَا النَّفْيَ أَلْزَمَهُ نَفْيَ الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ، وَهُوَ غير لَازِمٍ لَهُ. وَإِنَّمَا أُتِيَ السُّنِّيُّ مِنْ تَسْلِيمِ هَذَا النَّفْيِ الْمُجْمَلِ، وَإِلَّا فَلَوِ اسْتَفْسَرَ وَاسْتَفْصَلَ له لَمْ يَنْقَطِعْ مَعَهُ.

وَكَذَا مَسْأَلَةُ الصِّفَةِ: هَلْ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ أَمْ لَا؟ لَفْظُهَا مُجْمَلٌ. وَكَذَلِكَ لَفْظُ «الْغَيْرِ»، فِيهِ إِجْمَالٌ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ إِيَّاهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا جَازَ مُفَارَقَتُهُ لَهُ.

وَلِهَذَا كَانَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ لَا يُطْلِقُونَ عَلَى صِفَاتِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ أَنَّهُ غَيْرُهُ، وَلَا أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَ الْإِثْبَاتِ قَدْ يُشْعِرُ أَنَّ ذَلِكَ مُبَايِنٌ لَهُ، وَإِطْلَاقَ النَّفْيِ قَدْ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ هُوَ؛ إِذْ كَانَ لَفْظُ «الْغَيْرِ» فِيهِ إِجْمَالٌ، فَلَا يُطْلَقُ إِلَّا مَعَ الْبَيَانِ وَالتَّفْصِيلِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ هُنَاكَ ذَاتًا مُجَرَّدَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا مُنْفَصِلَةً عَنِ الصِّفَاتِ الزَّائِدَةِ عَلَيْهَا، فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ الصِّفَاتِ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ الَّتِي يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَاهَا غَيْرُ مَا يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَى الصِّفَةِ، فَهَذَا حَقٌّ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الصِّفَاتِ، بَلِ الذَّاتُ الْمَوْصُوفَةُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهَا لَا تَنْفَصِلُ عَنْهَا، وَإِنَّمَا يَفْرِضُ الذِّهْنُ ذَاتًا وَصِفَةً، كُلٌّ وَحْدَهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ ذَاتٌ غَيْرُ مَوْصُوفَةٍ، فَإِنَّ هَذَا مُحَالٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِفَةَ الْوُجُودِ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَكُّ عَنِ الْوُجُودِ، وَإِنْ كَانَ الذِّهْنُ يَفْرِضُ ذَاتًا وَوُجُودًا، يَتَصَوَّرُ هَذَا وَحْدَهُ، وَهَذَا وَحْدَهُ، لَكِنْ لَا يَنْفَكُّ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي الْخَارِجِ.

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: الصِّفَةُ لَا عَيْنُ الْمَوْصُوفِ وَلَا غَيْرُهُ. وهَذَا لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ، وَهُوَ: أَنَّ الصِّفَةَ لَيْسَتْ عَيْنَ ذَاتِ الْمَوْصُوفِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الذِّهْنُ مُجَرَّدَةً بَلْ هِيَ غَيْرُهَا، وَلَيْسَتْ غَيْرَ الْمَوْصُوفِ، بَلِ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِهِ وَاحِدٌ غَيْرُ مُتَعَدِّدٍ.

وَالتَّحْقِيقُ أَنْ يُفَرَّق بَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: الصِّفَاتُ غَيْرُ الذَّاتِ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: صِفَاتُ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ، فَإِنَّ الثَّانِي بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ مُسَمَّىٰ اللَّهِ يَدْخُلُ فِيهِ صِفَاتُهُ، بِخِلَافِ مُسَمَّىٰ الذَّاتِ، فَإِنَّه لَا يَدْخُل فِيهِ الصِّفَات؛ لأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الصِّفَاتَ زَائِدةٌ عَلَىٰ مَا أَثْبَتَهُ الْمُثْبِتُونَ مِنَ الذَّاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الذَّاتُ الْمَوْصُوفَةُ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (لَا زَالَ بِصِفَاتِهِ)، وَلَمْ يَقُلْ: لَا زَالَ وَصِفَاتِهِ؛ لأَنَّ الْعَطْفَ يُؤْذِنُ بِالْمُغَايَرَةِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ ﷺ فِي مُنَاظَرَتِه الجَهْمِيَّةِ: «لَا نَقُولُ: اللَّهُ وَعِلْمُهُ، اللَّهُ وَقُدْرَتُهُ، اللَّهُ وَنُورُهُ، وَلَكِنْ نَقُولُ: اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنُورِهِ، هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِذَا قُلْت: أَعُوذُ بِاللَّهِ، فَقَدْ عُذْت بِالذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُقَدَّسِ الثَّابِتَةِ، الَّتِي لَا تَقْبَلُ الِانْفِصَالَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَإِذَا قُلْت: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ، فَقَدْ عُذْت بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَلَمْ أَعُذْ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُفْهَمُ مِنْ لَفْظِ «الذَّاتِ»، فَإِنَّ «ذَاتَ» فِي أَصْلِ مَعْنَاهَا لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافَةً، أَيْ: ذَاتُ وُجُودٍ، ذَاتُ قُدْرَةٍ، ذَاتُ عِزٍّ، ذَاتُ عِلْمٍ، ذَاتُ كَرَمٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. فَـ «ذَاتُ كَذَا»، بِمَعْنَى صَاحِبَةِ كَذَا: تَأْنِيثُ ذُو، هَذَا أَصْلُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ.

فَعُلِمَ أَنَّ الذَّاتَ لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ الصِّفَاتِ عَنْهَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَإِنْ كَانَ الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ ذَاتًا مُجَرَّدَةً عَنِ الصِّفَاتِ، كَمَا يَفْرِضُ الْمُحَالَ. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»[1]. وَقَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»[2]. وَلَا يَعُوذُ ﷺ بِغَيْرِ اللَّهِ. وَكَذَا قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»[3]. وَقَالَ ﷺ: «وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا»[4]. وَقَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ»[5].

قال الشيخ:

نبيِّن أوَّلًا بعض الشُّبهات التي يروِّجها أهل التَّعطيل نفاة صفات الله تعالى.

فمن شبهاتهم: قولهم: إنَّ الله منزَّهٌ عن حلول الحوادث.

فإذا سمع ذلك الجاهل اعتقد أنَّهم صادقون، واعتقد أنَّ الله لا يجوز أن تحلَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٢/ ١٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٤٤) من حديث محمد بن كعب القرظي ﷺ، وأخرجه الطبراني في الدعاء (ص٣١٥) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

به الحوادث، فإذا سلَّم لهم بذلك ووافق عليه، قالوا: لا يجوز أن يُوصف بالكلام الحادث، ولا أن يحدث له غضب، ولا أن يحدث له رضى، ولا أن يحدث له كراهية أو سخط، وما أشبه ذلك، فينفون الأفعال الاختيارية وصفات الأفعال بحجَّة أنَّها حادثةٌ، والحادث لا يُوصف به الرَّبُّ، وعندهم أنَّ الرَّبَّ قديمٌ لم يحدث منه شيءٌ، ولا يجوز أن يُوصف بصفةٍ تحدث، وهذا خطأٌ.

فيُقال لهم: ماذا تريدون؟! إن أردتم أنَّ الله لا يحدث له صفةٌ لم تكن موجودةً في الأزل؛ فهذا صحيحٌ؛ لأنَّ الله تعالى يسمَّى خالقًا قبل وجود المخلوقين، ورازقًا قبل أن يكون هناك من يرزق، وهو المحيي والمميت قبل أن يوجد الخلق الذي يحيي فيهم من يشاء ويميت فيهم من يشاء، يعني: أنَّ صفاته متَّصفٌ بها بالفعل أزلًا وإن لم تكن موجودةً، فإنَّ الذي يكون قادرًا على الفعل يصحُّ أن يوصف به ولو لم يزاوله، فإذا رأيت إنسانًا ساكتًا صامتًا، قلت: هذا الإنسان متكلِّمٌ، يعني: ليس أخرس ولو كان في تلك الحال صامتًا، يعني: أنَّه متكلِّم بالقوَّة، فكذلك يقال: الله محيي، يعني: يحيي ويميت، فهو سبحانه مُتَّصف بصفة القدرة على الإحياء والإماتة والرِّزق والخلق والتصرُّف والتَّدبير قبل أن توجد المخلوقات، ولكن بعد وجود هذه المخلوقات فإنَّ الله تعالى يميت من يشاء، ويحيي من يشاء، ويرزق هذا، ويفقر هذا، ويغني هذا، ويصحُّ هذا، ويسقم هذا، ويرفع هذا، ويخفض هذا، وكلُّ هذه صفاتٌ حادثةٌ، فأصل الصِّفة موجودٌ ليس بحادثٍ، ومفرداتها حادثةٌ.

كذلك نقول: الله تعالى متكلِّمٌ في الأزل، ويتكلَّم إذا شاء، وليس معنى ذلك

أنَّه تكلَّم أزلًا ثم انقطع كلامه، بل كلام الله قديمُ النوعِ حادثُ الآحادِ.

ومن شبهاتهم قولهم: إنَّ صفات الله زائدةٌ عن ذاته.

وهذه شبهةٌ باطلةٌ، فليست صفاته زائدةً عن ذاته، بل صفات الله من ذاته، وهو واحدٌ بصفاته، ولا يلزم من إثبات الصِّفات تعدُّد القدماء كما يقولون، فليس هناك تعدُّدٌ؛ وذلك أنهم يقولون: إذا قلنا: ذات الرَّبِّ قديمةٌ، وسمعه قديمٌ، وبصره قديمٌ، وعلمه قديمٌ، وقدرته قديمةٌ؛ لا نكون أثبتنا واحدًا، بل أثبتنا عددًا، هكذا قالوا.

وهذه شبهةٌ باطلةٌ، فإنَّ الله تعالى واحدٌ بصفاته، فليست الصِّفات خارجةً عن الذَّات، ولا يُتصوَّر أن تكون هناك ذاتٌ مجرَّدةٌ عن جميع الصِّفات، ولو لم يكن إلاَّ صفة الوجود، التي هي ملازمةٌ لكلِّ موجودٍ؛ فلا يمكن أن يُفرض شيءٌ ليس له صفاتٌ وهو مع ذلك له ذاتٌ، بل كلُّ ذاتٍ يلزم أن تكون لها صفاتٌ.

ومن شبهاتهم أيضًا قولهم: إن صفات الله غيره.

وهي شبهةٌ باطلةٌ، فليست صفات الله تعالى غيره، بل صفاته من ذاته، ولله المَثَل الأعلى، فالمخلوق لا يُقال: إنَّ صفاته غيره، فإذا رأيت إنسانًا ـ مثلاً ـ فإنك لا تقول: جاء زيد ويداه ورجلاه ورأسه وظهره وبطنه وعيناه وأذناه، بل تقول: جاء زيد، وتدخل صفاته في ذاته وفي شخصه، فهو شيءٌ واحدٌ وشخصٌ واحدٌ بهذه الصِّفات، ولا يلزم من كونه ذا صفاتٍ أن يكون عددًا، فلا تقول: جاءني عشرة عينان وأذنان ويدان ورجلان وشفتان، بل شخصٌ واحدٌ مسمىً بهذا الاسم. والله ـ سبحانه وتعالى ـ ليست صفاته زائدةً عن ذاته، بل صفاته من ذاته،

فإذا اعتقد المسلم أنَّ الله موصوفٌ بهذه الصِّفات التي هي صفات كمالٍ؛ اعتقد مدلولها، فإذا اعتقد أنَّ الله يغضب حذر من أسباب الغضب، وإذا اعتقد أنَّه يرضى فعل أسباب الرِّضى، وإذا اعتقد أنَّه الذي يحيي ويميت دعا بذلك وعبده وعرف حقه، وإذا اعتقد أنَّه الذي يفقر ويغني ويمنع ويعطي عرف أنَّ العبادة لا تصلح إلَّا له ... وهكذا.

فمعرفة هذه الصِّفات تزيد العبد بصيرةً في دينه، وتحمله على التَّمسُّك بدينه، وعلى الإكثار من التَّقرُّب إلى الله تعالى بحقوقه.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: الِاسْمُ عَيْنُ الْمُسَمَّى أَوْ غَيْرُهُ؟ وَطَالَمَا غَلِطَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَجَهِلُوا الصَّوَابَ فِيهِ، فَالِاسْمُ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى تَارَةً، وَيُرَادُ بِهِ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَيْهِ أُخْرَى، فَإِذَا قُلْتَ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، أَوْ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى نَفْسُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحْمَنُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحمن مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَالِاسْمُ هَاهُنَا لِلْمُسَمَّى، وَلَا يُقَالُ: غَيْرُهُ، لِمَا فِي لَفْظِ الْغَيْرِ مِنَ الْإِجْمَالِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالْمُغَايَرَةِ أَنَّ اللَّفْظَ غَيْرُ الْمَعْنَى فَحَقٌّ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا اسْمَ لَهُ، حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً، أَوْ حَتَّى سَمَّاهُ خَلْقُهُ بِأَسْمَاءٍ مِنْ صُنْعِهِمْ، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: (مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ...) إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الشِّيعَةِ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الله تَعَالَى صَارَ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ وَالْكَلَام بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَيْهِ، لِكَوْنِهِ صَارَ الْفِعْلُ وَالْكَلَامُ مُمْكِنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا، وَأَنَّهُ انْقَلَبَ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذَّاتِيِّ إِلَى الْإِمْكَانِ الذَّاتِيِّ! وَعَلَى ابْنِ كِلَابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُمَا، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الْفِعْلَ صَارَ مُمْكِنًا لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْهُ.

وَأَمَّا الْكَلَامُ عِنْدَهُمْ فَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ.

وَأَصْلُ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ دَوَامَ الْحَوَادِثِ مُمْتَنِعٌ، وَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَوَادِثِ مَبْدَأٌ؛ لِامْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ

الْبَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَزَلْ فَاعِلًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ، بَلْ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُمْتَنِعِ مُمْتَنِعَةٌ! وَهَذَا فَاسِدٌ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ حُدُوثِ الْعَالَمِ وَهُوَ حَادِثٌ، وَالْحَادِثُ إِذَا حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُحْدَثًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَالْإِمْكَانُ لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ مَحْدُودٌ، وَمَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدَّرُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ فِيهِ، فَلَيْسَ لِإِمْكَانِ الْفِعْلِ وَجَوَازِهِ وَصِحَّتِهِ مَبْدَأٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَيَجِبُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْفِعْلُ مُمْكِنًا جَائِزًا صَحِيحًا، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الرَّبُّ قَادِرًا عَلَيْهِ، فَيَلْزَمُ جَوَازُ حَوَادِثَ لَا نِهَايَةَ لِأَوَّلِهَا.

قال الشيخ:

لما ذكر صاحب المتن قِدَم الصِّفات أو قِدَم أسماء الله التي هي في الأصل تتضمَّن صفات، فالرزَّاق مثلًا يستلزم أن يكون هناك مرزوق، والخالق يستلزم أن يكون هناك مخلوقون، وكذلك المحيي والمميت يلزم منه أن يكون هناك من يحييهم ومن يميتهم، وكذلك اسم العلم يلزم أن يكون هناك ما يعلمه، وهكذا المعزُّ والمذلُّ، والخافض والرافع، والمعطي والمانع، لا شك أنَّها أسماءٌ لها آثارٌ في الخلق، فآثارها كونه يعطي هذا، ويمنع هذا، ويحرم هذا، ويحيي هذا، ويميت هذا، ويعزُّ هؤلاء، ويذلُّ هؤلاء، ويخفض قومًا، ويرفع آخرين.

هذه الصِّفات وهذه الأسماء موصوفٌ بها الرَّبُّ تعالى في الأزل، قبل أن يُوجد الخلق، خلافًا لقول المعتزلة والجهميَّة والكلابيَّة ونحوهم، الذين يقولون: إنَّها حدثت بعد حدوث المخلوقات! وهذا خطأٌ، بل قولهم بامتناع حوادث لا أوَّل

لها، هذا من تقديرات المتكلِّمين، والأولى بنا عدم الخوض في مثل ذلك، وأن نقول: الله أعلم بالمخلوقات التي خلقها، ومتى ابتدأ خلقه، ولا نقول: إنَّ المخَلوقات ليس لها مبدأ، لكن نعلم أنَّ ما سوى الله حادثٌ، وأنَّ الرَّبَّ تعالى قديمٌ أزليٌّ أوَّلٌ، ونعلم أنَّ حكمة الله تعالى في هذه الموجودات أنَّه أوجد هذا الكون بما فيه؛ ليُعرف بذلك قدره، ولتعرف بذلك أهليَّته للعبادة، وليعرف المسلمون بذلك أنَّهم مخلوقون للإسلام ومخلوقون لأداء حقوق ربِّهم سبحانه وتعالى، الذي هذا خلقه وهذا تكوينه، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١]، هكذا يجب أن يعتقد المسلم.

قال الشارح:

قَالَتِ الجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ: نَحْنُ لَا نُسَلِّمُ أَنَّ إِمْكَانَ الحَوَادِثِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، لَكِنْ نَقُولُ: إِمْكَانُ الحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الحَوَادِثَ عِنْدَنَا تَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ قَدِيمَةَ النَّوْعِ، بَلْ يَجِبُ حُدُوثُ نَوْعِهَا وَيَمْتَنِعُ قِدَمُ نَوْعِهَا، لَكِنْ لَا يَجِبُ الحُدُوثُ فِي وَقْتٍ بِعَيْنِهِ، فَإِمْكَانُ الحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لِأَوَّلِهِ، بِخِلَافِ جِنْسِ الحَوَادِثِ.

يُقَالُ لَهُمْ: هَبْ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ ذَلِكَ، لَكِنْ يُقَالُ: إِمْكَانُ جِنْسِ الحَوَادِثِ عِنْدَكُمْ لَهُ بِدَايَةٌ، فَإِنَّهُ صَارَ جِنْسُ الحُدُوثِ عِنْدَكُمْ مُمْكِنًا، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا، وَلَيْسَ لِهَذَا الْإِمْكَانِ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ، بَلْ مَا مِنْ وَقْتٍ يُفْرَضُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ دَوَامُ الْإِمْكَانِ، وَإِلَّا لَزِمَ انْقِلَابُ الجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ مِنْ غَيْرِ حُدُوثِ شَيْءٍ.

قال الشيخ:

هذه أيضًا شبهةٌ من شبهات المعتزلة أو الجهميَّة ونحوهم، ولا يحتاج المسلم إلى معرفة تفاصيل الردِّ عليهم في قولهم بأنَّ هذه حادثةٌ في وقت كذا وكذا، وذلك لأنَّا لا نعلم وقت حدوثها، ويمكن إذا قدَّرنا أنها حدثت مثلًا قبل مئة ألف سنة أن يقول قائلٌ: يمكن أنَّها حدثت قبل ذلك: بمئتين، ويقول آخر: يمكن أنَّها قبل ألفي سنة، ويقول آخر: يمكن أنَّها قبل ذلك بألوف. فإذًا ليس هناك وقتٌ يجزم العباد بأنَّه حدثت فيه هذه المحدثات، لكن نعرف أنَّها حادثةٌ، فالله تعالى ذكر أنَّه خلق

الإنسان بعد أن كان عدمًا، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[الإنسان:١]، يعني: معدومًا، وخلق الجنَّ بعد أن كانوا عدمًا، وخلق الملائكة بعد أن كانوا عدمًا أيضًا، وهكذا أيضًا خلق السَّمٰوات والأرض في ستَّة أيامٍ بعد أن لم تكن موجودةً، وهكذا سائر مخلوقات الله الذي ابتدأ خلقها.

ولا شكَّ أنَّه أوجد هذه الموجودات، وبثَّ هذه الدَّوابّ -مثلًا- على هذه الأرض، وخلق هذه الأنهار وهذه البحار والأشجار والثِّمار والآبار ونحو ذلك، فهو الذي ابتدأها بعد أن لم تكن موجودةً، ويمكن أنَّه خلق قبلها مخلوقاتٍ لا ندركها ولا نعلمها، فالله تعالى هو المنفرد بالخلق وبالتَّصرُّف، وإنَّما علينا أن نعتبر بما نرى، ونعرف أنَّ هذه الموجودات خُلقت لنأخذ منها دلالةً وعبرةً على أنَّ خالقها هو خالق كلِّ شيءٍ، وأنَّه بذلك مستحقٌّ للعبادة وحده، فنعبده، ونخلص العبادة له، ولا نتجاوز ذلك. هذا هو الأولى بالمسلم.

قال الشارح:

وَمَعْلُومٌ أَنَّ انْقِلَابَ حَقِيقَةِ جِنْسِ الحُدُوثِ، أَوْ جِنْسِ الحَوَادِثِ، أَوْ جِنْسِ الْفِعْلِ، أَوْ جِنْسِ الإِحْدَاثِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَاتِ مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ، هُوَ يُصَيِّرُ ذَلِكَ مُمْكِنًا جَائِزًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ تَجَدُّدٍ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ.

وَهُوَ أَيْضًا انْقِلَابُ الْجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذَّاتِيِّ إِلَى الْإِمْكَانِ الذَّاتِيِّ، فَإِنَّ ذَاتَ جِنْسِ الحَوَادِثِ عِنْدَهُمْ تَصِيرُ مُمْكِنَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُمْتَنِعَةً، وَهَذَا الِانْقِلَابُ لَا يَخْتَصُّ بِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدَّرُ إِلَّا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ هَذَا الِانْقِلَابُ مُمْكِنًا، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْمُمْتَنِعُ مُمْكِنًا! وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الِامْتِنَاعِ مِنْ قَوْلِنَا: لَمْ يَزَلِ الحَادِثُ مُمْكِنًا، فَقَدْ لَزِمَهُمْ فِيمَا فَرُّوا إِلَيْهِ أَبْلَغُ مِمَّا لَزِمَهُمْ فِيمَا فَرُّوا مِنْهُ! فَإِنَّهُ يُعْقَلُ كَوْنُ الحَادِثِ مُمْكِنًا، وَيُعْقَلُ أَنَّ هَذَا الْإِمْكَانَ لَمْ يَزَلْ، وَأَمَّا كَوْنُ الْمُمْتَنِعِ مُمْكِنًا فَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي نَفْسِهِ، فَكَيْفَ إِذَا قِيلَ: لَمْ يَزَلْ إِمْكَانُ هَذَا الْمُمْتَنِعِ؟! وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

قال الشيخ:

الممكن: هو الذي يتصور وجوده وحدوثه، والممتنع: هو ما لا يتصور العقل وجوده، أو ما لا يمكن أن يحدث، فالممتنعات: هي المستحيلات.

ومعلوم أن هذه المخلوقات كانت معدومة فوجدت لإمكان حدوثها، وأن هناك أشياء مستحيلة ولم تكن، وممتنعة ولم تحدث، مثل: الجمع بين الضدين،

فلا يمكن ـ مثلًا ـ أن يكون المكان الضيق مظلمًا ومنيرًا في وقت واحد، فلا يجتمع فيه النور والظلمة لكونهما ضدين، ولا يجتمع في وجه إنسان كونه أبيض وأسود، ولا في ثوبه ـ مثلًا ـ أنه أحمر وأبيض؛ لأن اجتماع الضدين من الممتنعات.

ومعلوم أن الله تعالى لا يعجزه شيء، وأنه قادر على أن يجمع بين الضدين، وقادر على أن يخلق المستحيل، ولكن جرت العادة بامتناع هذا في التصور، وأخبر بأنه قد يوجد بعض الأشياء مثل الأمور الغيبية؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤]، قد يقول قائل: مستحيل أن يكون الشيء لا ميتًا ولا حيًا، فيقال له: ليس بمستحيل، بل يمكن في قدرة الله أن يكون الشيء ميتًا حيًا في آن واحد، وإن كان المراد في هذه الآية أنه لا يحيا حياة يستلذ بها في النار، ولا يموت موتًا يستريح منه، بل هو متألم يتمنى الموت ولا يحصل له؛ لهذا السبب نفيت عنه الحياة والموت.

وعلى كل حال: وصف الرب سبحانه بالأفعال عام في أنه على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء، وأنه قادر على أن يجمع بين المختلفات، وأن يوجد المتضادات، ولكن جرت العادة بأن هذا الممتنع لم يحدث ولم نره مع قدرته على أن يحدثه.

قال الشارح:

فَالحَاصِلُ: أَنَّ نَوْعَ الحَوَادِثِ هَلْ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المُسْتَقْبَلِ وَالمَاضِي أَمْ لَا؟ أَوْ فِي المُسْتَقْبَلِ فَقَطْ؟ أَوِ المَاضِي فَقَطْ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ لِأَهْلِ النَّظَرِ مِنَ المُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ:

أَضْعَفُهَا: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: لَا يُمْكِنُ دَوَامُهَا لَا فِي المَاضِي وَلَا فِي المُسْتَقْبَلِ، كَقَوْلِ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ، وَأَبِي الهُذَيْلِ العَلَّافِ.

وَثَانِيهَا: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المُسْتَقْبَلِ دُونَ المَاضِي، كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الكَلَامِ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وَالثَّالِثُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ، كَمَا يَقُولُهُ أَئِمَّةُ الحَدِيثِ، وَهِيَ مِنَ المَسَائِلِ الكِبَارِ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي المَاضِي دُونَ المُسْتَقْبَلِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ جُمْهُورَ العَالَمِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ يَقُولُونَ: إِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا قَوْلُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنَ المَعْلُومِ بِالفِطْرَةِ أَنَّ كَوْنَ المَفْعُولِ مُقَارِنًا لِفَاعِلِهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مَعَهُ مُمْتَنِعٌ مُحَالٌ، وَلَمَّا كَانَ تَسَلْسُلُ الحَوَادِثِ فِي المُسْتَقْبَلِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الآخِرَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، فَكَذَا تَسَلْسُلُ الحَوَادِثِ فِي المَاضِي لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هُوَ الأَوَّلَ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ. فَإِنَّ الرَّبَّ -سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى - لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَكَلَّمُ إِذَا يَشَاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٥، ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

وَالْمُثْبَتُ إِنَّمَا هُوَ الْكَلَامُ الْمُمْكِنُ الْوُجُودُ، وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ النَّوْعُ دَائِمًا فَالْمُمْكِنُ هُوَ التَّقَدُّمُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ؛ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ شَيْءٌ يُقَارِنُهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَأَمَّا دَوَامُ الْفِعْلِ فَهُوَ أَيْضًا مِنَ الْكَمَالِ، فَإِنَّ الْفِعْلَ إِذَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ فَدَوَامُهُ دَوَامُ الْكَمَالِ.

قال الشيخ:

الأفعال التي ذِكْرها ودوامها في الماضي، أو دوامها في المستقبل، أو في الماضي والمستقبل؛ هذه من الأمور الغيبيَّة، ومعنى دوامها في الماضي: أنَّ الله تعالى قديمٌ، وأنَّه لم يزل يَخلق، لم يكن في زمنٍ معطَّلًا عن الخلق، وغيرُ موجود خلق يدبِّرهم ويتصرَّف فيهم، وكذلك في المستقبل، يعني: أنَّه لا يزال موجودًا، وأنَّه بعدما يفنى

هذا الخلقُ يحييهم مرَّةً ثانيةً، ويبقى متصرِّفًا فيهم، يعلم أحوالهم وما يصيرون إليه، ويعذِّب من يشاء ويرحم من يشاء، ويعطي ويمنع، وتظهر آثار أفعاله على المخلوقات.

فلا شكّ أنَّ هذا ونحوه من جملة ما يعتقده المسلمون، ولكن ذهب بعض الفلاسفة إلى أنَّ هذا الوجود لم يُسبقْ بعدمٍ، وأنَّ هذا النَّوعَ الإنسانيَّ قديمٌ، ليس له بدايةٌ، وأنكروا أن يكون هناك بشرٌ اسمه آدم خُلق من ترابٍ، وأنكروا أن يكون لهذا الخلق نهاية، وأن تكون هناك السَّاعة التي تقوم، وأن يكون هناك النَّفخُ في الصُّور ... وما أشبه ذلك، أنكروا ذلك كلَّه، واعتقدوا أنَّ هذا النَّوع لم يزل، وأنَّ جنس هذا المخلوق أزليٌّ قديمٌ، وأنَّه مستمرٌّ بلا نهايةٍ .

ولا شكَّ أنَّ هذا فيه إنكارٌ لعدة أمور:

أوَّلًا: للأمور الغيبيَّة التي أخبر الله تعالى بها.

ثانيًا: إنكارٌ للجزاء على الأعمال التي أخبر الله بأنَّه يجازي عليها عباده في الآخرة.

ثالثًا: إنكارٌ لشرع الله عزَّ وجلَّ، وأوامره ونواهيه، وأحكامه التي حكم بها على العباد .

وإنكار ذلك بلا شكٍّ يُخرج من الملَّة، والواجب على المسلم أن يكون معتقدًا لما أخبر الله به؛ من كونه هو الحيَّ القيُّوم الذي لم يزل ولا يزال، ومن كونه هو المتَّصفَ بالخلق وبالتَّصرُّف وبالتَّدبير لشؤون العباد، ويعتقد أيضًا أنَّه هو المتفرِّد بإيجادهم وحده ولم يكن هناك من أوجدهم غيره .

وكونه يعتقد أنَّ قبلهم خلقٌ غيرهم، وقبل الخلق خلقٌ، وقبل الأوَّلين أوَّلون، هذا من الأمور الغيبيَّة التي لم يُطْلعنا الله عليها، فالله أعلم بمن كان قبل ذلك، وبأفعاله قبل ذلك، إلَّا أنَّنا نعتقد أنَّه موصوفٌ بهذه الصِّفات، وإن لم تظهر آثارها، كما مر بنا في قول الماتن: (**لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الخَلْقِ اسْتَفَادَ اسم الخَالِقِ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم الْبَارِي**)، بل هو مُتسمًّى بالخالق قبل أن يبدأ بالخلق، ومتسمًّى بالرَّازق قبل أن يُوجد الخلق الذين يرزقهم؛ لأنَّه خالق بالقوَّة وإن لم يكن خالقًا بالفعل.

ونتوقَّف عن تسلسل الحوادث في الماضي، ونقول: الأمر غيبٌ، ولم يخبرنا الله تعالى بشيءٍ من ذلك، وليس لنا التَّدخُّلُ في هذه الأمور؛ لأنَّها من الأمور التي لا يضرُّ جهلها، ولا يُفيد علمها، وقد تُوقِعُ في شيءٍ من الحيرة والاضطراب، والمسلم عليه أن يقتصر على ما فيه فائدةٌ له في العقيدة، وأن يعتقد ما ينفعه، ويكون دافعًا له لمعرفة ربِّه بأسمائه وصفاته، وإلى التقرُّب إلى الله تعالى بموجب تلك الأسماء.

قال الشارح:

قَالُوا: وَالتَّسَلسُلُ لفَظٌ مُجْمَلٌ، لمْ يَرِدْ بِنَفْيِهِ وَلا إِثْبَاتِهِ كِتَابٌ وَلا سُنَّةٌ، لِيَجِبَ مُرَاعَاةُ لفْظِهِ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلى: وَاجِبٍ وَمُمْتَنِعٍ وَمُمْكِنٍ.

فَالتَّسَلسُلُ فِي المُؤَثِّرِينَ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ مُؤَثِّرُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ اسْتَفَادَ تَأْثِيرَهُ مِمَّا قَبْلَهُ لا إِلى غَايَةٍ.

وَالتَّسَلسُلُ الوَاجِبُ: مَا دَل عَليْهِ العَقْلُ وَالشَّرْعُ، مِنْ دَوَامِ أَفْعَالِ الرَّبِّ تَعَالى فِي الأَبَدِ، وَأَنَّهُ كُلمَا انْقَضَى لأَهْلِ الجَنَّةِ نَعِيمٌ أَحْدَثَ لهُمْ نَعِيمًا آخَرَ لا نَفَادَ لهُ، وَكَذَلكَ التَّسَلسُلُ فِي أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرَفِ الأَزَل، وَأَنَّ كُل فِعْلٍ مَسْبُوقٌ بِفِعْلٍ آخَرَ، فَهَذَا وَاجِبٌ فِي كَلامِهِ، فَإِنَّهُ لمْ يَزَل مُتَكَلمًا إِذَا شَاءَ، وَلمْ تَحْدُثْ لهُ صِفَةُ الكَلامِ فِي وَقْتٍ، وَهَكَذَا أَفْعَالُهُ التِي هِيَ مِنْ لوَازِمِ حَيَاتِهِ، فَإِنَّ كُل حَيٍّ فَعَّالٌ، وَالفَرْقُ بَيْنَ الحَيِّ وَالمَيِّتِ: الفِعْلُ، وَلهَذَا قَال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلفِ: الحَيُّ الفَعَّالُ، وَقَال عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ: «كُلُّ حَيٍّ فَعَّالٌ، وَلمْ يَكُنْ رَبُّنَا تَعَالى قَطُّ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ مُعَطَّلًا عَنْ كَمَالِهِ، مِنَ الكَلامِ وَالإِرَادَةِ وَالفِعْل»[1].

قال الشيخ:

قوله: (قَالُوا: وَالتَّسَلسُلُ لفَظٌ مُجْمَلٌ)، يريد هنا بالتسلسل أن الخالق قد يكون له خالق، ثم ذلك الخالق قد يكون له خالق، وهكذا يحصل التسلسل،

(١) ذكر ذلك الأثر ابن القيم في شفاء العليل (ص١٥٦).

ولاشك أنه لفظ مجمل، وحيث إنه ما ورد نفيه ولا إثباته لا في القرآن ولا في الحديث الصحيح، فيجب أن نتوقف عنه، ولو ورد لوجب علينا مراعاة ذلك اللفظ، ثم ذكر أن التسلسل ينقسم إلى: واجب وممتنع وممكن.

قوله: (فَالتَّسَلسُلُ فِي المُؤَثِّرِينَ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ)، هكذا يجب أن نتوقف عن هذا حيث لم يرد بإثباته دليل صحيح يُرجع إليه، فنحن نؤمن بأن الله تعالى خالق الخلق، وأن ربَّنا ـ جل وعلا ـ قديمٌ لم يُسبق بعدم، فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته.

قوله: (وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ مُؤَثِّرُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ اسْتَفَادَ تَأْثِيرَهُ مِمَّا قَبْلَهُ لا إِلَى غَايَةٍ)، فإن هذا أيضًا قد يؤدي إلى الحيرة.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ مفصلاً لأنواع التسلسل: (وَالتَّسَلسُلُ الوَاجِبُ: مَا دَل عَلَيْهِ العَقْلُ وَالشَّرْعُ، مِنْ دَوَامِ أَفْعَالِ الرَّبِّ تَعَالَى فِي الأَبَدِ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا انْقَضَى لأَهْلِ الجَنَّةِ نَعِيمٌ أَحْدَثَ لَهُمْ نَعِيمًا آخَرَ لا نَفَادَ لَهُ)، فهذا يجب أن يعتبره المسلمون، فقد دل العقل والشرع أن أفعال الرب تعالى ليس لها نهاية بل هي أبدية، أفعاله التي وصف بها نفسه ليس لها نهاية، كلما فعل شيئًا فإنه يفعل أيضًا مثله أو ما يشابهه، فهكذا، ومن ذلك تسلسل نعيم أهل الجنة؛ حيث أخبر الله تعالى بأن لهم نعيمًا مقيمًا لا يتغير ولا يزول، كلما نفد وانقضى النعيم لهم أُحدث لهم نعيم آخر، وهكذا يستمر بقاؤهم إلى غير نهاية، ويُقال كذلك أيضًا في النار، أنها باقية على القول الراجح، وأن قوله تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ

أَحْقَابًا ﴾ [النبأ:٢٣]، أي: أحقابًا لا تتناهى، يقول العلماء: كلما انتهى حقب ابتدأ حقب إلى ما لا نهاية له، هكذا.

يقول ـ رحمه الله ـ: (**وَكَذَلكَ التَّسَلسُلُ فِي أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرَفِ الأَزَل، وَأَنَّ كُل فِعْلٍ مَسْبُوقٌ بِفِعْلٍ آخَرَ**)، هذا أيضًا من التسلسل الواجب.

قوله: (**فَهَذَا وَاجِبٌ فِي كَلامِهِ**)؛ لأن الله ذكر أن كلامه لا نهاية له، لو كانت شجر الدنيا كلها من أولها إلى آخرها أقلام، وكانت البحار ومثلها معها مرارًا مدادًا، فكُتب بتلك الأقلام، وبتلك البحار لتكسرت الأقلام، ولنفدت البحار قبل أن تنفد كلمات ربي، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «الوابل الصيب»[1]: «وكيف تفنى كلماته ـ عز وجل ـ وهي لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية»، فنعتقد أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأن كلامه قديم النوع ليس له مبتدأ، وكذلك متجدد الآحاد، وليس له أيضًا نهاية، إذا لم تحدث له صفة الكلام بعد أن كان غير متكلم.

وكذلك الكثير من الأفعال، متصف بها قبل أن يوجد من يفعله بها، فهو الرزاق قبل أن يوجد الذين يرزقهم، وهو الخالق قبل أن يوجد المخلوقون، وهو المعطي المانع قبل أن توجد آثار هذه الأفعال.

قوله: (**وَهَكَذَا أَفْعَالُهُ التِي هِيَ مِنْ لوَازِمِ حَيَاتِهِ...**)، أي: هكذا أفعال الله من لوازم حياته، فمن لوازم ذلك أنه يحي ويميت، وأنه يمنع ويعطي، ويصل

---

(١) (ص٩٠).

ويقطع، ويخفض ويرفع، ويسعد ويشقي، ويميت ويحيي، هذه من لوازم حياته، وهذه أفعال قائمة به، ولم تكن مسبوقة بعدم، ولم يكن لها شيء سابق أبدًا.

يقول ـ رحمه الله ـ: (فَإِنَّ كُل حَيٍّ فَعَّالٌ)، لما ذكر الله تعالى من أسمائه الحي في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، عُرف أنه فعال، أثبت الله ذلك بقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦].

قوله: (وَالفَرْقُ بَيْنَ الحَيِّ وَالمَيِّتِ: الفِعْلُ)، فالميت ليس له فعل، وليس له حركة، وأما الحي فإنه يتصرف كما يشاء بحسب قدرته، والله على كل شيء قدير، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فكونه حيًا بمعنى فعال، كما قال ذلك كثير من السلف وعلماء الأمة؛ وهكذا أيضًا قال ذلك عثمان بن سعيد الدارمي ـ رحمه الله ـ وله مسند كبير وله رد على بشر المريسي، ورد أيضًا على الجهمية، وكلا الردين مطبوع، يقول: «كُلُّ حَيٍّ فَعَّالٌ، وَلمْ يَكُنْ رَبُّنَا تَعَالى قَطُّ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ مُعَطَّلا عَنْ كَمَالِهِ»، لم يكن في وقت من الأوقات معطلاً عن التصرف عن الأفعال التي يفعلها، يعني أنه فعال لما يريد، فلم يكن في وقت من الأوقات معطلاً عن الكلام، ولا عن الإحياء والإماتة، ولا عن العطاء والمنع، ولا عن الخفض والرفع، ولا عن الوصل والقطع .. ونحو ذلك، بل إنه متصف بالكلام دائمًا، وبالإرادة دائمًا، فعال لما يريد، وبالأفعال دائمًا.

قال الشارح - رحمه الله -:

وَأَمَّا التَّسَلسُلُ الْمُمْكِنُ: فَالتَّسَلسُلُ فِي مَفْعُولاتِهِ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ، كَمَا تَتَسَلسَلُ فِي طَرَفِ الأَبَدِ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَزَل حَيًّا قَادِرًا مُرِيدًا مُتكَلمًا، وَذَلكَ مِنْ لوَازِمِ ذَاتِهِ فَالفِعْلُ مُمْكِنٌ لهُ بِمُوجِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لهُ، وَأَنْ يَفْعَل أَكْمَلُ مِنْ أَنْ لا يَفْعَل، وَلا يَلزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لمْ يَزَل الخَلقُ مَعَهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَقَدِّمٌ عَلى كُل فَرْدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَقَدُّمًا لا أَوَّل لهُ، فَلكُل مَخْلُوقٍ أَوَّلُ، وَالخَالقُ سُبْحَانَهُ هو الأول الذي ليس قبله شيء فلا أَوَّل لهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الخَالقُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لمْ يَكُنْ.

قال الشيخ:

قوله: (وَأَمَّا التَّسَلسُلُ الْمُمْكِنُ)، أي: هذا التسلسل الممكن الذي يكون لمفعولاته سبحانه وتعالى.

قوله: (مِنْ هَذَا الطَّرَفِ)، أي: من طرف الأزل، يعني: السبق، أي: التسلسل لمفعولاته في الأزل، وكذلك أيضًا في طرف الأبد، بما أنه دائمًا يخلق ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، ويتصرف إلى ما لا نهاية له.

قوله: (إِذَا لمْ يَزَل حَيًّا قَادِرًا مُرِيدًا مُتَكَلمًا، وَذَلكَ مِنْ لوَازِمِ ذَاتِهِ فَالفِعْلُ مُمْكِنٌ لهُ بِمُوجِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لهُ)، يعني: الفعل الذي هو: الحياة والقدرة والتكلم والإرادة، وتجدد المعلومات يعني: علمه بما كان وبما لم يكن فإذا لم يزل

متصفًا بهذه الصفات: الحياة والقدرة والإرادة والكلام ونحوها فالفعل ممكن له، بوجوب هذه الصفات له، إذا أوجبنا هذه الصفات فكذلك الأفعال.

قوله: (**أَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِنْ أَنْ لا يَفْعَل**)، يعني: كونه يتصف بالفعل أكمل من كونه معطلاً عن الفعل.

يقول: (**وَلا يَلزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَزَل الخَلقُ مَعَهُ**)؛ لأنه سبحانه هو الأول ليس قبله شيء، ولكن لا يلزم أن يكون معطلاً عن الفعل، ولا يلزم أن يكون المخلوقون من البشر ونحوهم معه في الأزل، نعتقد أنه سبحانه هو الأول، وأنه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدمًا لا أول له، فإذا كان هو الأول فلا يكون معه في الأزل من مخلوقاته إلا ما خلقه وأراده، فهو متقدم على كل مخلوقات أفراده، فلكل مخلوق أول، المخلوق له بداية، أما الخالق سبحانه فليس له بداية ولا أول له، هو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق، كل ما سواه كائن بعد أن لم يكن، موجود بعد أن كان معدومًا.

قال الشارح:

قَالُوا: وَكُلُّ قَوْلٍ سِوَى هَذَا فَصَرِيحُ العَقْلِ يَرُدُّهُ وَيَقْضِي بِبُطْلانِهِ، وَكُلُّ مَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْل لزِمَهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ، لا بُدَّ لهُ مِنْهُمَا:

إِمَّا أَنْ يَقُول بِأَنَّ الفِعْل لمْ يَزَل مُمْكِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَقُول لمْ يَزَل وَاقِعًا.

وَإِلا تَنَاقَضَ تَنَاقُضًا بَيِّنًا، حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْل، وَالفِعْلُ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لذَاتِهِ، لوْ أَرَادَهُ لمْ يُمْكِنْ وُجُودُهُ، بَل فَرْضُ إِرَادَتِهِ عِنْدَهُ مُحَالٌ وَهُوَ مَقْدُورٌ لهُ. وَهَذَا قَوْلٌ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

قال الشيخ:

أورد الشارح هذا الدليل العقلي، فيقول: كل قول غير هذا الذي تقدم يرده العقل الصريح، ويقضي ببطلانه بمجرد العقل.

يقول: (كُلُّ مَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْل)، أي: أنه في الأول لم يزل قادرًا على الفعل، فيلزمه أحد أمرين لابد له من أحدهما أو منهما: (إِمَّا أَنْ يَقُول بِأَنَّ الفِعْل لمْ يَزَل مُمْكِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَقُول لمْ يَزَل وَاقِعًا)، إذا لم يقل بالقولين تناقض تناقضًا بينًا، ومعنى كون الفعل ممكنًا أي: أن الأفعال في الأزل ممكنة للرب سواء فعلها أو لا، وكذلك أيضًا الأفعال قد يُقال: إنها لا تزال واقعة، فمن ادعى أن الله تعالى لم يكن متمكنًا من الأفعال أو أنها لم تكن واقعة فلابد أنه يتناقض تناقضًا بينًا، (حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالى لمْ يَزَل قَادِرًا عَلى الفِعْل، وَالفِعْلُ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لذَاتِهِ)، كيف يكون قادرًا على الفعل ومع ذلك

يقول: الفعل محال ممتنع إيقاعه، ممتنع لذاته، لو أراده ما تمكن من وجوده، هكذا يكون التناقض، يقول بالفرض إرادة أنه محال، فرض أنه يريده وأنه يريد فعله محال مع كونه مجبورًا له، يقول: (إن قَوْلٌ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا)، أي: يتناقض الذين يقولون بخلاف هذا.

قال الشارح:

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ الذِي دَل عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَالعَقْلُ، أَنَّ كُل مَا سِوَى الله تَعَالى مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لمْ يَكُنْ، أَمَّا كَوْنُ الرَّبِّ تَعَالى لمْ يَزَل مُعَطَّلاً عَنِ الفِعْل ثُمَّ فَعَل، فَليْسَ فِي الشَّرْعِ وَلا فِي العَقْل مَا يُثْبِتُهُ، بَل كِلاهُمَا يَدُلُّ عَلى نَقِيضِهِ.

وَقَدْ أَوْرَدَ أَبُو المَعَالي فِي (إِرْشَادِهِ)[1]، وَغَيْرُهُ مِنَ النُّظَّارِ عَلى التَّسَلسُل فِي المَاضِي، فَقَالُوا: إِنَّكَ لوْ قُلتَ: لا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا إِلا أُعْطِيكَ بَعْدَهُ دِرْهَمًا، كَانَ هَذَا مُمْكِنًا، وَلوْ قُلتَ: لا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا حَتَّى أُعْطِيَكَ قَبْلهُ دِرْهَمًا، كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا.

قال الشيخ:

كون الرب تعالى معطلًا عن الفعل ثم فعل، هذا من الأمور الغيبية لم يرد في الشرع ما يثبته، ولا في العقل أيضًا، بل الشرع والعقل يدلان على نقيضه أنه سبحانه لم يكن معطلاً عن الفعل ثم قدر، هكذا.

قوله: (وَقَدْ أَوْرَدَ أَبُو المَعَالي)، أبو المعالي هو: عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني النيسابوري الشافعي - رحمه الله - الذي يُعرف بإمام الحرمين، مات سنة أربعمائة وثمان وسبعين، له كتاب (الإرشاد) الذي نقل منه المؤلف، وهكذا أيضًا قاله غيره من النظار أوردوا على التسلسل في الماضي، وقالوا: إنه

(١) (ص٢٦، ٢٧).

لا يمكن في حق الإنسان، أما في المستقبل فإنه ممكن، إذا قلت: لا أعطيك درهمًا إلا أعطيتك بعده درهمًا، كان هذا ممكنًا، بأن تعطيه في اليوم الأول درهمًا، ثم تستمر كل يوم تعطيه درهمًا ما دمت حيًا، وأما لو قلت: لا أعطيك درهمًا حتى أعطيك قبله درهمًا. فإن هذا ممتنع؛ لأنك إذا أعطيته الدرهم الأول، فقد يمتنع أن تكون قد أعطيته قبله شيئًا من الدراهم، فالتسلسل في المستقبل ممكن في حق الإنسان وأما في الماضي فليس ممكنًا في حق الإنسان على هذا التمثيل.

قال الشارح:

وَهَذَا التَّمْثِيلُ وَالْمُوَازَنَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، بَلِ الْمُوَازَنَةُ الصَّحِيحَةُ أَنْ تَقُولَ: مَا أَعْطَيْتُكَ دِرْهَمًا إِلا أَعْطَيْتُكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا، فَتَجْعَلُ مَاضِيًا قَبْلَ مَاضٍ، كَمَا جَعَلتَ هُنَاكَ مُسْتَقْبَلا بَعْدَ مُسْتَقْبَلٍ. وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: لا أُعْطِيكَ حَتَّى أُعْطِيَكَ قَبْلَهُ، فَهُوَ نَفْيٌ للمُسْتَقْبَلِ حَتَّى يَحْصُلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَيَكُونُ قَبْلَهُ، فَقَدْ نَفَى الْمُسْتَقْبَلَ حَتَّى يُوجَدَ الْمُسْتَقْبَلُ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ، أَمَّا نَفْيُ الْمَاضِي حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهُ مَاضٍ، فَإِنَّ هَذَا مُمْكِنٌ. وَالْعَطَاءُ الْمُسْتَقْبَلُ ابْتِدَاؤُهُ مِنَ المعطي والْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ لا يَكُونُ قَبْلَهُ مَا لا نِهَايَةَ لَهُ، فَإِنَّ مَا لا نِهَايَةَ لَهُ فِيمَا يَتَنَاهَى مُمْتَنِعٌ.

قال الشيخ:

رد بذلك على الذي يقول: لا أعطيك درهمًا حتى أعطيك قبله درهمًا. أن هذا يكون ممتنعًا؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يعطيه الدرهم الأول؛ لأنه يقول: ما أعطيتك قبل هذا شيئًا، فلا أعطيك إلا إذا كنت أعطيتك، فمتى كنت قد أعطيتك أعطيتك ثانيًا.

فيقول: (هَذَا التَّمْثِيلُ وَالْمُوَازَنَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، بَلِ الْمُوَازَنَةُ الصَّحِيحَةُ أَنْ تَقُولَ: مَا أَعْطَيْتُكَ)، أي: بلفظ الماضي (دِرْهَمًا إِلا أَعْطَيْتُكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا)، فتجعل الماضي قبل الماضي، أي: أنني أعطيتك الآن درهمًا وكنت قبله قد أعطيتك درهمًا مثله، (فَتَجْعَلُ مَاضِيًا قَبْلَ مَاضٍ، كَمَا جَعَلتَ هُنَاكَ مُسْتَقْبَلا بَعْدَ مُسْتَقْبَلٍ).

قولـه: (وَأَمَّـا قَـوْلُ القَائِـل: لا أُعْطِيـكَ حَتَّـى أُعْطِيَـكَ قَبْلَـهُ، فَهُـوَ نَفْـيٌ لِلمُسْتَقْبَل حَتَّى يَحْصُل فِي المُسْتَقْبَل وَيَكُـونُ قَبْلَـهُ)، يعنـي: أن هـذا غـير ممكـن، لا أعطيك حتى أعطيك قبله فليس في الإمكان.

قوله: (فَقَدْ نَفَـى المُسْتَقْبَل حَتَّى يُوجَدَ المُسْتَقْبَلُ، وَهَـذَا مُمْتَنِـعٌ)، بخـلاف (نَفْيُ المَاضِي حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهُ مَاضٍ، فَإِنَّ هَذَا مُمْكِنٌ).

قوله: (وَالعَطَاءُ المُسْتَقْبَلُ ابْتَـداؤُهُ مِنَ المعطي. والمُسْتَقْبل الـذِي لـهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ لا يَكُونُ قَبْلَهُ مَا لا نِهَايَةَ لهُ، فَإِنَّ مَا لا نِهَايَةَ لهُ فِيمَا يَتَنَـاهَى مُمْتَنِـعٌ)، ويُحـال ها هنا إلى كتاب ابن تيمية الذي هـو «درء تعـارض النقـل والعقـل»[1]، والـذي يقول فيه ابن القيم[2]:

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي ... مَا فِي الْوُجُـودِ لَـهُ نَظِيرٌ ثَـانِ

فيكون هذا الكلام موضحًا فيه.

---

(١) (٩/ ١٧٧ ـ ١٩٠).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٩٠).

قال الطحاوي ـ رحمه الله ـ:

لَيْسَ بَعْدَ خَلقِ الخَلقِ اسْتَفَادَ اسم «الخَالق»، وَلا بِإِحْدَاثِهِ البَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم «البَارِي».

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

ظَاهِرُ كَلامِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ أَنَّهُ يَمْنَعُ تَسَلسُل الحَوَادِثِ فِي المَاضِي، وَيَأْتِي فِي كَلامِهِ مَا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ لا يَمْنَعُهُ فِي المُسْتَقْبَل، وَهُوَ قَوْلُهُ: (وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ لا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلا تَبِيدَانِ)، وَهَذَا مَذْهَبُ الجُمْهُورِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلا شَكَّ فِي فَسَادِ قَوْل مَنْ مَنَعَ ذَلكَ فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَل، كَمَا ذَهَبَ إِليْهِ الجَهْمُ وَأَتْبَاعُهُ، وَقَال بِفَنَاءِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، لِمَا يَأْتِي مِنَ الأَدِلةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَال بِجَوَازِ حَوَادِثَ لا أَوَّل لهَا، مِنَ القَائِلينَ بِحَوَادِثَ لا آخِرَ لهَا فَأَظْهَرُ فِي الصِّحَّةِ مِنْ قَوْل مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لمْ يَزَل حَيًّا، وَالفِعْلُ مِنْ لوَازِمِ الحَيَاةِ، فَلمْ يَزَل فَاعِلاً لِمَا يُرِيدُ، كَمَا وَصَفَ بِذَلكَ نَفْسَهُ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٥، ١٦].

قال الشيخ:

يُفهم من كلام الطحاوي ـ رحمه الله ـ أنه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي، والله تعالى أخبر بأنه خالق الخلق، وأنه مستحق لاسم الخالق قبل أن

يوجد أي مخلوق، فيمتنع تسلسل الحوادث في الماضي، وسوف يأتي في كلام الطحاوي ما يدل على أنه لا يمتنع تسلسل الحوادث في المستقبل، لما ذكر الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان ولا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، وهذا مذهب الجمهور.

قوله: (**وَلا شَكَّ فِي فَسَادِ قَوْلِ مَنْ مَنَعَ ذَلكَ فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَل**)، أي: مَنْ منع مِن تسلسل الحوادث في المستقبل، الذي هو قول الجهم الذي هو رئيس الجهمية، وكذلك أتباعه الذين يقولون بفناء الجنة والنار، وسيأتي أدلة تبطل قولهم.

قوله: (**وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَال بِجَوَازِ حَوَادِثَ لا أَوَّل لَهَا...**)، أي: يقول ـ رحمه الله ـ: إن قول من قال بجواز حوادث لا أول لها، من الذين يقولون بحوادث لا آخر لها، فإنه قول صحيح، حوادث لا أول لها أظهر في الصحة من قول من فرق بينهما؛ وذلك لأننا نعتقد أن الله ـ سبحانه ـ حيٌّ لم يزل حيًا، ومعلوم أن الأفعال من لوازم الحياة، والحي لابد أن يكون له أفعال، فلم يزل فعَّالاً لما يريد، يعني: الله تعالى قديم بأفعاله، ولم يزل موصوفًا بأنه فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، فقد وصف نفسه بذلك في قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾، أي: رب العرش المجيد، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، و(المَجِيدُ) صفة للرب سبحانه ليست صفة للعرش؛ ولذلك جاءت مرفوعة، و(فَعَّالٌ)، صفة للرب لكل ما يريد، أي: لكل ما يريده من الحوادث وما أشبهها.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلى أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالى يَفْعَلُ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لمْ يَزَل كَذَلكَ؛ لأَنَّـهُ سَاقَ ذَلكَ فِي مَعْرِضِ المَدْحِ وَالثَّنَاءِ عَلى نَفْسِهِ، وَأَنَّ ذَلكَ مِنْ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ، وَلا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَادِمًا لِهَذَا الكَمَالِ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧]، وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَوْصَافِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلالِهِ أنه الخالق لمْ يَكُنْ حَادِثًا بَعْدَ أَنْ لمْ يَكُنْ.

الثَّالثُ: أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَعَلهُ، فَإِنَّ (مَا) مَوْصُولةٌ عَامَّةٌ، أَيْ: يَفْعَلُ كُل مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلهُ، وَهَذَا فِي إِرَادَتِهِ المُتَعَلقَةِ بِفِعْلهِ. وَأَمَّا إِرَادَتُهُ المُتَعَلقَةُ بِفِعْل العَبْدِ فَتِلكَ لهَا شَأْنٌ آخَرُ: فَإِنْ أَرَادَ فِعْل العَبْدِ وَلمْ يُرِدْ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُعِينَهُ عَليْهِ وَيَجْعَلهُ فَاعِلًا لمْ يُوجَدِ الفِعْلُ وَإِنْ أَرَادَهُ حَتَّى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يَجْعَلهُ فَاعِلًا، وَهَذِهِ هِيَ النُّكْتَةُ التِي خَفِيَتْ عَلى القَدَرِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ، وَخَبَّطُوا فِي مَسْأَلةِ القَدَرِ؛ لغَفْلتِهِمْ عَنْهَا، وَفَرْقٌ بَيْنَ إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْعَل العَبْدُ وَإِرَادته أَنْ يَجْعَلهُ فَاعِلًا.

وَسَيَأْتِي الكَلامُ عَلى مَسْأَلةِ القَدَرِ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّـهُ تَعَالى.

الرَّابعُ: أَنَّ فِعْلهُ وَإِرَادَتَهُ مُتَلازِمَانِ، فَمَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَل فَعَل، وَمَا فَعَلهُ فَقَدْ أَرَادَهُ. بِخِلافِ المَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ مَا لا يَفْعَلُ، وَقَدْ يَفْعَلُ مَا لا يُرِيدُهُ. فَمَا ثَمَّ فَعَّالٌ لمَا يُرِيدُ إِلا اللهُ وَحْدَهُ.

الخَامِسُ: إِثْبَاتُ إِرَادَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَسَبِ الأَفْعَالِ، وَأَنَّ كُلَ فِعْلٍ لهُ إِرَادَةٌ تَخُصُّهُ، هَذَا هُوَ المَعْقُولُ فِي الفِطَرِ، فَشَأْنُهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ عَلى الدَّوَامِ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

قال الشيخ:

قوله: (**أَنَّهُ تَعَالى يَفْعَلُ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ**)؛ لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾، أي: لِمَا يريده ولِمَا يشاؤه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

قوله: (**الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ...**)، أي: يقول: إنه سبحانه لم يزل كذلك، يعني لم يزل فعالاً لما يريد، فهذه الآية ساقها الله في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كمال صفاته.

قوله: (**وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ**)، يعني: أن كونه فعالاً لِمَا يريد دليل على صفات الكمال.

قوله: (**وَلا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَادِمًا لِهَذَا الكَمَالِ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ**)، بل دائمًا وأبدًا هو فعال لِمَا يريد، فلا يمكن أن ينعدم منه ذلك الفعل في وقت أو يكون عاجزًا؛ ولهذا يقول الماتن: إنه موصوف بأنه خالق قبل أن يوجد المخلوق، وبأنه رازق قبل أن يوجد المرزوقون؛ ولأنه قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧]، يرد على الذين يعبدون غير الله ممن لا يخلقون شيئًا، وهم يُخلقون، لا يخلقون شيئًا ولا يتصرفون بأنفسهم، فهل

يستوون بالذي هو خالق كل شيء؟! هل يُقال: إن الذي يخلق مثل الذي لا يخلق ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟.

قوله: (لَمْ يَكُنْ حَادِثًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ)، يعني: لم يكن بذاته حادثًا، وكذلك أفعاله لم تكن حادثة بعد أن كانت معدومة.

قوله: (الثَّالِثُ: أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَعَلَهُ...)، أي: يقول: هذا الأمر فيه أنه سبحانه إذا أراد شيئًا فعله، فإن (ما) في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا﴾، موصولة بمعنى الذي، أي: فعال للذي يريد، وهي عامة، أي: فعال يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله؛ لأنه سبحانه هو المريد لأفعاله ولكن هناك إرادة تتعلق بفعل العبد، فالإرادة المتعلقة بالعبد لها شأن آخر؛ لأن الله تعالى لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فقد يريد العبد شيئًا ولا يحصل؛ لأن الله لم يرده كونًا وقدرًا، وإذا أراد الله تعالى فعل العبد فإنه يكون، وإذا أراد العبد فعل شيء ولم يرد الله أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل، فقد يهم العبد بشيء ولكن لا يعينه الله تعالى، ولا يستطيع أن يفعله سواءً أكان محرمًا ومعصية أم كان واجبًا وطاعة، فإذا لم يرده الله تعالى ولم يجعله فاعلاً، ولم يعنه لم يوجد ذلك الفعل، ولكن مع ذلك الله تعالى أراد كل موجود، ولكن لا ينسب إلى الله إرادة الشرور، بل الأصل أن كل ما أراده وقدره فقضاؤه فيه أنه خير، وإذا كان شرًا فإنه يكون منسوبًا لغير مذكور، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]،

فكلمة (أُرِيدَ) هذا للشر، مع أن الله تعالى هو الذي أراده كونًا وقدرًا، وأما الرشد فصرح بأنه من الله ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾.

قوله: (لمْ يُوجَدِ الفِعْلُ وَإِنْ أَرَادَهُ)، أي: وإن أراده العبد وهمَّ به.

قوله: (حَتَّى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ)، أي: الرب تعالى.

قوله: (وَهَذِهِ هِيَ النُّكْتَةُ التِي خَفِيَتْ عَلى القَدَرِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ، وَخَبَّطُوا فِي مَسْأَلَةِ القَدَرِ؛ لغَفْلَتِهِمْ عَنْهَا)، وهي أنهم يقولون: إن قدرة العبد لا تدخل في قدرة الله، أن الله تعالى لا يوصف بأنه يفعل أو يريد الشرور، أو يريد شيئًا من أفعال العبد. فالقدرية يجعلون العبد هو الذي يفعل المعاصي، ويفعل الطاعات، ولا يقدر الله تعالى على فعله، وأما الجبرية فهم بعكسهم، فهم يقولون: إن كل الأفعال منسوبة إلى الله، وإن العبد ليس له أي فعل، فتخبطوا في مسألة القدر؛ لغفلتهم عنها.

فيقول الشارح: (وَفَرْقٌ بَيْنَ إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْعَلَ العَبْدُ)، أي: إن أراد الله أن يفعل هذا العبد، أو (إِرَادَته أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلاً)، أي: أن يجعله الله تعالى فاعلاً.

قوله:(الرَّابِعُ: أَنَّ فِعْلَهُ وَإِرَادَتَهُ مُتَلازِمَانِ...)، أي: هكذا فعل الله تعالى وإرادته متلازمان لا يمكن أن يفعل شيئًا إلا بإرادة، ولا يمكن أن يريد شيئًا كونًا وقدرًا إلا وقد فعله، وما أراده لابد أن يفعله، (فَمَا أَرَادَ)، أي: أراد أن يفعله فإنه قد فعله، وكل شيء فعله فقد أراده، كل شيء فعله الله تعالى من خير أو شر فقد أراده، أما المخلوق فليس كذلك.

قوله: (**بِخِلافِ المَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ مَا لا يَفْعَلُ، وَقَدْ يَفْعَلُ مَا لا يُرِيدُهُ**)، أي: يريد شيئًا وقد لا يقدر أن يفعله، وقد يفعل أشياء ما أرادها؛ كالمكره - مثلًا - أو الذي يفعل بغير نية أو نحو ذلك.

قوله: (**الخَامِسُ: إِثْبَاتُ إِرَادَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَسَبِ الأَفْعَال**)، أي: كل فعل فعله فإن له إرادة، فيكونون كإرادات متعددة، أراد أن يُحي هذا، وأراد أن يغني هذا وأن يفقر هذا، وأن يقوي هذا وأن يضعف هذا، ونحو هذا، إرادات متعددة بحسب الأفعال.

قوله: (**وَأَنَّ كُل فِعْلٍ لهُ - سبحانه - إِرَادَةٌ تَخُصُّهُ**)، أي: كل فعل فعله فلابد أن يكون له إرادة تخصه.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

السَّادِسُ: أَنَّ كُل مَا صَحَّ أَنْ تَتَعَلقَ بِهِ إِرَادَتُهُ جَازَ فِعْلُهُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْزِل كُل لَيْلَةٍ إِلى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَنْ يَجِيءَ يَوْمَ القِيَامَةِ لفَصْل القَضَاءِ، وَأَنْ يُرِيَ عِبَادَهُ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَتَجَلى لَهُمْ كَيْفَ شَاءَ، وَيُخَاطِبَهُمْ، وَيَضْحَكَ إِليْهِمْ، وَغَيْرَ ذَلكَ مِمَّا يُرِيدُ سُبْحَانَهُ لمْ يَمْتَنِعْ عَليْهِ فِعْلُهُ، فَإِنَّهُ تَعَالى فَعَّالٌ لمَا يُرِيدُ. وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُ صِحَّةُ ذَلكَ عَلى إِخْبَارِ الصَّادِقِ بِهِ، فَإِذَا أَخْبَرَ وَجَبَ التَصْدِيْق، وَكَذَلكَ مَحْوُ مَا يَشَاءُ، وَإِثْبَاتُ مَا يَشَاءُ، كُل يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالى.

قال الشيخ:

قوله: (السَّادِسُ: أَنَّ كُل مَا صَحَّ أَنْ تَتَعَلقَ بِهِ إِرَادَتُهُ جَازَ فِعْلُهُ)، المعنى: أن كل ما صح أن تتعلق به الإرادة جاز فعله، وإن لم يكن ممكنًا عندها، ولكن الله تعالى لا يعجزه شيء، كل شيء صح أن تتعلق به إرادة الله فإنه يجوز فعله، وإن أنكره بعض من ينكره من المعطلة ونحوهم، ذكر لذلك أمثلة:

المثال الأول: النزول كل ليلة إلى السماء الدنيا، فهذا بإرادة الله، إذا كان أراد ذلك حصل هذا النزول.

الثاني: إذا أراد (أَنْ يَجِيءَ يَوْمَ القِيَامَةِ لفَصْل القَضَاءِ)، حصل ذلك المجيء كما شاءه، ولو أنكر ذلك من أنكره.

الثالث: إذا أراد (أَنْ يُرِيَ عِبَادَهُ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَتَجَلى لَهُمْ كَيْفَ شَاء)، حصل ذلك، ولو أنكر ذلك من أنكره من المعتزلة ونحوهم.

الرابع: إذا أراد أن يخاطب عباده ويضحك إليهم، حصل ذلك، ولو أنكر ذلك المعطلة.

قوله: (وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُ صِحَّةُ ذَلكَ عَلى إخْبَارِ الصَّادِقِ بِهِ)، وهو النبي ﷺ. فإذا أخبر بمثل هذه الأمثلة وجب أن نصدق بذلك وأن نقول: إنه قد أراده.

قوله: (وَكَذَلكَ مَحْوُ مَا يَشَاءُ، وَإِثْبَاتُ مَا يَشَاءُ)، فقد قال الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، فأخبر أن هناك محوًا وإثباتًا قد أراده الله؛ وكذلك قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] سبحانه وتعالى، هذا أيضًا مما يثبته أهل السنة، وهو أنه سبحانه يفعل ما يشاء، وأنه كل يوم هو في شأن.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الحَوَادِثَ لَهَا أَوَّلُ، يَلْزَمْ مِنْهُ التَّعْطِيلُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ غَيْرَ فَاعِلٍ ثُمَّ صَارَ فَاعِلًا.

وَلَا يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ قِدَمَ الْعَالَمِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا سُوَىٰ اللَّهِ مُحْدَثٍ مُمْكِنِ الوُجُودِ، مَوْجُودٌ بِإِيجَادِ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْعَدَمُ وَالْفَقْرُ، وَالِاحْتِيَاجُ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لِكُلِّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ وَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ، غَنِيٌّ لِذَاتِهِ، وَالْغِنَىٰ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَلِلنَّاسِ قَوْلَانِ فِي هَذَا العَالِمِ: هَل هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادَّةٍ أَمْ لَا؟ وَاخْتَلَفُوا فِي أَوَّلِ هَذَا العَالِمِ مَا هُوَ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧].

قال الشيخ:

قوله: (وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الحَوَادِثَ لَهَا أَوَّلُ...)، يعني: إذا قلنا: إنه فعله مختارًا، وأنه فعال لما يريد، وأنه لم يزل مسمى باسم الخالق مع ما كان، ويستحق اسم الباري فلا يلزم من ذلك أن العالم قديم، يعني: أن هذه المخلوقات: جنس بني آدم، وجنس الشياطين، وجنس المخلوقات من الملائكة والدواب ونحو ذلك، نعتقد أن كل ما سوى الله محدث بعد أن كان معدومًا؛ ولأجل ذلك نقول: إن الإنسان يكون معدومًا ثم يوجد، كل ما سوى الله محدث وممكن الوجود

وليس واجب الوجود، ونعتقد أيضًا أنه موجود بإيجاد الله تعالى له، أن الله تعالى هو الذي أوجده.

قوله: (لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْعَدَمُ وَالْفَقْرُ)، أي: كل مخلوق ليس له من نفسه إلا وصف العدم، ووصف الفقر، وصف لازم؛ وفي ذلك أبيات لشيخ الإسلام يقول[1]:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِم أبدًا   كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

قوله: (وَالِاحْتِيَاجُ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَازِمٌ لِكُلِّ مَا سِوَىٰ اللَّـهِ تَعَالَىٰ)، أي: كل ما سوى الله فإنه محتاج، هذا الوصف الذاتي - أي: الحاجة - لازم لكل ما سوى الله، والله تعالى واجب الوجود لذاته، والمخلوق ممكن الوجود لذاته، كما أن الله تعالى غني لذاته، والغنى وصف ذاتي لازم لله سبحانه وتعالى، وأما المخلوق فإن غناه ليس وصفًا ذاتيًا؛ لأنه قد يستغني ثم يزول غناه.

قوله: (وَلِلنَّاسِ قَوْلَانِ فِي هَذَا الْعَالَمِ: هَل هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادَّةٍ أَمْ لَا)، يعني: هذا العالم الذي هو جنس الإنسان، وجنس الجن، والملائكة، والشياطين، والدواب، هل مخلوقة من مادة أم لا؟ والصحيح: أنها مخلوقة من مادة، فالإنسان خُلق من تراب هذا أوله، ثم الآخر خُلق من ماء مهين.

يقول: (وَاخْتَلَفُوا فِي أَوَّلِ هَذَا الْعَالَمِ مَا هُوَ؟)، أول هذا العالم الذي هو السموات والأرض والجبال والأفلاك والنجوم والشمس والقمر وما أشبهها،

---

(١) انظر: العقود الدرية (ص٣٩١).

والأولى أن لا نخوض في مثل هذا، الله تعالى خالق كل شيء، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧]، هكذا أخبر عن نفسه أنه الذي خلق السموات والأرض، هذه الأرض الواسعة التي نراها، وقد ذُكر أيضًا أن هناك غيرها سبع أرضين كما في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]، خلق الله هذه السموات وهي السموات السبع، وهذه الأراضي في ستة أيام مع أنه قادر على أن يخلقها في لحظة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، ثم يقول: بأن عرشه على الماء يعني: قبل أن يخلق هذه المخلوقات فقد خلق العرش، وكان العرش على الماء، وسُئل ابن عباس - رضي الله عنهما -: على أي شيء الماء؟ فقال: «عَلَىٰ مَتْنِ الرِّيحِ»[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٠٢)، والطبري (١٢/ ٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٥).

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَرَوَى البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ أَهْلُ اليَمَنِ لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ، فَقَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ»[1]، وَفِي رِوَايَةٍ «غَيْرِهِ»، «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ؛ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»، وَفِي لَفْظٍ: «ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ».

فَقَوْلُهُ: «كَتَبَ فِي الذِّكْرِ» يَعْنِي: اللوحَ المَحْفُوظَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥]؛ يُسَمَّى مَا يُكْتَبُ فِي الذِّكْرِ ذِكْرًا، كَمَا يُسَمَّى مَا يُكْتَبُ فِي الكِتَابِ كِتَابًا.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الحَدِيثِ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ المَقْصُودَ إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ كَانَ مَوْجُودًا وَحْدَهُ وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ دَائِمًا، ثُمَّ ابْتَدَأَ إِحْدَاثَ جَمِيعِ الحَوَادِثِ، فَجِنْسُهَا وَأَعْيَانُهَا مَسْبُوقَةٌ بِالعَدَمِ، وَأَنَّ جِنْسَ الزَّمَانِ حَادِثٌ لا فِي زَمَانٍ، وَأَنَّ اللهَ صَارَ فَاعِلاً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنَ الأَزَلِ إِلَى حِينِ ابْتِدَاءِ الفِعْلِ، ولا كَانَ الفِعْلُ مُمْكِنًا.

قال الشيخ:

في هذا الحديث ذكر عمران بن الحصين ﷺ أنه كان عند النبي ﷺ فجاءه

(١) يأتي قريبًا التنبيه في كلام سماحة الشيخ على أن هذه الرواية لم ترد في الصحيح ولا في غيره.

بنو تميم، فقال: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يا بَنِي تَمِيمٍ»، قالوا: قد بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فغضب النبي ﷺ، ثم جاءه ناس من أهل اليمن، فقال: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لم يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيم» فقالوا: قد قبلنا، ثم قالوا: (جِئْنَاكَ لنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ). هكذا جاءوا من اليمن مع بعد المشقة ليتفقهوا في الدين، لَمَّا سمعوا قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢]؛ ليتعلموا العقيدة، ويتعلموا الأحكام التي تلزمهم، ثم ذكروا أنهم يسألون عن أول هذا الأمر، يعني: عن أول هذه المخلوقات، وأول هذه الموجودات، فابتدأ وقال: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وقد أخرجه بهذا اللفظ: البخاري[١]، والدارمي في (الرد على الجهمية)[٢]، وأخرجه البخاري[٣] أيضًا، والطبراني في (الكبير)[٤] بلفظ: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرِهِ»، وأخرجه ابن خزيمة في (التوحيد)[٥]، والنسائي في التفسير من (الكبرى)[٦] بلفظ: «كَانَ اللهُ وَلا شَيْءَ غَيْرُهُ»، وأخرجه أحمد في (المسند)[٧] بلفظ: «كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

---

(١) برقم (٧٤١٨).

(٢) (ص٣٤، ٣٥).

(٣) برقم (٣١٩١).

(٤) (١٨/ برقم٥٠٠).

(٥) (٢/ ٨٨٤).

(٦) برقم (١١١٧٦).

(٧) (٤/ ٤٣١).

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ».

فهذه الروايات لم يرد منها في الصحيح إلا رواية: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، ورواية: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرِهِ»، أخبر ﷺ بأن الله تعالى هو الخالق، وأنه لم يكن شيء قبله بل هو الأول؛كما في قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ﴾ [الحديد:٣]، فلم يكن شيء قبله؛ لأنه هو الخالق، وما سواه فإنه من المخلوقات فيكون هو الأول.

ذكر أيضًا «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ [هود:٧]، وقد سُئل ابن عباس -رضي الله عنهما-: على أي شيء الماء؟ فقال: «على متن الريح»[1]، هذا دليل على أن العرش مخلوق من المخلوقات، وكذلك الماء والريح، فكلها وجدت قبل العرش أو بعده.

وأخبر أنه «كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُل شَيْءٍ»، أي: كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، ففي الحديث: «أَوَّل مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٩٥)، والحاكم (٢/ ٤٩٨)، والبيهقي (٩/ ٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: أحمد (٥/ ٣١٧)، والبزار (٧/ ١٣٧)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٣٨)، وأخرجه الترمذي (٣٣١٩)

=

وفي رواية: «ثم خَلقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»، أي: أوجد هذه المخلوقات، كما أخبر بذلك.

قوله:(فَقَوْلُهُ: كَتَبَ فِي الذِّكْرِ. يَعْنِي: اللوْحَ المَحْفُوظَ)، دليله قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج:٢١، ٢٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[الرعد:٣٩]، التي هي اللوح المحفوظ.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالزبور هو: الكتاب الذي أُنزل على داود، وقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾، أي: من بعد ما خلقنا ذلك اللوح الذي كُتب فيه كل شيء، فسمى الله ما يُكتب الذكر فيه ذكرًا، كما يُسمى ما يُكتب في الكتاب كتابًا.

قوله: (إِنَّ المَقْصُودَ إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ كَانَ مَوْجُودًا وَحْدَهُ وَلَمْ يَزَل كَذَلِكَ دَائِمًا، ثُمَّ ابْتَدَأَ إِحْدَاثَ جَمِيعِ الحَوَادِثِ...)، المراد بهذا أن الله تعالى موجود قبل أن يُوجد شيء قبله، وأنه سبحانه هو الموجود، والجمهور على أنه - سبحانه وتعالى - قديمٌ لم يُسبق بعدم، وقد أخبر ﷺ أن الله - جل وعلا - كان موجودًا ولم يكن شيء قبله، وأنه لم يزل كذلك دائمًا، وأنه ابتدأ جميع الحوادث؛ كالعرش والماء

=

بلفظ: «... بِمَا هو كَائِنٌ إلى الأَبَدِ»، وسيأتي الكلام على هذا الحديث في تعليق سماحة الشيخ على قول الطحاوي: «ونُؤْمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ، وبجَميعِ مَا فيهِ قَدْ رُقِم».

والريح والسموات وما أشبه ذلك، فهذه الموجودات كلها من المخلوقات والأفلاك وما أشبهها جنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، لم تكن شيئًا كما في خلق الإنسان، في قول الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان:١]، أي: أتى عليه زمان طويل وهو لم يوجد ولم يكن شيئًا مذكورًا، أما جنس الزمان الذي هو الليل والنهار؛ وكذلك الأوقات والساعات وما أشبهها فلاشك أيضًا أنها موجودة؛ لأنه لابد أن يكون هناك زمان يمضي سواء أكان له علامات أم لا، موجودٌ قبل خلق الشمس والقمر، وقبل خلق الأفلاك، وقبل خلق الليل والنهار، الزمان موجود وليس بحادث.

وأما القول (**بِأَنَّ اللهَ تعالى صَارَ فَاعِلًا بَعْدَ أَنْ لمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنَ الأَزَل إِلى حِينِ ابْتِدَاءِ الفِعْل ولا كَانَ الفِعْلُ مُمْكِنًا**)، فهذا لا دليل عليه، بل الله تعالى موصوف بأنه فعالٌ لما يريد، وأنه لم يكن معطلًا عن إيجاد المخلوقات، أو عن إيجاد الموجودات، وهو تعالى قادر على كل شيء.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَالقَوْلُ الثَّانِي: المُرَادُ إِخْبَارُهُ عَنْ مَبْدَإِ خَلقِ هَذَا العَالَمِ المَشْهُودِ الذِي خَلقَهُ اللهُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ، كَمَا أَخْبَرَ القُرْآنُ بِذَلكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَدَّرَ اللهُ تَعَالى مَقَادِيرَ الخَلقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ». فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ تَقْدِيرَ هَذَا العَالَمِ المَخْلُوقِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ كَانَ قَبْلَ خَلقِ السَّمَوَاتِ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وَأَنَّ عَرْشَ الرَّبِّ تَعَالى كَانَ حِينَئِذٍ عَلى المَاءِ.

دَليلُ صِحَّةِ هَذَا القَوْلِ الثَّانِي مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَ أَهْلِ اليَمَنِ: «جِئْنَاكَ لنَسْأَلكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ». هُوَ إِشَارَةٌ إِلى حَاضِرٍ مَشْهُودٍ مَوْجُودٍ، وَالأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى المَأْمُورِ، أَيِ: الذِي كَوَّنَهُ اللهُ بِأَمْرِهِ، وَقَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَدْءِ هَذَا العَالَمِ المَوْجُودِ، لا عَنْ جِنْسِ المَخْلُوقَاتِ؛ لأَنَّهُمْ لمْ يَسْأَلُوهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْ خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَال كَوْنِ عَرْشِهِ عَلى المَاءِ، وَلمْ يُخْبِرْهُمْ عَنْ خَلقِ العَرْشِ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ قَبْل خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

قال الشيخ:

قوله ﷺ: «قَدَّرَ اللهُ تَعَالى مَقَادِيرَ الخَلقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ

بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ»، هكذا في صحيح مسلم[١]، ولفظه: «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَات وَالأَرْض بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قال: وَعَرْشُهُ على المَاءِ».

وأخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات)[٢] بلفظ: «قَدَّرَ اللهُ المَقَادِيرَ»، وأخرجه أيضًا بلفظ: «فَرَغَ اللَّهُ مِنْ المَقَادِيرِ وَأُمُورِ الدُّنْيَا».

وكذلك أخرجه أحمد[٣] والترمذي[٤]، وليس فيه: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ».

قال البيهقي: وقوله: «فَرَغَ» أي: يريد به إتمام خلق المقادير لا أنه كان مشغولًا به وفرغ منه؛ لأن الله لا يشغله شيء عن شيء، فإنما أمره إذا أرد شيئًا أن يقول له: كن فيكون.

أخبر ﷺ في هذا الحديث: أن تقدير هذا العالم المخلوق كان قبل خلق السَّمَوَات والأرض بخمسين ألف سنة، أي: أن تقدير هذا العالم الذي هو السَّمَوَات والأرض كان مقدورًا مقدرًا قبل خلق هذه المخلوقات بخمسين ألف سنة.

وذكر أيضًا أن عرش الرب كان حينئذٍ على الماء، وعلى هذا أخبر ﷺ أن

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

(٢) (ص٣٧٤).

(٣) (٢/ ١٦٩).

(٤) برقم (٢١٥٦).

بدء خلق هذا العالم المشاهد الذي هو: السَّمَوَات والأرض أن الله تعالى خلقها في ستة أيام، ثم استوى على العرش كما يشاء.

كذلك أخبر بأن الله قدر مقادير الخلق قبل خلق السَّمَوَات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك عندما خلق القلم وقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، فقبل خلق السَّمَوَات كان العرش على الماء، والماء والعرش كلاهما مخلوق، فأخبر أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل إيجاد السَّمَوَات والأرض بخمسين ألف سنة، وأخبر أن عرش الرب كان حينئذٍ مخلوقًا، وكان على الماء.

قوله: (**دَلِيلُ صِحَّةِ هَذَا القَوْلِ الثَّانِي مِنْ وُجُوهٍ:أَحَدُهَا...**)، أهل اليمن جاؤوا يسألون عن أول هذا الأمر يعني الذي يشاهدونه، الذي هو هذه الموجودات: السَّمَوَات، والأفلاك، والشمس، والقمر، والمخلوقات التي على ظهر الأرض، والرياح، والبحار، والجبال ونحو ذلك، وهو شيء مشاهد موجود، فقولهم: (**عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ**)، أي: عن هذا المأمور الذي حصل بأمر الله تعالى وكونه الله بأمره، بقوله: كن فكان.

قوله: (**أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَدْءِ هَذَا العَالَمِ المَوْجُودِ**)، أي: الذي هو هذه المخلوقات، فبدأ بإخبارهم عن الله تعالى أنه كان ولم يكن شيء قبله.

قوله: (**لا عَنْ جِنْسِ المَخْلُوقَاتِ**)، أي: ولم يجبهم عن جنس المخلوقات، يعني: لم يخبرهم من أي شيء خُلقت السَّمَوَات والأرض، ومن أي شيء خُلقت الأفلاك، لم يسألوه عن هذا، لما أخبرهم عن أولية الله تعالى أخبرهم بعد

ذلك عن خلق السَّمَوَات والأرض، أنه خلق ذلك، كما أخبر بذلك وأنه خلقها في ستة أيام، وأخبر أنه خلقها حال كون العرش على الماء، فدل على أن العرش كان مخلوقًا قبل السَّمَوَات والأرض، ولم يخبرهم عن خلق العرش، فلما أخبرهم بأن العرش على الماء دل على أنه مخلوق قبل خلق السَّمَوَات والأرض، وأن الله تعالى خصه بأن استوى عليه كما يليق به.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وَقَدْ رُوِيَ (مَعَهُ)، وَرُوِيَ (غَيْرُهُ)، وَالمَجْلِسُ كَانَ وَاحِدًا، فَعُلِمَ أَنَّهُ قَالَ أَحَدَ الأَلْفَاظِ وَالآخَرَانِ رُوِيَا بِالمَعْنَى، وَلفْظُ القَبْل ثبتَ عَنْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الحَدِيثِ.

فَفِي صحيح مُسْلم[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ..» الحَدِيثَ، وَاللفْظَانِ الآخَرَانِ لَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ إِنَّمَا يَرْوِيهِ بِلفْظِ (القَبْل)؛ كَالحُمَيْدِيِّ وَالبَغَوِيِّ وَابْنِ الأَثِيرِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلكَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اللفْظِ تَعَرُّضٌ لابْتِدَاءِ الحَوَادِثِ، وَلا لأَوَّل مَخْلُوقٍ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» أَوْ «مَعَهُ» أَوْ «غَيْرُهُ»، «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُل شَيْءٍ»، فَأَخْبَرَ عَنْ هَذِهِ الثَّلاثَةِ بِالوَاوِ، «وَخَلقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ» رُوِيَ بِالوَاوِ وَبـ(ثُمَّ)، فَظَهَرَ أَنَّ مَقْصُودَهُ إِخْبَارُهُ إِيَّاهُمْ بِبَدْءِ خَلقِ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَهِيَ المَخْلُوقَاتُ التِي خُلقَتْ فِي سِتَّةِ أَيَّام، لا ابْتِدَاءَ خَلقِ مَا خَلقَهُ اللهُ قَبْل ذَلكَ، وَذَكَرَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ بِمَا يَدُلُّ عَلى خَلقِهِمَا، وَذَكَرَ مَا قَبْلهُمَا بِمَا يَدُلُّ عَلى كَوْنِهِ وَوُجُودِهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لابْتِدَاءِ خَلقِهِ.

---

(١) برقم (٢٧١٣).

قال الشيخ:

قال: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، أما رواية: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ»، فهذه اللفظة لم ترد في الصحيح ولا في غيره، وقد وهم شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته في شرح هذا الحديث الموجود في مجموع الرسائل والمسائل[1] في قوله: «إنها في البخاري»، وتابعه على هذا الوهم تلميذه الإمام ابن القيم في (المدارج)[2]، وعلى قولها فإن الشارح يقول: (وَقَدْ رُوِيَ «مَعَهُ»، وَرُوِيَ «غَيْرُهُ»، وَالمَجْلسُ كَانَ وَاحِدًا).

ثم قال: (فَعُلِمَ أَنَّهُ قَال أَحَدَ الأَلفَاظِ وَالآخَرَانِ) - أي: لفظ «مَعَهُ»، و«غَيْرَه» - (رُوِيَا بِالمَعْنَى، وَلَفْظُ القَبْل ثبتَ عَنْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الحَدِيثِ)، ثبت لفظ «قبله» لِمَا في هذا الحديث الذي في دعائه ﷺ أنه قال: « اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُل شَيْءٍ، فَالقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِل التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيل وَالفُرْقَانِ، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْء»، فهذا الحديث فيه لفظ (القبل)، فيؤيد قوله: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وهي الرواية التي في الصحيح.

قوله: (وَاللفْظَانِ الآخَرَانِ لَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ)، لكن رواية «غيره» قد رواها البخاري في صحيحه، ولعلها رواية بالمعنى.

---

(١) (٦/ ٥٥١).

(٢) (١٨/ ٢١٠).

قوله: (**وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ إِنَّمَا يَرْوِيهِ بِلَفْظِ: القَبْل**)، فلقد رواه الحميدي الذي هو شيخ البخاري، أبو بكر بن عبدالله بن الزبير بن عيسى، وله مسند مطبوع، وكذلك البغوي الذي هو العلامة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الشافعي صاحب (التفسير)، وصاحب (شرح السنة)، وصاحب (المصابيح)، وكذلك ابن الأثير الذي هو أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري صاحب (جامع الأصول لأحاديث الرسول)، فهؤلاء اقتصروا على رواية (القبل).

قوله: (**وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اللفْظِ تَعَرُّضٌ لابْتِدَاءِ الحَوَادِثِ، وَلا لأَوَّلِ المَخْلُوقَاتِ**)، إنما فيه الإخبار بأن الله تعالى لم يكن شيء قبله.

فقد شرح هذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة مستقلة اسمها (شرح حديث عمران: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**»)، ولعل الشارح استمد منه وتابعه في رواية «**مَعَهُ**»،أَوْ«**غَيْرَهُ**»، فإن هذا كان موجودًا، وشرحه موجود في المجلد الثامن عشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

ثم أخبر بأن الله تعالى «**كَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**»، أي: بعد أن أخبر بأن الله لم يكن شيء قبله، ولما أخبر بذلك أخبر بأن العرش موجود، والماء موجود، ولكن لا يدل على القدم، بل الأصل أن العرش مخلوق، وكذلك الماء مخلوق، فخلقهما قبل خلق السَّمَوَات والأرض، ويمكن أيضًا أنه قبل كتابة الذكر، أي: ما في اللوح المحفوظ؛ لأنه قال: «**وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»، فكان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، أخبر عن

هذه الثلاثة بالواو، يعني: يقوله: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»، وقوله: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»، وقوله: «وَكَتَبَ» لم يقل: (ثم كتب) بل أخبر عنها بالواو، وأما خلق السَّمَوَات والأرض فقد رُوي: «وخَلَق السَّمَوَات وَالأَرْض» بالواو، ورُوي: «ثم خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ» بـ(ثم) التي تدل على التعقيب، فتبين أن مقصوده ﷺ إخباره إياهم ببدء خلق السَّمَوَات والأرض وما بينهما؛ لأنهم يشيرون بقولهم: «نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ» فأخبرهم عما يسألون عنه السَّمَوَات والأرض وما بينهما، أي: هي المشاهدة والتي يمكن الإشارة إليها بقولهم: «عَنْ هَذَا الأَمْرِ»، وهي المخلوقات التي خلقها الله تعالى في ستة أيام في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى﴾ في عدة مواضع[1]، لم يكن يقصد إخبارهم بابتداء خلق ما خلق الله قبل ذلك، أنه خلق العرش قبل ذلك، وخلق الماء قبل خلق السَّمَوَات والأرض، وكذلك خلق الريح، وخلق القلم.

ذكر السَّمَوَات والأرض بما يدل على خلقهما بقوله: «ثم خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ» مما يدل على أنهما مخلوقتان، أما ما قبلهما كالعرش والماء والذكر فذكر ما قبلهما بما يدل على كونه وجودًا، يعني على أن العرش كائن والماء والذكر، واللوح والقلم أنهما كانا موجودين، ولكنه لم يتعرض في هذا الحديث لابتداء خلقه هل هو مخلوق قديمًا أو حديثًا.

---

(١) سورة الأعراف (الآية:٥٤)، وسورة يونس (الآية:٣)، وسورة الحديد (الآية:٤).

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الحَدِيثُ قَدْ وَرَدَ بِهَذَا وَهَذَا، فَلَا يُجْزَمُ بِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِدَلِيلٍ، فَإِذَا رَجَحَ أَحَدُهُمَا، فَمَنْ جَزَمَ بِأَنَّ الرَّسُولَ أَرَادَ المَعْنَى الْآخَرَ فَهُوَ مُخْطِئٌ قَطْعًا، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى المَعْنَى الْآخَرِ، فَلَا يَجُوزُ إِثْبَاتُهُ بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مَعْنَى الحَدِيثِ، وَلَمْ يَرِدْ «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ» مُجَرَّدًا، وَإِنَّمَا وَرَدَ عَلَى السِّيَاقِ المَذْكُورِ، ولَا يُظَنُّ أَنَّ مَعْنَاهُ الْإِخْبَارُ بِتَعْطِيلِ الرَّبِّ تَعَالَى دَائِمًا عَنِ الْفِعْلِ حَتَّى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.

وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ ﷺ: «كَانَ اللَّهُ ولم يكن شَيْءٌ قَبْلَهُ - أَوْمَعَهُ، أَوْ غَيْرَهُ - وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى مَوْجُودٌ وَحْدَهُ لَا مَخْلُوقَ مَعَهُ أَصْلًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» يَرُدُّ ذَلِكَ، فَإِنَّ الجُمْلَةَ وَهِيَ: «كَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» إِمَّا حَالِيَّةٌ، أَوْ مَعْطُوفَةٌ، وَعَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَوْجُودٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَعُلِمَ أَنَّ المُرَادَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ المَشْهُودِ.

قال الشيخ:

يتكلَّم الشارح على حديث عمران بن حصين ﷺ لما جاء أهل اليمن يسألون عن أوَّل هذا الأمر، فقال النَّبيُّ ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ

شَيْءٍ»(١). أخبر الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ الله تعالى هو الأوَّل ولم يكن شيءٌ قبله، وذلك تحقيق للأوَّليَّة المذكورة في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]، فلم يكنْ شيءٌ قبله، وهذا لا يدلُّ على أنَّه تعالى كان معطَّلاً عن الأفعال فلم يكن يخلق، بل يدلُّ على أنَّه خالقٌ، ففي ذكر أنَّ عرشه على الماء دليلٌ على أنَّه قد خلق العرش، وأنَّه قد خلق الماء، وأنَّه خلق مخلوقاتٍ قد تكون موجودةً وقد تكون معدومةً، ولا بدَّ أن يكون خالقًا، فالله تعالى لم يكن معطَّلًا عن الخلق.

ويعتقد المسلمون أنَّ الله تعالى قديمٌ بأفعاله، وأنَّه الذي ليس قبله شيءٌ، وأنَّ مِنْ أعظم مخلوقاته العرشَ، وقد ورد في عِظَم العرش ما يدلُّ على أنَّه أقدم المخلوقات ومن أعظمها، وقد ذكر الله سعة كرسيِّه في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقيل: إنَّ الكرسيَّ كالمرقاة بين يدي العرش، وأنه قد وسع السَّمٰوات والأرض مع عِظَمهما.

ورد في الحديث: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»(٢)، والترس: هو المجنُّ الذي يُلبس على الرَّأس، وماذا تغطي الدراهم السبعة - التي أحدها بقدر الظّفر أو نحوه - من ذلك التُّرس؟

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧) من حديث زيد بن أسلم مرسلًا.

فالسَّمٰوات السَّبع والأرضون السَّبع في الكرسيِّ، هذا مقدارها منه.

والكرسيُّ صغيرٌ أيضاً بالنسبة إلى العرش، ففي الحديث الآخر قال ﷺ: «**مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»(١)، (الحلقة): قطعةٌ من الحديد ملتقية الطَّرفيْن، إذا أُلقيت حلقةٌ في فلاةٍ؛ فماذا تشغل من تلك الفلاة؟! فالكرسيُّ صغيرٌ بالنِّسبة إلى العرش، «**كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ**».

فهذا دليلٌ على عِظَم هذا الكرسيِّ، ثمَّ عِظَم هذا العرش، وإذا كان هذا عِظَمه فإنَّه مخلوقٌ وليس قديمًا؛ لأنَّ الله خالق كلِّ شيءٍ، وإذا كان هذا عِظَم هذا المخلوق، فما ظنُّك بعظمة الخالق سبحانه وتعالى؟

الله تعالى قد ذكر أنَّه يقلِّب المخلوقات بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، ففي الأثر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُون السَّبْعُ فِي يَدِ اللَّـهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»(٢)، فماذا تشغل حبة الخردل في يد عبدٍ؟! وكل ذلك دليلٌ على عظمة الخالق، ولا شكَّ أنَّ من اعتقد عظمته وكبرياءَه خافه وهابه وَعَبَدَه حقَّ العبادة.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ، وأورده ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١١)، وقال: «وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح عنه».

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٢٥)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٧٦).

ولكن لا ينبغي الخوض في الأمور الغيبيَّة التي ليس عليها دليلٌ وبرهانٌ، والتي يؤدِّي الخوض فيها إلى حَيْرةٍ وشكٍّ، فكثيراً ما يشتكي بعض المؤمنين أنَّهم يلاقون حَيْرةً وشكًّا، وأنهم تأتيهم وساوس إذا بحثوا في مثل هذه الأمور، وقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولَ: من خَلَقَ كَذَا وَكَذَا، حَتَّىٰ يَقُولَ لَهُ: من خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهِ»[1]، وقال ﷺ: «لَا يَزَالُ الناس يَتَسَاءَلُونَ حَتَّىٰ يُقَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ»[2]. فعلى من وقع له ذلك أن يقول: آمنت بالله، وأن يستعيذ بالله من الشَّيطان، وأن يقبلَ كلَّ ما جاءه عن الله، ويبعد عنه كلّ ما يجلب حيرةً أو وسوسةً أو نحو ذلك، فيقطعها ويجعل حديث نفسه وخوضها في الشَّيء الذي ينفعه، ويؤمن بالإجماليَّات التي أخبر الله بها عنه؛ حتَّى يكون بذلك مطمئنَّ القلب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الطحاوي:

لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ.

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ «الرَّبُّ» قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَرْبُوبٌ، وَمَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ «خَالِقٌ» قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَخْلُوقٌ.

قَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ الشَّارِحِينَ: وَإِنَّمَا قَالَ: (لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَمَعْنَى الخَالِقِ)، دُونَ «الخَالِقِيَّةِ»؛ لِأَنَّ «الخَالِقَ» هُوَ المُخْرِجُ لِلشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لَا غَيْرُ، وَ«الرَّبُّ» يَقْتَضِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، وَهِيَ: المُلْكُ وَالحِفْظُ وَالتَّدْبِيرُ وَالتَّرْبِيَةُ وَهِيَ تَبْلِيغُ الشَّيْءِ كَمَالَهُ بِالتَّدْرِيجِ، فَلَا جَرَمَ أَتَى بِلَفْظٍ يَشْمَلُ هَذِهِ المَعَانِيَ، وَهِيَ الرُّبُوبِيَّةُ. انْتَهَى. وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الخَلْقَ يَكُونُ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ أَيْضًا.

قال الشيخ:

هذا مثلُ ما سبق من قبل: أنَّ الله تعالى من أسمائه «الخالق» قبل أن يُوجد المخلوقون، ومن أسمائه «الرَّازق» قبل أن يُوجد المرزوقون، ومن صفاته

قال الطحاوي:

وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَمَا أَحْيَا، اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الْخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ.

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَالِقٌ قَبْلَ خَلْقِهِمْ، إِلْزَامًا لِلْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ، كَمَا حَكَيْنَا عَنْهُمْ فِيمَا تَقَدَّمَ. وَتَقَدَّمَ تَقْرِيرُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

قال الشيخ:

يعتقد المسلم أنَّ الله تعالى يفعل ما يشاء، فإنَّ من صفاته أنَّه يحيي ويميت؛ من شاء أحياه ومن شاء أماته، ومن شاء رزقه وأغناه، ومن شاء أفقره، يعطي من يشاء ويمنع، ويخفض من يشاء ويرفع، ويعزُّ من يشاء ويذلُّ. وهذه الأوصاف التي هي من صفاته هي أيضاً قديمةٌ، بمعنى أنَّه موصوفٌ بها أزلًا، فمن أسمائه - جل شأنه -: «المحيي»، قبل أن يخلق الذين يحيهم، وكذلك «المميت»، و«المعطي»، و«المانع»، و«الخافض»، و«الرَّافع» ... وما أشبه ذلك.

والقصد من معرفة هذه الأسماء أن يعرف العبد أنَّها لله تعالى، فيرغب إليه أن يعزَّه، ويعلم أنَّ من أذلَّه الله فلا معزَّ له، ويرغب إليه أن يرفع قدره، ويعلم أنَّ من خفضه الله فلا رافع له، ويرغب إليه بالهداية، ويعلم أنَّ من يضلل الله

فما له من هادٍ. وهكذا بقيَّة الصِّفات.

وذلك أنَّ هناك فِرَقًا من المبتدعة؛ كالمعتزلة الذين يعتقدون أنَّه لا يفعل إلا ما يقدر عليه، وأنَّ العبد يفعل بلا قدرةٍ له - تعالى الله عن قولهم - وأنَّ العبد هو الذي يفعل باختياره، وهو الذي يهدي نفسه ويضلُّ نفسه. ولا شكَّ أنَّ هذا فيه اعتراضٌ على الله، وتحجُّرٌ لصفته، وأنَّه لا يقدر إلَّا على ما يقدر عليه دون بعض الأمور التي لا يقدر عليها، والله تعالى قد وصف نفسه بعموم القدرة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وسيأتي بيان هذا إن شاء الله تعالى.

قال الطحاوي:

ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ إليه يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قال الشارح:

ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِ صِفَاتِهِ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ خَلْقِهِ، وَالْكَلَامُ عَلَى «كُلٍّ» وَشُمُولِهَا، وَشُمُولِ «كُلٍّ» فِي كُلِّ مَقَامٍ بِحَسَبِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ، يَأْتِي فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ حَرَّفَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤].فَقَالُوا: إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ، وَأَمَّا نَفْسُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ! وَتَنَازَعُوا: هَلْ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهَا أَمْ لَا؟! وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى مَا قَالُوا لَكَانَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَعْلَمُهُ! وَخَالِقٌ لِكُلِّ مَا يَخْلُقُهُ! وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ فِيهَا، فَسَلَبُوا صِفَةَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ فَهُوَ مُنْدَرِجٌ فِي هَذَا، وَأَمَّا الْمُحَالُ لِذَاتِهِ، مِثْلَ كَوْنِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مَوْجُودًا مَعْدُومًا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذِهِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ، وَلَا يُسَمَّى شَيْئًا، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: خَلْقُ مِثْلِ نَفْسِهِ، وَإِعْدَامُ نَفْسِهِ! وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ.

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ التَّامَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلَّا مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي المَعْدُومِ المُمْكِنِ: هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ المَعْدُومَ لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي الخَارِجِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَيَكْتُبُهُ، وَقَدْ يَذْكُرُهُ وَيُخْبِرُ بِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، فَيَكُونُ شَيْئًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالْكِتَابِ، لَا فِي الخَارِجِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٩]، أَيْ: لَمْ تَكُنْ شَيْئًا فِي الخَارِجِ، وَإِنْ كَانَ شَيْئًا فِي عِلْمِهِ تَعَالَى، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

قال الشيخ:

يعتقد المسلمون ما أخبر الله به عن نفسه من عموم قدرته أنَّه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وكلمة ﴿شَيْءٍ﴾، يدخل فيها ما هو موجودٌ وما هو معدومٌ ممَّا يقدِّره الله تعالى، وتدخل فيها أعمال العباد؛ من عبادات، وطاعات، وحسنات، وكذلك السيئات والخطايا كلها داخلةٌ في عموم (كل) في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فيدخل في ذلك كلُّ الممكنات.

أمَّا غير الممكن المستحيل، فإنَّه لا يدخل في هذا العموم، مثل كون الشَّيء

معدومًا موجودًا في آنٍ واحدٍ؛ هذا من المستحيل أن يُوجد ويُعدم في آنٍ واحدٍ، أو يكون الشَّخص حيًّا ميِّتًا في آنٍ واحدٍ، ومثل ما يورده بعض المتعنتين، يقولون: هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه؟ نقول: هذا محالٌ، ولا ينبغي الخوض فيه؛ لأن الله تعالى هو المنفرد الذي ليس له شريكٌ، وليس له شبيهٌ ولا معينٌ.

والمعتزلة ينكرون هذا العموم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويقولون: (إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ)، ولا شكَّ أنَّ هذا فيه تنقّصٌ، فإنَّه على هذا المعنى يكون عليمًا بما يعلمه، وقديرًا على ما يقدر عليه، وفعَّالًا لما يفعله ... وما أشبه ذلك، ولا شكَّ أنَّ هذا لا فائدة فيه.

فقولهم: (إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ)، معناه: أنَّه لا يقدر على كلِّ شيءٍ، وأنَّ هناك أشياء لا يقدر عليها ـ تعالى الله عن قولهم ـ فيكون في هذا تنقُّصٌ.

فالآية فيها العموم: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، عامٌّ لا يستثنى منه شيءٌ ممكنٌ، يعني: ما يدخل في الإمكان.

أما كلامهم في المعدوم: هل هو شيءٌ أو ليس بشيءٍ؟ فالمعدوم ـ على الصَّحيح ـ لا يُقال له: شيءٌ، حتَّى يوجد، ولكنَّ الله تعالى عالمٌ بما يوجد من المعدومات التي ستوجد، وقادرٌ على إيجاده في الوقت الذي قدَّر إيجادَه، وإلَّا فقد نفى أن يكون المعدوم شيئاً في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وكذلك قوله تعالى مخاطباً زكريا:

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]، يعني: لم تك موجودًا، بل كنت معدومًا وقد خلقتك، فنفى أن يكون المعدوم شيئًا في الوجود، ولكن هو في علم الله شيءٌ إذا قدّر أنَّه سيوجد، فهو داخلٌ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فالله تعالى أخبر بأنه إذا قال للشَّيء كن وهو معدوم كان، فسماه شيئاً مع كونه معدومًا؛ لأنَّه يوجد إذا قال الله له كن، وهذا معنى أنَّ أمره تعالى بعد الكاف والنَّون، يعني: خلقه للمعدومات التي قدَّر أنَّها توجد بقول: كن، فتكون، وتوجد، وتحصل على هذا الوجود.

هكذا حقَّق المحقِّقون أنَّ المعدوم شيءٌ في علم الله، وليس شيئًا في الوجود فيما يُرى ولا فيما يُشاهد.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، رَدٌّ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ، فَهُوَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا شبه، فَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، فَلَيْسَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ كَسَمْعِ الرَّبِّ وَبَصَرِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَةِ تَشْبِيهٌ؛ إِذْ صِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

وَلَا تَنْفِ عَنِ اللَّهِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا وَصَفَهُ بِهِ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ، وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، وَأَنْصَحُهُمْ لِأُمَّتِهِ، وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْبَيَانِ، فَإِنَّكَ إِنْ نَفَيْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُنْتَ كَافِرًا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَإِذَا وَصَفْتَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَا تُشَبِّهْهُ بِخَلْقِهِ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَإِذَا شَبَّهْتَهُ بِخَلْقِهِ كُنْتَ كَافِرًا بِهِ. قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ الطَّحَاوِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ).

قال الشيخ:

قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ردٌّ على طائفتين متقابلتين:

إحداهما: غلت في الإثبات، وهم الممثِّلة المشبِّهة.

والأخرى: غلت في النَّفي، وهم المعطِّلة النُّفاة.

فرد الله على الأولى بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أي: لا تجعلوا لله مِثْلًا، فليس له مثل في صفاته ولا في ذاته ولا في أفعاله، لا في صفاته الفعليَّة ولا في صفاته الذاتيَّة، لا يشبهه شيءٌ. فالذين غَلَوْا في الإثبات، وجعلوا يد الله كأيدينا وسمعه كأسماعنا، أو قالوا: إنَّه يسمع بكذا وبكذا، أو أنَّه ينظر بكذا ... وما أشبه ذلك مما غلَوا فيه إلى أن أثبتوا له خصائص المخلوقين، لا شكَّ أنَّهم قد وقعوا فيما هو كفرٌ؛ ولهذا يقول نُعيم بن حمّاد: (مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ)، ويقول آخر: «المشبِّه يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموِّحد المثبت يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا»[1].

الموحد: الذي يثبت لله الصفات ويجعلها لله وحده، لا يشبهه فيها شيءٌ.

وفي ذلك أيضًا يقول ابن القيِّم ـ كما تقدَّم ـ:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

والمعطِّل: الذي ينكر صفاتِ الله، فينفي أنَّ الله متَّصفٌ بصفات الكمال؛ كالسَّمع، والبصر، والعلم، والرَّحمة، والمحبَّة، وصفات الذَّات؛ كاليد التي أثبتها لنفسه، والعين، والوجه ... وما أشبه ذلك من الصِّفات.

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٢٦)، والصواعق المرسلة (١/ ١٤٨).

لا شكَّ أنَّ من نفى ذلك فقد عطَّل الله تعالى، وتعطيلُ الصِّفات يلزم منه تعطيلَ الذَّات، فكأنَّه لم يثبت إلهًا يُعبد، فمن أنكر ما وصف اللهُ به نفسَه من صفات الكمال فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيهٌ.

وأهل السُّنَّة إذا أثبتوا هذه الصِّفات نَفَوا عنها التَّشبيه، فيقولون ـ مثلًا ـ: صفاته لا تشبه صفاتِنا، فهو يسمع لا كسمع المخلوق، ويَعجَب لا كعجب المخلوق، ويرحم لا كرحمتنا، وكذلك له يدانِ لا كأيدينا، وأشباه ذلك.

فإذا لم يثبتوا له شيئًا من خصائص المخلوقين، فلا يلزم أن يكونوا مشبِّهين، ولا يلزم أيضًا من إثبات أنَّ اللَّهَ تعالى فوق العباد، وأنَّه هو العليُّ الأعلى، لا يلزم من إثبات ذلك أن يكونوا مشبِّهين، ولا يلزم أيضًا من إثبات أنَّه على العرش، وأنَّه تعالى فوق عباده، أو أنَّه يراه عباده يوم القيامة كما يشاء، لا يلزم من ذلك محذور.

فإذاً أهل السُّنَّة هم أحظى بالدَّليل، وهم أسلم من التَّأويل والتعطيل.

قال الشارح:

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّ لَهُ المَثَلَ الأَعْلَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [النحل: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ مَثَلَ السَّوْءِ - المُتَضَمِّنَ لِلْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَسَلْبِ الْكَمَالِ - لِأَعْدَائِهِ المُشْرِكِينَ وَأَوْثَانِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ المَثَلَ الأَعْلَى - المُتَضَمِّنَ لِإِثْبَاتِ الْكَمَالِ كُلِّهِ - لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ سَلَبَ صِفَاتِ الْكَمَالِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ جَعَلَ لَهُ مَثَلَ السَّوْءِ، وَنَفَى عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ المَثَلِ الأَعْلَى، وَهُوَ الْكَمَالُ المُطْلَقُ، المُتَضَمِّنُ لِلْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ، وَالمَعَانِي الثُّبُوتِيَّةِ، الَّتِي كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ فِي المَوْصُوفِ وَأَكْمَلَ كَانَ بِهَا أَكْمَلَ وَأَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ.

وَلَمَّا كَانَتْ صِفَاتُ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَكْثَرَ وَأَكْمَلَ، كَانَ لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى، وَكَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، بَلْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي المَثَلِ الأَعْلَى المُطْلَقِ اثْنَانِ؛ لِأَنَّهُمَا إِنْ تَكَافَآ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَعْلَى مِنَ الْآخَرِ، وَإِنْ لَمْ يَتَكَافَآ، فَالمَوْصُوفُ بِهِ أَحَدُهُمَا وَحْدَهُ، فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى مِثْلٌ أَوْ نَظِيرٌ.

قال الشيخ:

تقدَّم أنَّ الله تعالى لا يُقاس بخلقه؛ لا قياس تمثيلٍ، ولا قياسَ شمولٍ، ولكن يُعطى أعلى صفات الكمال، وأنَّ هذا هو معنى المَثَلِ الأعلى الذي في هذه

الآيات: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وتقدَّم أنَّ معناه: أنَّ كلَّ كمالٍ اتَّصف به المخلوق ليس فيه نقصٌ؛ فالرَّبُّ تعالى أولى به، وكلُّ نقصٍ يُوصف به المخلوق، فالرَّبُّ أَوْلَى بأن ينزَّه عن النقص الذي يتنزَّه عنه المخلوق، وكلُّ عيب يكون في الإنسان، فالرَّبُّ تعالى أولى بالتَّنزُّه عنه، والكمال الذي يُمدح به ويثبت على أنَّه كمال وليس فيه أيُّ نقصٍ، فالرَّبُّ تعالى أولى أن يُمدح به.

فأمَّا إذا كان ذلك الكمال في الإنسان من خصائصه، فإنَّه يُنزَّه عنه الرَّبُّ؛ كإثبات الولد، فالولد للإنسان قد يكون صفة كمالٍ، ولكنَّ الرَّبَّ تعالى منزَّهٌ عن الولد كما نزَّه نفسه عن ذلك؛ لأنَّ الله تعالى ليس بحاجةٍ إلى ولدٍ ولا إلى شريكٍ أو معينٍ، والإنسان بحاجةٍ إلى الأولاد؛ لأنَّهم يساعدونه ويخلُفونه، ولأنَّه يعتريه التَّغيُّر والكِبَر، ويأتي عليه الموت، فالخالق - سبحانه وتعالى - ليس بحاجةٍ إلى هذا، ولا يعدُّ وصفه به في حقِّه كمالًا، بل هو نقصٌ؛ لاستدعائه المِثْل، واستدعائه الحاجة إلى الصَّاحبة، والله تعالى قد أخبر بأنَّه لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولدًا.

وكذلك من النَّقائص - مثلًا -: ما نفى الله تعالى عن نفسه من الشَّريك، ومن الوليِّ من الذُّلِّ، ومن المعين والظَّهير ... وما أشبه ذلك.

فيُنفى عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه، ويُعتقد أنَّ ذلك من الكمال؛ كما نفى عن نفسه بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، يعني: من يشاركه ويستحقُّ اسمًا كاسمه، وكما في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

[الإخلاص:٤]، والكفو: هو المثل، وكما نفى النِّدَّ بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وكما نفى المثل في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وأشباه ذلك، فإذا نظرنا إلى هذه النَّقائص التي نفاها الله عن نفسه، فينفيها المسلم عقيدة راسخة.

وإذا نظرنا إلى صفات الكمال مثل الرَّحمة، والعزَّة، والحكمة، والعلم، وكمال القدرة، وكمال التصرُّف، وكمال الغنى، وكمال المحبَّة ... وما أشبه ذلك، وهي صفات يُمدح بها، فيثبتها المسلمون كما أثبتها الله - عزَّ وجلَّ - لنفسه، وإثباتهم بالدَّليل وبقياس الأولى الذي هو المَثَل الأعلى؛ كما أخبر الله - عزَّ وجلَّ - عن نفسه.

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى، وَوَفَّقَ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ بَعْضُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ، فَقَالَ: الْمَثَلُ الْأَعْلَى يَتَضَمَّنُ: الصِّفَةَ الْعُلْيَا، وَعِلْمَ الْعَالَمِينَ بِهَا، وَوُجُودَهَا الْعِلْمِيَّ، وَالْخَبَرَ عَنْهَا وَذِكْرَهَا، وَعِبَادَةَ الرَّبِّ تَعَالَى بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الْقَائِمَةِ بِقُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ.

فَهَاهُنَا أُمُورٌ أَرْبَعَةٌ:

ثُبُوتُ الصِّفَاتِ الْعُلْيَا لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - سَوَاءٌ عَلِمَهَا الْعِبَادُ أَوْ لَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَهَا بِالصِّفَةِ.

الثَّانِي: وُجُودُهَا فِي الْعِلْمِ وَالشُّعُورِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: إِنَّهُ مَا فِي قُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ، مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ، وَمَحَبَّتِهِ وَجَلَالِهِ، وَتَعْظِيمِهِ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَهَذَا الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ أَصْلًا، بَلْ يَخْتَصُّ بِهِ فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا اخْتَصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ أن أَهْلَ السَّمَاوَاتِ يحبونه وَيُعَظِّمُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ كَذَلِكَ، وَإِنْ أَشْرَكَ بِهِ مَنْ أَشْرَكَ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ، وَجَحَدَ صِفَاتِهِ مَنْ جَحَدَهَا، فَأَهْلُ الْأَرْضِ مُعَظِّمُونَ لَهُ، مُجِلُّونَ، خَاضِعُونَ لِعَظَمَتِهِ، مُسْتَكِينُونَ لِعِزَّتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم:٢٦].

الثَّالِثُ: ذِكْرُ صِفَاتِهِ، وَالْخَبَرُ عَنْهَا، وَتَنْزِيهُهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالتَّمْثِيلِ.

الرَّابِعُ: مَحَبَّةُ المَوْصُوفِ بِهَا وَتَوْحِيدُهُ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ أَكْمَلَ كَانَ هَذَا الْحُبُّ وَالْإِخْلَاصُ أَقْوَى.

قال الشيخ:

يُفسَّر قول الله تعالى في موضعين من القرآن: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وقد تبيَّن من قول الشَّارحِ وغيرِه أنَّ كلَّ صفةٍ تثبُت للمخلوق، وهي صفة كمالٍ لا نَقْصَ فيها بوجهٍ من الوجوه، فالخالق أولى بإثباتها، وكلَّ نفيٍ تنزَّه عنه المخلوق، أو أصبح نقصًا في حقِّه، فإنَّ تنزيه الله عنه بطريق الأولى، هذا تفسير المَثَل الأعلى: أن يُوصَفُ اللهُ تعالى بالصِّفات العلى، وبالأسماء الحسنى.

أوَّلًا: إذا أثبتنا لله تعالى تلك الأسماءَ وتلك الصِّفات، وذكرنا أدلَّتها العقليَّة والنقليَّة، فهذا من المَثَل الأعلى.

ثانيًا: وَصْفُ الله تعالى بها، وذكرها بالألسن وتداولها، وبيان آثارها؛ مثل: آثار العلم، وآثار السَّمع والبصر، وآثار القدرة والحكمة ونحوها؛ فإنَّ ذِكْرَها وإشهارَها وتداوُلَها وتناقُلَها؛ ليُرسِّخُ الاعتقاد بها في القلوب .

ثالثًا: وَصْفُ الله تعالى بموجبها إذا ذكرناها، فإنَّنا نصف الله تعالى بها، ونعتقد أنها صفاتٌ مدلولٌ عليها.

رابعًا: عبادته بآثارها، وهذه هي النَّتيجة، نتيجةُ العقيدة العبادةُ، فمن كانت عقيدتُه ضعيفةً؛ كانت عبادتُه ضعيفةً، ومن كانت عقيدتُه سليمةً راسخةً

قويَّةً؛ كانت عبادتُه متمكِّنةً ثابتةً راسخةً.

متى كانت العقيدة ـ وبالأخصّ ما يتعلَّق بأسماء الله تعالى وبصفاته ـ سليمةً، وثابتةً في العقل والقلب، كانت آثارُها واضحةً؛ فينتج من ذلك دعاءُ الله تعالى بها وعبادتُه بموجبها، وهذا هو مدلولُ المَثَلِ الأعلى الذي كَثُر كلام السَّلف حوله، وبلا شكٍّ أنَّه عامٌّ من كلمة ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الروم:٢٧]، ويقتضي أنَّ كلَّ مسلم يعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ صفاتِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي أثبتها لنفسه وأثبتها له نبيُّه ﷺ صحيحةٌ، وأنَّها كما يليق به، وأنَّها أيضاً صفاتُ كمالٍ؛ سواءً أكانت ثبوتية ـ كإثبات العلم، والحكمة، والقدرة، والقوّة، والعزّة، ونحوها ـ أم كانت نفيًا؛ كنفي السِّنَةِ، والنَّوم، والموت، واللُّغوب، والنِّدِّ، والولد، وما أشبهها، فإثبات ذلك أو نفي ضدِّه من المَثَل الأعلى.

قال الشارح:

فَعِبَارَاتُ السَّلَفِ كُلُّهَا تَدُورُ عَلَى هَذِهِ المَعَانِي الأَرْبَعَةِ.

فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يُعَارِضُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[الروم:٢٧]، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟ وَيَسْتَدِلُّ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ وَيَعْمَى عَنْ تَمَامِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، حَتَّى أَفْضَى هَذَا الضَّلَالُ بِبَعْضِهِمْ - وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادَ الْقَاضِي - إِلَى أَنْ أَشَارَ عَلَى الخَلِيفَةِ المَأْمُونِ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى سِتْرِ الْكَعْبَةِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، حَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ لِيَنْفِي وصفه تَعَالَى بِأَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، كَمَا قَالَ الضَّالُّ الْآخَرُ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ: وَدِدْتُ أَنِّي أَحُكُّ مِنَ الْمُصْحَفِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ السَّمِيعَ الْبَصِيرَ أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَفِي إِعْرَابِ ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْكَافَ صِلَةٌ زِيدَتْ لِلتَّأْكِيدِ، قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ[1]:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ ... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

وَقَالَ آخَرُ: مَا إِنْ كَمِثْلِهِمُ فِي النَّاسِ مِنْ بَشَرِ[2]

---

(١) ذكره ابن حيان في تفسير البحر المحيط (٧/ ٤٨٨).

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٣) ولم ينسبه، وتمامه:

سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ إِذَا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمُ ... مَا إِنْ كَمِثْلِهِمُ فِي النَّاسِ مِنْ بَشَرِ

وَقَالَ آخَرُ: وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ(١).

فَيَكُونُ (مِثْلِهِ) خَبَرَ (لَيْسَ)، وَاسْمُهَا (شَيْءٌ). وَهَذَا وَجْهٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ، تَعْرِفُ الْعَرَبُ مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهَا، وَلَا يَخْفَى عَنْهَا إِذَا خُوطِبَتْ بِهِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ أَيْضًا زِيَادَةُ الْكَافِ لِلتَّأْكِيدِ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ: وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنَ(٢).

وَقَوْلِ الْآخَرِ: فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ(٣).

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الزَّائِدَ (مِثْلِ) أَيْ: لَيْسَ كَهُوَ شَيْءٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ (مِثْلَ) اسْمٌ، وَالْقَوْلُ بِزِيَادَةِ الْحَرْفِ لِلتَّأْكِيدِ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ بِزِيَادَةِ الِاسْمِ.

قال الشيخ:

تكلَّم الشارح على قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، هذه الآية ردَّ الله فيها على طائفتيْنِ من أهل الضَّلال؛ فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ردٌّ على المُمثِّلة الذين يُمثِّلون صفاتِ الله

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٢)، ونسبه إلى أوس بن حجر. وتمامه:

وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيـ ـلِ تَغَشَّاهُم مُسْبِلٌ مُنْهَمِرُ

(٢) ذكره سيبويه في كتابه (١/ ٤٠٨)، والأزهري في تهذيب اللغة (١٥/ ١٠٩)، ونسباه إلى خطام المجاشعي.

(٣) ذكره سيبويه في كتابه (١/ ٤٠٨)، ونسبه إلى حُمَيْد الأرقط. وتمامه:

تَرْمِيهُمُ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلْ فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

بصفاتِ خَلْقِه، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ردٌّ على النُّفاةِ المعطِّلة الذين نفوا صفات الكمال، فجمع الله تعالى في هذه الآية بين إبطال شُبَه المعطِّلة والمشبِّهة.

وقد كَثُر استدلالُ نُفاة الصفات بأوَّل الآية، ولا يذكرون آخرها، هؤلاء النُّفاة يُسَمَّوْنَ: المعطِّلةَ، ويسمِّيهمُ السَّلفُ: الجهميَّة؛ وهم الذين اشتهروا بنفي الصِّفات، فنفوا صفة العلوِّ والاستواء، ونفوا صفة السَّمع، والبصر، والكلام، والمحبَّة، والرَّحمة، والكراهية، والرِّضا، والغضب... وما أشبهها، نفوا ذلك وبالغوا في نفيه، وكان نتيجة قولهم أن عطَّلوا الله تعالى عن صفات الكمال. فأهل السُّنَّة يردُّون قول هؤلاء المعطِّلة، ويستدلُّون بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، على إثبات السَّمع والبصر، وهما من جملة صفات الكمال التي يبالغ في نفيها أهلُ التَّعطيل.

ومن جملة هؤلاء المعطِّلة: أحمد بن أبي دؤاد، كان قاضيًا مقدَّمًا عند الخليفة المأمون الذي قرَّب أهل الكلام، فأوقعوه في علمهم الباطل، وأخرجوه من عقيدة أهل السُّنَّة، وزيَّنوا له القولَ بنفي الصِّفات، وأنَّ إثباتها يؤدِّي إلى التَّشبيه، وأنَّ الله ليس كمثله شيءٌ، وأخذوا يردِّدون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ولا يذكرون آخر الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقد أشار ذلك المعطِّل على الخليفة المأمون بأن يكتب على كسوة الكعبة: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، بدلًا من ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

والآية تحوي صفتي السَّمع والبصر؛ لأنَّ السَّمع والبصر صفتان ثبوتيَّتان، وصفتان ذاتيَّتان، فأراد إبطالَ هاتين الصِّفتين، وتمسَّك بأول الآية.

ولا شكَّ أنَّ هذا فيه تحريفٌ لفظيٌّ، وتغييرٌ لكلام الله تعالى، وذلك من حقدهم على الإسلام، وعلى النُّصوص المثبتة لصفات الله سبحانه.

وذكروا أيضًا أنَّ رجلًا[1] منهم قد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء ـ أحد القرَّاء السَّبعة ـ فقال له: أريد أن تقرأ هذه الآية في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]: (وكلَّم اللهَ) بنصب لفظ الجلالة (الله)؛ حتَّى يجعل موسى ـ عليه السلام ـ هو المتكلم، ويجعل اللهَ ـ جل وعلا ـ هو المُكَلَّم، رغبة منه في نفي أنَّ الله تعالى هو المتكلِّم، وكذا قال في سورة البقرة: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، لا تقل: ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، أراد أن يغيِّر كلام الله وينفي أنَّ الله هو المتكلِّم؛ ولكنَّ أبا عمرو ـ رحمه الله ـ قطع حجَّته، وقال له: هب أنَّك قرأتَ هذه الآية هكذا، فكيف تصنع في هذه الآية: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هل تقدر أنْ تغيِّرها؟! فبُهت ذلك الجهميُّ، وعرف أنَّه لا حيلةَ له في تغيير كلام الله. فهذا يُعدّ من تحريف اللَّفظ، ويدل على رغبة أهل البدع في نفي دلالة الكتاب والسنة.

ومن جملتهم الجهم بن صفوان، وهو رئيسهم الذي نُسبت الفرقةُ

---

(١) هو عمرو بن عبيد رأس المعتزلة.

إليه ـ والسَّلف يسمُّون كلَّ من بالغ في النَّفي جهميًّا ـ حُفظ عنه أنَّه قرأ مرَّة في أوَّل سورة طه، فوقف على قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وكان عنده جليسٌ، فقال لجليسِه: ليتني أتمكَّن فأحكَّ هذه الآية من مصاحف المسلمين! هكذا يتمنى هذا العدوُّ ـ مع أنَّها ذُكرت في سبعة مواطن ـ وسيأتينا شيءٌ من الكلام حولها إن شاء الله.

فهذا من تحريف أو من حِيَل وغرور أهل الكلام وأهل العقائد السَّيِّئة لنصوص الصِّفات، وذلك لأنَّها تخالف معتقدهم الذي رَسِخَ في قلوبهم، ولو أنَّهم اعتقدوا عقيدة أهل السُّنَّة وفوَّضوا كيفيتها إلى الله تعالى؛ لسلموا من هذا الانحراف، فالآية صريحة الدِّلالة، ولكن لا يُفهم منها تشبيهٌ، فنحن نستدلُّ بها، فنقول: الله تعالى استوى على العرش، ولكن ليس كمثله شيءٌ في الاستواء، ليس استواؤه كاستواء المخلوق على العرش، وليس عرشُه كعرش المخلوق.

ونقول: إن الله هو العليُّ الأعلى، الذي هو فوق عباده، ولكن ليس كمثله شيءٌ، ليس كمثله في علوِّه أحدٌ من المخلوقين، وليس علُّوه كعلوِّ المخلوق، ولا ارتفاعُه ولا فوقيَّته كفوقيَّة المخلوقين.

وكذلك يقال في الصِّفات الذَّاتيَّة؛ فيُقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ليس كمثل سمعه سمعٌ، وليس كبصره بصرٌ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة:٢٠]، ليس قدرته كقدرة مخلوقٍ، وليس علمه كعلم مخلوقٍ... وهكذا.

ثمَّ قد يظهر من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أنَّ فيها إشكالًا،

وذلك أنَّ عندنا حرف (الكاف) وكلمة (مثل)، قد يُفهم منها أنَّ لله مثلًا، وأنَّ ذلك المثل لا يُوجَدُ له نظيرٌ، (كمثل) الله تعالى: ليس له مثل.

لكن الصحيح أن الآية لا يُفهَمُ منها أنَّ لله مثلًا، وأنَّ ذلك المثل لا يوجد له نظيرٌ؛ لأن معنى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أي: ليس يماثله شيءٌ من المخلوقات، و(الكاف) التي دخلت على (مثل) تكون صلةً؛ كما قال أحد شعراء العرب في هذا البيت:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ   خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

وكذلك قول العرب: مثلك لا يفعل كذا، يعني: أنت لا تفعل كذا.

فيكون تقدير الآية: (ليس لله مِثْلٌ)، نفيٌ للمماثلة في أيِّ شيءٍ؛ نفيُ المماثلة في الذَّات، ونفيُ المماثلة في الصِّفات، ونفي المماثلة في الأفعال.

والنفاة يثبتون الذَّات لله: أنَّ لله تعالى ذاتًا حقيقةً، فيُقال لهم: ونحن نثبت الصِّفات التي أثبتها ونفى عنها المماثلة، ونقول: ليس له مماثلٌ في صفاته، ونثبت أيضًا أفعاله، فنثبت أنَّه استوى، وأنَّه ينزل، وأنَّه يجيء تعالى لفصل القضاء، وأنَّه يسمع ويرى؛ كما قال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وأنَّه يتكلَّم إذا شاء، وأنَّه يحبُّ ويكره كما أثبت ذلك لنفسه، نثبتُ ذلك كلَّه ونعتقد أنَّ ذلك على ما يليق بالله، وليس لله مماثلٌ في ذلك؛ فإذا أثبتنا الذَّات ونفينا عنها المماثلة، وأثبتنا الصِّفات ونفينا عنها المماثلة، لم يكن لهم إلينا سبيلٌ، فنكون نحن إن شاء الله أحظى بالدَّليل، وأحظى بعدم الاعتراض.

فإذا توقَّفنا عَن طلب الكيفيَّة، وعن معرفة الكُنْه، وحقيقة الشَّيء، وفوَّضنا كيفية ذلك إلى عالمه، وتقبَّلنا ما نعرفه، فإن ذلك يُوصلُ المسلمَ إلى معرفة خالقه على ما يليق به، وسلامته من كلِّ الاعتراضات ومن كلِّ الشُّبَه.

قال الطحاوي:

خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ.

خلَقَ: أَيْ: أَوْجَدَ وَأَنْشَأَ وَأَبْدَعَ. وَيَأْتِي (خَلَقَ) أَيْضًا بِمَعْنَى: قَدَّرَ. وَالخَلْقُ: مَصْدَرٌ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى المَخْلُوقِ. وَقَوْلُهُ: (بِعِلْمِهِ) فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الحَالِ، أَيْ: خَلَقَهُمْ عَالِمًا بِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٥٩، ٦٠]. وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى المُعْتَزِلَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ المَكِّيُّ ـ صَاحِبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَجَلِيسُهُ ـ فِي كِتَابِ «الحَيْدَةِ»[1]، الَّذِي حَكَى فِيهِ مُنَاظَرَتَهُ بِشْرًا المَرِيسِيَّ عِنْدَ المَأْمُونِ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى، فَقَالَ بِشْرٌ: أَقُولُ: لَا يَجْهَلُ، فَجَعَلَ يُكَرِّرُ السُّؤَالَ عَنْ صِفَةِ الْعِلْمِ، تَقْرِيرًا لَهُ، وَبِشْرٌ يَقُولُ: لَا يَجْهَلُ، وَلَا يَعْتَرِفُ لَهُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِعِلْمٍ، فَقَالَ الْإِمَامُ عَبْدُالْعَزِيزِ: نَفْيُ الجَهْلِ لَا يَكُونُ صِفَةَ مَدْحٍ، فَإِنَّ قَوْلِي: هَذِهِ الْأُسْطُوَانَةُ لَا تَجْهَلُ، لَيْسَ هُوَ إِثْبَاتَ الْعِلْمِ لَهَا، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ وَالمَلَائِكَةَ وَالمُؤْمِنِينَ

---

(١) (ص ٤٤ ـ ٤٦).

بِالْعِلْمِ، لَا بِنَفْيِ الْجَهْلِ، فَمَنْ أَثْبَتَ الْعِلْمَ فَقَدْ نَفَى الْجَهْلَ، وَمَنْ نَفَى الْجَهْلَ لَمْ يُثْبِتِ الْعِلْمَ، وَعَلَى الْخَلْقِ أَنْ يُثْبِتُوا مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَيَنْفُوا مَا نَفَاهُ، وَيُمْسِكُوا عَمَّا أَمْسَكَ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى عِلْمِهِ تَعَالَى: أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ إِيجَادُهُ الْأَشْيَاءَ مَعَ الْجَهْلِ، وَلِأَنَّ إِيجَادَهُ الْأَشْيَاءَ بِإِرَادَتِهِ، وَالْإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ تَصَوُّرَ الْمُرَادِ، وَتَصَوُّرُ الْمُرَادِ: هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُرَادِ، فَكَانَ الْإِيجَادُ مُسْتَلْزِمًا لِلْإِرَادَةِ، وَالْإِرَادَةُ مُسْتَلْزِمَةً لِلْعِلْمِ، فَالْإِيجَادُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْعِلْمِ. وَلِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ مَا يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ الْفَاعِلِ لَهَا، لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُحْكَمَ الْمُتْقَنَ يَمْتَنِعُ صُدُورُهُ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ، وَلِأَنَّ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ عَالِمٌ وَالْعِلْمُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ لَا يَكُونَ الْخَالِقُ عَالِمًا. وَهَذَا لَهُ طَرِيقَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْخَالِقَ أَكْمَلُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ أَكْمَلُ مِنَ الْمُمْكِنِ، وَنَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّا لَوْ فَرَضْنَا شَيْئَيْنِ، أَحَدُهُمَا عَالِمٌ وَالْآخَرُ غَيْرُ عَالِمٍ كَانَ الْعَالِمُ أَكْمَلَ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْخَالِقُ عَالِمًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمُمْكِنُ أَكْمَلَ مِنْهُ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ.

الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: كُلُّ عِلْمٍ فِي الْمُمْكِنَاتِ - الَّتِي هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ - فَهُوَ مِنْهُ، وَمِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَكُونَ فَاعِلُ الْكَمَالِ وَمُبْدِعُهُ عَارِيًا مِنْهُ بَلْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَلَا يَسْتَوِي هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ، لَا فِي قِيَاسٍ تَمْثِيلِيٍّ، وَلَا فِي قِيَاسٍ شُمُولِيٍّ، بَلْ كُلُّ مَا ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ مِنْ كَمَالٍ فَالْخَالِقُ بِهِ أَحَقُّ، وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ مَخْلُوقٌ مَا فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهُ أَوْلَى.

قال الشيخ:

صفة العلم من صفات الكمال لله تعالى، و(العلم): هو العلم بالكائنات، ولا شكَّ أنَّ العلم صفة كمالٍ في المخلوق، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، والجواب: لا يستوون، فالذين يعلمون أكملُ، فما دام أنَّه صفة كمالٍ، فإنَّ الخالق أولى به.

ومعلومات الله تعالى لا تحصى، وهو عالمٌ بكلِ شيءٍ؛ فهو يخبر عن نفسه أنَّه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، ويُوصف بأنَّه يعلم ما كان وما يكون - يعني: في المستقبل - وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنَّه يعلم ما تُكِنُّه النُّفوس وما تسرُّه الضَّمائر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

وفي هذه الآيات دلالةٌ واضحةٌ، فإن قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤]، استفهامُ إنكارٍ، يعني: كيف لا يعلم بخلقه؟! فحيث إنَّه الذي خلقهم كيف لا يعلم بهم؟! كيف لا يعلم بأفرادهم؟! وكيف لا يعلم بأعمالهم؟! بل هو سبحانه عالم بهم، لا تخفى عليه منهم خافيةٌ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، يعني: لا يعلم الأمور المستقبلة إلَّا هو، إلى قوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، يعني: قد علمه وأثبته.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، يعني: يعلم ما اكتسبتم في النَّهار.

والآيات في هذا الباب كثيرةٌ، وقد استوفاها العلماء ـ رحمهم الله ـ في الأدلَّة على إثبات هذه الصِّفة في كتب أهل السُّنَّة وكتب الرَّدِّ على أهل البدع، فمثلًا: كتاب «الرَّدِّ على الجهميَّة»، لعثمان بن سعيد الدَّارمي، لَـمَّا كانت الجهميَّة تثبت صفات السَّلب، وتصف الله تعالى بالصِّفات السَّلبيَّة دون الصِّفات الثُّبوتيَّة، ردَّ عليهم أنَّ الصِّفات السَّلبيَّة ليست مدحًا، بخلاف الصِّفات الثُّبوتيَّة؛ فإنَّها مدحٌ؛ وهذه القصَّة التي ذُكرت، نقلها الشَّارح من كتاب «الحَيْدة» ـ وهو مطبوعٌ مشهورٌ ـ: أنَّ الكناني قال للمريسي: إنَّ الله تعالى يعلم، فامتنع المريسي مِنْ إثبات العلم، وقال: أقول لا يجهل!

وهكذا عادةُ الجهميَّة ـ وبشرٌ منهم ـ يصفون الله بالصِّفات السَّلبيَّة، أي: صفات النَّفي؛ لا يجهل، ولا يتكلَّم، ولا ينزل، يقول له الكناني: إنَّ هذه الأسطوانة لا تجهل، ما يوصف بالكمال إلَّا العلم، فالعلم تحصيلٌ، وأمَّا نفي الجهل، فليس فيه صفة إثباتٍ! فقرَّره ليقرَّ بصفة العلم، فامتنع بناءً على عقيدته.

وهكذا يقال: إنَّ الله تعالى موصوفٌ بالعلم، والأدلَّة السَّمعيَّة على ذلك كثيرة، فقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩]، وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وأشباه ذلك.

كذلك العقل دلَّ على إثبات صفة العلم، وذلك أنَّ خلق هذه المحدثات

وإيجادها مع إحكام الخلق وإتقانه دليلٌ على صفة العلم؛ فإنَّه لا يثبت إلَّا عن علم، فإن هذا الخلق، مع إتقان المخلوق، وعدم التَّفاوت فيه، لا بد أن يكون صادرًا عن علمٍ.

وقد اعتقد صفة العلم الأشاعرة؛ فهي من الصِّفات السَّبع التي أثبتوها: فأثبتوا صفة الإرادة، وقالوا: دلَّ عليها العقل، وأثبتوا صفة القدرة بالعقل أيضًا، وأثبتوا صفة العلم بالعقل أيضًا؛ فقالوا مثلًا: إنَّنا نشاهد حدوث المخلوقات وتجدُّدها، فنشاهد اختلاف الرِّياح، ونشاهد إنشاء السُّحب، ونشاهد حلول العقوبات والمَثُلات، ونشاهد تجدُّد المخلوقات: يفنى جيلٌ وينشأ جيلٌ، ونشاهد النَّباتات والثِّمار ونحو ذلك، هذه مخلوقةٌ لا بدَّ لها من خالقٍ، والذي أوجدها لا يكون عاجزًا؛ فلا بدَّ من إثبات القدرة بدلالة العقل.

كذلك إثبات صفة الإرادة دليله العقليُّ هو التَّخصيص؛ فإنَّهم يقولون مثلًا: نشاهد اثنين أخوين، قد يكونان توأمين وقد ينشآن في أسرة واحدة وفي تربية واحدة، ثمَّ مع ذلك يفترقان، ويكون هذا غنيًا وهذا فقيرًا، ويكون هذا قويًا وهذا ضعيفًا، ويكون هذا جاهلًا وهذا عالـمًا، ويكون هذا سعيدًا وهذا شقيًا، ويكون هذا مطيعًا وهذا عاصيًا، وهذا عاقًّا وهذا بارًّا فتخصيص الله أحدهما بالهداية وبالتَّوفيق وبالإعانة وبالقوة ونحو ذلك دليلٌ على أنَّه أراد بهذا خيرًا ولم يرده بالآخر، وهذا دليلٌ على صفة الإرادة.

وأما صفة العلم؛ فدلَّ عليها إتقان المخلوقات وإحكامها كما ذكرنا؛

فوجود المخلوقات محكمةً دليلٌ على أنَّه خلقها بعلمه؛ كما قاله الشَّارح، فالإنسان ـ مثلًا ـ لا تجد عضوًا منه خُلقَ عبثًا؛ حتَّى رؤوس الأصابع التي فيها الأظافر لم تُخلق عبثًا، الشَّعر الذي في الرَّأس وفي الأنف وفي العينين وفي الوجه؛ كلُّ ذلك ما خُلق عبثًا، وكذلك جميع أعضائه الظَّاهرة والباطنة متقنةٌ غاية الإتقان، ما من عضوٍ في غير موضعه، إتقان هذه المخلوقات في الإنسان وفي الحيوان وفي النَّبات وما أشبه ذلك دليلٌ على أنَّ الله عليمٌ حيث، وضع هذه الأشياء بموضعها؛ أليس هذا دليلًا عقليًا على إثبات صفة العلم؟!

ثم يُقال أيضًا: يُشاهد أنَّ المخلوقات يفضل من يكون فيها عالمًا على من يكون جاهلًا؛ حتَّى البهائم: الكلاب ـ المعلَّمة منها ـ صيدُها حلالٌ بخلاف غيرها؛ فالله تعالى يقول: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، فالصيدُ بالكلب المعلَّم مأكولٌ، وبغيره ليس بمأكولٍ، وبذلك تميزَّت الكلاب المعلَّمة وغير المعلَّمة، وكذلك التفاوت في الإنسان: العالم أفضلُ من الجاهل.

فما دام العلم صفة كمالٍ؛ فكيف يخلو منه الخالق؟! أليس اللهُ الذي علَّم هذا العلم ؟! يقول الله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، كيف يعلِّمه شيئًا وهو جاهلٌ؟! الذي يمنُّ بالعلم لابدَّ أن يكون عالِمًا، لهذا نقرِّر هذه الصِّفة التي أنكرتها الجهميَّة وبالغت في إنكارها، وذكرنا ذلك الإنكار عن بِشْرٍ المريسيِّ وأتباعه مِنَ الجهميَّة.

قال الطحاوي:

وقَدَّرَ لَـهُمْ أَقْدَارًا.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٢، ٣].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[1] عَنْ عَبْدِ اللَّـهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَدَّرَ اللَّـهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ».

قال الشيخ:

هذا له موضعٌ آخر يأتينا فيه كلامٌ واسعٌ إن شاء الله، ويُراد به تحديد مواضعِ المخلوقات وآجالِها وأزمِنتها ونحو ذلك، وأنَّه لا يكون إلَّا ما قد قُدِّر، ولا يحدث في الوجود شيءٌ إلَّا وقد كتبه الله وقدَّر أجله وحدَّده؛ فكلُّ شيءٍ يحدث فإنَّه بقدرٍ.

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

ورد في الحديث: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حتى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»[1]، مع أنهما خُلقان يتَّصف بهما العبد، ولكنَّهما بقدرٍ.

ويجب لمثل هذا أن يستسلم الإنسان لما قدَّره الله وقضاه، وسيأتينا أنَّ على الإنسان أن يفعل الأسباب التي أُمر بها ولا يترك الأسباب ويقول: إن الله قد قدَّر كلَّ شيء، فلا حاجة إلى أن أفعل، فإن كل الأسباب من القدر.

وفي الحديث عن أبي خُزَامَةَ عن أبيه - رضي الله عنهما - أنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هل تَرُدُّ من قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ»[2]، يعني: أنت مأمورٌ بأن تتعالج وتتداوى، ولا ينافي ذلك الإيمان بالقدر، كما أنَّك مأمورٌ بأن تنكح وتطلب الولد، ولا ينافي ذلك القدر أو اعتقاده، كما أنَّك مأمورٌ بأن تكتسب وتطلب المعيشة بحِرفةٍ أو بعملٍ أو بتجارةٍ أو نحو ذلك، ولا ينافي أنَّ ذلك مقدَّرٌ، وأنَّ رزقَكَ مقدَّرٌ، كما أنَّك مأمورٌ بأن تأكل وتشرب، ولا ينافي ذلك القدر، كل هذه أسبابٌ حسيَّةٌ.

وعلى كل حالٍ المراد هنا بالقدر التَّقدير الأزليُّ، فإن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَقَولـه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وَقَولـه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وَقَولـه:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٥) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧)، وأحمد (٣/ ٤٢١).

﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٣]، كلُّ ذلك إشارةٌ إلى التَّقدير السَّابق، بمعنى: أنَّ الله قدَّر الآجال وحدَّدها، نؤمن بذلك ونعرف أنَّ الإنسان لا يتعدَّى قدرَه ولا يجاوز حدّه، وأنَّ المقتول قُتل بأجله ولم يقطع عليه أجله، وأنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقَها وأجلَها، وكذلك نُؤمن بأنَّ الله عَلِمَ الآجال وكتبها قبل أن يخلُقَ الخلقَ، كتابةً قديمةً عامةً، ثمَّ كتابةً أخرى بعدما تكوَّن الجنين؛ كتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ.

فالآجال محددةٌ، لكن مع ذلك الإنسان منهيٌّ عن فعل الأضرار، أو الإلقاء بيده إلى التهلكة، وإن كان ذلك مقدَّرًا، فلا تُلْقِ نفسك مثلًا في النَّار وتقول: قدر، ولا تلق نفسك من شاهقٍ أو في طريقٍ أو في بحرٍ، وتقول: إن كان الله قدَّر هلاكي أو قدَّر نجاتي. الله تعالى قدَّر كلَّ شيءٍ، ولكن نهاك عن التَّهلكة، وأمرك باتِّقاء أسباب الهلاك، وإن كان ذلك مقدَّرًا عليك، وهكذا سائر الأحكام.

والحاصل: أنَّ الآجال مقدرةٌ، والنتيجة أنَّك إذا أصابتك مصيبةٌ، أو مات إنسانٌ مثلًا،؛ فلا تتلوَّم، ولا تقل: ليته فعل، أو نحو ذلك، فإذا وقع أمرٌ، أو وقع حادث مثلًا، فلا تقل: لو أنِّي ما أسرعت إلى كذا، ولو أني ما ركبت مع فلان لسلمت، ولو أني، ولو أني، لا تقل: لو أني فعلت وفعلت، أمَّا في المستقبل، فيتوقع الإنسان أسباب الهلاك والشَّرّ ويكون ذلك موافقًا للقدر، ودليله قول النَّبيِّ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ

أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1]، قَدَرُ اللَّهِ: أي هذا قضاؤه، فما شاء فعل، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فيحتجُّ بالقدر على الأمور التي قد مضت.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الطحاوي:

وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالًا.

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ قَدَّرَ آجَالَ الخَلَائِقِ، بِحَيْثُ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ أَجَلِهِ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ أَجَلِهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ».

فَالمَقْتُولُ مَيِّتٌ بِأَجَلِهِ، فَعَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ وَقَضَى أَنَّ هَذَا يَمُوتُ بِسَبَبِ المَرَضِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْقَتْلِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الهَدْمِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الحَرْقِ، وَهَذَا بِالْغَرَقِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ، وَخَلَقَ

---

(١) برقم (٢٦٦٣).

سَبَبَ المَوْتِ وَالحَيَاةِ.

وَعِنْدَ المُعْتَزِلَةِ: المَقْتُولُ مَقْطُوعٌ عَلَيْهِ أَجَلُهُ، وَلَوْ لَمْ يُقْتَلْ لَعَاشَ إِلَى أَجَلِهِ، فَكَأَنَّ لَهُ أَجَلَانِ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَجَلًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعِيشُ إِلَيْهِ الْبَتَّةَ، أَوْ يَجْعَلُ أَجَلَهُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ، كَفِعْلِ الجَاهِلِ بِالْعَوَاقِبِ، وَوُجُوبِ الْقِصَاصِ وَالضَّمَانِ عَلَى الْقَاتِلِ، لِارْتِكَابِهِ المَنْهِيَّ عَنْهُ وَمُبَاشَرَتِهِ السَّبَبَ المَحْظُورَ. وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُ ﷺ: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»[1]، أَيْ: سَبَبُ طُولِ الْعُمُرِ، وَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا يَصِلُ رَحِمَهُ، فَيَعِيشُ بِهَذَا السَّبَبِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ السَّبَبُ لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَلَكِنْ قَدَّرَ هَذَا السَّبَبَ وَقَضَاهُ، وَكَذَلِكَ قَدَّرَ أَنَّ هَذَا يَقْطَعُ رَحِمَهُ فَيَعِيشُ إِلَى كَذَا، كَمَا قُلْنَا فِي الْقَتْلِ وَعَدَمِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَلْزَمُ مِنْ تَأْثِيرِ صِلَةِ الرَّحِمِ فِي زِيَادَةِ الْعُمُرِ وَنُقْصَانِهِ تَأْثِيرُ الدُّعَاءِ فِي ذَلِكَ أَمْ لَا؟ فَالجَوَابُ: أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ لِأُمِّ حَبِيبَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ تَعَالَى لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ»، الحَدِيثَ، كَمَا تَقَدَّمَ.

فَعُلِمَ أَنَّ الْأَعْمَارَ مُقَدَّرَةٌ، لَمْ يُشْرَعِ الدُّعَاءُ بِتَغْيِيرِهَا، بِخِلَافِ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مَشْرُوعٌ لَهُ، نَافِعٌ فِيهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِتَغْيِيرِ الْعُمُرِ لَمَّا تَضَمَّنَ النَّفْعَ الْأُخْرَوِيَّ شُرِعَ كَمَا فِي الدُّعَاءِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠١٤) من حديث أبي أمامة ﷺ، ويشهد له حديث أنس ﷺ: «من سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ أو يُنْسَأَ له في أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

يَاسِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[١]، إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ»[٢] مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».

وَفِي الْحَدِيثِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّ النَّذْرَ سَبَبٌ فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ وَحُصُولِ النَّعْمَاءِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٣] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ».

قال الشيخ:

هذا كلامٌ على الآجال، بمعنى تحديدها ومعرفة نهايتها، فالآجال هي الأعمار، والله تعالى قد جعل لكلِّ إنسانٍ عمرًا محدَّدًا لا يتجاوزه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١]، وكذلك لَـمَّا ذكر المنافقين في غزوة أحدٍ، وأنهم تمنَّوا أنَّهم ما خرجوا، وحكى عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٦).

(٢) (١/ ٤٩٣). وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (٩٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن حبان (٣/ ١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾، فرد عليهم ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ولما قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، رد عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، فالآجالُ هي أعمارٌ محدَّدةٌ، يعني: مكتوبٌ أجل كلِّ إنسانٍ.

وأمَّا الدُّعاء بطول العمر فذهب بعضهم إلى أنَّه لا يستحبُّ؛ لأنَّ العمر محدَّدٌ، فلا تقل: أطال الله عمرك، أو: اللهمَّ أطِلْ عمرَه، أو: اللهمَّ أطِلْ حياته... أو ما شابه ذلك، والصَّحيح أنَّه دعاءٌ من جملة الأدعية الجائزة، وإنكار النَّبيِّ ﷺ: على أمِّ حبيبة ـ لَـمَّا دعت الله أن يمتِّعها بأبيها وبأخيها وزوجها ـ إرشادٌ إلى ما هو أفضل، يعني: أن الأفضل الدُّعاء الأخرويُّ للثواب الأخرويِّ، وإلَّا فقد ثبت أنَّه ﷺ دعا لأناس بطول العمر، ومن جملتهم أنس بن مالك رضي الله عنه، دعا له ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ أَطِلْ عُمرَهُ، وَأَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ**»[1]، فاستجيبت دعوته، بمعنى أنَّ ذلك مكتوبٌ في الأزل.

وعلى هذا يجوز أن يسأل الإنسان طولَ الحياة، ويكون ذلك مطابقًا لما قُدِّرَ، وتكون أيضًا بعض الأعمال سببًا في طول العمر، ولكنَّه مطابقٌ لما قدِّر؛ أي: إنَّ الله تعالى كتب أنَّ عمره يطول بسبب دعائه، أو بسبب أعماله الصَّالحة؛ بسبب برِّه، ودليله الحديث الذي أورده الشارح: «**لَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ**»،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٠٧). وأصله في البخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٢٤٨٠).

ومعناه: أن الله كتب عمره - مثلًا - مئة سنةٍ بسبب برِّه، والذي لم يبرَّ مثلًا كتب عمره خمسين سنة أو ما أشبه ذلك، فكذلك أيضًا عمره يكون ثمانون سنة بسبب دعائه، والله كتب أنَّه سيدعو فيعمَّر بذلك، فدعاؤه من جملة الأعمال التي أُمِرَ بها، كما أنَّ دعاءه بالفوز بالجنَّة، ودعاءه بالنَّجاة من النَّار، ودعاءه بالرِّزق، وما أشبه ذلك، من الأدعية المطلوبة.

فعلى هذا يجوز للعبد أن يسألَ اللهَ تعالى طول البقاء وطول الحياة، ويُسأل له، ويكون ذلك مطابقًا لما قدَّره الله، كما يجوز أن يسأل السَّعادةَ في الدُّنيا والآخرة والرِّزقَ والحياةَ الطَّيِّبة وما أشبه ذلك، فإنَّ الدعاء من جملة الأسباب التي كتبها الله تعالى وقدَّرها، والدُّعاء بطول الحياة قد ورد في الحديث الذي سبق: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»[1]، وبقوله: «**وإذا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غير مَفْتُونٍ**»[2].

فهذا دليلٌ على جواز الدُّعاء بأن يطيلَ اللهُ حياةَ الإنسان، ولا ينافي ذلك أنَّ الآجالَ محدَّدة، ولكن قد جعلَ اللهُ لها أسبابًا أزليَّةً لا بدَّ مِنْ وقوعها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٥/ ٢٤٣)، والطبراني في الكبير (٢١٦)، والحاكم (١/ ٥٢١) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. وأخرجه الترمذي (٣٢٣٣)، وأحمد (١/ ٣٦٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشارح:

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّعَاءَ يَكُونُ مَشْرُوعًا نَافِعًا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ هُوَ، وَلِهَذَا لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْمُعْتَدِينَ فِي الدُّعَاءِ. وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَكْرَهُ أَنْ يُدْعَى لَهُ بِطُولِ الْعُمُرِ، وَيَقُولُ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]، فَقَدْ قِيلَ فِي الضَّمِيرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾، إِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ: عِنْدِي دِرْهَمٌ وَنِصْفُهُ، أَيْ: وَنِصْفُ دِرْهَمٍ آخَرَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ.

وَقِيلَ: الزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ فِي الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، وَحُمِلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٨، ٣٩]، عَلَى أَنَّ الْمَحْوَ وَالْإِثْبَاتَ مِنَ الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ سِيَاقُ الْآيَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، أَيْ: مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أَيْ: أَصْلُهُ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

وَقِيلَ: يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَيَنْسَخُهُ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ فَلَا يَنْسَخُهُ، وَالسِّيَاقُ أَدَلُّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْتِي

بِالْآيَاتِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، أَيْ: إِنَّ الشَّرَائِعَ لَهَا أَجَلٌ وَغَايَةٌ تَنْتَهِي إِلَيْهَا، ثُمَّ تُنْسَخُ بِالشَّرِيعَةِ الْأُخْرَى، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشَّرَائِعِ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ. وَفِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

قال الشيخ:

هذا يتعلَّق بعلم الله تعالى بالكائنات قبل وقوعها وبتحديدها وتقديرها، ومن ذلك: أنَّ الله تعالى حدَّد أجل كلِّ إنسان وقدَّر عمره؛ كما في هذه الآية: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]، أي: الذي يعمَّر فيطول عمره هذا مكتوب، والذي ينتقص من عمره فيموت وهو صغيرٌ أو وهو شابٌّ أو وهو كهلٌ لم يبلغ سنَّ الشَّيخوخة أو الكِبَر هذا أيضًا مكتوبٌ عمره ومحدَّدٌ، وهو معنى الآيات التي في ذكر الآجال؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، أي: لا يستقدمون ساعة، وكقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، لا يؤخر أجلها المحتوم المكتوب، ولا يزيد في عمره، ولا يتقدَّم ولا يتأخَّر، بل لابدَّ أن يكون موته في الوقت الذي كتبه الله.

وذكر الشارح أنَّ الإمام أحمد كان يكره أن يُدعى له بطول العمر، وقد اختُلف في جواز ذلك، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ ذلك جائزٌ إن شاء الله؛ كما يُدعى

للإنسان بالجنَّة وبالمغفرة وبالرِّزق وبالحياة الطَّيِّبة، وما أشبه ذلك، وكما يدعو الإنسان أيضًا لنفسه بهذه الأشياء.

وقد سبق أنَّ بيَّنا أدلَّة جواز ذلك، وأنَّ هذا لا ينافي القدر، أو كونها مقدَّرة، فإنَّ القدر عامٌّ لكلِّ شيءٍ، حتَّى للجنَّة والنَّار، فالله تعالى قد عَلِمَ أهل الجنَّة، ومع ذلك هم مأمورون بسؤالها، فلا يُقال: لا تَسأل الجنَّة، إذا كنت مكتوبًا مَنْ أهلها، فسوف تصير من أهلها، بل يُقال: سَلِ الله الجنَّة، فقد علَّم النبي ﷺ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ أن تدعو: «**وَأَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ**»[1]، وسأل النبي ﷺ أعرابيًا فقال له: «**مَا تَقُولُ فِي الصَّلاةِ؟**»، فَقَالَ: أَتَشَهَّدُ، ثُمَّ أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَنَا وَاللَّهِ مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَأقرَّه النبي ﷺ وقال: «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**»[2]؛ يعني: إنَّنا ندندن ونسأل ونكثر مِنَ السُّؤال في طلب الجنَّة والنَّجاة مِن النَّار.

فإذا كان قد كُتب على الإنسان مقعدُه من الجنَّة، أو مقعدُه من النَّار، فإن ذلك لا ينافي أن يسألَ اللهَ الجنةَ، وكذلك إذا كان قد كُتب له رزقُه، الذي

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٦)، وأحمد (٦/ ١٣٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٢٢)، وابن حبان (٨٦٩)، والحاكم (١/ ٥٢١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠)، وأحمد (٣/ ٤٧٤)، وابن حبان (٣/ ١٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

سيأتيه، فإن ذلك لا ينافي أنه يطلبه ويعمل ويكتسب، وقد كُتب له أيضًا ما سوف يكتسبه أو يحصل عليه، ومع ذلك هو مأمور بأنَّ يسأل الله رزقًا واسعًا، أو رزقًا حلالًا، أو ما أشبه ذلك، ومأمورٌ أيضًا بأن يسأل ربَّه حياةً سعيدةً، وحياةً طيبَّةً؛ ولو كان ذلك مكتوبًا.

والحاصل: أنَّ كتابة الأعمار، وكتابة الأرزاق والآجال، وكتابة السَّعادة والشَّقاوة وكتابة كلِّ شيءٍ يأتي الإنسان لا تنافي أن يسأل، ولا تنافي أن يعمل، بل مأمورٌ بالسُّؤال ومأمورٌ بالعمل، ولكن مع كونه مكتوبًا، فقد يكون معلَّقًا على سببٍ؛ كأن يكتب الله: أنَّه سيرزقه بسبب سؤاله، أو يجعله من أهل الجنة بسبب كثرة إلحاحه بالدُّعاء، أو يُوسِع عليه رزقَه بسبب كثرة طلبه. ويكون هذا الدُّعاء سببًا أزليًّا.

فيُقال: قد كتب الله أنَّه يسألُ، ويكون سؤاله من الأسباب التي يُرزق بسببها، ويُسعد بسببها، ويكتسب بسببها، وما أشبه ذلك، وهذا كما يُفعل في الأشياء الحسِّيَّة؛ فإنَّ الإنسان مأمورٌ بأن يأكل ويشرب، ويتزوَّج، ويكتسب، ويبني سكنًا... وما أشبه ذلك، وإن كان ذلك أيضًا مكتوبًا له.

وخلاصة القول: أن كتابةَ الأشياء في الأزل، وكتابة الأعمار في هذه الآية وغيرها لا تنافي أن يسأل الإنسان ربَّه وأن يدعوه، فالله تعالى قد أمر بدعائه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، كما أمر الله بالعمل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة:١٠٥].

قال الطحاوي:

لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُم، وعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ.

قال الشارح:

يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُرَدُّونَ، وَلَكِنْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الرَّافِضَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ وَيُوجِدَهُ. وَهِيَ مِنْ فُرُوعِ مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَسَيَأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

هذا مِنْ تمام الكلام على العلم: أنَّ الله تعالى عَلِمَ ما كان، وما سوف يكون، وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا شكَّ أنَّ عِلْم الله تعالى واسعٌ لما مضى ولما يأتي، فالأشياء التي لم تأتِ وهي سوف تأتي قد علمها سبحانه، بل قد كتبها، فعلم عدد المخلوقات، وعلم أعمالهم، ونحو ذلك، وقد جاء في الحديث الصَّحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَبْعَثُ الله

مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ»[(١)]، وإن كانت كتابةٌ ثانيةٌ، مع أنَّ ذلك مكتوبٌ في أمِّ الكتاب، التي هي اللَّوح المحفوظ، الذي لا تتغير الكتابة الموجودة فيه، وأما ما في أيدي الملائكة من الصُّحف، فإنَّ الله تعالى يمحو منها ما يشاء ويُثْبتُ، والملائكةُ يكتبون أعمال الإنسان وأقواله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ولأنَّ من تلك الأقوال ما لا ثوابًا فيه ولا عقابًا، فيمكن أنَّ هذا هو الذي يُمحى، ويبقى ما فيه ثوابٌ أو فيه عقابٌ، والجميع مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩].

وبكلِّ حالٍ، فإنَّ عِلْم الله تعالى بالآجال وبالكائنات وبما سوف يحدث علمٌ أزليٌّ قديمٌ، وقد أنكر ذلك المبتدعةُ، وكان مِنْ أوَّل مَن أنكره مِنَ القدريَّة: معبد الجهنيُّ، وغيلان القدري، وعمرو بن عبيد القدريُّ، وواصل بن عطاء القدريُّ، وكلُّ هؤلاء أدركوا آخر زمن الصَّحابة، ولكنَّهم - والعياذ بالله - تلقَّوا هذه البدع عن بعض النَّصارى وغيرهم، فكان من عقيدتهم أنَّ الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وجودها، وأنَّ الأمر أُنُفٌ، أي: مستأنَفٌ.

وسُئل عنهمُ ابن عمر - رضي الله عنهما - فأنكر عليهم إنكارًا شديدًا؛ كما في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

الحديث الذي ذكره مسلمٌ في أوَّل «صحيحه»[1]، فقال: «فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بريئ منهم، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عبد اللَّـهِ بن عُمَرَ: لو أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ ما قَبِلَ الله منه حتى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ».

وعلى عقيدة القدر: الرافضة ونحوهم، وأغلب الرافضة معتزلةٌ، فهم جمعوا بين بدعتين: بدعة الرَّفض التي هي تكفير الصحابة، وبدعة الاعتزال الذي هو إنكارُ صفات الله، ومن أبرز الصِّفات: صفة العلم.

وهؤلاء الذين ينكرون صفة أنَّ الله يعلم الأشياء قبل وجودها هم الذين عناهم الإمام الشَّافعيُّ ـ رحمه الله ـ بقوله: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه فقد كفروا»[2] يعني: إذا ابتُليم بأحدهم لمجادلته ومخاصمته ومناورته، فسلوه عن صفة العلم لله، فإن أقرُّوا به خُصموا، فيُقال لهم: ما الفرق بين العلم الماضي والعلم المستقبل؟ إذا كان يعلم الماضي، فهو يعلم المستقبل!

وقولوا لهم أيضًا: هل تحدُثُ هذه الكائنات بغير إرادته؛ فلا بد أن يكون هو الذي يُحدثُها وهو الذي يُوجدُها؟! فيُقال: كيف يوجدها وهو لا يعلم وقتَ وجودها؟!

---

(١) برقم (٨).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، وطريق الهجرتين (٢٤٣).

ونـاظروهم أيـضًا بالأدلَّـة؛ كقولـه تعـالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ [الحـج:٧٠]، وقولـــه تعــالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]، وأشباه هـذه الآيـات، فإنَّهم بهذا سوف ينقطعون ولا يجدون حجَّةً.

قال الطحاوي:

وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، ونَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

قال الشارح:

ذَكَرَ الشَّيْخُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ بَعْدَ ذِكْرِهِ الخَلْقَ وَالْقَدَرَ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللَّـهَ تَعَالَى خَلَقَ الخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك:٢].

قال الشيخ:

يعني: كما أَنَّ الله عَلِمَ الأشياء قبل وجودها، وقدَّرها وحدَّدها وأرادها وشاءها، فإنَّ ذلك لا ينافي الأمر والنَّهي، فهو الذي كلَّف العباد، ولا شكَّ أنَّه ما كلَّفهم إلاَّ وهم يقدرون، فلا يكلِّف من لا يقدر، دلَّت على ذلك الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ ﴾ [الطلاق: ٧].

فالله تعالى أمرهم بأشياء يفعلونها، ونهاهم عن فعل أشياء، وحضَّهم ووعدهم على فعل المأمور وترك المنهيِّ والمزجور بالثَّواب، وتوعَّدهم على المخالفة بالعقاب، ولا شكَّ أنَّه ما أمرهم إلاَّ وهم يستطيعون، ويقدرون على

مزاولة هذه الأشياء، وإلَّا فالعاجز لا يمكن أن يُؤمر، وعلى قول المجبرة: أمرهم يُعَدُّ أمر تعجيز، مثل الأوامر التي يخاطبُ بها أهل النارُ أو الكفَّار هنا أو نحو ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، هذا أمرُ تعجيزٍ، وكقوله: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦].

والصحيح: أنَّ أوامر الله تعالى في قوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، هي أوامر لمن يقدر على الامتثال، أمَّا من لا يقدر، فلا يمكن أن يُؤمر، خلافًا للمجبِّرة أو الجبريَّة، فإنَّهم يعتقدون أنَّ الأمر أمرٌ لشيءٍ غير مقدورٍ، وغاية لمنكر، بمنزلة من أمر الأعمى أن ينقِّط المصاحف أو يكتبها، وهو يعلم أنَّه لا يبصر. فكذلك الأمر عندهم، حيث سلبوا الإنسان قدرته واختياره، وجعلوا حركته غير اختياريَّةٍ، ومثَّلوه بحركة الشَّجرة التي تحرِّكها الرِّياح من دون اختيارٍ، ولو كان الإنسان لا يستطيع لما كلَّفه الله، فإنَّ الله لا يكلِّف إلَّا من هو قادرٌ على ذلك، ولعلَّه يأتي فيما بعد تكملة الرَّدِّ على المجبِّرة.

قال الطحاوي:

وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ، إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام:١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَكَيْفَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاؤُهُ! وَمَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا وَأَكْفَرُ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنَ

الْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ شَاءَ الْكُفْرَ، فَغَلَبَتْ مَشِيئَةُ الْكَافِرِ مَشِيئَةَ اللَّهِ!! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قال الشيخ:

هذا في الكلام على المشيئة والإرادة، والإرادة هنا هي الإرادة الكونيَّة القَدَريَّة، التي هي بمعنى المشيئة، فيعتقد المسلمون أنَّ مشيئة الله عامَّةٌ لكلِّ ما في الوجود، فلا يكون في الوجود إلَّا ما يريد، سواءٌ من الطَّاعات والأعمال والمعاصي ونحوها، أو من المخلوقات والموجودات والحوادث ونحوها، كلُّها حصلت بمشيئة الله وبإرادته الكونيَّة.

وقوله: (**مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ**)، يعني: ما أراده كوْنًا وقدرًا، فإنَّه سيوجد وسوف يحدث؛ لأنَّ الله أراده، وكلُّ شيءٍ أراده الله لا بدَّ أن يُكوِّنه، والله تعالى هو الذي يخلُقُه، وخَلْقُه للأشياء أن يقول لها كن: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فمن عقيدة أهل السُّنَّة: أنَّ مشيئة الله عامَّةٌ لكلِّ ما في الوجود، سواء المخلوقات أو غيرها. وعندما سُئِل النبيُّ ﷺ عن العزل في الجماع مخافة أن تحبَلَ المرأةُ أو الأمَةُ إذا وُطِئت، قال: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ**»[1]، وفي بعض الأحاديث أنَّ رجلًا استأذنه في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٢)، ومسلم (١٤٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

العزل؛ فقال: «**اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا**»[١]، يعني: لنْ تردَّ ما قدَّر الله أنَّه سيُوجد، ثم جاءه ذلك الرجل بعد أيام، فقال: إنَّ الجَارِيَةَ قد حَبِلَتْ، فقال النبي ﷺ: «قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا»، فمَنْ أراد الله أن يخلُق له مخلوقًا أو ولدًا، فلا بدَّ أن يكون، فهو سبحانه قَدَّر ما يكون، وإن كان العزلُ سببًا من أسباب عدم الحمل، فهو مكتوبٌ عند الله أنَّ هذا سيستعمل كذا وكذا من موانع الحمل، ويحصل له كذا، ومكتوب أنَّه سيستعمل أسباب الحمل ويحصل له كذا وكذا من الأولاد، وهذا سيقلُّ أولاده، وهذا سيكثرون، فكلُّ ذلك موجودٌ.

وهكذا أيضًا بالنِّسبة للدَّوابِّ لا يستنكر كثرتها وتوالدها، يقال: الله الذي قدَّر عددها، وخلقها، وعلم بوقت خلقِها وبعددها وبأعمالها، وما أشبه ذلك.

والأدلَّة على مشيئة الله كثيرةٌ، من ذلك الآيات التي أوردها الشارح، وغيرها من الآيات فيما يتعلق بمشيئة الله تعالى وبقدرته وبإرادته، وببيان أنَّ إرادة الإنسان مربوطةٌ بإرادة الله؛ كما في الآيات الأوَل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]. فقد يستدلُّ المعتزلة بأوَّلِ الآيةِ على أنَّ الإنسان حرٌّ في مشيئته، وأنَّ له أن يشاء، ولكنَّ تمام الآية ردٌّ لهذا الفهم، ودليلٌ لربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله، وهي: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي:

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٩) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

لا تستطيعون فعل شيءٍ ولو شئتم، إلَّا إذا كان الله قد شاءه وأراده وقدَّره وحدَّد وقته، فإذا لم يشأ الرَّبُّ شيئًا فلا يحصل، وهذا معنى قول الشافعي في أبياتٍ مشهورةٍ[1]:

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَىٰ مَا عَلِمْتَ ... فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَىٰ وَالْمُسِنْ
عَلَىٰ ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ ... وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ

ومعنى الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لزيد بن ثابت ﷺ: «اللَّهُمَّ مَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ، أو نَذَرْتُ من نَذْرٍ، أو حَلَفْتُ من حَلِفٍ، فَمَشِيئَتُكَ بين يَدَيْهِ، مَا شِئْتَ كَانَ، وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[2].

ومعنى قوله ﷺ لابن عباس -رضي الله عنهما-: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[3].

وأما استدلال المعتزلة ببعض الآيات التي جاءت في المشيئة، فإنَّها تُقَيَّد بالآيات الأخرى، يستدلُّون بمثل قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(١) أخرجها البيهقي (١٠/ ٢٠٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ٣٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩١)، والطبراني في الكبير (٤٨٠٣) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٧)، والحاكم (٣/ ٥٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقد أفرد ابن رجب في الكلام على هذا الحديث كتابًا أسماه: «نور الاقتباس في مشكاة النبي ﷺ لابن عباس».

[الكهف:٢٩]، ويقولون: إنَّ الأمر مسندٌ إليه، إن شاء اختار كذا، وإن شاء اختار كذا، فالأمر راجعٌ إليه.

فهذا الإطلاق يقيَّد بالآيات الآخرى، ومنها آية الأنعام التي أوردها الشارح: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، فردَّ الله الهداية والإضلال لمشيئته وإرادته، فدلَّت على أنَّه هو الذي يملك الأمر، ودلَّت على ذلك الآيات الأخرى؛ كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]، يعني: من قدَّر الله أن يهتدي فلا يقدر الخلق أن يضلُّوه، ومن قدَّر ضلالَه لن يستطيعوا أن يهدوه، وإن كان هناك أسبابٌ جعلها الله مؤثِّرةً مفيدةً، ولكنَّها أيضًا أسبابٌ أزليَّةٌ، يعني: كتب الله أنَّ الولاية الصَّالحة والتَّربية الصَّالحة والنَّصيحة وما أشبه ذلك سببٌ مِن أسباب الهداية، تؤثِّر بإذن الله، ولكنَّ تأثيرَها مكتوبٌ وأزليٌّ، وإلَّا فالآية على عمومها.

وهكذا الحديث في خطبة الحاجة: «**مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ**»[1]، حكم بأنَّ الأمر لا يقدر على التَّصرُّف فيه إلَّا الله تعالى وحده.

يعرف الإنسان أنَّ المشيئةَ والإرادةَ أمرُهما إلى الله تعالى، فهو الذي يتصرَّفُ بالكون وحدَه، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٥).

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل:٣٥]، الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠]، فَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ جَعَلُوا الشِّرْكَ كَائِنًا مِنْهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ ذَمَّ إِبْلِيسَ حَيْثُ أَضَافَ الْإِغْوَاءَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩].

قِيلَ: قَدْ أُجِيبَ عَلَى هَذَا بِأَجْوِبَةٍ، مِنْ أَحْسَنِهَا: أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمُ احْتَجُّوا بِمَشِيئَتِهِ عَلَى رِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ، وَقَالُوا: لَوْ كَرِهَ ذَلِكَ وَسَخِطَهُ لَمَا شَاءَهُ، فَجَعَلُوا مَشِيئَتَهُ دَلِيلَ رِضَاهُ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ.

أَوْ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ اعْتِقَادَهُمْ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرِهِ بِهِ.

أَوْ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُعَارَضَةَ شَرْعِهِ وَأَمْرِهِ، الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَجَعَلُوا الْمَشِيئَةَ الْعَامَّةَ دَافِعَةً لِلْأَمْرِ، فَلَمْ يَذْكُرُوا الْمَشِيئَةَ عَلَى جِهَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِنَّمَا ذَكَرُوهَا مُعَارِضِينَ بِهَا لِأَمْرِهِ، دَافِعِينَ بِهَا لِشَرْعِهِ، كَفِعْلِ الزَّنَادِقَةِ وَالْجُهَّالِ، إِذَا أُمِرُوا أَوْ نُهُوا احْتَجُّوا بِالْقَدَرِ. وَقَدِ احْتَجَّ سَارِقٌ عَلَى عُمَرَ ﷺ

بِالْقَدَرِ، فَقَالَ: «وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ»(١). يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُمُ التَّكْذِيبُ، فَهُوَ مِنْ قَبْلِ الْفِعْلِ، مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ اللهَ لَمْ يُقَدِّرْهُ؟ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ؟!

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا يَقُولُونَ فِي احْتِجَاجِ آدَمَ عَلَى مُوسَى ـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ بِالْقَدَرِ، إِذْ قَالَ لَهُ: أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا؟ وَشَهِدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ آدَمَ حَجَّ مُوسَى، أَيْ: غَلَبَ عَلَيْهِ بِالْحُجَّةِ(٢).

قِيلَ: نَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ لِصِحَّتِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نَتَلَقَّاهُ بِالرَّدِّ وَالتَّكْذِيبِ لِرَاوِيهِ، كَمَا فَعَلَتِ الْقَدَرِيَّةُ، وَلَا بِالتَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةِ، بَلِ الصَّحِيحُ أَنَّ آدَمَ لَمْ يَحْتَجَّ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عَلَى الذَّنْبِ، وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِرَبِّهِ وَذَنْبِهِ، بَلْ آحَادُ بَنِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَإِنَّهُ بَاطِلٌ، وَمُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كَانَ أَعْلَمَ بِأَبِيهِ وَبِذَنْبِهِ مِنْ أَنْ يَلُومَ آدَمَ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ، وَإِنَّمَا وَقَعَ اللَّوْمُ عَلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي أَخْرَجَتْ أَوْلَادَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَاحْتَجَّ آدَمُ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ، لَا عَلَى الْخَطِيئَةِ، فَإِنَّ الْقَدَرَ يُحْتَجُّ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، لَا عِنْدَ الْمَعَائِبِ.

وَهَذَا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ، فَمَا قُدِّرَ مِنَ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ

---

(١) أخرج نحو هذا الأثر ابن عدي في الكامل (٢/ ٤٢٤)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص٣١٧)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرِّضَىٰ بِاللهِ رَبًّا، وَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُذْنِبَ، وَإِذَا أَذْنَبَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ، فَيَتُوبَ مِنَ المَعَائِبِ، وَيَصْبِرَ عَلَى المَصَائِبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠].

وَأَمَّا قَوْلُ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر:٣٩]، إِنَّمَا ذُمَّ عَلَى احْتِجَاجِهِ بِالْقَدَرِ، لَا عَلَى اعْتِرَافِهِ بِالْمُقَدَّرِ وَإِثْبَاتِهِ لَهُ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:٣٤]، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ[1]:

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، أَنَّهُ قَالَ: «نَظَرْتُ فِي الْقَدَرِ فَتَحَيَّرْتُ، ثُمَّ نَظَرْتُ فِيهِ فَتَحَيَّرْتُ، وَوَجَدْتُ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقَدَرِ أَكَفَّهُمْ عَنْهُ، وَأَجْهَلَ النَّاسِ بِالْقَدَرِ أَنْطَقَهُمْ بِهِ»[2].

قال الشيخ:

هنـاك مـن يحتجُّ بالقـدر؛ كالمـشركين الأوَّلـين، وأتبـاعِهم مـن المجـبِّرة

---

(١) البيت للشافعي رحمه الله، راجع (ص٥١٦).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٦٧).

ونحـوهم، فالمشركون احتجُّـوا بمثـل قـولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠]؛ كأنَّهم يقولون: الله هو الذي شاء عبادتنا لهم!

وكـذلك قـولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يـس: ٤٧]؛ كـأنَّهم يقولون: إذا شاء الله أغناهم؛ فكيف نغنيهم أو نطعمهم؟!

ولا شكَّ أنَّ هذه حجَّةٌ باطلةٌ، يجب على المسلم أن يعلم أنَّ الله وإن كانت له المشيئة التَّامَّة فإنه قد أعطى الإنسان مشيئةً تناسبه، فيكون بذلك ممتثلًا لأمر الله، وإن كانت مشيئةُ الله هي الأصل، وهي الغالبة على مشيئة المخلوق، فالثَّواب والعقاب للإنسان على المشيئة التي في وسعه ومقدرته، ولكن لا يُقال: إنَّ مشيئة الإنسان تغلبُ مشيئة الله كما تقوله المعتزلة، فهم يقولون: إذا شاء الإنسان شيئًا وأراد اللهُ غيره؛ غلبت إرادةُ الإنسان على إرادة الله، على زعمهم أنَّ الله يقسر قسْرًا، وأنَّه يكون في مُلكه ما لا يريد. وهذا كلُّه باطلٌ وغلوٌّ. والإنسان عليه أن يؤمن بعموم مشيئة الله تعالى وإرادته.

كذلك الاحتجاج بقول آدم عليه السلام: (أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا)، إنَّما لامه موسى ـ عليه السلام ـ على مصيبةٍ حصلت، فاحتجَّ بأن هذا مكتوبٌ عليه، والاحتجاج بالأمر المكتوب على الإنسان قبل أن يوجد جائزٌ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قد قدَّر الأشياء قبل وجودها وحدَّد آجالها، فإذا عَلِمَ الله تعالى آجال الأشياء وحدَّدها، فلا بدَّ من وجودها في الوقت الذي حدَّدها.

قال الطحاوي:

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلًا، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي عَدْلًا.

قال الشارح:

هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ فِعْلِ الْأَصْلَحِ لِلْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْهُدَى وَالضَّلَالِ.

قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: الْهُدَى مِنَ اللَّهِ: بَيَانُ طَرِيقِ الصَّوَابِ، وَالْإِضْلَالُ: تَسْمِيَةُ الْعَبْدِ ضَالًّا، أَوْ حُكْمُهُ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ بِالضَّلَالِ عِنْدَ خَلْقِ الْعَبْدِ الضَّلَالَ فِي نَفْسِهِ. وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ: أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لَهُمْ، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وَلَوْ كَانَ الْهُدَى بَيَانُ الطَّرِيقِ لَمَا صَحَّ هَذَا النَّفْيُ عَنْ نَبِيِّهِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ بَيَّنَ الطَّرِيقَ لِمَنْ أَحَبَّ وَأَبْغَضَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة:١٣]، ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر:٣١]، وَلَوْ كَانَ الْهُدَى مِنَ اللَّهِ الْبَيَانُ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ نَفْسٍ، لَمَا صَحَّ التَّقْيِيدُ بِالْمَشِيئَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات:٥٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:٣٩].

قال الشيخ:

أي: نؤمن بأنَّ الله يهدي مَنْ يشاء فضلًا منه ونعمةً، ويضلُّ من يشاء عدلًا منه وحكمةً، فقد أنعم على من هداه، وخذل من أضلَّه، ولم يكن ظالمًا لهذا؛ بل ذلك عدله وحكمه وخلقه، يتصرف في الخلق كما يشاء. وذكر الشَّارح أن هذا ردٌّ على المعتزلة الذين يقولون بوجوب فعل الأصلح على الله.

والمعتزلة فرقةٌ انتسبت إلى الإسلام ثمَّ انتحلت نِحَلًا، ومنها أنَّهم يقولون: إنَّ الله لا يقدر على الهُدى والإضلال، فلا يقدر أن يضلَّ أحدًا، ولا أن يهدي أحدًا، بَلِ العباد هم الذين يختارون بأنفسهم، والعبد هو الذي يضلُّ نفسه أو يهدي نفسه، لا قدرة لله عليه. وهذا فيه تَنَقُّصٌ لله تعالى، حيث جعلوا قدرة العبد أقوى من قدرة الله، واختياره أقوى من اختيار ربِّه.

وقد يقولون: إنَّنا ننزِّه عن الظلم ـ هكذا قولهم ـ يقولون: إذا قدَّر على العبد أن يضله؛ فكيف يعاقبه؟! لو عاقبه ـ وهو الذي أضلَّه ـ لكان ظالمًا له، فنحن ننزِّه الله عن الظلم ونصفه بالعدل. ويسمُّون هذا العدل رتبةً وأصلًا عندهم.

والجواب: أننا نعترف أنَّ الهدى فضلٌ والإضلال عدلٌ، ونقول: إنَّ الله تعالى ما ظلم أحدًا من خلقه، وإنَّما هذا فضله يؤتيه من يشاءُ، فمنَّ على أهلِ الهداية، ويسَّر لهم الأسباب، وبيَّنها لهم، وقذف في قلوبهم الرَّحمةَ، وأعانهم حتَّى اختاروا الهدى، وساروا على الصِّراط المستقيم، وذلك فضله يؤتيه من يشاء، فاستحقُّوا بذلك الثَّواب، وإن كان هو الذي تفضَّل عليهم أوَّلًا وآخرًا.

فأوَّلًا: تفضَّل عليهم بأن هداهم، وسدَّد خُطاهم، وأقبل بقلوبهم على طاعته، وأمدَّهم بقوةٍ منه وتأييدٍ، وأعانهم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وتفضَّل عليهم ثانيًا: بأن أهَّلهم للثَّواب، فجعلهم من أهل الثَّواب الذي أعدَّه الله لعباده المطيعين، وأدخلهم دار كرامته، وأعطاهم ممَّا وعدهم من النَّعيم المقيم، وذلك فضله يؤتيه من يشاء.

أمَّا بالنِّسبة إلى الضُّلَّال والكافرين، فإنَّه ما ظلمهم، فقد بيَّن لهم الحقَّ وأوضحه لهم، وأعطاهم قوَّةً واستطاعةً وقدرةً يزاولون بها الأعمال، ولكنَّه حكم بعلمه أنَّهم ليسوا أهلًا للهداية، فأضلَّهم وأصمَّهم وأعمى أبصارهم، وحال بينهم وبين أسباب الهداية؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لذلك، فأصبحوا محرومين من الهداية، ولم يظلمهم الله تعالى؛ بل بيَّن لهم فاختاروا.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت:١٧]، الله تعالى بيَّن لهم الأسباب، ولكنَّهم استحبُّوا العمى على الهدى، والمراد بالعمى هنا: عمى البصيرة، والبعدُ عَنِ الاستمالة للحقِّ، فلم يقبلوا ما جاءهم عن ربهم، بل ابتعدوا عنه، فصاروا بذلك محرومين، ولم يظلمهم ربُّهم سبحانه، بل هذا فضله يؤتيه من يشاء، وهذا عدله يحكم به على من يشاء، وهو في كلا الحالين حكيمٌ عليمٌ، يضع الأشياء في مواضعها اللَّائقة بها.

فقد خلق هؤلاء وجعل في قلوبهم محبة الحقِّ وَأَهَّلَهم لقَبُوله، وخلق هؤلاء وجعل في قلوبهم اختيار الحقِّ وأهلهم لردِّه، ولا خلاف أنَّه هو الذي

أضَلَّهم، يعني: صرفهم لَـمَّا لم يكونوا أهلًا للهداية.

فأنت أيُّها المهتدي! أيُّها المؤمن! أيها الموقن! قد أنعم الله عليك، فعليك أوَّلًا: أن تتمسَّك بهذه النِّعمة وبأسبابها، وعليك ثانيًا: أن تسأل ربَّك الثَّبات عليها، وتحمده وتشكره على ما أعطاك وخوَّلك، وعليك ثالثًا: أن تجتهد في ثمرتها الذي هو العملُ بما أُمِرْتَ به.

وإذا رأيت القسم الثَّاني الذين صُرِفُوا وحيلَ بينهم وبين الحقِّ، فإنَّ عليك شُكرَ النَّعمة التي أنت فيها، ومعرفة أنَّ هؤلاء محرومون، ولو زعموا أنَّهم أهل معرفةٍ، وأنَّ الصَّواب في جانبهم، فإنَّهم في الحقيقة محرومون مصروفون عن صراط الله المستقيم.

قال الطحاوي:

وكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ في مَشِيئَته، بَيْنَ فَضْلِهِ وعَدْلِهِ.

قال الشارح:

فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن:٢]، فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ فَبِفَضْلِهِ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَبِعَدْلِهِ، وَلَهُ الحَمْدُ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا المَعْنَى زِيَادَةُ إِيضَاحٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّ الشَّيْخَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمْ يَجْمَعِ الْكَلَامَ فِي الْقَدَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، بَلْ فَرَّقَهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ عَلَى تَرْتِيبِهِ.

قال الشيخ:

قوله: (يَتَقَلَّبُونَ في مَشِيئَته)، يعني: أنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ الله تعالى شاء من هؤلاء الإيمانَ وأحبَّه، وشاء من هؤلاء المعصيةَ والكفرَ وقدَّره ولم يحبَّه، فأعمال أهل الطَّاعة قد شاءها كونًا وقدرًا، وأمر بها دينًا وشرعًا، وأحبَّها ورضيها، ووعد عليها الثَّواب، وأمَّا معاصي الكفَّار وذنوبهم، فإنَّه قد قدَّرها وشاءها كونًا وقدرًا، ولو شاء اللهُ ما عُصِيَ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٩٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة:١٣]، لو شاء الله تعالى لأقبل بقلوبهم ولهداهم إلى الحقِّ، ولكنَّه تعالى قدَّر أنَّ هؤلاء محرومون، وشاء منهم ما شاءه، فكلُّهم يتقلَّبون في مشيئته وبإرادته، فإنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال الطحاوي:

وهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الأَضْدَادِ والأَنْدَاد.

قال الشارح:

الضِّدُّ: المُخَالِفُ، وَالنِّدُّ: المِثْلُ. فَهُوَ سُبْحَانُهُ لَا مُعَارِضَ لَهُ، بَلْ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا مِثْلَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤]، وَيُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بِنَفْيِ الضِّدِّ وَالنِّدِّ، إِلَى الرَّدِّ عَلَى المُعْتَزِلَةِ، فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الْعَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَهُ.

قال الشيخ:

يعني: أن المعتزلة جعلوا الإنسان ندًّا لله، مع أنّهم ما صرَّحوا بذلك، ولكنَّهم حيث جعلوه يخلق فعله، وزعموا أنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد، واعتقدوا أنَّ الله يُعصى قَهْرًا عليه ـ تعالى الله عن قولهم ـ فعند ذلك جعلوا أنفسهم ضدًّا لله وندًّا له، بل جعلوا كلَّ مخلوقٍ كذلك، ولأجل ذلك يسمِّيهم الصَّحابة في بعض الرِّوايات: مجوسَ هذه الأمَّة، كما ورد في بعض الأحاديث مرفوعًا وموقوفًا: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: لا قدر، إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ»(١)، من باب الإنكار عليهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، وأحمد (٢/ ٨٦، ١٢٥)، والحاكم (١/ ٨٥)، والبيهقي
=

وإذا قلتَ: كيف جعلوا لله ندًّا أو ضدًّا؟

نقول: لَـمَّا جعلوا المخلوق مستقلًا في تصرُّفه وفعله، فقد جعلوه متصرِّفًا في هذا الكون، والتَّصرُّف في الحقيقة للخالق سبحانه، فليس للمخلوق شيءٌ من التَّصرُّف المطلق.

وسبب تسميتهم مجوسًا: أنَّ المجوس ادَّعَوا أنَّ الكون صادرٌ عن اثنين، وأنَّ للعالم خالقيْنِ: النُّور والظُّلمة، فالنُّور خالق الخير، والظُّلمة خالقة الشَّرِّ، فلمَّا جعلوا العَالَمَ صادرًا عن خالقيْنِ، أشبههم المعتزلة الذين جعلوا كلًّا يخلق ما يفعله، فجعلوا مع الله خالقِيْن، وليسا خالقَيْن فقط، بل جعلوا العالَمَ صادرًا عن عددٍ.

والحاصل: أنَّ هذه الجملة تصلُح ردًّا على المشركين، وتصلح ردًّا على القدريَّة، الرد على المشركين الذين يجعلون لله ندًّا وضدًّا، سواءٌ أكان ندًّا في الخلق والتَّكوين أم ندًّا في استحقاق العبادة، فالله سبحانه متعالٍ عن الآمريْنِ، فهو الخالق وحده، وليس معه ندٌّ يخلق كخلقه، وهو المستحقُّ للعبادة، وليس معه من يستحقُّها مثله.

=

(١٠/ ٣٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الطحاوي:

لَا رَادَّ لِقضَائِهِ، وَلَا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ.

قال الشارح:

أَيْ: لَا يَـرُدُّ قَـضَاءَ اللَّـهِ رَادٌّ، وَلَا يُعَقِّـبُ، أَيْ لَا يُـؤَخِّرُ حُكْمَـهُ، مُـؤَخِّرٌ، وَلَا يَغْلِبُ أَمْرَهُ غَالِبٌ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ..

قال الشيخ:

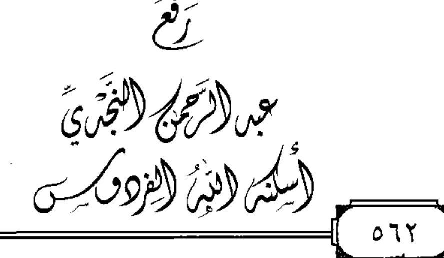
يعني: أنَّه هو المتصرِّف وحده، بخلاف المخلوق، فإنَّ هناك من يتعقَّبه، فكثيرًا ما يفعل الابن فعلًا ويتعقَّبه الوالد، ويقول: هذا خطأٌ، وأنت تفعل ما ليس بحسنٍ، لو قدَّمت كذا أو أخَّرْت. وكثيرًا ما يحكم الحاكم أو يقضي القاضي، ثمَّ يُردُّ قضاؤه، أو يتعقَّبه من فوقه، ويُنكر عليه ويقول: حكمُك خطأٌ، ولو أنَّه قد اجتهد وبذل وسعه، فلا يكون بذلك مصيبًا، بل هناك من يتعقبه على قوله، بخلاف الرَّبِّ سبحانه وتعالى، فإنَّه إذا قضى أمرًا فإنَّه لا يُردُّ، وإذا حكم بحكمٍ فإنَّه لا يُنقض، وإذا أمر بأمرٍ، فإنَّه لا يُتعقَّب، بل لا أحد يتعقَّب حكمَه.

ولأجل ذلك حُكم بكفر من يَردُّ أحكام الله تعالى، ويدَّعي أنَّها لا تلائم كلَّ وقتٍ وزمانٍ ومكانٍ، ويفضِّلون عليها القوانين الوضعيَّة، التي هي من نحاتة الأفكار، وزبالة الأذهان، ووضع البشر الذين هم محلُّ النَّقص والعيب،

ويتعقَّبون أحكام الله بأنَّها لا تناسب إلا الوقت الذي نزلت فيه.

ولا شك أنَّ هذا كفرٌ؛ لأنَّ الحكم الذي صدر من الله تعالى أنزله لعباده، وأمر به أمرًا عامًّا، وكلَّف به الخلق قاصيهم ودانيهم، أوَّلهم وآخرهم، فهو في الحقيقة المناسب لهم، فمن ردَّه أو ادعى عدم مناسبته، فقد تعقَّب حكم الله، وقد تنقَّص أمره، فهو شبيهٌ بمن يردُّ العبادات التي كُلِّف بها العباد، ويدَّعي أنَّها إنما قُصد منها أمرٌ خاصٌّ أو نحو ذلك.

وسيأتينا مزيد بيان لهذا الكلام في موضعه إن شاء الله تعالى.



قال الطحاوي:

آمَنَّا بذَلِكَ كُلِّه، وأَيْقنَّا أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِهِ.

قال الشارح:

أَمَّا الْإِيمَانُ فَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْإِيقَانُ: الِاسْتِقْرَارُ، مِنْ يَقِنَ المَاءُ فِي الحَوْضِ إِذَا اسْتَقَرَّ. وَالتَّنْوِينُ فِي (كُلًّا) بَدَلُ الْإِضَافَةِ، أَيْ: كُلُّ كَائِنٍ مُحْدَثٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَيْ: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَكْوِينِهِ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

مر بنا ذكرُ القضاء والقدر، وذكر الحكم والأمر والشَّرع، وذكر التَّنزُّه عن الضِّدِّ والنِّدِّ، وما أشبه ذلك مما تقدم من الأحكام.

وقوله: (آمَنَّا بذَلِكَ كُلِّه)، يعني: أنَّ هذا الذي سبق مما يجب الإيمان به واليقين، وكأنَّه يقول: لا يجوز الشَّكُّ ولا التَّردُّد في شيءٍ من ذلك؛ لأنَّه مبنيٌّ على أصلٍ قويٍّ ودليلٍ راسخٍ معتَمَدٍ، فلا بدَّ أن تؤمن بذلك كلِّه، وأنَّ توقن بأنَّه من عند الله، وتجزم وتصدِّق بكلِّ ما سبق وكلِّ ما سيأتي، وتتحقَّق أنَّه عقيدةٌ، وأنَّه يقينٌ، وأنَّ من شكَّ فيه فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل، وتُوقن وتجزم بصحَّته، وأنَّه حقٌّ لا تردَّد فيه. هكذا ينبغي لكلِّ مؤمنٍ، ويعمُّ ذلك كلَّ الشَّرع الذي اهتدت عليه هذه الشَّريعة بأدلَّتها، يجب أن نؤمن به وأن نوقن به.

فمثلًا: القرآن من أوَّله إلى آخره نؤمن به ونوقن به، والكلمتان: الإيمان واليقين تقوي إحداهما الأخرى، فآمنت وأيقنت متقاربتان، فاليقين: هو عدم الشَّكِّ، وهو أن لا يتطرَّق إليك تردُّدٌ أو شَكٌّ في اعتقادك بذلك الأمر، والإيمان: هو جزمُك وتصديقُك بذلك، واعتقادُك بصحَّته، وكلُّ ما جاء عن الله تعالى في القرآن آمنَّا به وأيقنَّا به، وكلُّ ما جاء وبلَّغ به الرَّسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فإنَّنا نؤمن به ونوقن به، وكذلك نوقن بكلِّ ما جاء به الرُّسل، وبكلِّ ما أخبروا به، وأنَّه حقٌّ ويقينٌ على حقيقته، وأنَّ من شكَّ في شيءٍ من ذلك أو تردَّد فيه، فإنَّه ممَّن لم يُؤمن بالله حقَّ الإيمان، ولم يتقبَّلِ الشَّريعة كما أُمر بأن يتقبَّلها.

قال الطحاوي:

وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ المُصْطَفَى، ونَبِيُّهُ المُجْتبى، ورَسُولُه المُرْتَضَى.

قال الشارح:

الِاصْطِفَاءُ وَالِاجْتِبَاءُ وَالِارْتِضَاءُ: مُتَقَارِبُ المَعْنَى.

وَاعْلَمْ أَنَّ كَمَالَ المَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ المَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَأَنَّ الخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ. وَذَكَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِاسْمِ الْعَبْدِ فِي أَشْرَفِ المَقَامَاتِ، فَقَالَ فِي ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، وَبِذَلِكَ اسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ عَلَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ المَسِيحُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»[1]. فَحَصَلَتْ لَهُ

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة. تقدم تخريجه (ص٤٣٥).

تِلْكَ المَرْتبَةُ بِتكْمِيلِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى.

قال الشيخ:

هذا حديث عن الشهادة الثانية، وهي شهادة أنَّ محمدًا رسول الله.

بعد أن ذكر الشارح بعضًا ممَّا يتعلَّق بالإيمان بالله، تطرَّق إلى الإيمان بالرَّسول ﷺ، وذلك لأنَّ الشَّهادتين قرينتان، لا تتمُّ إحداهما إلاَّ بالأخرى، فمن شَهِدَ أن لا إله إلَّا الله، لزمته الشَّهادة بأنَّ محمَّدًا رسول الله؛ لأنَّ الله - سبحانه وتعالى - شَهِدَ له بذلك وسمَّاه رسولًا، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأخبر بأنَّه أرسله في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، فإذا كان الله تعالى قد أخبر أنَّه رسولُه، فمن كمال تصديق الله: تصديق ما أخبر به من أنَّه مرسلٌ من الله سبحانه وتعالى.

كذلك إذا شهدنا لمحمدٍ ﷺ بأنَّه رسولٌ وصادقٌ، واعتقدنا صدقه، لزم من تصديقه الشَّهادة بأنَّ الله هو الإله الحقُّ؛ لأنَّ جُلَّ دعوته إلى: (لا إله إلَّا الله)، وأكثر ما دعا إليه تحقيقُ (لا إله إلَّا الله)، فعُرف بذلك أنَّ الشَّهادتين متلازمتان إحداهما مرتبطة بالأخرى، ومن أجل ذلك عُدّتا ركنًا واحدًا من أركان الإسلام، وهما الرُّكن الأساس الذي تنبني عليه بقيَّة الأركان، وهو شرطٌ لها كلِّها، لا يُقبل ركنٌ من الأربعة الأخرى إلَّا بعد أن يتحقَّق الرُّكن

الأوَّل، وهو الشَّهادتان.

وهنا ذُكِر النَّبيُّ ﷺ بثلاثة صفات:

الأولى: الاصطفاء. والثَّانية: الاجتباء. والثَّالثة: الارتضاء.

ووصفه أوَّلًا بالعبوديَّة، وتكلَّم الشَّارح هنا على العبوديَّة، وأنا أتكلَّم عليها - وإن كان فيما ذكره كفايةٌ - فأقول:

وصف الله نبيَّه بالعبوديَّة في هذه الآيات، في قوله في مقام التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ما قال: لرسولنا، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، وقال في مقام الدَّعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، وفي مقام إنزال الكتاب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وفي آياتٍ كثيرةٍ وصفه الله تعالى بهذا الوصف، الذي هو كونه عبدًا لله.

وكذلك ذكر الشَّارحُ أنَّ عيسى - عليه السلام - وصفه بذلك، إذا طُلب من عيسى الشَّفاعة قال: «**اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**»، ولم يقل: رسولٌ، بل قال: عبدٌ؛ لأنَّ العبوديَّة هي الصِّفة الأصليَّة للخلق، وكذلك وُصف بها أيضًا الأنبياء قبله، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص:١٧]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١]، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥]، كلُّهم وصفهم بأنَّهم عبيدٌ من عباده، وواحدهم عبدٌ.

وكذلك حكى عن عيسى العبوديَّة، فقد حكى الله عنه بأنَّ أوَّل ما تكلَّم به وهو في المهد قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وقال عنه في آخر سورة النِّساء: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، لا يستنكف: يعني لا يأنف من العبوديَّة، بل يراها صفة شرفٍ، وكذلك الملائكة لا يستنكر أحدهم أن يكون عبدًا لله، بل هم وُصفوا بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، أوَّل ما وصفهم به: أنَّهم عبادٌ، أي: مملوكون لله، وقد وصف جميع الخلق بذلك في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

وقد ذكر العلماءُ أنَّ العبوديَّة لله تنقسم قسمين:

القسم الأول: العبوديَّة العامَّة، التي يدخل فيها جميعُ الخلق؛ مؤمنهم وكافرُهم، برّهم وفاجرُهم، وهي المذكورة في هذه الآيات: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، والعبودية هنا معناها أنَّهم كلُّهم تابعون لتصرُّف الرَّبِّ سبحانه، وكلُّهم مملوكون له، فإذًا: هم عبيدٌ لله سبحانه، وهو الذي يحكُم فيهم ويعدلُ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، يقوله الله يوم القيامة.

فالخلق عبيدٌ لله بمعنى أنَّهم مملوكون، والله هو المالك لهم، فهم عبيده، يتصرَّف فيهم كيف يشاء، فهو الذي يميت من يشاء، ويحيي من يشاء، ويمرض من يشاء، ويشفي من يشاء، ويفقر هذا ويغني هذا، ويمنع هذا ويعطي هذا، ويتصرَّف فيهم تصرف المالك في ملكه ومملوكيه، لا معقب له؛ لأنهم جميعًا تحت تصرُّفه، وتحت تقديره، وفي قبضته، لا يخرج أحدٌ من قبضته، ولا يستقلُّ بنفسه ولا بملكيَّته، بل إذا شاء الله انتزع ملكه من يده، أو انتزع ما أعطاه له، فليس المخلوق مستقلًا، وهذه هي العبوديَّة العامَّة.

القسم الثاني: العبوديَّة الخاصَّة، وهي التي ذُكرت في حقِّ النَّبيِّ ﷺ، وفي حقِّ الملائكة، وفي حقِّ الأنبياء وغيرهم، وكذلك ذُكرت في حقِّ أولياء الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقوله الله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان:٦]، هذه عبوديَّةٌ خاصَّةٌ.

هذه العبوديَّة مقتضاها ومظهرها الذُّلُّ لله تعالى والخضوع له، وذلك أنَّ العبد العابد متى شعر بأنَّه عبدٌ لله، وأنَّه مملوكٌ له، وأنَّ الله هو المالك له يتصرَّف به كما يشاء، وأنَّه لا يملك التَّصرُّف لنفسه، ومتى شعر بأنَّه مخلوقٌ مربوبٌ ليس هو الذي خلق نفسه، ومتى شعر بأنَّ خالقه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ومتى شعر بأنَّ ربَّه صادق الوعد فيما وعده به، ومتى شعر بأنَّ ربَّه سبحانه قد وعده على الطَّاعة بالجزاء الأوفى، وتوعَّده على المعصية بالعقاب الأكبر، إذا

شعر بذلك نحوه أظهر التَّعبُّد، الذي هو التَّذلُّل والخضوع.

وأصل العبوديَّة: الذُّلُّ، ومنه سُمِّي العبد المملوك عبدًا؛ لأنَّه ذليلٌ لمالكه، ذليلٌ لسيِّده، فالخلق كلُّهم يجب أن يُظهروا هذا التَّذلُّل طَوْعًا واختيارًا، يجب أن يظهروا الذُّلَّ لربِّهم والخضوع له، والتواضع بين يديه، والاستقامة له، وأن يعتقدوا بذلك لربِّهم، وأنَّه المستحقُّ للعبوديَّة وحده.

وقد فُسِّرتِ العبادةُ التي أُمر بها العبد: بأنَّها غاية الذُّلِّ مع غايةُ الحبِّ، وذكر ذلك ابن القيِّم في «النُّونيَّة»[(١)] بقوله:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَٰنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّىٰ قَامَتْ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ رَسُولِهِ ... لَا لِلْهَوَىٰ وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فالعبد الحقيقيُّ هو الذي يذِلُّ لربِّه ويخضع، وهو الذي يحبُّ ربَّه غاية المحبَّة، وهو الذي يتعبَّد له غاية التعبُّد.

والأنبياء كذلك لا شكَّ أنَّهم كانوا بهذا الوصف، وكذلك نبيُّنا محمدٌ ﷺ كان بهذا الوصف، وعُد بحقِّه شرفًا، فإذًا ليس في وصفه بالعبوديَّة نوعٌ من النَّقص عليه، بل العبوديَّة لله غاية الشَّرف، وغاية العزِّ، وغاية الرِّفعة، العبوديَّة لله والرِّقُّ له والذُّلُّ له هي الأصل في الفضل وفي التَّمكين، وكذلك الأنبياء يعتزُّون بذلك؛ لأنَّهم يتعبَّدون لمالكهم، فهو سبحانه المالك الحقيقيُّ، والرِّقُّ

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٢٥٣).

له، والتَّذلُّل له، والانتماء إليه يُعدُّ شرفًا وفضلًا.

وأذكر بيتًا قالهُ ابن القيم في ميميته على لسانِ العابدِ؛ يقول لمن يفتخر بالعبودية(١):

إِذَا قِيلَ هَـٰذَا عَبْدُهُمْ وَمُحِبُّهُمْ   تَهَلَّلَ بِشْرًا وَجْهُهُ يَتَبَسَّمُ

يعني: يفتخر إذا نسب إلى أنَّهُ عبدهم، وقد يفتخر أيضًا بعض المماليك بانتمائه إلى الرّقّ إلى بعض الملوك، يقول: أنا لي الفخر أن أكون عبدًا للملك الفلاني أو مملوكًا له.

فإذا كانوا يفتخرون بالرقِّ والملكيَّةِ لبعض الخلق، فكيف لا تفتخر أيُّها الإنسان بالرقّ والملكية والعبودية لربِّ الأرباب، ومسبِّب الأسباب، وخالق الكون سبحانه وتعالى؟

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص٩٥).

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَإِنَّ مُحَمَّدًا)، بِكَسْرِ الهَمْزَةِ، عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ)؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مَعْمُولُ الْقَوْلِ، أَعْنِي: قَوْلَهُ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ).

وَالطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ: تَقْرِيرُ نُبُوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمُعْجِزَاتِ، لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ نُبُوَّةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا بِالْمُعْجِزَاتِ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُضْطَرِبَةٍ، وَالْتَزَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِنْكَارَ خَرْقِ الْعَادَاتِ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى أَنْكَرُوا كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالسِّحْرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ، لَكِنَّ الدَّلِيلَ غَيْرُ مَحْصُورٍ فِي الْمُعْجِزَاتِ، فَإِنَّ النُّبُوَّةَ إِنَّمَا يَدَّعِيهَا أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ أَوْ أَكْذَبُ الْكَاذِبِينَ، وَلَا يَلْتَبِسُ هَذَا بِهَذَا إِلَّا عَلَى أَجْهَلِ الجَاهِلِينَ، بَلْ قَرَائِنُ أَحْوَالِهِمَا تُعْرِبُ عَنْهُمَا، وَتُعَرِّفُ بِهِمَا، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ فِيمَا دُونَ دَعْوَى النُّبُوَّةِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ؟ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ حَسَّانُ رضي الله عنه[1]:

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالخَبَرِ

وَمَا مِنْ أَحَدٍ ادَّعَى النُّبُوَّةَ مِنَ الْكَذَّابِينَ إِلَّا وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الجَهْلِ وَالْكَذِبِ وَالْفُجُورِ وَاسْتِحْوَاذِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ مَا ظَهَرَ لِمَنْ لَهُ أَدْنَى تَمْيِيزٍ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا بُدَّ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِأُمُورٍ وَيَأْمُرَهُمْ بِأُمُورٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ أُمُورًا يَبِينُ بِهَا صِدْقُهُ، وَالْكَاذِبُ يَظْهَرُ فِي نَفْسِ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيُخْبِرُ عَنْهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ مَا يَبِينُ بِهِ كَذِبُهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤١١).

وَالصَّادِقُ ضِدُّهُ، بَلْ كُلُّ شَخْصَيْنِ ادَّعَيَا أَمْرًا: أَحَدُهُمَا صَادِقٌ وَالْآخَرُ كَاذِبٌ، لَابُدَّ أَنْ يَظْهَرَ صِدْقُ هَذَا وَكَذِبُ هَذَا وَلَوْ بَعْدَ مُدَّةٍ، إِذِ الصِّدْقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبِرِّ، وَالْكَذِبُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْفُجُورِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[1].

قال الشيخ:

عرف المسلمونَ نُبوَّةَ نبيِّهم ﷺ، وشهدوا له بالرسالةِ، والطريق إلى معرفته والتَّصديق له ما أَيَّدَه الله تعالى به من المعجزات التي دلت على صدقه، ومعروف أنه بشر، وأنه واحد من الناس، والله سبحانه يصطفي رسلًا من خلقه، فينزل عليهم الآيات البينات بواسطة الملك، ويوحي إليهم من شرعه ما يشاء.

والرسل الذين يرسلهم الله تعالى إلى خلقه، ويؤيدهم بالمعجزات، يُعرف صدقهم لعدة أسباب، منها: ما يأتون به من الآيات والمعجزات، كما حصل لكثير من الأنبياء، فإن كلاً من الأنبياء أتى بمعجزات دلت على صدقه.

فموسى ـ عليه السلام ـ أيده الله بعصاه التي تنقلب إلى حية، وبيده التي تخرج

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) مختصرًا، ومسلم (٢٦٠٧) بلفظه، من حديث ابن مسعود ﷺ.

بيضاء، وبالطوفان، وبما أرسله على آل فرعون في قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، وبالغمام الذي ينزل ليظللهم، وبالحجر الذي يتفجر منه الأنهار، وبإنزال المنِّ والسلوى، وغير ذلك من المعجزات.

وعيسى ـ عليه السلام ـ كذلك أخبر الله تعالى أنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وأخبر بأنه ينبئهم بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، فيخبرهم بأشياء يخفونها، وأيد هذا بكتابه الذي هو الإنجيل.

ونبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أيده الله تعالى بمعجزات، وقد استوفاها العلماء في كتب كثيرة تسمى «دلائل النبوة»، منها: إخباره بمغيبات مما اعتمده من وحي الله سبحانه وتعالى، وكذلك ما يقع منه من بركة طعام، وبركة شراب، وبركة ماء، وما أشبه ذلك.

وهكذا ما يخبر به من الأمور التي لم تقع فتقع كما أخبر، وذلك كله اعتمادٌ على وحي الله عز وجل، وهكذا ما وقع من المعجزات له؛ كحنين الجذع له، وتسبيح الحصى بين يديه، وسكون الجمل لما اضطرب، وما أشبه ذلك.

ولو لم يكن إلا تأييده بهذا القرآن الذي أنزله الله ـ جل وعلا ـ وجعله معجزًا، وتحداهم أن يأتوا بمثله لكفى، والكلام على هذا يطول.

ومما أيد الله تعالى به الأنبياء ـ أيضًا ـ أن جعل وجوههم دالة على صدقهم، كما

في البيت الذي ذكره الشارح:

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ   كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالخَبَرِ

فلو لم يؤيده الله بهذه المعجزات لكان وجهه وبشره وطلاقته دليلًا على صدقه، فقد كان مأمونًا قبل الإسلام، وكانوا يسمونه بالصادق الأمين، وكان أيضًا حسن الملاطفة، لا يأتي شيئًا مما يُنكر في الجاهلية؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ حماه واصطفاه واختاره، وكان أيضًا موثوقًا عندهم بكلامه، لا يتكلم إلا بالصدق، كما شهد له بذلك أعداؤه، فإنه لما سأل هرقل أبا سفيان ﷺ بقوله: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: لا. فقال: لم يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ على اللَّهِ[1].

ومما يدل على صدقه ما جاء به من هذه الشريعة، التي إذا تأملها العاقل عرف أنها ليست من قبل نفسه، بل هي من حكيم حميد يضع الأشياء في مواضعها، فإنه لما أمر بهذه العبادات ونهى عن المحرمات، تأملها كل عاقل فعرف بذلك أنها صحيحة ملائمة للواقع.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان ﷺ.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٧١، ٧٢).

فهذا مما ميز الله تعالى به أنبياءه: أنه أيدهم بما يدل على صدقهم، حتى يكون ذلك دليلًا على أنهم جاءوا بالشرع الشريف من الله عز وجل، وأنهم صادقون ليسوا بكاذبين، ولو كان أحد منهم كاذبًا على الله تعالى، لفضحه ولأظهر كذبه، فلا يجوز ذلك على الله سبحانه، فالله تعالى يتنزه أن ينصر من يكذب عليه، فلو كان كاذباً فيما جاء به لما قواه الله، بل لخذله كما خذل الكذابين، فقد ظهر في زمانه كذابون، ولكن كانت عاقبتهم المحو والاندحار؛ ظهر في اليمن كذاب يقال له: الأسود العنسي، الذي استولى على أكثر اليمن من نجران إلى صنعاء، ثم لما ظهر أنه كاذب قام عليه بعض حشمه فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذاب لما ادعى النبوة تبعه من اغتر به، ففضحه الله تعالى وسلط عليه من قتله.

وشريعة الله التي أوحاها إلى نبيه ﷺ باقية إلى أن يأتي أمر الله تعالى.

قال الشارح:

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٦].

فَالْكُهَّانُ وَنَحْوُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يُخْبِرُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِيَّاتِ، وَيَكُونُ صِدْقًا، فَمَعَهُمْ مِنَ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي يُخْبِرُونَ بِهِ لَيْسَ عَنْ مَلَكٍ، وَلَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ صَيَّادٍ: «قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا»، فَقَالَ: هُوَ الدُّخُّ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»[1]، يَعْنِي: إِنَّمَا أَنْتَ كَاهِنٌ. وَقَدْ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ[2]، وَقَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ[3]، وَذَلِكَ هُوَ عَرْشُ الشَّيْطَانِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَالْغَاوِي: الَّذِي يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُضِرًّا لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ.

فَمَنْ عَرَفَ الرَّسُولَ وَصِدْقَهُ وَوَفَاءَهُ وَمُطَابَقَةَ قَوْلِهِ لِعَمَلِهِ، عَلِمَ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا كَاهِنٍ.

وَالنَّاسُ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ، حَتَّى فِي الْمُدَّعِي لِلصِّنَاعَاتِ وَالْمَقَالَاتِ، كَمَنْ يَدَّعِي الْفِلَاحَةَ وَالنِّسَاجَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَعِلْمَ النَّحْوِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٤٥)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٧٣)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٢٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وَالطِّبِّ وَالْفِقْهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَالنُّبُوَّةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عُلُومٍ وَأَعْمَالٍ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّصِفَ الرَّسُولُ بِهَا، وَهِيَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُ الْأَعْمَالِ، فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ الصَّادِقُ فِيهَا بِالْكَاذِبِ؟ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ رِضَى الرَّجُلِ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ وَفَرَحَهُ وَحُزْنَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِي نَفْسِهِ، بِأُمُورٍ تَظْهَرُ عَلَى وَجْهِهِ، قَدْ لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلق برسالة نبينا ﷺ، وكيف عُرِفَ أنّه صادق؛ وذلك لأن المشركين رموه بالكذب، فمنهم من قال: ساحر كذاب، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: شاعر.

ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا﴾، يعني: انتظروا، ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١]، وأخبر أنه ليس بشاعر؛ فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، وذمّ الشعراء في هذه الآية، فقال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧]، إلى آخر

الآية. فإنّ هذا تنزيهٌ لنبيه أن يكون شاعرًا وأن يعلمه الشعر، وتنزيه لهذا القرآن أن يكون شعرًا، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة:٤١، ٤٢]؛ وذلك لأنهم يتقولون عليه أنه من الكهنة، لما رأوا الكهنة وسجعهم وإخبارهم بأشياء من المغيبات، ادّعوا بأنه كاهن، والكاهن في الأصل هو الذي يدّعي علم الغيب، أو يخبر عن المغيبات، أو يخبر عمّا في الضمير، أو يدل على مكان المسروق ومكان الضالّة واللقطة، وذلك بتنزل الشيطان عليه، فإن الشياطين تختطف السمع وتسترقه من السماء، وتوحيه إلى أوليائها من السحرة والكهنة، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ [الصافات:٨ ـ ١٠]، يعني: الكلمة يخطفها الشيطان من الملائكة، ويستمعها ويُقرّها في أذن وليّه الساحر أو الكاهن.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّ الشياطين تنزّلُ على أولئك الكهنة ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء:٢٢١، ٢٢٢]، أي: الكاهن، أفاك: يعني كذاب، أثيم: يعني من أهل الزور، وهو الإثم العظيم. يلقون السمع: يعني ما يختطفونه من الملائكة ويلقونه إليهم، وأكثرهم كاذبون، وقد ورد في الحديث كيف يأخذ الكاهن الكلمة من السمع، قال ﷺ: «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إلى من تَحْتَهُ» ـ يعني: الذي يخطفها ـ «ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إلى من تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا على لِسَانِ السَّاحِرِ أو الْكَاهِنِ ... فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ

كَذْبَةٍ»(١)، الكاهن يستمع الكلمة التي سمعت من السماء، ثم يضيف إليها كذبه، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٣].

فعُرِف بذلك أن الله تعالى نزّه نبيّه عن أن يكون من الكهنة الذين تتنزّلُ عليهم الشياطين، وإنّما ينزل عليه مَلَكٌ بهذا الوحي المتتابع، الذي اشتماله على الحكم وعلى الأحكام دليل على أنه من حكيم حميد، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

وذكر أيضًا أن من الكهنة الذين عاصروا النبي ﷺ شابٌّ من اليهود اسمه صافي ابن صّياد، ورد في شأنه أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما؛ حتى ظن بعض الصحابة أنه المسيح الدجال، واستأذن عمر ﵁ أن يقتله، فقال النبي ﷺ: «**إن يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عليه، وَإِنْ لم يَكُنْهُ فلا خَيْرَ لك في قَتْلِهِ**»(٢)، يعني: إن كان هو المسيح الدجال، فلا تستطيع أن تقتله؛ لأن الله قدّر أن يخرج، وأن يحصل منه ما سوف يحصل، فلن تُسلَّطُ عليه، أما إذا لم يكن هو، فلا خير لك في قتله. ولكن القرائن دلّت على أنه ليس هو الدجال، وإنما هو كاهنٌ من الكهنة الذين تنزل عليهم الشياطين، أخبر بأنه يرى عرشًا في السماء، وأن ذلك عرش الشيطان، وأخبر بأنه يأتيه صادق وكاذب، يعني: يأتيه وسوسةٌ من

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٠) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٤٥)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الشيطان أو وحي من الشيطان، فتارة يصدق وتارةً يكذب، وذلك هو وحي الشيطان، والشياطين يوحون إلى أوليائهم، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١]، فهناك وحي شياطين تنزل به إلى أوليائهم.

ومما يدل على تكهنه أن النبي ﷺ قال له: «**قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا**»، فَقَالَ: هُوَ الدُّخُّ، وكان قد خبأ له سورة الدخان، وفيها قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان:١٠]، إلخ، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**».

فالحاصل: أن النبي ﷺ قد نزهه الله تعالى عن صفات هؤلاء وهؤلاء، وقد حلاّه بصفات تدل على صدقه وصحة كلامه؛ وذلك لما يشتمل عليه كلامه من الانتظام والإحكام، وكذلك موقع كلامه في القلوب، فمتى سمعه السامع أصغى إليه والتذّ به، سواء أكان من القرآن أم مما علّمه الله تعالى. ولاشك أن الناس يفرقون بين صادق الدعوى وكاذبها ـ وكما ذكر الشارح ـ فإن الناس يميزون في كلّ من يدّعي أو ينتحل أمرًا من الأمور وهو ليس من أهله، وأنّ ذلك لا يخفي على الفَطِن منهم، وكل مَن أعطاه الله تعالى فطنةً، فإنه يميز بين الصادق والكاذب، فلو كان ﷺ كاذبًا ـ وحاشاه من ذلك ـ لما خفي كذبه على جمهرة الصحابة، لاسيما عقلائهم الذين صحبوه مدة طويلة قبل الرسالة وبعدها، وعرفوا صدقه، والتذّوا باتباعه، وحمدوا العاقبة لما آمنوا به،

وتمنّوا أنهم مع السابقين الأولين الذين سبقوا إلى تصديقه واتّباعه، وتفانوا في نصرته، وبذلوا في سبيل ذلك أموالهم وأنفسهم، وهجروا بلادهم وأولادهم وأزواجهم وعشائرهم، هجروا ذلك كله لَـمَّا وقر الإيمان في قلوبهم، ولَـمَّا ذاقوا حلاوة العلم والإيمان وحلاوة التصديق، فرخصت عندهم الدنيا بأسرها، وبذلوا في سبيل ذلك كل شيء؛ حتى نفوسهم قتلًا في سبيل الله، وذلك دليل على أنهم عرفوا صدقه كما يعرفون أولادهم وأحفادهم.

كذلك الكاذب في كل نِحْلةٍ يُعرف كذبه، فكل من ينتحلُ شيئًا ليس له، فإنه يظهر أمرُه، ولا يخفي على فُطناء الناس، وإذا عمل أي عمل وهو ليس من أهله وجُرِّب ذلك ابتعد عنه الناس وحذروا منه.

ومثّل الشارحُ بالأعمال التي في زمنه؛ كالخياطة والنساجة والكتابة والخرازة وما أشبهها، وهذه حرف يدوية قد يتعلّمها الإنسان في زمن يسير، ولكن قد يتسمَّى إنسان بأنه من أهلها ويُرى بالتجربة أنه ليس كذلك، حتى يقول بعضهم[1]:

فَـدَعْ عَنْـكَ الْكِتَابَـةَ لَـسْتَ مِنْهَـا   وَلَـوْ سَـوَّدْتَ ثَوْبَـكَ بِالْـمِدَادِ

يعني: أنك لست من أهل هذه الصنعة، ولو فعلت ما فعلت.

فعُرف بذلك أن كل مَنْ تعاطى شيئًا ليس من أهله، فإن الناس يعرفون أنه كاذب ويظهر كذبه.

(١) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٣٧٩) ونسبه إلى عمرو بن بحر.

وهذه الدعوة التي يجيء بها الأنبياء الذين يرسلهم الله تعالى إلى خَلقه، لا شك أنها دعوة كبيرة، فلو كانوا كاذبين لما أيدهم الله بما يدُل على صدقهم، ولأظهر كذبهم، ولفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ونكّل بهم، فإن الكاذب يعرف بأدنى ممارسة؛ كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، وقد أخبر بأن نبيه يعرف بعض المتسترِّين بأوصافهم الظاهرة، كما في قوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد:٣٠]، يعني: بأوسامهم، أو بأماراتٍ تظهر على وجوههم، يعرف بها مَنْ هو صادق ومن هو كاذب، فإذا كانت هذه الأعمال تعرف بالسِّيما أو بالنِّحلة أو بالأمارات الظاهرة، فلا شك أن أمارات النبوة تعرف لمن تأملها.

قال الشارح:

وَقَدْ قِيلَ: مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ.

فَإِذَا كَانَ صِدْقُ الْمُخْبِرِ وَكَذِبُهُ يُعْلَمُ بِمَا يَقْتَرِنُ مِنَ الْقَرَائِنِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى الْمُدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، كَيْفَ يَخْفَى صِدْقُ هَذَا مِنْ كَذِبِهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَتَمَيَّزُ الصَّادِقُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَاذِبِ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ؟

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ خَدِيجَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَعْلَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ الصَّادِقُ الْبَارُّ، قَالَ لَهَا لَمَّا جَاءَهُ الْوَحْيُ: إِنِّي قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُقْرِّي الضَّيْفَ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[1]. فَهُوَ لَمْ يَخَفْ مِنْ تَعَمُّدِ الْكَذِبِ، فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ، وَإِنَّمَا خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ، وَهُوَ الْمَقَامُ الثَّانِي، فَذَكَرَتْ خَدِيجَةُ مَا يَنْفِي هَذَا، وَهُوَ مَا كَانَ مَجْبُولًا عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيَمِ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنَّ مَنْ جَبَلَهُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ، وَنَزَّهَهُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُخْزِيهِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ النَّجَاشِيُّ لَمَّا اسْتَخْبَرَهُمْ عَمَّا يُخْبِرُ بِهِ، وَاسْتَقْرَأَهُمُ الْقُرْآنَ فَقَرَؤُوا عَلَيْهِ: «إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ»[2].

(١) قطعة من حديث عائشة - رضي الله عنها - أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) قطعة من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، (٥/ ٢٩٠).

وَكَذَلِكَ وَرَقَةُ ابْنُ نَوْفَلٍ، لَـمَّا أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَآهُ، وَكَانَ وَرَقَةُ قَدْ تَنَصَّرَ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ مَا يَقُولُ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَأَى، فَقَالَ: «هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى»(١).

وَكَذَلِكَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَـمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، طَلَبَ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْعَرَبِ - وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ - وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ إِنْ كَذَبَ أَنْ يُكَذِّبُوهُ، فَصَارُوا بِسُكُوتِهِمْ مُوَافِقِينَ لَهُ فِي الْأَخْبَارِ.

سَأَلَهُمْ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالُوا: لَا.

قَالَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقَالُوا: لَا.

وَسَأَلَهُمْ: أَهُوَ ذُو نَسَبٍ فِيكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالُوا: لَا، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا.

وَسَأَلَهُمْ: هَلِ اتَّبَعَهُ ضُعَفَاءُ النَّاسِ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَذَكَرُوا أَنَّ الضُّعَفَاءَ اتَّبَعُوهُ.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَرْجِعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقَالُوا: لَا.

---

(١) قطعة من حديث عائشة - رضي الله عنها - المتقدم تخريجه قريبًا.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقَالُوا: يُدَالُ عَلَيْنَا مَرَّةً وَنُدَالُ عَلَيْهِ أُخْرَى.

وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ.

وَسَأَلَهُمْ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَقَالُوا: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

وَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ مَسَائِلَ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ مَا فِي هَذِهِ المَسَائِلِ مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَقَالَ:

سَأَلْتُكُمْ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، قُلْتُ: لَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ فِيكُمْ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، فَقُلْتُ: لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، فَقُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكُمْ: أَضُعَفَاءُ النَّاسِ يَتْبَعُونَهُ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتُمْ: ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، يَعْنِي: فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَقُلْتُمْ، بَلْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، إِذَا خَالَطَتْ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ عَلَامَاتِ الصِّدْقِ وَالحَقِّ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ لَا بُدَّ أَنْ

يَنْكَشِفَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، فَيَرْجِعَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَيَمْتَنِعَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، وَالْكَذِبُ لَا يَرُوجُ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ يَنْكَشِفُ.

وَسَأَلْتُكُمْ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُمْ: إِنَّهَا دُوَلٌ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَهَا.

قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ(١).

وَهُوَ لِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِعَادَةِ الرُّسُلِ وَسُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ أَنَّهُ تَارَةً يَنْصُرُهُمْ وَتَارَةً يَبْتَلِيهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ، عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ عَلَامَاتُ الرُّسُلِ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، لِيَنَالُوا دَرَجَةَ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ. كَمَا فِي «الصَّحِيحِ»(٢) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ فِي الْقُرْآنِ مَا فِي إِدَالَةِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، الْآيَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١، ٢]، الْآيَاتِ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى سُنَّتِهِ فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٧) من حديث أبي سفيان ﷺ، وذكره الشارح بالمعنى مع تقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، وأدرج فيه كلامًا من عنده.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان الرومي ﷺ.

خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ الَّتِي بَهَرَتِ الْعُقُولَ.

قَالَ[١]: وَسَأَلْتُكُمْ عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ؟ فَذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ.

وَكَانَ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَهُوَ حِينَئِذٍ كَافِرٌ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بُغْضًا وَعَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي وَنَحْنُ خُرُوجٌ، لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[٢]، إِنَّهُ لَيُعَظِّمُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، وَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ سَيَظْهَرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهٌ[٣].

قال الشيخ:

أورد الشارح هذه القصص للاستدلال بها على صحة ما جاء به النبي

---

(١) القائل هو هرقل، في حديث أبي سفيان رضي الله عنه المتقدم تخريجه آنفًا.

(٢) ابن أبي كبشة: أحد أجداد النبي ﷺ، وهنا أراد أبو سفيان انتقاص النبي ﷺ؛ لأن من عادة العرب إذا أرادت ذلك نسبت إلى جد غامض. انظر: فتح الباري (١/ ٤٠).

(٣) إلى هنا تمام حديث أبي سفيان رضي الله عنه المتقدم تخريجه.

ﷺ، فإن هؤلاء العقلاء ـ الذين معهم معرفةٌ وعلمٌ ـ استدلّوا بهذه القرائن على صدقه وصحة رسالته؛ وذلك لأن الله تعالى أجرى العادة بأن الكاذب يُفضحُ ويظهر كذبه، إذا أسر سريرةً سيئةً أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وعرف الناس ما يخفيه وما يضمره من كذب أو حقدٍ أو نفاق أو نحو ذلك، ولذلك كان المنافقون في عهد النبي ﷺ لا يخفى أمرهم بما يُظهرون من الكلمات السيئة التي فيها همزٌ ولمزٌ وعيبٌ، فيعرفهم المؤمنون.

إذا عرفوا أن هذا يميل إلى المنافقين، ويجالسهم، ويتكلم معهم، ويلقاهم بوجه منبسط ونحو ذلك؛ عرفوا أنه ليس بصادق الإيمان، ولو أنه يلاطف المؤمنين ويظهر لهم التصديق؛ كما ذكر الله ذلك عن المنافقين عمومًا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]، ولكن فضحهم الله تعالى، وأظهر سرائرهم، وعرفهم المسلمون وحذروهم، وحذّر نبيَّه بقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون:٤].

أما صادق الإيمان، فإنه يُعرفُ صدقُه بتصديقه بأعماله التي يعملها، فمن صار صادقًا من الصحابة عرفوا تصديقه بأقواله وبأعماله وبمحافظته، وهكذا كلُّ صادق، فإن الله تعالى يؤيده ويُظهرُ علامةَ صدقِه. إذا كان هذا في الأمور العادية وفي أغراض الناس واحدًا واحدًا، يُعرف الصادق منهم من الكاذب،

فيفضح اللهُ الكاذب على رؤوس الأشهاد في الدنيا وفي الآخرة. فإذا كان الناس يعرفون الصادق بالتجربة والكاذب بالتجربة، فكيف لا يعرفون الكاذب المتنبئ؟ كيف لا يعرفون أنه كاذبٌ؛ حتى لو أظهر ما أظهره من المخرقة والتدجيل والكذب والسحر والشعوذة، وما أشبه ذلك، كما يجري على أيدي الكهنة والمتنبئين ونحوهم، فإن ذلك لا يخفى على الفطن.

إذا جبل الله العبد على صفات حميدةٍ عُرف أنه لا يتقوَّلُ على الله تعالى، كالقصص التي سمعنا.

القصة الأولى: قصة خديجة رضي الله عنها، وهي زوج النبي ﷺ، وأول زوجاته، وأم أولاده كلهم إلا إبراهيمَ ـ الذي هو من مارية القبطية ـ وخديجة رضي الله عنها هي أول من آمن به من النساء، ولما نزل عليه الوحي أول ما نزل وهو بغار حراء، جاء إليها فَزِعًا وقال: «زَمِّلُونِي»[1]، فزمَّلوه، أي: غطّوه بغطاء حتى هدأ رُوعُه، ثم أخبر خديجة الخبر، وقال لها: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، يعني: خشيت أن يكون نزل بي مسٌّ من الجنِّ أو نحو ذلك، فعند ذلك استدلت بصفاتة الحميدة أنه لا ينزل عليه هذا الأمر، ولا يُسلِّط الله عليه شيئًا يفسد عقله ويفسد عليه جسمهُ وعبادته؛ استدلت بالصفات التي جبله الله عليها فقالت: «كَلَّا وَاللَّـهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّـهُ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ـ لأن صلة الأقارب من الأمور التي يحمدها الله تعالى ويأمر بها ـ وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ

---

(١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ المتقدم تخريجه (ص٥٨٣).

الْكَلَّ، وَتُقِرِّي الضَّيْفَ ـ يعني: الطارق إذا نزل أطعمه وأشبعه ـ وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ـ يعني: الفقير ونحوه، تعطيه وتكسب صداقته ـ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ». ولا شك أن من كانت هذه صفاته التي جبله الله عليها، لا يُخزيه الله تعالى.

القصة الثانية: مع ورقة بن نوفل. ذكروا أنّ ثلاثةً من قريش كأنهم أنكروا ما عليه قريش من الضلال، فذهبوا يطلبون دينًا أحسن من هذا الدين، فكان منهم ورقةُ الذي اتصل بالنصارى، وتعلم دينهم ولغتهم وكتابتهم وتنصر، ورجع إلى قومه ومعه الإنجيل، يترجمه وينقله إلى العربية، وينسخ ما شاء الله، وكان معه معرفة بالكتب الأولى، وبما اشتملت عليه، وبصفات النبي ﷺ التي اشتمل عليها الإنجيلُ وغيره، فلما جاءت إليه خديجة ـ رضي الله عنها ـ طلبت منه أن يسمع ما يقول النبي ﷺ، فقصّ عليه ما رأى، فعرف من كلامه أنه ليس بكاذب، وأن هذا الذي نزل عليه هو الملَكُ الذي نزل على موسى.

كيف عرف ذلك؟ عرفه بالأمارات التي قرأها في كتب أهل الكتاب، وعرف أيضًا صدقه فيما جاء به أنه ليس من أهل الكذب، وقال: هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ الله على مُوسَى، يا لَيْتَنِي فيها جذع، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قال: نعم، لم يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[1].

---

(١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ المتقدم تخريجه (ص٥٨٣).

فآمن به وصدّقه، وشهد أن ما جاء به هو ما جاء به موسى وسائر الأنبياء، وأخبر أنه سينالُه ما ناله الأنبياءُ من الأذى في سبيل الله تعالى.

القصة الثالثة: مع النجاشي؛ وهو ملك الحبشة، وكان نصرانيًا، وكان لديه معرفة بالكتب وصفة الأنبياء وغيرهم. لما جاءه المهاجرون ونزلوا بالحبشة هربًا من أذى قريش، واستقروا عنده، أحضرهم وسمع منهم ما قالوه في صفة النبي ﷺ، وقرؤوا عليه بعضًا من القرآن، فبكى وخشع وآمن، وأقسم بأن ما جاء به محمدٌ ﷺ هو الحق، وأخبر أن مقالته في عيسى مقالةُ صحيحة، وأنه لم يخالف ما هو عليه مثقال هذه، وأشار إلى ذلك إشارةً لطيفة، مما يدلُّ على أنه صدَّقه وأنه صحَّح رسالته.

كيف عرف ذلك وهو لم ير النبي ﷺ؟وإنما سمع ما جاء به، سمع القرآن الذي نزل عليه، وسمع بعض صفاته، فاستدلَّ بها على صدقه وصحةِ رسالته، فآمن به، وكان يهدي إليه ويُكاتبه، وأصدقَ عنه أمَّ حبيبة لَـمَّا تزوجها النبي ﷺ بعد موت زوجها، وأرسلها إليه ﷺ[1]. كل ذلك يدل على أنه كان معه وصدَّقه.

وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب[2] لما سمع بموته، وذلك دليل على أنه

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢١٠٧)، وأحمد (٦/ ٤٢٧)، والحاكم (٢/ ١٨١)، والبيهقي (٧/ ٢٣٢) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

(٢) كما في حديث جابر ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٣١٧)، ومسلم (٩٥٢).

كان من المصدقين للرسول ﷺ. عرف ذلك مع أنه ما رآه، ولو رآه لازداد يقينًا بصحة ما جاء به وبصدقه.

فهذا دليل على أن الصادقَ يعرفُ الناسُ صدقَه بأدنى ما يسمعون من خبره.

القصة الأخيرة: مع هرقل، الذي كان ملكًا للروم عندما كانوا في الشام بمدينة دمشق، وكانوا يدينون بالنصرانية، فأرسل إليه النبي ﷺ كتابًا يدعوه إلى الإسلام، ويقول فيه: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ**»[1]، وكتب إليه آيةً من سورة آل عمران فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]، فلمَّا جاءه هذا الكتاب، أرسل من يسأل: هل هنا من يعرف هذا الرجلَ الذي يدعي أنه نبي؟ حتى يسأل عن أخلاقه وعن صفاته، فدلُّوه على أبي سفيان، وكان أبو سفيان قريبًا من النبيِّ ﷺ من جهة النسب؛ لأنه من بني عبد مناف، وهو الجد الثالث من أجداد النبي ﷺ، الجد الأول عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فكلاهما يجتمع في عبد مناف، وإن كان صدَّه عن الدخول في الإسلام أول مرةٍ الرئاسة والمنصب، سأله هرقل عن هذه الأسئلة، واستدل بجوابها على صحة ما جاء به النبي ﷺ.

---

(١) قطعة من حديث أبي سفيان رضي الله عنه المتقدم قريبًا.

فالسؤال الأول: عن نسبه؟

أخبره أبو سفيان أنه ذو نسب، يعني أنه من أشراف الناس، وليس من أطرافهم أو أراذلهم، فالأنبياء يبعثون في وسط القبائل وفي أشرفهم، ولا يبعثون من أطراف القبائل وأراذلها. اعترف أبو سفيان ﷺ أن النبي ﷺ ذو نسب، وأن آباءه وأجداده لهم شرف ورفعة ومنصب.

السؤال الثاني: هل مَلَك أحدٌ من آبائه؟

فلمّا أخبره بأنه لم يملك أحد فيهم، استدل على أنه لو كان أحد من آبائه قد ملك، لكان طالبًا لملك أبيه، فلمّا لم يكن ذلك عرف أنه لا غرض له في الملك.

السؤال الثالث: هل كان كذابًا قبل أن يقول ما قال؟

فلما أخبره أنهم لم يجرِّبوا عليه كذبًا، قال: كيف يدَع الكذب على الناس ويكذب على الله؟ فيستحيل أن يكون كذابًا.

السؤال الرابع: هل أحدٌ سبقه إلى هذا القول؟

فلما أخبره أنه ما سُبِقَ، استدل على أنه صادق؛ لأنه لو قالها أحد قبله، لكان مقتديًا به، ولقالوا: رجل قال مقالةً قد سُبِقَ إليها.

السؤال الخامس: سأله عن أتباعه؟

فأخبره أنهم ضعفاء الناس؛ وذلك لأنّ ضعفاءهم أرقّ قلوبًا، وعادةً هم الذين يتقبلون الحق، وهم أتباع الرسل، كما أخبر الله تعالى عن قوم نوح - عليه السلام - أنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، يعني: أراذل الناس، وما نراك اتبعك إلا أراذلنا، ولكن العاقبة في النهاية أن أشرافُ الناس

أسلموا واتبعوه.

السؤال السادس: هل يزيدون أو ينقصون؟

ولما أخبره أنهم يزيدون، عرف أنّ زيادتهم دليلٌ على أن ما هم عليه صحيحٌ، وأنهم يتبعونه ليقينهم بأن ما جاء به الحق، كل من تبين له الحق اتبعه.

السؤال السابع: هل ارتدّ أحدٌ منهم؟

فلمّا أخبره بأنهم لا يرتدون، بل مَنْ دخل في الإسلام تمسك به، ولم يرجع عنه أبدًا، قال: هكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوبَ لا يسخطُه أحد. فالإيمان الذي دخلوا فيه اطمأنت به قلوبهم، فلما اطمأنت به قلوبهم، عرفوا صدقه وصحته، فلم يسخطوه، بل تفانوا في نُصرته.

السؤال الثامن: هل قاتلوه؟

فأخبره بأنهم قاتلوه، وأنه يُنصر عليهم، ويُنصرون عليه، وذلك من الابتلاء الذي يبتلي الله تعالى به أنبياءه، ثم تكون العاقبة لهم، ويبتلي أتباع أنبيائه كما في الآيات التي سردها الشارح، وقد علَّقَ الشارح على هذا تعليقًا حسنًا، وذكر أن الله تعالى يبتلي الأنبياء والأولياء، ثم بعد ذلك يفرِّجُ عنهم، ليظهر من يصدق منهم ومن يكذب، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾[الحج:١١]، فالابتلاء الذي يبتلي به عباده إنما ليظهر صدقهم من كذبهم؛ ليتميز من يكون مؤمنًا صادقًا ممن هو دعيٌّ ليس بصادق الإيمان.

السؤال التاسع: هل يغدر إذا عاهدوه؟

فأخبره بأنه لا يغدر، وقد كان ﷺ حريصًا على أن يفيَ بالمواعيد، ولا يؤثر عنه غدر، وقد أمره الله تعالى إذا أحسَّ أو خاف من قومه خيانةً أن ينبذ إليهم عهدهم، قال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾[الأنفال:٥٨]، يعني: انبذ إليهم عهدهم، وقل لهم قد تبرّأنا من العهد، ولا عهد بيننا وبينكم، فاستعدُّوا للحرب، ولا تأتِهم بغتةً وهم آمنون باقون على عهدهم ومواثيقهم.

وأما السؤال العاشر والأخير: فإنه يتضمن شرعه الذي جاء به؟

اعترف أبو سفيان بأنه يأمرُهم بعبادة الله وحده، وهو التوحيد، وأنه ينهاهم عما يعبد آباؤهم من الأصنام، وهو الشرك بالله، وأنه يأمرهم بالأشياء التي يشهد العقل بسلامتها وبملاءمتها، ألا وهي: الصدق في الحديث، وصلة الرحم، والصبر على الضراء والسراء، والعفاف... هذه الخصال التي يشهد العقل بملاءمتها وحُسنها.

فالحاصل: أن أبا سفيان لما أخبره بذلك، عرف هرقل ملك الروم أنها صفات نبيٍّ بما صدّق أبو سفيان تلك الصفات وصدقه أيضًا رفقاؤه، ولم ينكروا عليه وكلهم وافقوا على ذلك، وهي صفاتٌ صحيحةٌ منقولةٌ ومشهورة ومتواترة عنه، فكان ذلك من الأدلة التي ظهر بها صدقه.

فدل ذلك على أن صدق الأنبياء يُعرف بالأمارات التي يتميزون بها، بحيث لا يخفى أمرهم على ذي عقل سليم.

قال الشارح:

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ: أَنَّ مَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ بِمَجْمُوعِ أُمُورٍ، قَدْ لَا يَسْتَقِلُّ بَعْضُهَا بِهِ، بَلْ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ - مِنْ شِبَعٍ وَرِيٍّ وَشُكْرٍ وَفَرَحٍ وَغَمٍّ - فَأُمُورٌ مُجْتَمِعَةٌ، لَا يَحْصُلُ بِبَعْضِهَا، لَكِنْ بِبَعْضِهَا قَدْ يَحْصُلُ بَعْضُ الْأَمْرِ.

وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِخَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، فَإِنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ يُحَصِّلُ لِلْقَلْبِ نَوْعَ ظَنٍّ، ثُمَّ الْآخَرُ يُقَوِّيهِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعِلْمِ، حَتَّى يَتَزَايَدَ وَيَقْوَى. وَكَذَلِكَ الْأَدِلَّةُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ الْآثَارَ الدَّالَّةَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِأَنْبِيَائِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمَا فَعَلَهُ بِمُكَذِّبِيهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ، كَتَوَاتُرِ الطُّوفَانِ، وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا بَعْدَ نَبِيٍّ، فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، كَقِصَّةِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ، يَقُولُ فِي آخِرِ كُلِّ قِصَّةٍ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٧، ٦٨].

وَبِالْجُمْلَةِ: فَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ أَقْوَامًا اتَّبَعُوهُمْ، وَأَنَّ أَقْوَامًا خَالَفُوهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ نَصَرَ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ، وَعَاقَبَ أَعْدَاءَهُمْ: هُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْعُلُومِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَأَجْلَاهَا.

وَنَقْلُ أَخْبَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَظْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنْ نَقْلِ أَخْبَارِ مَنْ مَضَى مِنَ الْأُمَمِ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَعُلَمَاءِ الطِّبِّ، كَبُقْرَاطَ وَجَالِينُوسَ وَبَطْلَيْمُوسَ وَسُقْرَاطَ وَأَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطُو وَأَتْبَاعِهِ.

قال الشيخ:

بمجموع دلائل النبوة يقوَى التَّصديق بنبوة ذلك النبي، فالله تعالى يؤيد الأنبياءَ بمعجزات يُعرف بمجموعها صدق كل واحد منهم، ولو لم يكن إلا معجزة واحدة، لتوقَّف الناس أو بعضهم في الصدق، ولكن إذا تأيَّدت المعجزة بمعجزة أخرى، ثم جاءت ثالثةٌ ثم رابعةٌ... وهكذا، فمجموعها بلا شك يثير في النفس انتباهًا، ويكون سببًا للتصديق واليقين.

ثم ضرب الشارح لذلك مثلًا: بأن الإنسان لا يتأثر بكلمة، ولكن يتأثر بكلمات، وكذلك لا يشبع بلقمةٍ واحدة، ولكن مجموعُ اللقمات يشبعه، وكذلك لا يرتوي من جرعة واحدة حتى تجتمع جرعات، ولا يصدِّق الحادثة الكبيرة بخبر شخص واحدٍ حتى يجتمع عنده أشخاصٌ. فالخبر الأول يثير في النفس انتباهًا، والخبر الثاني يقوي ما في النفس، ولا يزال يقوى إلى أنْ يصير كالشمس يقينًا، فهكذا معجزات الأنبياء بمجموعها يحصل اليقين والصدق بأن ما جاؤوا به من الله تعالى.

وقد ذكر اللهُ أنه أرسل رسلًا من قبلنا، وأبقى آياتٍ تدل على صدقهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، يعني: أماكنهم وآثارهم. وقال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل:٥٢]، وقال في آية أخرى: ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن

بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [القصص:٥٨]، يعني: أنهم أُهلكوا وبقيت آثارهم، وفي ذلك دلالة على أنه وجد قبلنا أمم كذّبت، أُرسلت إليها رسلٌ، ونزلت عليهم العقوبة لما كذبوا الرسل، ونجّى الله الرسل ومن آمن بهم، وأهلك المكذبين.

وذكر الله أن من أولهم نوحًا عليه السلام، وأنه أنجاه في السفينة، فقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٥]، يعني: أبقينا السفينة أو جنس السفينة؛ تذكيرًا وعبرةً للناس إلى يوم الدين، يتذكرون بها تلك السفينة التي نجا فيها من آمن، وغرق من لم يؤمن.

ويذكر أننا نعلم يقينًا بأنه وجد في الأرض أنبياء، جاؤوا برسالات، صدّقهم من صدقهم ممن أراد الله هدايته، وكذّبهم من كذّبهم ممن كتب الله عليه الشقاوة. نجّى الله الأنبياء ومن آمن بهم، وأهلك المكذبين وانتقم منهم، نعلم ذلك يقينًا، قصّ الله علينا قصة نوح، وهود، وإبراهيم، وعادٍ، وثمود، وقوم شعيب، وأصحاب الأيكة، وموسى مع فرعون، قصّ الله هذه القصص، وأمر بالاعتبار بها، فبعد قصة موسى قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ﴾، وهكذا بعد قصة إبراهيم، وقصة نوح... إلى آخر القصص في سورة الشعراء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ﴾، يعني: لعبرة وموعظة.

فالحاصل: أننا نعلم يقينًا بأن الله تعالى أرسل رسلًا، ونتحقق بأنهم مرسلون من الله، وأنه تعالى أيدهم، بالمعجزات التي أجراها على أيديهم وأعجزت أهل زمانهم، وحاولوا أن يعارضوها، كما حكى الله تعالى عن

فرعون لما رأى تلك الآيات مع موسى، ظنها سحرًا، فجاء بالسحرة الذين ألقوا حبالهم وعصيّهم، فخُيِّل إلى موسى أنها تسعى، ولكن لما ألقى عصاه التقمت ذلك كله، فعرف السحرة أن ذلك ليس سحرًا، وأنه من الله تعالى، فآمنوا واستجابوا لذلك، فعند ذلك بطش بهم وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١]، فهؤلاء لما كانوا ذوي معرفة بالسحر، وعرفوا أن هذا لا يشبهه؛ آمنوا.

فالحاصل: أنا نعلم يقينًا أن أنبياء الله تعالى صادقون فيما بلَّغوه، وأنهم جاؤوا بهذه الرسالة ـ التي هي الشريعة المحمدية ـ والشرائع التي قبلها، وكلّها متفقةٌ على أصل واحد، وهو العقيدة والتوحيد؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، أي: كل منهم جاء بهذه الرسالة، وتنوعت الشرائع في الأوامر والنواهي.

فإذًا المسلم يعتقد صحة الرسالة، وأن الرسل صادقون، والإيمان بالرسل ركنٌ من أركان الإيمان.

قال الشارح:

وَنَحْنُ الْيَوْمَ إِذَا عَلِمْنَا بِالتَّوَاتُرِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ، عَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّهُمْ كَانُوا صَادِقِينَ عَلَى الحَقِّ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

مِنْهَا: أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا الْأُمَمَ بِمَا سَيَكُونُ مِنِ انْتِصَارِهِمْ وَخِذْلَانِ أُولَئِكَ، وَبَقَاءِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ.

وَمِنْهَا: مَا أَحْدَثَهُ اللَّـهُ لَهُـمْ مِنْ نَصْرِهِمْ وَإِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ، إِذَا عُرِفَ الْوَجْهُ الَّذِي حَصَلَ عَلَيْهِ - كَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَغَرَقِ قَوْمِ نُوحٍ وَبَقِيَّةِ أَحْوَالِهِمْ - عُرِفَ صِدْقُ الرُّسُلِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَتَفَاصِيلِ أَحْوَالِهَا، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ الخَلْقِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ كَذَّابٍ جَاهِلٍ، وَأَنَّ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ المَصْلَحَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالهُدَى وَالخَيْرِ، وَدَلَالَةِ الخَلْقِ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُمْ، مَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ رَاحِمٍ بَرٍّ يَقْصِدُ غَايَةَ الخَيْرِ وَالمَنْفَعَةِ لِلْخَلْقِ.

قال الشيخ:

المعجزات والآيات التي أجراها الله تعالى على أيدي الأنبياء، إذا تأملها المتأمل، صدَّق بأنها من الله، وصدَّق بأنهم جاؤوا من عند الله، وأنهم مرسلون صادقون فيما بلغوه.

أخبروا بأن الله يهلك المكذبين وينجي المصدقين، فوقع ما أخبروا به، أهلك الله أعداءهم وأنجى أولياءهم، كما حكى الله ذلك، أخبروا بأن الله ينصر

أوليـاءه ويخـذل أعـداءه؛ كـما في قولـه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر:٥١]، فوقع ما أخبروا به. أخبروا بأمور مستقبلة لم تقع من قبل، فوقعت وطابقت ما أخبروا به سواء بسواء؛ وذلك دليلُ صدقهم، وصحة رسالتهم، أخبروا بأن هذه الشرائع من الله، وبالتأمل عرف صدقهم؛ حيث تواتر عن الأنبياء ما يدل على اتفاق شريعتهم، صدّق المتأخر منهم من قبله، ووافق ما جاء به، وأيّد المتقدمُ من يأتي بعده، فحكى الله عن عيسى أنه قال: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وحكى عنه أنه قال: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

وهكذا الرسل يصدق الأول منهم من قبله، ويبشِّر بمن بعده أو يأمر بأن يتبع، ولا شك أن ذلك كله مع اجتماع دليل صدقهم، وصحة ما جاؤوا به من الرسالة، وأنها من الله تعالى، فنحن نعلم يقينًا أنه كان في الأرض رسلٌ، وكان لهم أمم، وجاؤوا بشرائع بعدهم، وأن الله تعالى نجّى المؤمنين وأهلك المكذبين، نعلم ذلك بالتواتر، فضلًا أو زيادة على خبر الله تعالى، ونعلم صدقهم بهذه المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيديهم.

قال الشارح:

وَلِذِكْرِ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ، وَقَدْ أَفْرَدَهَا النَّاسُ بِمُصَنَّفَاتٍ، كَالْبَيْهَقِيِّ وَغَيْرِهِ.

بَلْ إِنْكَارُ رِسَالَتِهِ ﷺ طَعْنٌ فِي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنِسْبَتُهُ إِلَى الظُّلْمِ وَالسَّفَهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، بَلْ جَحْدٌ لِلرَّبِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْكَارٌ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ عِنْدَهُمْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ صَادِقٍ، بَلْ مَلِكٌ ظَالِمٌ، فَقَدْ تَهَيَّأَ لَهُ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ وَيَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَمِرَّ حَتَّى يُحَلِّلَ وَيُحَرِّمَ، وَيَفْرِضَ الْفَرَائِضَ، وَيُشَرِّعَ الشَّرَائِعَ، وَيَنْسَخَ الْمِلَلَ، وَيَضْرِبَ الرِّقَابَ، وَيَقْتُلَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ وَهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ، وَيَسْبِيَ نِسَاءَهُمْ، وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَيَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَفْتَحَ الْأَرْضَ، وَيَنْسِبَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُشَاهِدُهُ وَهُوَ يَفْعَلُ بِأَهْلِ الْحَقِّ، وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَيُعْلِي أَمْرَهُ، وَيُمَكِّنُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْخَارِجَةِ عَنْ عَادَةِ الْبَشَرِ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُجِيبُ دَعَوَاتِهِ، وَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُ، وَيَرْفَعُ لَهُ ذِكْرَهُ، هَذَا وَهُوَ عِنْدَهُمْ فِي غَايَةِ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالظُّلْمِ، فَإِنَّهُ لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَأَبْطَلَ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَبَدَّلَهَا وَقَتَلَ أَوْلِيَاءَهُ، وَاسْتَمَرَّتْ نُصْرَتُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يُقِرُّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ بِالْيَمِينِ، وَلَا يَقْطَعُ مِنْهُ الْوَتِينَ.

فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لَا صَانِعَ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَبِّرَ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مُدَبِّرٌ قَدِيرٌ حَكِيمٌ، لَأَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، وَلَقَابَلَهُ أَعْظَمَ مُقَابَلَةٍ، وَجَعَلَهُ نَكَالًا لِلصَّالِحِينَ؛ إِذْ لَا يَلِيقُ بِالْمُلُوكِ غَيْرُ ذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ وَأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ؟

وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ وَالشَّهَادَةَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَذَّابِينَ قَامَ فِي الْوُجُودِ، وَظَهَرَتْ لَهُ شَوْكَةٌ، وَلَكِنْ لَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ، بَلْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ، وَقَطَعُوا دَابِرَهُ وَاسْتَأْصَلُوهُ. هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى إِنَّ الْكُفَّارَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١]، أَفَلَا تَرَاهُ يُخْبِرُ أَنَّ كَمَالَهُ وَحِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْبَى أَنْ يُقِرَّ مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيْهِ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِعِبَادِهِ، كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ سُنَّتُهُ فِي الْمُتَقَوِّلِينَ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وَهُنَا انْتَهَى جَوَابُ الشَّرْطِ، ثُمَّ أَخْبَرَ خَبَرًا جَازِمًا غَيْرَ مُعَلَّقٍ: أَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ نَفَى عَنْهُ الْإِرْسَالَ وَالْكَلَامَ لَمْ يُقَدِّرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

قال الشيخ:

بدأ أولًا بأن دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة، وأنها أُفردت بالتأليف، وذكر منها ابن كثير في تاريخه[1] في آخر السيرة الشيء الكثير الذي أتى إليه إحصاؤه،

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٢٥٧ وما بعدها).

وتتبعها أيضًا الكثيرون. ومن أوسع من توسَّع فيها البيهقي في «دلائل النبوة»، وهو مطبوع، وكذلك أبو نعيم صاحب «الحلية» له كتاب «دلائل النبوة» وهو مطبوع أيضًا، وهكذا غيرهم. وبأكثرها يُعلم ويتيقن أنه ﷺ صادق فيما جاء به، فكيف بمجموعها مع كثرتها.

ثم إن الشارح ضرب مثلًا في أن المكذبين لنبينا محمد ﷺ - كاليهود والنصارى، وكذلك سائر المكذبين - لا شك أنهم قد سبُّوا الله، وتنقصوه غاية التنقيص من حيث لا يشعرون، فكثير من اليهود يدّعون أنه كذاب وأنه مفترٍ، وكذلك أيضًا كثير من النصارى والوثنين وغيرهم، وآخرون يقولون: إنه رسول إلى العرب فقط وليس برسولٍ إلى غيرهم فرسالته خاصة.

فيُقال لهؤلاء - كما قال الشارح رحمه الله -: أنتم قد تنقصتم الله غاية التنقص؛ لأنكم ادّعيتم أنه كذاب، والله تعالى ينصره، وهو مع ذلك يتصرف هذه التصرفات وهو كذابٌ في زعمكم، ومع ذلك يدّعي أنه مرسل من الله، فيحلِّل أشياء، ويحرِّم أشياء، ويبطش بالناس، ويقتل ويأسر ويوثق وينتقم ويسبي الذراري، ويقتل الأباء، ويحبس ويفتح البلاد، ويدوخ العباد، ويجول في الأرض، ويتجول مثل ما هو الواقع، وهو مع ذلك كذاب مفترٍ في زعمكم، والله يؤيده ويقوّيه وينصره، ويمده بالمعجزات، ويمده بالملائكه التي تقوّيه، ويجيب دعواته، وينتصر له، وهو يعلم أنه كذاب وأنه مفترٍ.

هذا بلا شك تنقص لله تعالى؛ لأن حكمة الله تأبى إلا أن ينتقم ممن كفر، كما انتقم من الذين كذبوا الرسل فيما سبق، وأحل بهم أنواع العقوبات، وأنزل

بهم أنواع المثلات، وقد ذكر الله تعالى أنه ينتقم منه لو كذب، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٦]، يعني: أنه لو كان متقولًا وكاذبًا لانتقمنا منه، ولبطشنا به بطشًا شديدًا، وأمتناه وقطعنا دابره؛ كما فعلنا ذلك بمن كذب وافترى، فإنه ظهر في زمن النبي ﷺ بعض المفترين والكذابين، لكن ما مُتِّعوا، منهم رجل تسمَّى بالأسود العنسي، ذلك الذي تنبأ في اليمن، ولكنه ما مكث إلا ثلاثة أشهر حتى قُتل، ومنهم: مسيلمة الكذاب في آخر العهد النبوي، وبعد موت النبي ﷺ، بايعه خلق كثير أكثر من مئة ألف، ولما غزاهم الصحابة في نحو عشرة آلاف أو أقل لم يقفوا دونهم، بل سُلِّط عليه من قتله - وهو وحشي قاتل حمزة - ثم بعد ذلك اضمحلّت دعوته ولم يبق لها أثر.

هذه سنة الله فيمن كذّب وافترى عليه، لكن رسالة هذا النبي الكريم باقية مستمرة والحمد لله، تزداد قوة وعلوًّا وظهورًا، وأتباعه الذين ينتمون وينتسبون إلى رسالته لهم التمكن ولهم القوة، كلّما حققوا السير على طريقته والتمسك بسنته يتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقوله: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

تحقق ذلك كله في أتباع هذا النبي الكريم، فدلّ ذلك يقينًا على أنه صادق

مصدق، شهدت برسالته العقول، وشهدت بصدقه القلوب، وعرف ذلك الخاص والعام، وأظهر الله تعالى دينه كما وعد بذلك في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]، فصدق الله هذا الوعد، وأظهره على الدين كله؛ حتى دخل دين الإسلام في أكثر المعمورة وفي أكثر بقاع الأرض، وبقي ظاهرًا جليًّا، كلما تمسك أهله به أظهرهم الله تعالى وقوّاهم. ولا شك أن هذا دليل على أن هذه الشريعة من الله، وأن الذي جاء بها هو الصادق المصدوق، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

قال الشارح:

وَقَدْ ذَكَرُوا فُرُوقًا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، وَأَحْسَنُهَا: أَنَّ مَنْ نَبَّأَهُ اللَّهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، إِنْ أَمَرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ. فَالرَّسُولُ أَخَصُّ مِنَ النَّبِيِّ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا، وَلَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، فَالنُّبُوَّةُ جُزْءٌ مِنَ الرِّسَالَةِ، إِذِ الرِّسَالَةُ تَتَنَاوَلُ النُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا، بِخِلَافِ الرُّسُلِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَنَاوَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ، بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، فَالرِّسَالَةُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَهْلِهَا.

وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخُصُوصًا مُحَمَّدًا ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

قال الشيخ:

أولًا: ذكر أن هناك فرقًا بين الرسول والنبي، وقد عطف اللهُ بعضهم على بعض في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢]، وأكثرهم على أن الرسول هو الذي يُكلَّف بالتبليغ، فإذا لم يُكلَّف بالتبليغ فهو نبي، فإذًا الرسالة أخص، والأنبياء أكثر من الرسل. ولذلك ورد في عددهم أنهم أكثر من مئة ألف نبيّ، وأن الرسل ثلاث مئة وثلاثَ عشرة رسولًا، وقد

ذكر الله في القرآن عددًا منهم، ولم يذكر الكثير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، ورسالة نبينا محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع وخاتمة الرسل، فهو خاتم الأنبياء، ورسالته آخر الرسالات، وشريعته آخر الشرائع، وبلا شك أن إرسال الرسل إلى أهل الأرض نعمة من الله؛ ليبلغوهم شرع الله عندما يعظم الجهل ويتراكم على القلوب، وتطول الغفلة، ويطول زمن الفترة، ويقع الناس في المعاصي والكفر، ويحق عليهم العذاب، عند ذلك يرسل الله إليهم رسولًا يبين ما وقعوا فيه من الجهالات، وما أخطأوا فيه من الأعمال، ويدعوهم إلى الرجوع إلى ربهم، وإلى ترك البدع والضلالات والشركيات، وإلى اتباع الشريعة والطاعة لله ولرسوله، فإذا أصروا وعاندوا أهلكهم، وإذا آمنوا نصرهم وأيدهم وقوَّاهم.

وقد ذكر الله تعالى أن رسالة نبينا محمد ﷺ من أعظم المِنَن وأكبر النعم على هذه الأمة، في موضعين من القرآن، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال - جل وعلا -: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، فذكر أن ذلك مِنّةٌ من الله عليهم؛ حيث أصبح سببًا في انتشالهم من الجهالات، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ

ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٩].

فإذًا هذه الرسالة نعمة من الله، كان الناس قبلها في جهالة لا يعرفون لماذا خلقوا، ولا بماذا أمروا، ولا بماذا كلِّفوا ؟ يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، ويستحلون المحرمات، وليس عندهم إيمان بالبعث والجزاء والنشور، ولا معرفة لحلال ولا حرام، جهلةٌ في غاية الجهل، فلمّا جاءت هذه الشريعة أصبحوا بعدها عارفين، متحققة المعرفة فيهم، وزالت عنهم تلك الأمور الجاهلية، وأصبحوا ذوي معرفة وذوي إيمان، وتلك مِنّةٌ الله على عباده، فما عليهم إلا أن يشكروا ربهم على ما أعطاهم وما وهبهم. قال الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]، بعدما أخبر الله سبحانه بأنه أرسل الرسول ليبين لهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، أمرهم بذكره، وأن يطيعوا هذا الرسول، وأن يتبعوه، وأن يعملوا بشريعته، وفائدة ذلك ونتيجته أن ينصرهم الله تعالى، ويؤيدهم، ويقويهم، ويعزهم، ويظهر دينهم على الدِّين كله ولو كره المشركون.

قال الطحاوي:

وَأَنَّهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ بِنَاؤُهُ، وَتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ، فَطَافَ بِهِ النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ، إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بِيَ الْبُنْيَانُ وَخُتِمَ بِيَ الرُّسُلُ»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[١].

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ، وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»[٢].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (١٤/ ٣١٦)، والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ١٧٥)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٤٧١)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأصله عند البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) بلفظ مختلف.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

بَعْدِي»[1]، الحَدِيثَ.

وَلِمُسْلِمٍ[2]: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ».

قال الشيخ:

من صفاته ﷺ أنه خاتم الأنبياء، ولأجل ذلك صارت شريعتُه خاتمة الشرائع، وكذلك حُكم ببقائها إلى أن تقوم الساعة، لا تنسخها شريعة، ولا يأتي بعده نبي، هذه الأدلة تدل على أنه آخر الأنبياء، والأنبياء قبله كثير، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك:٩]، والنُّذُرُ: هم الأنبياء والرسل أو المنذرون لهم، فلما علم الله تعالى فضيلة هذه الشريعة وميزتها وملاءمتها لكل زمان ومكان، وصلاحها لكل جيل وقُطر، وعدم منافاتها للمصالح العامة والخاصة، جعلها الله شريعةً عامةً، فكان من ضمن رسالة هذا النبي الكريم أن أُرسل إلى الناس عامة قاصيهم ودانيهم، وأن جُعلت رسالته عامة وخاتمة للرسالات، بحيث

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) وابن حبان (١٦/ ٢٢٠)، ولم يرد عند مسلم بهذا اللفظ، وإن كان أصله عنده برقم (٢٨٨٩).

(٢) برقم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لا ينسخها بعده من يأتي، وقد ذكر أنه يأتي بعده ابن مريم في قوله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حتى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»[1]، ولكنه يحكم بشريعة الإسلام، فأصبحت هذه الشريعة ـ لشرفها ولصلاحيتها ـ آخر الشرائع، وأصبح هذا النبي ـ لشرفه وميزته ـ آخر الأنبياء. هكذا نعتقد، وكل من ادّعى النبوة بعده فإنه كذاب مهما كان، ففي هذا الحديث الذي ذكره الشارح أخبر ﷺ بأنه يأتي بعده ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، ولكن سماهم كذابين، وهو ﷺ آخر الأنبياء وخاتم الرسل.

وذكر بعض العلماء أنه خرج من هؤلاء الثلاثين عددٌ كثير، فقيل: خرج منهم سبعة وعشرون أو ثمانية وعشرون، وما بقي إلا واحد أو اثنان، وآخرهم المسيح الدجال الكذاب، ومراده بهؤلاء الثلاثين من يأتي بشبهات، ويصدقه بعض العوام، ويقع بسببه فتنة، ويغترُّ وينخدع به أُناس، ويكون له أتباع ومؤيدون ينتصرون له.

ومن آخر من تنبأ أو خرج في هذه القرون: غلام أحمد القادياني، الذي ادّعى أنه نبيٌّ، وأنه يأتيه الوحي، وقد عظمت الفتنة به، وظهر في بلاد الهند، وانتشر أتباعه وسُمُّوا بالقاديانية، ولا يزالون متمكّنين إلى هذا اليوم، ولا يزال العلماء يضلِّلونهم ويردُّون عليهم ويُبدِّعونهم ويبيِّنون تهافتهم وأكاذيبهم، وهم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مع ذلك لا يزالون منتشرين، مع أن دعوى ذلك الغلام الذي ادّعى أنه يأتيه الوحي دعوى باطلة، يُكذبها أدنى من يتأمل بعقلٍ وبأدنى معرفة.

ولكن قد يجد من يتتبّع التاريخ عددًا كثيرًا قد يزيدون على المئات يدَّعون أنهم يأتيهم الوحي وأنهم أنبياء، حتى في زماننا هذا في الوقت القريب ظهر أكثر من عشرة، كلهم يدّعون ذلك، لكن غالب ذلك عن نقصٍ في العقل، وعن وجع في الرأس يخلُف فكر الإنسان، وعن وساوسَ شيطانية يُخيل بها إلى ذلك الإنسان، فيدّعي هذه الدعوى، ويزين له الشيطان، ولا ينخدع الناس به، ولا يعملون بقوله.

وقد وقع هذا أيضًا في القرون المتقدمة كثيرًا، فقوله ﷺ: «**وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ**»، المراد به من لهم شبهاتٌ، ومن لهم سلطةٌ وقوةٌ يتمكنون بها، ويتبعهم فئامٌ من الناس، وليس المراد كل من ادّعى أنه نبيّ، ولكن من ينخدع به ويُغتَرُّ بمقاله.

وبكل حال فالأدلة واضحةٌ في أن محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء، وخاتم الرسل، ولا عبرة بمن جاء بعده وادعى ذلك.

وقد ذُكر أن رجلًا سمي نفسه «لا»، وادَّعى أنه نبيٌّ، وقال: إن محمدًا يقول: «**لا، نبيٌّ بعدي**»، يعني: الشخص الذي اسمهُ «لا» نبيٌّ بعدي. فيُرَدّ عليه بالآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهكذا أيضًا ذكروا في زمن قريب أن امرأة ادّعت أنها نبية، وقالت: إن

محمدًا يقول: «**لا نبي بعدي**»، ولم يقل لا نبية بعدي. ولا شك أن الرسالة جاءت في الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [يوسف:١٠٩]، فلم يبعث الله تعالى النبوة إلا في الرجال، والصحيحُ أنّ مريم ابنة عمران إنما هي صِدِّيقة، كما قال تعالى: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ ﴾ [المائدة:٧٥]، لم تصل إلى درجة النبوة، ولم ينزل عليها الوحي، والوحي الذي أنزل على أمها إنما هو وحيُ إلهام، وكذلك الوحي الذي أُنزل على أمِّ موسى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾ [القصص:٧]، أي: وحي إلهام.

وعلى كل حال، فنبوة محمد ﷺ هي آخر النبوات، وشريعتُه هي آخر الشرائع، والمتمسك بها إن شاء الله على سبيل النجاة.

قال الطحاوي:

وَإِمَامُ الْأَتْقِيَاءِ.

قال الشارح:

هُوَ ﷺ الْإِمَامُ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، أَيْ: يَقْتَدُونَ بِهِ. وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا بُعِثَ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَتْقِيَاءِ.

قال الشيخ:

هذه من صفاته ﷺ، ولا شك أنّ الإمامة معناها القدوة، والإمام هو الذي يُقتدى به، وقد وصف الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه أمة في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، يعني: قدوة، يُقتدى به.

ومدح اللهُ عباده الذين يقولون: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وكذلك جعل اللهُ تعالى إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وإذا كان نبينا محمد ﷺ إمامًا فإنه يُقتدى به، والاقتداء يعمُّ الاقتداء بكل ما جاء به، سواء من العادات أم من العبادات، فإن

كان من العبادات والقربات، فالعبد يفعلها على أنها طاعةٌ يحتسب الأجر فيها، والطاعات والعبادات هي ما جاء عن ربّه، فجاء عن الله تعالى بالحلال والحرام، وجاء بالطاعات والحسنات، فنحن نفعلها على أنها من سنته، فنحافظ على الصلوات؛ لأنها من شريعته، فرائضها ونوافلها، وكذلك على الطهارة سواء بالماء أو بالتراب أو نحو ذلك، وهكذا سائر العبادات كالصيام والصدقة والحج والجهاد والدعوة إلى الله والذكر والقراءة وما أشبهها. هذه تُفعل على أنها من العبادة، يُتَّبعُ فيها شرع هذا النبي الكريم.

وأما العادات، فنفعلها إذا نقلت عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أنها أولى من غيرها، وإن كان الغرض منها جائزًا، والمراد بالعادات: الأمور التي كان معمولًا بها قبل الإسلام، فمن المعلوم أنه ﷺ كان يأكل ويشرب وينام ويتزوج، وكذلك كان يدخل ويخرج ويركب وينزل ويسافر ويرحل ويقيل، وغير ذلك من الأمور المعتادة، فهذه العادات إذا فعلها العابد اقتداء واتباعًا ومحبة فقد يثاب عليها، ولو كانت مما تستدعيها النفس، كما أخبر ﷺ بأن العبد إذا فعلها اقتداءً واتباعًا وبنيةٍ صادقة أثيب عليها، فيثاب على طلب الرزق لأجل أن يعفَّ نفسه، ولأجل أن يقُوت من تحت يده، ويثاب على إعفافه لزوجته، وإن كان ذلك من الأمور الطبيعية، ويُثاب على نفقته على أهله؛ لقوله ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها وَجْهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي**

فِي امْرَأَتِكَ»[١]، أما إذا فعل ذلك على أنها عادة فلا ثواب ولا عقاب.

وعلى كل حالٍ فكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إمامًا لأمته، وبالأخص المتقون منهم المقتدون به، هذا يعمُّ كل ما جاء به من الشرع، ويكون أتباعه في ذلك لهم الأجر على هذا الاتباع.

(١) أخرجه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

قال الطحاوي:

وَسَيِّدُ المُرْسَلِينَ.

قال الشارح:

قَالَ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١]. وَفِي أَوَّلِ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢]. وَرَوَى مُسْلِمٌ[٣] وَالتِّرْمِذِيُّ[٤] عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِسَاقِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ». خَرَّجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٥]، فَكَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) برقم (٢٢٧٦).

(٤) برقم (٣٦٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ».

آدَمَ وَلَا فَخْرَ»[(١)]؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ هَذَا كَانَ لَهُ سَبَبٌ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ قَالَ يَهُودِيٌّ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَلَطَمَهُ مُسْلِمٌ، وَقَالَ: أَتَقُولُ هَذَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ فَاشْتَكَى مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَطَمَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا؛ لِأَنَّ التَّفْضِيلَ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الحَمِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَهَوَى النَّفْسِ كَانَ مَذْمُومًا، بَلْ نَفْسُ الْجِهَادِ إِذَا قَاتَلَ الرَّجُلُ حَمِيَّةً وَعَصَبِيَّةً كَانَ مَذْمُومًا، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْفَخْرَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَذْمُومَ إِنَّمَا هُوَ التَّفْضِيلُ عَلَى وَجْهِ الْفَخْرِ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الِانْتِقَاصِ بِالْمَفْضُولِ. وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ أَيْضًا قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»[(٢)]، إِنْ كَانَ ثَابِتًا، فَإِنَّ هَذَا قَدْ رُوِيَ فِي نَفْسِ حَدِيثِ مُوسَى، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ. لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: إِنَّ فِيهِ عِلَّةً، بِخِلَافِ حَدِيثِ مُوسَى، فَإِنَّهُ صَحِيحٌ لَا عِلَّةَ فِيهِ بِاتِّفَاقِهِمْ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (٣/ ٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه أحمد (١/ ٢٨١)، وأبو يعلى (٤/ ٢١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ»، وأخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، بلفظ: «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ».

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُهُمْ بِجَوَابٍ آخَرَ، وَهُوَ: أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى»، وَقَوْلَهُ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ الْخَاصِّ، أَيْ: لَا يُفَضَّلُ بَعْضُ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ بِعَيْنِهِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» فَإِنَّهُ تَفْضِيلٌ عَامٌّ، فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ. وَهَذَا كَمَا لَوْ قِيلَ: فُلَانٌ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَلَدِ، لَا يَصْعُبُ عَلَى أَفْرَادِهِمْ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ: فُلَانٌ أَفْضَلُ مِنْكَ. ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ الطَّحَاوِيَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ أَجَابَ بِهَذَا الْجَوَابِ فِي «شَرْحِ مَعَانِي الْآثَارِ»[1].

قال الشيخ:

وصف النبي ﷺ بأنه سيد ولد آدم، وسيدُ الناس يوم القيامة، وسيد المرسلين، ويُطلقُ السيدُ على الشريف، وعلى المطاع، وعلى كبير القوم، وعلى أفضلهم، أو من له حُرمةٌ فيهم؛ الذي إذا أشار إليهم أطاعوه، والذي يحترمونه ويقدرونه ويعرفون له ميزته وفضله وشرفه.

وقد ورد ما يدل على النهي عن هذا الإطلاق، ووردت أحاديث تدل على الإباحة، من ذلك ما أورده الشارح من قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وكذلك قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»، يعني: لا أقول ذلك افتخارًا، وإنما هو من باب التحدث بنعم الله، عملًا بقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وذكر السبب؛ وهو أن

---

(١) (٤/ ٣١٥).

الناس يوم القيامة يطلبُون أن يشفع لهم، فيأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيطلبون منهم الشفاعة، فكلّهم يعتذر، حتى يأتون إليه ﷺ فيشفع، فيكون بذلك سيدًا؛ لأنه قُبلت شفاعته حيث شفع. ولا شك أن هذا السُّؤدد والمنزلة، توجب له فضلًا وشرفًا.

وأما دليل النهي: فما ثبت عنه ﷺ في حديث وفد بني عامر عن عبدالله بن الشخير ﷺ، قال: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رسول اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أنت سَيِّدُنَا، فقال: «السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أو بَعْضِ قَوْلِكُمْ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ»[1].

ولعل الجمع بينهما أن نهيه عن قول: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»، مخافة أن يغلوا فيه؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بجاهلية، فخاف أنه إذا أقرّهم على هذه اللفظة أعطوه شيئًا من خالص حق الله، فمنعهم، وقال: «السَّيِّدُ الله». وأمرهم أن يقولوا: «عَبْدُاللَّهِ وَرَسُولُه»، ولا يتكلموا بألفاظٍ فيها شيءٌ من الزيادة والغُلوّ. ومع ذلك فإن أفضل ما يوصف به الوصف الذي اختاره لنفسه، وهو العبودية مع الرسالة والنبوة، حيث وصفه الله بالعبودية والرسالة والنبوة، وهي الأوصاف التي وردت في القرآن، فنقول: نبي الله، وعبد الله، ورسول الله، ولا يمنع أن نقول: سيدنا وسيد ولد آدم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٠٣)، وأحمد (٤/ ٢٤، ٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٨٣).

وذكر الشارح أنه يشكل الأمر على أحدهم، فيقول: كيف يكون سيد المرسلين وأفضل النبيين، وهو ﷺ قد اعترف أن موسى - عليه السلام - أفضل منه، فقال: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى**»، وأجاب الشارح: بأن هذا في الرد على من يتعصب لشخص بعينه، فإن ذلك الأنصاريَّ ﷺ غار لما سمع اليهودي يقول: «والذي اصطفى موسى على البشر»، فلطم اليهودي، وقال: «تقول هذا ومحمد بين أظهرنا؟»، يعني: أنه أشرف، وأنه الذي اصطفاه الله على البشر، فأمر ﷺ بأن لا يُفاضل بين الأنبياء، وأمر بأن لا يُفَضَّل على موسى - عليه السلام - من باب الاعتراف بفضل موسى، ومن باب التواضع منه ﷺ، وإلا فقد عرف أنه أفضل من غيره، ولو لم يكن من فضله إلا أنه الذي يشفع والذي يبعثه الله مقامًا محمودًا، والذي تُقبل شفاعته، فيقال له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ**»[1].

وكذلك ذكر السبب، وهذا قد يكون مبررًا، ولكن لا يقتضي الفضل كون الناس يصعقون يوم القيامة الصعقة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، أخبر بأن الناس يُصعقون، وأن أولُ من يفيق وأول من يصحو ويرفع رأسه محمد ﷺ، لكنه يجد موسى - عليه السلام - قد

(١) قطعة من حديث الشفاعة المتقدم تخريجه (ص٤٣٥).

أفاق قبله، وقد أخذ بقائمة من قوائم العرش، فيقول: «فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللَّـهُ»[1]، وفي رواية: «أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»[2]، وصعقة الطور هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، يعني: أن تلك الصعقة صارت هي حظه من الصعق، فلم يصعق لما صعقوا، أو هو ممن استثنى الله في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الزمر:٦٨]، يعني: هو ممن شاء الله ألا يصعق، أو أنه أفاق قبله، فإذا كان أفاق قبله، كان له مزية، وأما إذا جوزي أو كان ممن استثنى الله، فلا يدل ذلك على فضل ومزيّة على محمد ﷺ.

فبالجملة محمد ﷺ أفضل الرسل، وأمّته أفضل الأمم، بل وأكثرهم دخولًا الجنة، والذي يدخل من أمته الجنة أكثر من أمة موسى ـ عليه السلام ـ ومن غيره من الأنبياء.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا يُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، وَأَنَّ بَعْضَ الشُّيُوخِ قَالَ: لَا يُفَسِّرُ لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى يُعْطَى مَالًا جَزِيلًا، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ فَسَّرَهُ بِأَنَّ قُرْبَ يُونُسَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ كَقُرْبِي مِنَ اللَّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَعَدُّوا هَذَا تَفْسِيرًا عَظِيمًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ وَبِكَلَامِ رَسُولِهِ لَفْظًا وَمَعْنًى، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بِهَذَا اللَّفْظِ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اللَّفْظُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[1]. وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»[2]. وَهَذَا اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، أَيْ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى، لَيْسَ فِيهِ نَهْيُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُفَضِّلُوا مُحَمَّدًا عَلَى يُونُسَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ الْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، أَيْ: فَاعِلٌ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فَقَدْ يَقَعُ فِي نَفْسِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ أَكْمَلُ مِنْ يُونُسَ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ، إِذْ لَا يَفْعَلُ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَمَنْ ظَنَّ هَذَا فَقَدْ كَذَبَ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ يَقُولُ مَا قَالَ

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٣) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

يُونُسُ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كَمَا قَالَ أَوَّلُ الأَنْبِيَاءِ وَآخِرُهُمْ.

فَأَوَّلُهُمْ: آدَمُ، قَدْ قَالَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

وَآخِرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ: مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ - حَدِيثِ الاسْتِفْتَاحِ - مِنْ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَغَيْرِهِ، بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ» إِلَى آخِرِهِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[1]، إِلَى آخِرِ الحَدِيثِ.

وَكَذَا قَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦]، وَأَيْضًا: فَيُونُسُ ﷺ لَمَّا قِيلَ فِيهِ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم:٤٨]، فَنُهِيَ نَبِيُّنَا ﷺ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِ، وَأُمِرَ بِالتَّشَبُّهِ بِأُولِي الْعَزْمِ، حَيْثُ قِيلَ لَهُ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، فَقَدْ يَقُولُ مَنْ يَقُولُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ: وَلَيْسَ لِلْأَفْضَلِ أَنْ يَفْخَرَ عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ؟ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَفِي

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

صَحِيحِ مُسْلِمٍ[١] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». فَاللَّهُ تَعَالَى نَهَى أَنْ يُفْخَرَ عَلَى عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَيْفَ عَلَى نَبِيٍّ كَرِيمٍ؟ فَلِهَذَا قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». فَهَذَا نَهْيٌ عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَضَّلَ وَيَفْتَخِرَ عَلَى يُونُسَ.

وَقَوْلُهُ: «مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»، فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ، فَهَذَا الْكَلَامُ يَصِيرُ نَقْصًا، فَيَكُونُ كَاذِبًا، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ، بَلْ هُوَ تَقْدِيرٌ مُطْلَقٌ، أَيْ: مَنْ قَالَ هَذَا فَهُوَ كَاذِبٌ، وَإِنْ كَانَ لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، وَإِنْ كَانَ ﷺ مَعْصُومًا مِنَ الشِّرْكِ، لَكِنَّ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ لِبَيَانِ مَقَادِيرِ الْأَعْمَالِ.

وَإِنَّمَا أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ؛ لِأَنَّا لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْلَمَ ذَلِكَ إِلَّا بِخَبَرِهِ، إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ يُخْبِرُنَا بِعَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَنَا هُوَ بِفَضَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ، وَلِهَذَا أَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ: «وَلَا فَخْرَ»، كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ. وَهَلْ يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنَّ مَقَامَ الَّذِي أُسْرِيَ بِهِ إِلَى رَبِّهِ - وَهُوَ مُقَرَّبٌ مُعَظَّمٌ مُكَرَّمٌ - كَمَقَامِ الَّذِي أُلْقِيَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ؟! وَأَيْنَ الْمُعَظَّمُ الْمُقَرَّبُ مِنَ الْمُمْتَحَنِ الْمُؤَدَّبِ؟! فَهَذَا فِي غَايَةِ التَّقْرِيبِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّأْدِيبِ. فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الِاسْتِدْلَالِ؛ لِأَنَّهُ بِهَذَا الْمَعْنَى الْمُحَرَّفِ لِلَفْظٍ لَمْ يَقُلْهُ الرَّسُولُ، وَهَلْ يُقَاوِمُ هَذَا الدَّلِيلُ عَلَى نَفْيِ عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الصَّرِيحَةَ الْقَطْعِيَّةَ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ

---

(١) برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، الَّتِي تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ دَلِيلٍ، كَمَا يَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

في هذا الشرح الطويل رد على بعض علماء الأشاعرة، وهو الجويني، ذكروا أنه استدل بقوله في الحديث: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُس**» بأنه دليل على مسألتنا في العلو: بأن الله ليس فوق عرشه، وليس فوق عباده. وفسّر ذلك بأن يونس في وسط البحر، ومحمدًا فوق السمٰوات السبع، وكلاهما بالنسبة إلى الله سواءٌ، يعني كلاهما بالقرب منه، سواء الذي في لُجّة البحر، والذي فوق سبع سمٰوات، واستدل الجويني بهذا على أن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ ليس فوق العرش، ولا فوق السمٰوات، يعني: أن الله في كل مكان ـ تعالى الله عن قولهم ـ فرد عليه الشارح وبيّن أن هذه مقالة شنيعة؛ فالحديث لم يثبت بهذا اللفظ: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُس بِن مَتَّى**»، وإنما الذي ثبت قوله ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**».

وسبب الحديث: أنّه قد يقول رجلٌ: أنا خير من يونس؛ لأن يونس ذهب مغاضبًا، وظن أن الله لن يقدر عليه، ويونس نبذ بالعراء وهو مذموم، فالتقمه الحوت وهو مليم، فأنا خيرٌ منه؛ لأني ما فعلت هذه الأفعال، فقد يقول ذلك بعض الناس، فنهاهم وقال: لا تقولوا ذلك، فإن يونس نبي من أنبياء الله، أجرى الله تعالى له هذه الآيات والمعجزات، حيث التقمه الحوت، ولبث في

بطنه مدة، ولم يمت في بطنه، وكذلك أمر الله الحوت أن يخرجه وينبذه على ساحل البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وأرسله إلى قومه، وهم مئة ألف أو يزيدون، فآمنوا، وكل هذه فضائل له، مع أنه قد اعترف بالظلم في قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، نقول: هذا الظلم لا ينقِّصه، بل نبينا - عليه الصلاة والسلام - قد اعترف بالظلم، وكذلك أبوه آدم - عليه السلام - بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فلا ينبغي أن يغتر بمثل هذه اللفظة المنقولة عن هذا الرجل الذي قال: في هذا الحديث دليل على أن الله ليس فوق العرش. وأبى أن يفسِّره حتى يجمعوا له مالًا كثيرًا، فجمعوا له أموالًا وأعطوه إياها، فلما فسره لهم أعجبوا بذلك غاية الإعجاب، وهو تفسير بعيد عن الصواب.

قال الطحاوي:

وَحَبِيبُ رَبِّ العَالَمِينَ.

قال الشارح:

ثَبَتَ لَهُ ﷺ أَعْلَى مَرَاتِبِ المَحَبَّةِ، وَهِيَ الخُلَّةُ، كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»(١)، وَقَالَ: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ»(٢). وَالحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحِ، وَهُمَا يُبْطِلَانِ قَوْلَ مَنْ قَالَ: الخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَالمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ، فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ، وَمُحَمَّدٌ حَبِيبُهُ. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ»(٣). وَالمَحَبَّةُ قَدْ ثَبَتَتْ لِغَيْرِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فَبَطَلَ قَوْلُ مَنْ خَصَّ الخُلَّةَ بِإِبْرَاهِيمَ وَالمَحَبَّةَ بِمُحَمَّدٍ، بَلِ الخُلَّةُ خَاصَّةٌ بِهِمَا،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) بنحوه، من حديث ابن مسعود ﷺ، وأخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - دون قوله: «وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ».

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب ﷺ.

وَالمَحَبَّةُ عَامَّةٌ. وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1] الَّذِي فِيهِ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ»، لَمْ يَثْبُتْ.

قال الشيخ:

هذا مشتهر عند غلاة الصوفية أن المحبة أعلى من الخلة، وأنها أعلى الصفات، ولأجل ذلك يبالغُ أهلُ السلوك وأهل التصوف في وصف المحبة وفي آثار المحبة ونحو ذلك ولهم فيها وفي تعريفها أقوال.

وقد بحث معهم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في بعض كتبه في تعريف المحبة، كما في كتابه الذي كتبه في المحبة، وأسماه «روضة المحبين»، وكذلك في كتابه الذي أسماه «مدارج السالكين» عند باب المحبة، وهكذا في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين»، فإنه تكلم في هذه الكتب على المحبة، ونقل عن أهل السلوك وأهل التعبد وأهل التصوف تعريفات لها، حتى وصل إلى ثلاثين تعريفًا، وانتهى إلى أن قال: إن المحبة كاسمها، لا تحتاج إلى تعريف، ولا تزيدها التعريفات إلا غموضًا، فالمحبة كلمة محبوبة، كلمة لذيذة، كلمة معروفة عند السامع، لا تحتاج إلى تفسير. ولا شك أن صفة المحبة تثبت بين المؤمنين وفي حق المؤمنين لربهم، ومن الله لهم، ومن بعضهم لبعض، فثبت قوله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ**

---

(١) برقم (٣٦٢٠) وقال: «هذا حديث غريب».

إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[١].

وفي حقوق المسلم لأخيه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وفي قوله - عليه الصلاة والسلام: «لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٢]، فهذه المحبة من المؤمن لأخيه، ولكن لها آثار، فإذا أحببت أخاك كان من آثار ذلك أن توده، وأن تقترب منه، وأن تدله على خير ما تعلم، وتحذره من شر ما تعلمه. هذه آثار المحبة، فمن كان صادقًا فإنها تظهر عليه آثارها.

وأما محبة الله تعالى لعباده فهي المحبة المطلوبة، يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[٣]، وكذلك الآيات التي أوردها الشارح فيها إثبات أن الله يحب من هذه صفته، ومثلها كثير كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف:٤]، وقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، وأشباه ذلك كثير، مما يدل على أن الله تعالى يحب عباده المؤمنين، الذين هذه صفاتهم، وآثار محبته لهم أنه يوفقهم ويسددهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إذًا فكل المؤمنين يحبون الله تعالى، والرسول ﷺ أخبر بأن الله تعالى يحب أناسًا بأعيانهم، ومن ذلك قوله في علي ﷺ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ على يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**»[١]، فأعطاها عليًا ﷺ.

ولا شك أن المؤمنين كلهم يعرفون أنهم يحبون الله حبًا شديدًا، وأن أسباب محبتهم له أنه أعطاهم وخوّلهم وأنعم عليهم وهداهم، وأنه هو ربهم ومالكهم وسيدهم والمتصرف فيهم، وأنه المستحق لأن يعبد، ويُصلى له ويسجد، وأنه الذي بيده الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وهو الذي يثيب ويعاقب. فكانت هذه الأسباب دافعة للمؤمن أن يحب ربه.

وقد ذكرنا أن للمحبة آثارًا، لكن البعض من الناس يقولون: إنهم يحبون الرسول، ويحبون الله، وهناك آية تفضحهم تسمى آية المحنة، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهكذا قول الشاعر[٢]:

تَعْصِي الْإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَـٰذَا عَجِيبٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٢) أخرج البيتين - الأول والثاني - ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٩) ونسبهما إلى عبدالله ابن المبارك، ونسبهما البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٨٦) لأبي العتاهية. وأورد الأبيات الثلاثة ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٧٩) ونسبها إلى الإمام الشافعي.

فِي كُـلِّ يَـوْمٍ يَبْتَـدِيكَ بِنِعْمَـةٍ ... مِنْـهُ وَأَنْـتَ لِـشُكْرِ ذَاكَ مُـضِيعُ

إذًا المحبة ليست خاصة بالأنبياء، بل الله يحب المؤمنين والمتقين، ولا يحب فقط محمدًا أو نبيًا من الأنبياء، بل يحب عباده كلهم إذا كانوا صالحين، مصلحين، محسنين، مؤمنين، تائبين، قانتين، مطيعين له، متطهرين، مقاتلين في سبيله، ومتصفين بغير ذلك من الصفات التي رتب المحبة عليها.

وأما الخلَّة، فهي أعلى أنواع المحبة، يقول الشاعر[1]:

قَدْ تَـخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِـذَا سُـمِّيَ الْـخَلِيلُ خَلِـيلَا

وقد أثبت الله تعالى الخلة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وجاء في الحديث الذي أورده الشارح في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»، فالخليلان هما: نبينا محمد وأبو الأنبياء إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. فهذه الخلة ـ التي هي أعلى أنواع المحبة ـ قد تُطلق فيما بين الآدمين كما حكى الله تعالى عن قول بعض الكفار وهو في النار: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨]، يعني: محبًا محبة قوية، وكذلك أخبر عن أهل المحبة الدنيوية فسماهم أخلاء، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وعلى هذا، فالخلّة أعلى أنواع المحبة، وقد ثبتت من الله تعالى لإبراهيم

---

(١) هو بشار بن برد، انظر ديوانه (ص٩٧٩).

عليه السلام، ثم لمحمد ﷺ، فهما الخليلان.

فمن يقول: إن محمدًا حبيب الله، وإن إبراهيم خليل الله، وإن المحبة أعلى من الخلة، فقد أخطأ، بل الخلة أعلى من المحبة، فهي أعلى صفاتها، وإبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - كلاهما خليل الله تعالى، وبقية المؤمنين والمتقين أحباء لله تعالى، الذين يحبهم ويحبونه.

قال الشارح:

وَالمَحَبَّةُ مَرَاتِبُ:

أَوَّلُهَا: الْعَلَاقَةُ، وَهِيَ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالمَحْبُوبِ.

وَالثَّانِيَةُ: الْإِرَادَةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَى مَحْبُوبِهِ وَطَلَبُهُ لَهُ.

الثَّالِثَةُ: الصَّبَابَةُ، وَهِيَ انْصِبَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ، كَانْصِبَابِ المَاءِ فِي الحُدُورِ.

الرَّابِعَةُ: الْغَرَامُ، وَهِيَ الحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، وَمِنْهُ الْغَرِيمُ، لِمُلَازَمَتِهِ، وَمِنْهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].

الخَامِسَةُ: المَوَدَّةُ، وَالْوُدُّ، وَهِيَ صَفْوُ المَحَبَّةِ وَخَالِصُهَا وَلُبُّهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦].

السَّادِسَةُ: الشَّغَفُ، وَهِيَ وُصُولُ المَحَبَّةِ إِلَى شَغَافِ الْقَلْبِ.

السَّابِعَةُ: الْعِشْقُ: وَهُوَ الحُبُّ المُفْرِطُ الَّذِي يُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ تَعَالَى، وَلَا الْعَبْدُ فِي مَحَبَّةِ رَبِّهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَطْلَقَهُ بَعْضُهُمْ. وَاخْتُلِفَ فِي سَبَبِ المَنْعِ، فَقِيلَ: عَدَمُ التَّوْقِيفِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَلَعَلَّ امْتِنَاعَ إِطْلَاقِهِ: أَنَّ الْعِشْقَ مَحَبَّةٌ مَعَ شَهْوَةٍ.

الثَّامِنَةُ: التَّيْمُ، وَهُوَ بِمَعْنَى التَّعَبُّدِ.

التَّاسِعَةُ: التَّعَبُّدُ.

الْعَاشِرَةُ: الخُلَّةُ، وَهِيَ المَحَبَّةُ الَّتِي تَخَلَّلَتْ رُوحَ المُحِبِّ وَقَلْبَهُ. وَقِيلَ فِي

تَرْتِيبِهَاغَيْرُ ذَلِكَ، وَهَذَا التَّرْتِيبُ تَقْرِيبُ حَسَنٌ، يُعْرَفُ حُسْنُهُ بِالتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ وَصْفَ اللَّهِ تَعَالَى بِالمَحَبَّةِ وَالخُلَّةِ هُوَ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ بِالْإِرَادَةِ وَالْوُدِّ وَالمَحَبَّةِ وَالخُلَّةِ، حَسْبَمَا وَرَدَ النَّصُّ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَحْدِيدِ المَحَبَّةِ عَلَى أَقْوَالٍ، نَحْوَ ثَلَاثِينَ قَوْلًا، وَلَا تُحَدُّ المَحَبَّةُ بِحَدٍّ أَوْضَحَ مِنْهَا، فَالحُدُودُ لَا تَزِيدُهَا إِلَّا خَفَاءً، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْوَاضِحَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَحْدِيدٍ، كَالمَاءِ وَالهَوَاءِ وَالتُّرَابِ وَالجُوعِ وَالشِّبَعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

هذا من جملة كلام أهل السلوك الذين يتكلمون في العبادات القلبية، وقد ذكرنا أن ابن القيم - رحمه الله - قد أشار إلى ذلك في كتابه «روضة المحبين»، وفي «طريق الهجرتين»، وفي «مدارج السالكين»، وذكر تعريفات للمحبة، وذكر أيضًا ترتيب أنواع المحبة أو أقسامها.

فهذه الأقسام العشرة - التي أولها: العلاقة وآخرها الخلة - قد جعل هو وغيره ترتيبها تقريبيًا، ومنهم من قدم بعضها على بعض، ولا شك أنها أسماء لأنواع من المحبة، منها ما يكثر استعماله، ومنها ما لا يكثر، ومنها ما لا يجوز إطلاقه على الله تعالى كالعشق، والصحيح - في سبب عدم جواز إطلاقه - ما علّله به الشارح من أنه محبةٌ مع شهوةٍ، وأن الله تعالى يُوصفُ بالمحبة والخلّة والإرادة والمودة، يُوصف بهذه الأربعة من العشرة، أما البقية فلم ترد، فلا يجوزُ

أن تستعمل في حق الله تعالى، فالصبابة ـ مثلًا ـ والعلاقة والعشق وما أشبهها، هذه مستعملة اصطلاحيًا في أنواع من المحبة.

ولا شك أن المحبة أمر قلبي يجده الإنسان من قلبه، حيث يميل إلى المحبوب بعض الميل، ويؤثر محبوبه على نفسه أو يواسيه، ويكون له من الأثر ذلك الميل، وهناك بعض الأسباب التي استدعت ذلك، وقد تكون أسبابًا ظاهرة كالإحسان، ونحو ذلك، فإن القلوب تألف وتحب من أحسن إليها، والله تعالى هو الذي أحسن إلى عباده، وهو الذي خوّلهم وأعطاهم، فإذا أحبوه كان سبب المحبة هو الإحسان، كما أنك تحب من أحسن إليك، وقد تكون المحبة لأسباب قاصرة غير متعدية كما تحب إنسانًا لصلاحه وإن لم ينلك منه نفع دنيوي، ولكن رأيته صالحًا وتقيًا وزاهدًا وورعًا وعابدًا فأحببته لذلك، وجعلت محبتك له عبادة، تؤمل الثواب عليها؛ حيث إنه يحب الله وأنت تحبه.

فهكذا أيضًا محبتنا لربنا، لا شك أن أعظم أسبابها كونه الذي يملك العباد، والذي يتصرف فيهم، فهذه من أسباب محبتهم له، وأنه هو الذي وعد من أحبه بالثواب، ومن لم يفعل ذلك توعده بالعقاب، فكان هو أهل المحبة وأهل المودة، الذي تحبه القلوب، ويكون لها آثارٌ كما سبقت الإشارة إليه، وأن الذي يحب الله تعالى يطيعه ويعبده، وتظهر آثار ذلك على البدن في كثرة العبادة ونحوها.

قال الطحاوي:

وَكُلُّ دَعْوَى نُبُوَّةٍ بَعْدَهُ فَغَيٌّ وَهَوَى.

قال الشارح:

لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، عُلِمَ أَنَّ مَنِ ادَّعَى بَعْدَهُ النُّبُوَّةَ فَهُوَ كَاذِبٌ، وَلَا يُقَالُ: فَلَوْ جَاءَ الْمُدَّعِي لِلنُّبُوَّةِ بِالْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْبَرَاهِينِ الصَّادِقَةِ كَيْفَ يُقَالُ بِتَكْذِيبِهِ؟ لِأَنَّا نَقُولُ: هَذَا لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُوجَدَ، وَهُوَ مِنْ بَابِ فَرْضِ الْمُحَالِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَأْتِيَ مُدَّعٍ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَلَا يُظْهِرُ إِمَارَةَ كَذِبِهِ فِي دَعْوَاهُ. وَالْغَيُّ: ضِدُّ الرَّشَادِ. وَالْهَوَى: عِبَارَةٌ عَنْ شَهْوَةِ النَّفْسِ. أَيْ: أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَى بِسَبَبِ هَوَى النَّفْسِ، لَا عَنْ دَلِيلٍ، فَتَكُونُ بَاطِلَةً.

قال الشيخ:

تقدم أنه ﷺ خاتم النبيين، يعني: آخرهم، وبهذا نعرف أنّ كل من ادعى أنه نبي فدعواه غيٌّ، يعني: ضد الرشد، أي: خطأٌ وباطلٌ وضلال وبعيد عن الصواب والصدق، من ادّعى أنه نبيٌّ. فإنه كاذب، ولو موّه على الناس، ولو أتى بمخارق، ولو أتى بما عجز عنه الناس ظاهرًا، ولو فعل ما يفعله السحرة والمشعوذون ونحوهم، وادّعى أنه ينزل عليه الوحي. فنقول: هذه التي أنت تراها هي الشياطين، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١]،

فالشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، وقد تخدع العبد وتصور له أنها من الله، وأن ما تجيء به حق، وأنه نبيٌّ، فيخيل إليه أنه ينزل عليه الوحي كما ينزل على الأنبياء.

وقد وقع مثل ذلك لمن تنزلت عليهم الشياطين، فرُوي أن رجلًا قال لعبدالله بن عمر - رضي الله عنهما -: إن المختار يزعم أنه ينزل عليه جبريل، فقال: «صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام:١٢١]»[١]، يعني: الذي نزل عليه شيطان. هذا مع أنه صهره، فأخت المختار زوجة عبدالله، وهي صفية بنت أبي عبيد، هذا مثال في أن الشياطين تنزل على بعض الناس، وتخدعهم بأنها من الله، وأنها وحيٌ، وأن ما تأتي به حق.

وقد مرّ بنا قوله - عليه الصلاة والسلام -: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[٢]، وأنَّ بعض العلماء ذكروا الذين خرجوا منهم فبلغوا سبعة وعشرين، وأن من آخرهم الكذاب الذي خرج في بعض البلاد الهندية وسمى نفسه غلام أحمد القادياني، وتبعه وصدقه وانخدع به خلقٌ كثير، وادّعى أنه نبي. وخلق كثير قبله وصلوا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٣٣): «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) تقدم تخريجه (ص٦١١).

إلى هذا العدد، والبقية لا بدّ أن يأتوا كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وآخرهم الدجال الكذاب الذي يدّعي أنه ربٌّ، ويأتي بشعوذة ومخرقة يجريها الله تعالى على يديه، فتنة للناس، إلا من ثبته الله تعالى وعرّفه بالحق.

وعلى هذا نقول: لو أتى بما سيأتى به الدجال، كما في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه: «**فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عليهم سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ ما كانت ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عليه قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ ليس بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ من أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُول لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ**»، والنحل له يعسوب ـ وهو كبيره ورئيسه الذي إذا صاح بالنحل تبعته ـ يقول: تتبعه كما يتبعُ النحلُ يعسوبها. وهذا من الفتنة، «**ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ**»[1]، فهو يقتل الرجل قطعتين ثم يقول له: قم. فيقوم، ولكن مع ذلك لا يزيده إلا بضيرةً ومعرفة بأنه الدجال الكذاب.

فبهذا نعرف أنه قد يجري على أيدى بعض الدجالين شيءٌ من الشعوذة، وأن ذلك من الشيطان، فالشيطان يموّه على الأعين حتى يُرِيَ بعض الناس أشياء شبه خارقة للعادة، أو تشبه معجزات الأنبياء، فما يفعله بعض السحرة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

من كونهم مثلًا قد يجرون السَّيارة مثلًا بشعرة من الشعر، أو يقف تحت السيارة ويحملها بيده أمام الناس والناس ينظرون، أو تمرّ السيارة عليه بعجلاتها ولا تضره، لا شك أن هذا شعوذة على أعين الناظرين، ولا عبرة لمن أقرّ ذلك.

وقد حدث مثل ذلك في عهد الصحابة، فقد روي أن ساحرًا عند بعض ملوك بني أمية كان يموِّه على الحاضرين، فيقطع رأس الإنسان ثم يعيده، فعمد أحد الصحابة - وهو جندب الخير ﷺ - إلى سيفه واحتضنه وقرّب من ذلك الساحر، فلما وصل إليه ضربه بالسيف حتى قطع رأسه، وقال له أَحْيِ نفسَك إن كنت صادقًا، ثم قال: قال النبي ﷺ: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ»[1]، فهذا جزاؤه حيث موّه على الأعين، ولـمّا استعاذ ذلك الصحابي من الشيطان، وتحصّن بأسماء الله تعالى لم يرد عليه فعل ذلك المشعوذ، ولم يخطر بمعرفته ولم يكتشفه، فهذا مثال أن ما يظهر على أيدي بعضهم من الشعوذة والمخرقة ومن التمويه على الناس، إنما هو من الشياطين التي تظهر أمام الناظرين في صور مختلفة، حتى توهم بأشياء خارجة عن قدرة البشر، ولا حقيقة لها.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والدارقطني (٣/ ١١٤) والحاكم (٤/ ٣٦٠)، والبيهقي (٦/ ١٣٨)، قال الترمذي: «وَالصَّحِيحُ عن جُنْدَبٍ مَوْقُوفٌ، وَالْعَمَلُ على هذا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ من أَصْحَابِ النبي ﷺ وَغَيْرِهِمْ». وقصة قتل الساحر أخرجها عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ١٨١)، وذكرها ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٤٤٦)، وابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٥١٢).

قال الطحاوي:

وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى، بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ.

قال الشارح:

أَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْجِنِّ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]، وَكَذَا سُورَةُ الْجِنِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. قَالَ مُقَاتِلٌ: «لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ رَسُولًا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَبْلَهُ»(١). وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رَسُولٌ، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُرٌ(٣). وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٠]، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ(٤) عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رُسُلًا،

---

(١) انظر: تفسير مقاتل (٣/ ٢٣٠)، وذكره البغوي في تفسيره (٤/ ١٧٥).

(٢) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ٢١٦)، وتفسير البغوي (٢/ ١٣١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨).

(٤) في تفسيره (٨/ ٣٦).

وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَفِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهَا مُحْتَمَلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[الرحمن:٢٢]، وَالْمُرَادُ: مِنْ أَحَدِهِمَا.

وَأَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى كَافَّةِ الْوَرَى، فَقَدْ قَالَ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]، أَيْ: وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الْآيَةَ [يونس:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ [آل عمران:٢٠].

وَقَالَ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٣).

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1]. وَكَوْنُهُ ﷺ مَبْعُوثًا إِلَى النَّاسِ كَافَّةً مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ النَّصَارَى: إِنَّهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً، فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا صَدَّقُوا بِالرِّسَالَةِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَقَدْ قَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَالرَّسُولُ لَا يَكْذِبُ، فَلَزِمَ تَصْدِيقُهُ حَتْمًا، فَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَبَثَّ كُتُبَهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ وَالْمُقَوْقِسِ، وَسَائِرِ مُلُوكِ الْأَطْرَافِ، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ.

قال الشيخ:

في هذا أنه ﷺ أرسل إلى الجن والإنس، ورسالته إلى الجن واضحة من الأدلة، وقد ثبت في الحديث أنه ﷺ ذهب مرة إلى الجن، وقرأ عليهم سورة الرحمن، فكان كلما مرّ بقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣]، قالوا: «لَا بِشَيْءٍ مِن نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ»[2]. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي

---

(١) برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٨٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أو اغْتِيلَ، قال: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بها قَوْمٌ، فلما أَصْبَحْنَا إذا هو جَاءٍ من قِبَلَ حِرَاءٍ، قال: فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فلم نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بها قَوْمٌ، فقال: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ معه، فَقَرَأْتُ عليهم الْقُرْآنَ»، قال: فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فقال: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه، يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ ما يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ»، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ»[1].

وثبت في الصحيحين[2] من حديث ابن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: «انْطَلَقَ النبي ﷺ في طَائِفَةٍ من أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إلى سُوقِ عُكَاظٍ، وقد حِيلَ بين الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُبُ، فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إلى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: ما لكم؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قالوا: ما حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إلا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا ما هذا الذي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نحو تِهَامَةَ إلى النبي ﷺ وهو بِنَخْلَةَ، عَامِدِينَ إلى سُوقِ عُكَاظٍ، وهو يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فلما سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا له، فَقَالُوا: هذا والله الذي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حين

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).

رَجَعُوا إلى قَوْمِهِمْ، فقالوا: يا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١، ٢]، فَأَنْزَلَ الله على نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إليه قَوْلُ الْجِنِّ».

ولا شك أن كل ذلك دالٌّ على أنه ﷺ بُعث إليهم، والأنبياء الذين قبله والرسل كانوا يبعثون إليهم، وليس في الجن رسل إنما هم نذر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فليس في الجن رسل، وإنما فيهم نُذُرٌ يأخذون العلم والرسالة عن الرسل من الإنس فينذرون قومهم، وقد ذكر في سورة الجن أن فيهم أخيارًا وأشرارًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن:١١]، وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، يعني: الجائرون، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[الجن:١٤، ١٥]، فهذا دليل على أن فيهم من الأشقياء والسعداء، والمقربين والمبعدين، والمؤمنين وغير المؤمنين.

وبلا شك أن الرسالة التي بلغها النبي ﷺ فيها أحكام تناسبهم، من كيفية صيامهم وصلاتهم وتناكحهم وغير ذلك من أحكام تخصهم، وهي واضحة فيما بينهم.

أما رسالته ﷺ إلى الإنس فلا شك أنه مرسل إليهم، وأن رسالته عامة وليست خاصة إلى قومه قريش ولا إلى العرب، ولا إلى أهل جزيرة من الجزر،

بل عامَّة إلى كل من على وجه الأرض ممن بلغته دعوته من الإنس، وقد دلّ على ذلك النصوصُ التي فيها خطاب الناس جميعًا، فإن قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١]، الناس: عام لكل إنسيّ، وكذلك: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ [النساء:١]، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج:١]، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات:١٣]، الخطابات بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، تدل على أنه مأمور بأن يبلغ الناس كلهم ما أُنزِل إليه، وهكذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، يخاطب الناس كلهم، ويقول: بأنه رسول الله إليكم جميعًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨]، أي: للناس كلهم، وهكذا الآيات التي ذكرها الشارح، كقوله تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]، وقوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، والعالمون: كلُّ من على وجه الأرض من الخلق من الذين لهم معرفة ولهم إدراك، وهم جنس بني آدم.

والدليل على ذلك أيضًا فعله، وهو أنه ﷺ لم يخص رسالته بقومه ولا بالعربي ولا بأهل الجزيرة.

فإذًا ليست رسالته خاصة بالعرب كما يقول النصارى، فهم لما رأوا

معجزاته، ولما رأوا أنه انتصر وظهر دينه، وتأيّد وتمكن، وعلا على الأديان كلها، وتحقق قول الله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، بُهتوا، ولم يجدوا بدًّا من تصديقه، ولكنهم قالوا: هو رسول وهو صادق، ولكن ليس رسولًا إلينا، إنما هو رسول إلى العرب.

والجواب: كذبتم، لو كان رسولًا إلى العرب لما دعا غيرهم، كيف يقول: إني رسول إلى الناس جميعًا، وهو رسول إلى العرب خاصة؟ فالرسول لا يكذب، ولا يرسل الله كذابًا، أنتم الذين كذبتموه، وزعمتم أنه قال: إني رسول الله إلى الناس جميعًا مع أنه ليس رسولًا إلَّا إلى العرب، فإذا صدقتموه فصدِّقوه في كل شيء، لاتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض، لا تصدقوه ببعض قوله دون بعض.

ثم ذكر الشارح أنه ﷺ كان يبعث كتبه إلى ملوك زمانه، فبعث إلى النجاشي ملك الحبشة التي تُعرف الآن بأثيوبيا، وبعث إلى المقوقس وهو ملك مصر، وكان مُلكه يمتد إلى بعض الدول الأفريقية، ومع ذلك كانوا نصارى أيضًا، وبعث إلى هرقل ملك الروم، وكان في دمشق الشام، وكان يملك الشام وتركيا وما وراءهما، وبعث إلى كسرى ملك الفرس، وكان الفرس إذ ذاك مجوسًا، ويملك العراق وبلاد فارس كلها، وما اتصل بها من وراء النهر، يعني: بلاد المشرق كلها. بعث إليهم جميعًا يدعوهم إلى الإسلام، فدل على أنه مبعوثٌ

إلى كل الناس، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ إلى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ»[1]، يعني: بُعثت إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم. والأحاديث في ذلك كثيرةٌ كما تقدم جانبٌ منها.

فعلى هذا تكون رسالته ﷺ عامة؛ لأنه خاتم الأنبياء، وإذا كان خاتم الأنبياء، لزم أن يكون مرسلًا إلى الناس كلهم؛ لأنه ليس بعده نبيٌّ، فلا يليق أن تُهمل الأمم الأخرى والدول النائية التي في أطراف البلاد، لا يأتيها رسول من الله يبين لها شرائعه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

قال الشارح:

قَوْلُهُ: (وَكَافَّةِ الْوَرَى)، فِي جَرِّ (كَافَّةِ) نَظَرٌ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: لَمْ تُسْتَعْمَلْ كَافَّةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا حَالًا، وَاخْتَلَفُوا فِي إِعْرَابِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ:٢٨]، عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا حَالٌ مِنَ الْكَافِ فِي أَرْسَلْنَاكَ، وَهِيَ اسْمُ فَاعِلٍ، وَالتَّاءُ فِيهَا لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ: إِلَّا كَافًّا لِلنَّاسِ عَنِ الْبَاطِلِ.

وَقِيلَ: هِيَ مَصْدَرُ (كَفَّ)، فَهِيَ بِمَعْنَى كَفًّا، أَيْ: إِلَّا أَنْ تَكُفَّ النَّاسَ كَفًّا، وَوُقُوعُ الْمَصْدَرِ حَالًا كَثِيرٌ.

الثَّانِي: أَنَّهَا حَالٌ مِنَ (النَّاسِ)، وَاعْتُرِضَ بِأَنَّ حَالَ الْمَجْرُورِ لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَأُجِيبَ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ كَثِيرًا فَوَجَبَ قَبُولُهُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَيْ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا لِلنَّاسِ كَافَّةً.

الثَّالِثُ: أَنَّهَا صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: إِرْسَالَةً كَافَّةً. وَاعْتُرِضَ بِمَا تَقَدَّمَ أَنَّهَا لَمْ تُسْتَعْمَلْ إِلَّا حَالًا.

وَقَوْلُهُ: (بِالْحَقِّ وَالْهُدَى وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ)، هَذِهِ أَوْصَافُ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرْعِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْأَدِلَّةِ. وَالضِّيَاءُ: أَكْمَلُ مِنَ النُّورِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس:٥].

قال الشيخ:

كلامه على قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾، قد بينه الرسول ﷺ بقوله: «**وَبُعِثْتُ إلى الناس كَافَّةً**»[١]، والمرادُ عامةً ـ فلا حاجة إلى تلك التقديرات، فكافة بمعنى عامة إلى كل الناس.

وأما كلامه على وصف رسالة النبي ﷺ أنه أرسل بالنور والهدى، لا شك أن هذا وصفٌ مطابق للشريعة التي جاء بها أنها مشتملة على الهدى، ومشتملة على الضياء وعلى النور، وعلى البيان وعلى الحق، وذلك الوصفُ الذي جعلها صالحةً لكل زمان ومكان، وصالحة لكل مخاطب ممن هو من المكلفين، فلا يصلح أن تكون الرسالة مؤقته، كما يقوله بعض أهل هذا الزمان: إن الشرائع إنما تناسب البدائيين، أو أنها تناسب أهل زمان محمدٍ الذي أنزلت عليه، ولا تناسب أهل هذا الزمان الذين تطوّروا وعرفوا، وفهموا وتعلموا كذا وكذا.

بل هذا كذب، فشريعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يمكن أن يدخلها تغيرٌ، ولا يمكن أن يكون فيها شيء من الخلل، وهي تصلح لتطبيقها في هذا الزمان، وفي الأزمنة التي قبله، وفي الأزمنة التي بعده.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٣).